حاضر العالم الإسلامي

وقضاياه المعاصرة

" العاقل من يستعرض ماضيه ويتطلع إلى غده "

د. جميل عبد الله محمد المصري

أستاذ التاريخ الإسلامي بقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

بكلية الشريعة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

الجزء الأول

طبعة معدلة ومنقحة ومزيّدة

مقدمة

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونؤمن به ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين ، وعلى صحابته الأولين من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوه بإحسان الى يوم الدين . . . وبعد :

إن مادة حاضر العالم الإسلامي من أعظم المواد خطرا ، لاتساعها وشمولها ، ولتشابك مشكلات العالم الاسلامي وقضاياه ، واختلاطها ببعضها من جهة وبالمشكلات العالمية وقضاياه من جهة أخرى ، فضلا عن كون هذه المشكلات مرتبطة بجذور ممتدة إلى عصور طويلة ذات ارتباط بجذور المشاكل الغربية الأوربية المعقدة . ويضاف الى ذلك قرب الحوادث المتناولة ، وتعقيداتها ، يجعلان مجهود العرض الذي نقوم به صعبا جدا .

ونحن في زمن تقاربت فيه المسافات واتصلت المجتمعات وتشابكت المصالح لسهولة المواصلات وتوافر وسائل الإعلام من : صحافة ، ومذياع ، وتلفاز ، وخيالة ، واتصالات سلكية ولاسلكية ، وأقمار صناعية . فيحس المسلم بغربة وضياع وتمزق بين : عقيدة يعتنقها ، ويؤمن بها ، وبين واقع مغاير لهذه العقيدة . تتجاذبه العقيدة والواقع ، فيقف على مفترق طرق ، إما أن ينحرف مع الواقع ويتخلى عن عقيدته فيتيه مع التائهين ، أو يختار العزلة والغربة عن واقعه ، فيصبح خطرا على نفسه ، وعلى أمته ، ودينه ، ومجتمعه ، أو أن يدع الأمور تجري على اعنتها مكتفيا بنفسه متخذا موقفا سلبيا تجاه قضايا أمته وقضايا الإنسانية عامة ، بل وينظر إليها نظرة الكراهية والحقد .

ونحن لا نريد للداعية المسلم أن يكون أحد هؤلاء ، فللداعية شروط ينبغي توافرها منها ثقافته ، ومنها علمه ، ومنها لباقته ، ومنها نهجه ، وأهمها إيمانه بدعوته وقضيته التي يدافع عنها ويسعى الى نشرها ، فنريد من الداعية أن يكون مسلما واعيا ويخالط الناس ، ويصبر على أذاهم ، ويؤثر ، يدعو الى دينه بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وأن يكون قدوة حسنة بتطبيقه مبادىء الإسلام على نفسه أولا ، وأن يكون الطبيب البارع المتمكن من طبه العالم بأمراض الناس وأدوائها ، الشفيق على الإنسانية . . . لا تضيره صفعة مريض أو شتيمته أو كراهية رائحته ، يقف على أبواب جهنم يمنع الناس أن يكبوا أنفسهم فيها ، نعم ، نريده كذلك في وقت تكالبت فيه عناصر الشر والفتنة على العالم الإسلامي وعلى الإسلام ، في هجمة شرسة ، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم : " يوشك الأمم أن تداعى عليكم ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قال قائل : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ . قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن .

فقال قائل : وما الوهن ؟

قال : حب الدنيا وكراهية الموت " [1] .

فمادة حاضر العالم الإسلامي تهدف الى : الإسهام في تكوين الداعية المسلم بأن يتعرف على عالمه الإسلامي الكبير ، وقضايا المسلمين وأدوائها ، وعلى ثروات العالم الإسلامي وكيفية استغلالها ، وحمايتها من الأطماع ، واستثمارها وتسخيرها فيما أمر الله من نفع الناس ، وعلى التحديات التي تواجه الحياة الإسلامية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة وكيفية تذليلها . والتعرف على اخوانه في أقطار الأرض ، ومشاركتهم في قضاياهم ، فإن من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم . والتعرف على كيفية تخليص الأمة من التبعية والجهل ، والفاقة ، والمرض ، إذ انه كلما اشتد الوعي ماتت الهزيمة واندحرت سبلها ، وتكسرت الفرقة .

وبعبارة أخرى تسهم مادة حاضر العالم الإسلامي في معرفة مواطن قوة العالم الإسلامي ، للعمل على المحافظة عليها ، وتنميتها ، والسير فيها ، ومعرفة مواطن الضعف للعمل على تنحيتها ، والتغلب عليها ، وازالتها . فيتزود الداعية بثقافة واسعة ، واعية ، تمكنه من السير في الدعوة بثبات ، ووعي ، وإيجابية ، والدعاة الواعون هم مصدر قوة الأمة ، وبهم تتم نهضتها .

والحق أن أول من قام بدراسات في حاضر العالم الإسلامي هم المستشرقون ، طلائع الاستعمار مع المبشرين ، فقد درسوا العالم الإسلامي دراسات مستفيضة ، وعرفوا واقعه ، وأوضاعه ، وعوامل القوة لديه ، وعوامل الضعف ، وكتبوا الى دولهم ، حيث عرضت دراساتهم على خبراء في علم الاجتماع ، والنفس ، والسياسة ، والاقتصاد ، وعلى المخابرات ، وأساتذة الجامعات ، فتم على ضوء ذلك وضع دراسات ، وتوصيات ، تبين طريق التعامل مع أقطار العالم الإسلامي ، بقصد الهيمنة عليه ، وجره الى التبعية السياسية والاقتصادية ، والفكرية ، بإبراز السلبيات ، والعمل على تخفيف بل إزالة الإيجابيات . وهذا الاهتمام هو عكس ما نهدف اليه من دراستنا لهذه المادة الحيوية .

واعترف أنه لا يمكن لباحث واحد أن يفي هذه المادة حقها من البحث ، ولكني بذلت جهدي في سد فراغ وجدته عند الدعاة ، مستمدا العون من الله سبحانه وتعالى ، عسى أن يجد فيه الدعاة الى الله ، وطلبة العلم ، ما يسعفهم وما يعينهم في عملهم الجدي المثمر إن شاء الله .

فقمت بإعطاء لمحات عامة وواضحة (ما أمكن) عن مسلسل الحوادث الهامة ، بعد جولات كثيرة مضنية ، أخذت مني وقتا طويلا وجهدا كبيرا ، في كتب التاريخ ،

---

[1] رواه الإمام أحمد عن ثوبان ، وهو عند أبي داود أيضا عن ثوبان – كتاب الملاحم – الباب الخامس : تداعي الأمم على الإسلام – ج 2 ص 446 . وانظر فقه أبي داود رحمه الله في تخصيص التداعي بالإسلام .

والجغرافيا ، والاجتماع ، والفلسفة ، والاقتصاد ، والسياسة ، وفي الدوريات والمجلات والصحف والنشرات . وحاولت أن لا أترك الفرصة لهواي . فقد أرجعت كل أمر إلى أصله ، تمكن الباحث أو القاريء أن يعود إليه بسهولة ويسر .

فإن وفقت وذلك ما أرجوه ، فهو الفضل من الله ، وإن قصرت فحسبي أنني بذلت جهدي ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

هذا وقد وردتني طلبات كثيرة بإلحاح ، تدعو إلى إعادة طباعة هذا الكتاب (بعد أن تفضلت الجامعة الإسلامية بطبعه الطبعة الأولى) لتعم الفائدة . فأقدم هذه الطبعة الثانية للكتاب بعد أن حرصت على تنقيحه ، وتصحيح أخطائه ، وزيادة ما توفر لدي من معلومات جديدة ، وحذف ما تبين لي عدم جدواه . إذ أن المتغيرات في هذه المادة كثيرة ، وسريعة ، مع العلم أن الثوابت أكثر ، وأجلى وهي التي نحرص على إجلائها ، والتعرف عليها .

والله الهادي الى سواء السبيل

طيبة الطيبة
د. جميل عبد الله المصري
محرم 1409 هـ / 1988 م

الباب الأول

العالم الإسلامي وأهميته

الفصل الأول : الأمة الإسلامية والعالم الإسلامي

الفصل الثاني : أهمية العالم الإسلامي

الفصل الأول
الأمة الإسلامية والعالم الإسلامي

جعل الإسلام من المسلمين أمة خاصة من دون الناس ، أمة متميزة ليست كغيرها من الأمم ، ذات شخصية مختلفة تمام الاختلاف عن الشخصية التي عرفها العالم قبلها من خلال مفهوم التفسيرات المنحرفة الى العنصرية أو التعدد أو عزل الأخلاق عن الشريعة أة العقيدة عن الأخلاق ، وذلك أن نظرة الإسلام المتكاملة للكون والحياة والمجتمع أثرت تأثيرا بعيدا في مفاهيم الحضارة والنظم والمناهج قال تعالى :

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) [2] .

وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذه الأمة بأنها خير الأمم : **(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ)** [3] .

فوضع سبحانه وتعالى بذلك مواصفات هذه الأمة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله . فظل الفكر الإسلامي انطلاقاً من طبيعته ومضمونه القائم على التوحيد الخالص يواجه النظريات ويدلي برأيه فيها ولا يتوقف عن النظر المنصف ولا يتقبل كل شيء ، وهو بسماحه وانفتاحه على الثقافات والفكر العالمي قادر على عملية الأخذ والعطاء على قاعدته ودون أن يخرج عن مقوماته ، وقد حفظ الإسلام من الانهيار والتفكك بقاء القرآن الكريم بعيدا عن كل الأخطار سليما لم يسمه سوء مصداقا لقوله سبحانه :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [4] ، وبقيت السنة النبوية هادية للمسلمين بعد أن أسلمنا إياها أسلافنا نقية تنير للمسلمين الدرب . وكذلك العلماء الذين يهتدون بالقرآن والسنة الذين لم يخل منهم زمن .

وقد تحدد وضع الناس في أمة الإسلام على النحو التالي :

1- إن هذه الأمة تجمع شمل كل المسلمين بلا استثناء ممن عاش داخل العالم الإسلامي أو خارجه .

2- إن هذه الأمة موجودة بالفعل سواء تجمعت أوصالها في دولة واحدة أو في مجموعة من الدول .

---

[2] سورة الأنبياء الآية 92 .

[3] سورة آل عمران الآية 110 .

[4] سورة الحجر الآية 9 .

3- إن هذه الأمة تفتح صدرها لمن لم يكن مسلما ويعيش مرتبطا في المكان ومشاركا في مسؤليات الحياة مع الأغلبية الإسلامية .

وعلى هذا كان وصف الأمة الإسلامية بأمة الوسط :

قال تعالى : **(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)** [5] .

والوسط هو الخيرية في كل شيء والاعتدال في كل شيء ، وعدم الإفراط والتفريط والغلو والتقصير ، وعدم الاقتصار على ناحية والتقصير في ناحية مما فيه خير دين ودنيا .

الروابط التي تجمع أفراد الأمة الإسلامية :

وحد الإسلام بين المسلمين على اختلاف عناصرهم وأجناسهم وبيئاتهم ولغاتهم وألوانهم وأوطانهم ، وأقام هذه الوحدة على أسس بينة وقواعد راسخة لا يتسرب إليها الضعف ولا يتسلل إلى بنيتها التفسخ والانحلال .

قال صلى الله عليه وسلم : " المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضا " [6]

وقد وكل إلى المسلمين رسالة واضحة مشرقة قوية لا يعرف العالم ولن يعرف رسالة أعدل منها ولا أفضل ولا أيمن للبشرية ، هذه الرسالة : الدعوة الى الله وحده وما ينبني على التوحيد من واجبات . فقامت الرابطة بين أبناء الأمة الإسلامية على **أساس العقيدة** الإسلامية أساس الدين الإسلامي الذي هو فطرة الإنسان ففيه :

1- توحيد الإله : الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . فإقرار المسلم بالإله الواحد يعني إفراد العبودية لله وحده ، وتحرير العباد من عبادة العباد الى عبادة الله ، واخراجهم من ظلمات الجهل الى عدل السماء .

2- التوجه نحو كعبة واحدة في الصلاة : فحيثما يكون المسلم يتوجه الى البيت الحرام في مكة ، مما يحقق وحدة الهدف ، ويعود المسلمين الاتجاه الخالص الذي لا تشتته أهداف جانبية ولا تتنازعه غايات دنيوية تزول ، وتنتفي الفوارق والطبقية .

3- وحدة الكتاب – القرآن الكريم : الذي يقوم عليه التشريع وتؤخذ منه الأحكام في مختلف شئون الحياة التعبدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والعسكرية ، مما يحقق وحدة الفكر ووحدة الثقافة ووحدة الاتجاه ، وهي من الأسس الهامة التي لا تقوم لأمة بغيرها قائمة .

---

[5] سورة البقرة الآية 143 .

[6] البخاري – صلاة 88 ، مظالم (5) . مسلم (بر 65) . الترمذي بر 18 / . النسائي زكاة 67 .

4- وحدة الحج الى بيت الله الحرام : والحج مؤتمر اسلامي سنوي عام يوحد بين المسلمين مما دفع بعض المستشرقين إلى أن يقول : [7]

" إن الوحدة الإسلامية إنما هي قائمة على ركنين أساسا ولا ثالث لهما ، الحج الى بيت الله الحرام في مكة المكرمة ، والخلافة . وقد غلب على رأي الكثيرين من رجال الغرب وَهْمٌ في هذا الموضوع ، فهم ما برحوا يخالون الخلافة لا الحج العامل الأكبر والأشد الذي بسببه يتشارك المسلمون ميولا وعواطف تشاركا مؤديا الى اعتزاز الوحدة وازدياد منعتها وامتدادها وانتشارها ، على أن هذا لمن الوهم الصرف ، فالأمر حقا على الضد منه . . فالمقاصد والأغراض السياسية التي ينالها المسلمون على يد الحج الممهد لها السبيل إنما هي معلومة لا تحتاج إلى كبير إيضاح . بل يكفي أن نقول : إنما الحج هو المؤتمر السنوي العام . . . وفي هذا المؤتمر العظيم كانت قلوب قادة اليقظة الإسلامية وأبطالها كمحمد بن عبد الوهاب ومحمد بن السنوسي وجمال الدين الأفغاني تشعر بجلالة الواجب الإسلامي المقدس وتتقد من خطورة المشهد وروع المحفل غيرة على الإسلام والمسلمين " .

فهو يغذي روح الوحدة الإسلامية العامة ، التي تترفع على العصبيات والقوميات ، ومن يحج تشع فيه حماسة دينية لمثل الإسلام العليا ، كما أنه وسيلة لنقل وتبادل العلوم ، والأفكار ، بين المسلمين ، ويفتح عقل المسلم على أساليب أعداء الإسلام ويفضحهم .

5- وحدة اللغة : وهي اللغة العربية التي اختارها الله سبحانه لتكون لغة القرآن الكريم وحث نبيه الناس على تعلمها والتكلم بها لمعرفة أحكام الإسلام وتفهم تشريعاته ، فاللغة العربية ليست للعرب وإنما هي للمسلمين جميعا ، وهي وسيلة التفاهم بين المسلمين ووسيلة التعاون والوعاء الذي يحفظ الإسلام منهجا وينقل تراثه . قال صلى الله عليه وسلم : " وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم ، إنما هي لسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي " [8] وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " تعلموا العربية فإنها من دينكم ، وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم " فمعرفة العربية واجب فإن فهم الكتاب والسنة فرض ، ولا يفهمان إلا بالعربية . وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب [9] " .

وقد حفظ القرآن هذه اللغة وصانها الإسلام ونشرتها دعوة التوحيد بين الأمم في أقطار المعمورة ، ولولا المؤامرات والهجمات الشرسة التي قادها المستعمرون

---

[7] لوثروب ستودوارد في كتابه – حاضر العالم الإسلامي – ج 1 ص 289 . وانظر رأي جب في كتابه وجهة الإسلام ص 69 ، ورأي ك . ك . برج في كتابه عن أندونيسيا ص 161 .

[8] اقتضاء الصراط لابن تيمية ص 169 ، والحديث ضعيف ، لكن معناه ليس ببعيد ، بل هو صحيح من بعض الوجوه كما ذكر ابن تيمية وبينه .

[9] اقتضاء الصراط ص 207 .

والشعوبيون على هذه اللغة لما وجد مع العربية في أقطار شبه القارة الهندية ، واندونيسيا ، وماليزيا ، وأفريقيا ، لغة أخرى تضارعها انتشارا .

6- التاريخ المشترك لأمة الإسلام : الذي ينتج عنه وحدة الآمال والآلام ، ويجعل من المسلمين أمة واحدة يحس كل فرد منهم بإحساس الآخر في السراء والضراء ، فكل مسلم يتجه الى الآخر في مشاركته الوجدانية في مواقع بدر ، والفتح ، وتبوك ، واليرموك ، والقادسية ، وحطين ، وعين جالوت ، وبلاط الشهداء ، ونكبة المسلمين في الأندلس ، وفي فلسطين ، ووضع المسلمين في الاتحاد السوفيتي ، واريتريا ، والفلبين ، وفطاني ، وأفغانستان ، والهند ، وكشمير ، وأثيوبيا ، وغيرها . ولا نعرف بلادا افتخرت بمن فتحها ، واعتزت به ، وجعلته ميلادا لتاريخها طوعا ، غير بلاد الإسلام فمصر اعتزت بعمرو بن العاص ، والشام اعتزت بأبي عبيدة وخالد وغيرهما ، والعراق اعتز بسعد بن أبي وقاص ، وشمال أفريقيا اعتز بعقبة بن نافع وحسان بن النعمان ، وباكستان اعتزت بمحمد بن القاسم . . . وهكذا .

7- وحدة النبوة والرسالة : قال تعالى : **(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)** [10] .

ومن ذلك تنتج وحدة القيم والتقاليد والعادات بين أبناء المسلمين في مختلف أقطارهم ، فأنّى توجهت في أرجاء هذا العالم الإسلامي تجد بين المسلمين قيم صلة الرحم ، وحق الجار ، والحشمة ، والوقار ، ونبذ المنكرات ، وأكل الطيبات ، واعراف الأسرة ، وآداب المعاملات واحدة ، حتى أنك لا تجد غربة أو تنافرا حين يضمك جمع من المسلمين الواعين على الإسلام ولو كانوا من أقطار شتى ، لأن الإسلام وحد قيمهم وتقاليدهم وفق أحكام القرآن الكريم ومفاهيم السنة الشريفة . قال تعالى :

(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [11] .

وقال صلى الله عليه وسلم :

" مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " [12]

هذا ولم يهمل الإسلام غير المسلمين في المجتمع الإسلامي فدعاهم أهل الذمة ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وقد حدد علاقات المسلمين بهم على أسمى ما

---

[10] سورة البقرة الآية 285 .

[11] سورة الأنفال الآية 63 .

[12] متفق عليه . (البخاري – أدب 27 ، مسلم بر 66 / 67) .

عرفت البشرية من علاقات تجاوزت حد الإنصاف إلى آفاق البر والرحمة " يقاتل دونهم ويحميهم ويعينهم " [13] .

وفي ضوء مفهوم الأمة نجد أن الإسلام يقيم من أهله أمة كاملة على أوفق وأكمل ما يكون نظام الأمم .

ومفهوم الأمة الإسلامية أكثر شمولا من مفهوم **العالم الإسلامي** فهو يتسع حتى يشمل المسلمين جميعا في جميع أركان العالم وأقطاره . فالدعوة الإسلامية دعوة عالمية لا تقتصر على شعب معين أو بلاد معينة ، فكل أرض تصلح للإسلام ولدعوته ولمبادئه مهما كانت طبيعتها ومهما كان جنس سكانها ولونهم ولغتهم . قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) [14] .

وأما ما يطلق عليه **العالم الإسلامي** اليوم :

فهو تلك الرقعة من الأرض التي تكاد تكون متصلة ، دونما حواجز ، أو فواصل ، في العالم القديم (آسيا وافريقيا وأوربا) ، من إيريان الغربية شرقا في أندونيسيا ، إلى جزر الرأس الأخضر ، مقابل السنغال ، في المحيط الأطلسي غربا ، ومن جبال الآرال وسيبيريا شمالا ، إلى موزمبيق جنوبا ، فهو على ذلك مفهوم جغرفي يشمل البلدان التي تسكنها أكثرية مسلمة أو كانت تخضع للمسلمين سابقا أو كانت ذات أغلبية مسلمة [15] .

---

[13] انظر الأم للإمام الشافعي ج 4 ص 186 وص 220 .

[14] سورة سبأ الآية 28 .

[15] نظر الإسلام للأرض أي أرض نظرة عالمية ، قال تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [سورة النور : 55] . وقسم الإسلام الأرض الى قسمين :

أ- دار الإسلام : وهي الديار التي تسودها شريعة الإسلام وتقام فيها حدوده ، وإن كان جل أهلها من غير المسلمين .

ب- دار الحرب : وهي الأرض التي تسود فيها شرائع غير شريعة الله ، وإن كان جل أهلها من المسلمين .

والواقع أنه ليس في الدنيا اليوم أرض يحكم فيها الإسلام إلا القليل . وبذلك نضطر الى اللجوء إلى المفهوم الجغرافي – العالم الإسلامي . وعلى كل فإن صفة دار الإسلام لا تنتفي عن أي قطر ، أظلته راية الإسلام . وإن سلب ، أو بغي ، أو حكم بالبدع ، إذ على المسلمين العمل لإعادته إلى دار الإسلام .

وإليك بيان بأسماء بلدان العالم الإسلامي ومساحة كل بلد وعدد سكانه بما فيهم غير المسلمين حسب التقديرات التي تمكنت من الحصول عليها [16] .

أولا : البلدان الإسلامية في افريقية :

	اسم البلد	المساحة بالكم^2	عدد السكان	نسبة المسلمين
1	مصر	1001449	48000000 [17]	% 94
2	السودان	2505813	21000000	%79
3	ليبيا	1759540	2620000	% 100
4	تونس	164150	6500000	% 96
5	الجزائر	2381741	18500000	% 99
6	المغرب	446550	19000000	% 99
7	موريتانيا	1030700	1750000	% 100
8	الصومال	640000	3500000	% 100
9	جيبوتي	22000	200000	% 100
10	السنغال	201000	5085000	% 95
11	جامبيا	11295	600000	% 85
12	غينيا	245857	4700000	% 95
13	غينيا بيساو	36125	500000	% 70
14	مالي	1240710	6308000	% 90
15	بوركينافاسو	274200	6908000	% 64
16	ساحل العاج	322463	7000000	% 60
17	توجو	56000	2472000	% 60
18	داهومي (بنين)	112612	2800000	% 60
19	نيجيريا	923768	66600000	% 65

---

[16] ومعلومات هذه الجداول جمعتها من :

أ- البلدان الإسلامية والأقليات الإسلامية في العالم المعاصر .

ب- الأطلس العام .

ج- العالم الإسلامي وأنشطة رابطته (مع خريطة للعالم الإسلامي 15 من ذي القعدة 1402 هـ . بإدارة المساحة العسكرية – وزارة الدفاع والطيران – المملكة العربية السعودية – الرياض) .

د- المسلمون في العالم لعبد الرحمن زكي .

هـ سكان العالم الإسلامي – محمود شاكر .

و- Journal Institute of Minority Affairs

ز- The Europe year book 1982, 1983

[17] هذا حسب ما إحصاء عام 1405 هـ / 1985 م .

20	الكاميرون المتحدة	475442	8503000	% 60
21	النيجر	1267000	4900000	% 94
22	تشاد	1284000	4200000	% 85
23	الصحراء المغربية	271360	100000	% 100
24	أثيوبيا واريتريا	1221900	31100000 [18]	% 65
25	تنزانيا [19]	1000000	16000000	% 63
26	جزر القمر	2237	350000	% 80
27	غانا	238537	11450000	% 50
28	سيراليون	71740	3474000	% 65
29	موزمبيق	801590	12135000	% 50

ثانيا : البلدان الإسلامية في آسيا :

	اسم البلد	المساحة بالكم^2	عدد السكان	نسبة المسلمين
1	المملكة العربية السعودية	2149690	9520000	% 100
2	اليمن الشمالي	195000	7120000	% 100
3	اليمن الجنوبي	287683	1920000	% 100
4	عمان	272000	1100000	% 100
5	الإمارات العربية	83600	650000	% 100
6	قطر	11300	200000	% 100
7	البحرين	00598	300000	% 100
8	الكويت	17818	1100000	% 100
9	العراق	434724	11510000	% 95
10	الأردن	97740	3120000	% 94
11	فلسطين المحتلة (الضفة الغربية)	27090	4300000 [20] 1500000	% 11 % 85

[18] فيها أرتيريا وعدد سكانها ثلاثة ملايين 80 % مسلمون ، وأوجادين وسكانها 6,250 نسمة 80 % مسلمون ، وأما أثيوبيا ففيها 210728300 منهم مسلمون 38 % .

[19] جاء في كتاب (development and Reilgion in Tanzania) الصادر عن اتحاد الكنائس العالمي أن نسبة المسلمين في تنزانيا 30 % ، والنصارى 32 % ، وديانات أخرى محلية 37 % ، و 1 % ديانات دخيلة أخرى . وذلك في محاولات لتقليل نسبة المسلمين . وهذا شأن المبشرين (المخربين) في جميع بلاد الإسلام .

[20] منهم 2,9 مليون يهودي استطونها كغزاة . في جين يعيش حوالي 4 ملايين مسلم من أهلها مشردين خارج فلسطين . انظر كتاب : إسرائيل دولة المهجرين لناصر موسى زيد الكيلاني .

	(قطاع غزة)			
12	لبنان	10400	3500000	% 60 [21]
13	سوريا	185180	8000000	% 88
14	تركيا	779452	50000000	% 98
15	إيران	1648000	34000000	% 96
16	أفغانستان	647500	19280000	% 99
17	باكستان	803943	70400000	% 95
18	كشمير	217935	9000000	% 95
19	بنغلاديش	142776	90260000	% 95
20	جزر المالديف	51780	140000	% 100
12	ماليزيا	329747	11920000	% 57
22	بروناي	5770	200000	% 76
23	أندونيسيا	2027087	140000000	% 94
24	أوزبكستان	447000	13695000	% 88
25	أذربيجان السوفيتية	86000	5700000	% 90
26	طاجيكستان	63700	3385000	% 85
27	تركمانستان	488100	2495000	% 66
28	قازاخستان	2717300	14170000	% 66
29	قيرغيزيا	198500	3295000	% 60
30	داغستان	50300	1500000	% 80
31	قفقاسيا	314300	15000000	% 75
32	تركستان الشرقية (سينكيانغ)	1710745	12000000	% 70
33	كانسو	367000	13000000 [22]	
34	نينج هسيا	66500	2000000 [23]	
35	يونان	437000	7000000 [24]	

ثالثا : المسلمون في أوربا :

---

[21] The Gospel and Islam p268

[22] هذا عدد المسلمين فقط ، ويزيد العدد كثيرا عن هذا التقدير إذ يخفي المسلمون هناك أنفسهم نتيجة الضغط الشيوعي في الصين على المسلمين .

[23] هذا عدد المسلمين فقط ، ويزيد العدد كثيرا عن هذا التقدير إذ يخفي المسلمون هناك أنفسهم نتيجة الضغط الشيوعي في الصين على المسلمين .

[24] هذا عدد المسلمين فقط ، ويزيد العدد كثيرا عن هذا التقدير إذ يخفي المسلمون هناك أنفسهم نتيجة الضغط الشيوعي في الصين على المسلمين .

	اسم البلد	المساحة بالكم^2	عدد السكان	نسبة المسلمين
1	ألبانيا	28748	2500000	% 79
2	تركيا أوربا	23764	2500000	% 95
3	تترستان	68000	3500000	% 65
4	بشكيريا	143600	4000000 [25]	% 60
5	الجوفاش (تشوفاشيا)	18300	1500000	% 60
6	موردوف	25000	1250000	% 55
7	إدمورت	42000	1000000	% 59
8	ماري	23800	750000	% 79
9	القرم	26150	5000000 [26]	
10	أورنبرج		2000000	% 50
11	شمال القوقاز		3437000 [27]	% 69،8

ومن هذا يتضح أن مساحة العالم الإسلامي تزيد على 37 مليون كيلومتر مربع ، ويعيش فيه أكثر من 850 مليون نسمة ، باستثناء الأقاليم التي انحسر عنها المدُّ الإسلامي ، في الأندلس ، وصقلية ، والبلقان ، والهند . ورغم جميع المعوقات فما زال الإسلام في توسع دائم ، وخصوصا ، في منطقتين هامتين من مناطق العالم : هما : قلب أفريقيا وجنوبها ، وجنوب شرق آسيا [28] ، بالإضافة الى أنه يشق طريقه الى العالم الجديد – أمريكا الشمالية والجنوبية ، وأستراليا – والإسلام هو دين المستقبل ، وقارة أفريقية بشكل خاص هي قارة المستقبل بالنسبة للإسلام ، ولا يخلو قطر من أقطار العالم من مسلمين . وهناك أقطار تضم أقليات إسلامية كبيرة .

وهذه الأقطار التي تضم أقليات إسلامية :

أولا : في آسيا :

	اسم البلد	عدد السكان	عدد المسلمين	نسبة المسلمين
1	الهند	687000000	100000000	% 15
2	قبرص	750000	175000	% 27
3	أرمينيا	3000000	376000	% 11
4	جورجيا	5000000	855000	% 15

[25] والمعلومات عنهم قليلة جدا في ظل الحكم الشيوعي الروسي .

[26] هذا عدد المسلمين وتعرض معظمهم للإبادة والتهجير في ظل الحكم الروسي الشيوعي .

[27] وتشمل : تشاشان انجوشيا ، وكباردیا بلكاريا ، وكرتشاي الشركسية والأديجا وأوستينا الشمالية .

[28] فقد فشلت جهود المبشرين رغم امكانياتهم الهائلة وتكثيف جهودهم في آسيا وأفريقيا ، انظر : المسلمون ص 1 ، ص 4 (العدد 35 / السبت 21 محرم 1406 هـ / 5 أكتوبر 1985) .

	(بلاد الكرج)			
5	سيلان	14850000	1485000	% 10
6	بورما	32000000	3000000	% 10 [29]
7	تايلاند	47173000	10000000	% 25 [30]
8	الفيلبين	48400000	8000000	% 22 [31]
9	الصين الشعبية	950000000	75000000	% 8 [32]
10	سنغافورة	2362700	350000	% 15
11	كمبوديا (كمبوتشيا)	5746141	700000	% 13 [33]
12	التبت	2000000	200000	% 10

ثانيا : في أفريقية :

	القطر	**عدد السكان**	**عدد المسلمين**	**نسبة المسلمين**
1	كينيا	15327000	5364400	% 35
2	ليبريا	178000	596300	% 33
3	اوغندا	13689200	4106760	% 30
4	ملاجاش	8742000	2185500	% 25
5	موريشيوس	926500	185300	% 20
6	مالاوي	6123000	1836900	% 30
7	زامبيا	5679800	1000000	% 15
8	زمبابوي	7600000	1650000	% 20
9	جمهورية أفريقية الوسطى	2221000	666380	% 30
10	الكنغو (برازفيل)	1550800	322500	% 20،8
11	زائير	27869000	2500000	% 10
12	بوروندي	4111300	1027800	% 25
13	الجابون	1027500	462300	% 45
14	غينيا الاستوائية	300000	40000	% 13,3
15	انجولا	6300000	1600000	% 25

---

[29] وفيها إقليم أراكان الإسلامي .

[30] وفيها إقليم فطاني الإسلامي الذي يبلغ عدد سكانه أكثر من ثلاثة ملايين يجاهدون ضد الهجمة الصليبية البوذية .

[31] وفيها إقليم مورو الإسلامي الذي يجاهد لنيل حريته أمام الهجمة الصليبية الفلبينية .

[32] باستثناء الأقاليم الإسلامية كانسو ويونان وتركستان ونينغ هسيا الخاضعة للصين .

[33] انخفض هذا العدد في ظل الحكم الشيوعي إلى 200 ألفا فقط .

ثالثا : في أوربا [34] :

	القطر	عدد المسلمين	نسبة المسلمين
1	**فرنسا [35]**	1100000	% 2
2	**بريطانيا [36]**	1120000	% 2
3	**يوغسلافيا**	4500000	% 20،1
4	**بلغاريا**	1500000	% 16،8
5	**بلجيكا**	100000	% 1
6	**المانيا الغربية**	1220000	% 2
7	**ايطاليا**	590000	% 1
8	**بولندة**	400000	% 1
9	**شمال غرب أوربا [37]**	65500	% 0،29
10	**اليونان**	220000	% 2,5
11	**رومانيا**	250000	% 1
12	**مالطة**	45000	% 11

رابعا : في العالم الجديد :

	القطر	عدد السكان	عدد المسلمين	نسبة المسلمين

---

[34] انظر المسلمون العدد 186 / 14 محرم 1409 هـ / 26 أغسطس 1988 م .

[35] فقد نشرت جريدة لوموند الباريسية في عددها الصادر 2 / 4 / 1985 م مقالا بعنوان في فرنسا ألوف المساجد ، وألف العمال المسلمون الأتراك في بوردو وضواحيها في أوائل مارس عام 1985 م جمعية إسلامية ، واستأجروا مكانا اتخذوه مسجدا لصلاتهم ، ويعلمون فيه أبناءهم القرآن الكريم ، والدين الإسلامي . (أخبار العالم الإسلامي الاثنين 6 المحرم 1406 هـ)

[36] وأما في بريطانيا فيوجد عدد كبير من المدارس الإسلامية ويطالب المسلمون باستقلال مدارسهم الإسلامية هناك . (المسلمون العدد 37 ص 5)

وفي أسبانيا انطلق صوت (الله أكبر) مرة أخرى بعد 500 عام من خروج المسلمين من الأندلس . فتقرر بناء مسجد في مدريد بعد زيارة الملك فهد بن عبد العزيز لمدريد في فبراير عام 1985 م ، ويكون تحت إشراف رابطة العالم الإسلامي . (المسلمون العدد 43 ص 1) .

[37] الدانمرك والنرويج والسويد وفنلندا .

1	**أمريكا الشمالية [38]**	345000000	5000000	% 1,5
2	**أمريكا الجنوبية [39]**	230000000	500000	% .,5
3	**أوقيانوسيا (استراليا) [40]**	1407200000	280000	% .,5

وبذلك يزيد عدد الأقليات الإسلامية على 250 مليون نسمة ، فيصل عدد المسلمين إلى أكثر من مليار نسمة في العالم بأجمعه [41] .

---

[38] ويبلغ عدد المسلمين على أقل تقدير في الولايات المتحدة وحدها أربعة ملايين مسلم . وتبلغ عدد مدارسهم الإسلامية عام 1405 هـ / 1985 م أربعين مدرسة تعمل بنظام الدوام الكامل . (الشرق الأوسط العدد 2465 / الأربعاء 12 ذو الحجة 1405 هـ / 28 / 8 / 1985 م .

في حين ذكر لويس فرخان زعيم المسلمين هناك أن عددهم تجاوز 30 مليون نسمة ، وطالب بتكوين أمة خاصة بالمسلمين السود في أمريكا لحمايتهم من الاضطهاد . (المسلمون العدد 5 السبت 18 جمادى الآخرة 1405 هـ / 5 مارس آذار 1985 م) ، وقد أخذت تظهر للمسلمين آثار هامة إقتصادية وسياسية ، وأخذ اليهود يخشون هذا التأثير فوصف عمدة نيويورك اليهودي (ادوارد كوتش) زعيم المسلمين لويس فرخان بالنازية أعداء اليهود (المسلمون العدد 41 ص 2) .

وفي كندا بلغ عدد المسلمين 150 ألفا معظمهم من الجاليات من البلدان الإسلامية (المسلمون العدد 175 ص 11)

[39] عقد المؤتمر الأول لمستقبل الدعوة الإسلامية في أمريكا الجنوبية – برازيليا – عام 1406 هـ / 1985 م برعاية رابطة العالم الإسلامي ، حيث بحث المشكلات التي تعترض جهود الدعوة والدعاة في المنطقة ، ودرس مستقبلها لوضع الأسس الثابتة لنشاطها وانتشارها وإيجاد سبل التنسيق والتعاون بين الجمعيات والمراكز والمؤسسات الإسلامية العاملة في حقل الدعوة ، وبناء قنوات الاتصال بين مسلمي أمريكا الجنوبية ومسلمي العالم . (أخبار العالم الإسلامي الاثنين 16 محرم 1406 هـ / 30 سبتمبر 1985 م) ، المسلمون العدد 38 ص 6 – 7 ، المسلمون العدد 37)

[40] دخلها الإسلام عام 1850 م على يد الأفغان الذين استقدموا مع الإبل المستخدمة في النقل والكشوف الجغرافية ، فأسسوا العديد من المصليات عبر طرق القوافل التي سلكوها ، كما بلغ عدد المساجد عشرة . ثم دخلها الإسلام من رافد آخر عن طريق هجرة المسلمين من أقطار عديدة مثل (غينيا الجديدة ، أندونيسيا ، باكستان ، الهند ، تركيا ، لبنان ، قبرص ، ألبانيا ، ويوغسلافيا) إلى أستراليا . وقد بدأت هذه الهجرة عام 1334 هـ . فازداد عدد المسلمين .

ويبذل جهد كبير للعناية بالمسلمين هناك منذ أن قدم الملك خالد بن عبد العزيز مليون دولار مساعدة منه للمسلمين باستراليا لبناء المدارس . كما قدمت دول الخليج مساعدات مادية وثقافية جيدة ، (جريدة المدينة – الأحد – رجب 1401 هـ) كما أسهمت المملكة العربية السعودية في إنشاء 45 مركزا إسلاميا عام 1406 هـ . والحكومة الاسترالية لا تعوق الدعوة الإسلامية ، ولكن اليهود وهم يسيطرون كليا على دور الصحف وجميع وسائل الإعلام ورأس المال ، يقفون في وجه الدعوة . (المسلمون العدد 142 / 1 ربيع الأول 1406 هـ / 23 نوفمبر 1985 م) .

الفصل الثاني
أهمية العالم الإسلامي [42]

يتمتع العالم الإسلامي بميزات متعددة أكسبته أهمية كبيرة ، كما جعلته موطن الصراع بين القوى العالمية المختلفة ، ومن هذه المميزات :

أولا : موقعه الاستراتيجي :

فهو يشغل قلب العالم القديم (آسيا ، وافريقيا ، وأوربا) ويمتد على مسافة تقدر بنحو 20 ألف كم من الشرق الى الغرب ، (من ايريانا في أندونيسيا إلى جزر الرأس الأخضر مقابل السنغال في المحيط الأطلسي) . كما يبلغ امتداده من الشمال إلى

---

[41] وتواجه الأقليات الإسلامية أربع دوائر للخطر هي : الصليبية : التي تمارس لونين من الغزو العسكري والفكري ، كما يحدث في الفلبين وأوغندا ، ودول الهند الصينية والافريقية .

والصهيونية : وهي سرطان الأمة الإسلامية ، وتحاول جاهدة تحجيم الوضع الإسلامي أيا كان حجمه في مختلف أجزاء العالم .

والشيوعية : التي تحارب الإسلام بعنف وتعمل على إبادته كما في الاتحاد السوفيتي ، والصين الشعبية ، ودول شرق أوربا ، والدول الأخرى التي اتخذت الماركسية واللينينية منهجا لها .

وأخيرا الهندوكية والبوذية : التي تمارس أعمالها بتشجيع من الدوائر الثلاث السابقة على مسلمي الهند وبورما ودول جنوب شرق آسيا .

وقد بدأ الاهتمام الرسمي بالأقليات الإسلامية عام 1350 هـ / 1931 م حين رفع المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القدس صوته احتجاجا على اضطهاد المسلمين في الاتحاد السوفيتي ، ثم نداء التضامن الذي وجهه الملك فيصل بن عبد العزيز عام 1392 هـ / 1972 م . وبدأت تأخذ مكانتها في المؤتمرات الإسلامية الدولية – مؤتمر العالم الإسلامي – ومؤتمرات وزراء خارجية الدول الإسلامية ، وجهود رابطة العالم الإسلامي ، ومعهد شئون الأقليات المسلمة في جامعة الملك عبد العزيز بجدة وإذاعة نداء الإسلام في مكة . (الأقليات الإسلامية في آسيا واستراليا – سيد عبد المجيد ص 9) .

[42] رجعت في هذا الفصل إلى الكتب التالية بالإضافة الى التي ذكرت في الحواشي :

أ– البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر . د. محمد السيد غلاب . وآخرون .

ب– اقتصاديات العالم الإسلامي . لمحمود شاكر .

ج– جغرافية الشعوب الإسلامية . د. يسري عبد الرازق الجوهري .

د– جغرافية العالم الإسلامي . د. صلاح الدين على الشامي وزميله .

هـ– جغرافية العالم الإسلامي . محمود طه أبو العلا .

و– العالم الإسلامي المعاصر . جمال حمدان .

ز– المسلمون تحت السيطرة الشيوعية . محمود شاكر .

ع– المسلمون تحت السيطرة الرأسمالية . محمود شاكر .

الجنوب أكثر من سبعة آلاف كيلو مترا ، من جبال الآرال شمالا إلى موزمبيق جنوبا . فيشرف بذلك على الأذرع المائية من البحار والمحيطات ويتحكم في منافذها الهامة .

فالبحار الهامة التي يشرف عليها العالم الإسلامي هي :

1- البحر الأبيض المتوسط : وهو من أهم بحار العالم من حيث القيمة التاريخية والتجارية ، وتشغل أرض الإسلام ساحله الجنوبي وساحله الشرقي وبعض سواحله الشمالية – إلبانيا وآسيا الصغرى – وكان في العصور الوسطى بحيرة إسلامية ، وازدادت أهميته في العصور الحديثة بعد شق قناة السويس وبعد انتشار المواصلات الجوية ، حيث أصبح طريقا إجباريا للطيران التجاري الجديد .

2- البحر الأحمر : وهو بحر إسلامي ، يمتلك المسلمون سواحله كلها ، وقد ازدادت أهميته بعد اتصاله بالبحر الأبيض المتوسط بقناة السويس . فأصبح أخطر طرق المواصلات البحرية في العالم ، باعتباره حامل البترول ومعبر التجارة الأساسية ومجال تدفق القوة العسكرية ما بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والمحيط الأطلسي وبين المحيط الهندي والمحيط الهادي [43] .

ويبلغ طوله 3384 كم ومتوسط عرضه 240 كم ، ويقترب عند بدايته في الجنوب حيث مضيق باب المندب فلا يتجاوز الفاصل المائي 33 كم مما يسهل العبور بين جنوب غرب آسيا وشرق افريقيا [44] .

3- بحر العرب : الذي يمتد من مضيق باب المندب الى الهند ، ويمتلك المسلمون سواحله جميعها .

4- الخليج العربي : وهو بحيرة إسلامية . تشرف عليه سواحل شبه الجزيرة العربية الشرقية وإيران والعراق .

5- البحر الأسود : وهو كذلك بحيرة إسلامية قبل أن يمتد الروس إلى بقاعه وسواحله الشمالية . بموجب منعاهدة كوجك قينارجي عام 1774 م ، حيث أصبح لهم منفذ مباشر عليه . وحصلوا على حق المرور بسفنهم في المضائق [45] .

6- بحر البنغال : وتقع عليه بنغلاديش ، وإقليم أراكان الإسلامي في بورما .

7- بحر الصين الجنوبي : ويطل عليه العالم الإسلامي من جهة ماليزيا الشرقية ، وبروني ، وبورنيو الاندونيسية ، ومورو في جنوب الفلبين .

---

[43] صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي . ص 76 .

[44] الجغرافية التاريخية لحوض البحر الأحمر ص 9 . أمين عبد الله .

[45] النعيمي ص 61 .

وأما المحيطات الهامة فهي :

1- المحيط الأطلسي : ويمتلك المسلمون معظم سواحل إفريقيا الغربية المطلة على هذا المحيط من طنجة شمالا حتى خليج بيافرا جنوبا .

2- المحيط الهندي : ويمتلك المسلمون قسطا كبيرا من ساحل افريقيا الشرقية (الصومال وتنزانيا) المطلة على هذا المحيط ، كما يمتلكون شواطيء آسيا الجنوبية من باب المندب ، إلى كراتشي (بحر العرب) ، وشواطيء ماليزيا ، واندونيسيا .

3- المحيط الهادي : ويطل عليه العالم الإسلامي من خلال بعض جزر اندونيسيا والفلبين .

وأما أهم المنافذ المائية التي يتحكم فيها العالم الإسلامي فهي :

1- مضيق جبل طارق : ويتحكم في اتصال المحيط الأطلسي بالبحر الأبيض المتوسط .

2- مضيق بنزرت : الذي يحكم اتصال حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي بحوضه الشرقي .

3- مضيق الدردنيل والبوسفور : وبينهما بحر مرمرة ، ويحكمان اتصال البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأسود .

4- قناة السويس : وهي من أهم المنافذ المائية الاصطناعية في العالم ، وتحكم اتصال البحر المتوسط بالبحر الأحمر .

5- مضيق باب المندب وخليج عدن : ويحكمان اتصال البحر الأحمر ببحر العرب والمحيط الهندي .

ومضيق باب المندب (أو بوابة الدموع) لا يزيد اتساعه عن (33 كم) تقسمه جزيرة (ميون) أو (بريم) إلى قسمين ، ضيق من جهة الشرق (3 كم فقط) والباقي من جهة الغرب [46] .

6- مضيق هرمز وخليج عمان : ويحكمان اتصال الخليج العربي بالمحيط الهندي .

7- مضيق ملقا وسنغافورة : ويحكمان اتصال المحيط الهندي ببحر الصين الجنوبي والمحيط الهادي .

---

[46] صراع القوى العظمى ص 80 .

كــل ذلــك اكسـب العـالم الإسـلامي أهميـة اسـتراتيجية وعسـكرية لهـا خطورتهـا فـي ميـزان القـوى العالميـة ، وهـذا يفسـر لنـا الاضـطرابات والخلافـات الحـادة بـين الـدول ذات النفـوذ علـى العـالم الإسـلامي ، فهـي تعمـل علـى ابقائـه مضـطربا وتعمـل علـى إثـارة المشـاكل حتـى يبقـى ممزقـا يسـهل الـتحكم فيـه ، وبـذلك نفسـر الأسـباب التـي جعلـت الـدول الكبـرى تثيـر النزاعـات بـين أقطـار المغـرب العربـي ، ومشـكلة تشـاد ، وجنـوب السـودان ، وقضـايا المسـلمين فـي اثيوبيـا واريتريـا والصـومال ، والنـزاع بـين الـيمن الشـمالي والجنـوبي ، والحـرب العراقيـة الإيرانيـة وامتـداد آثارهـا وأزمـة لبنـان ، وزرع اسـرائيل فـي فلسـطين ، والنـزاع بـين اندونيسـيا وماليزيـا ، وانفصـال بـنغلاديش عـن باكسـتان ، وغـزو افغانسـتان . إذ يحـاول المعسـكران الشـيوعي والغربـي علـى منـع الوحـدة والتعـاون بـين أجـزاء العـالم الإسـلامي بـأي ثمـن ، وهـذا مـا يتفـق عليـه المعسـكران وإبقـاء المنطقـة منطقـة صـراع علـى النفـوذ وقودهـا أهلهـا وامكانياتهـا الهائلـة التـي تـذهب هـدرا ولمصـلحة الغـرب أو الشـرق ومصانعهما ! .

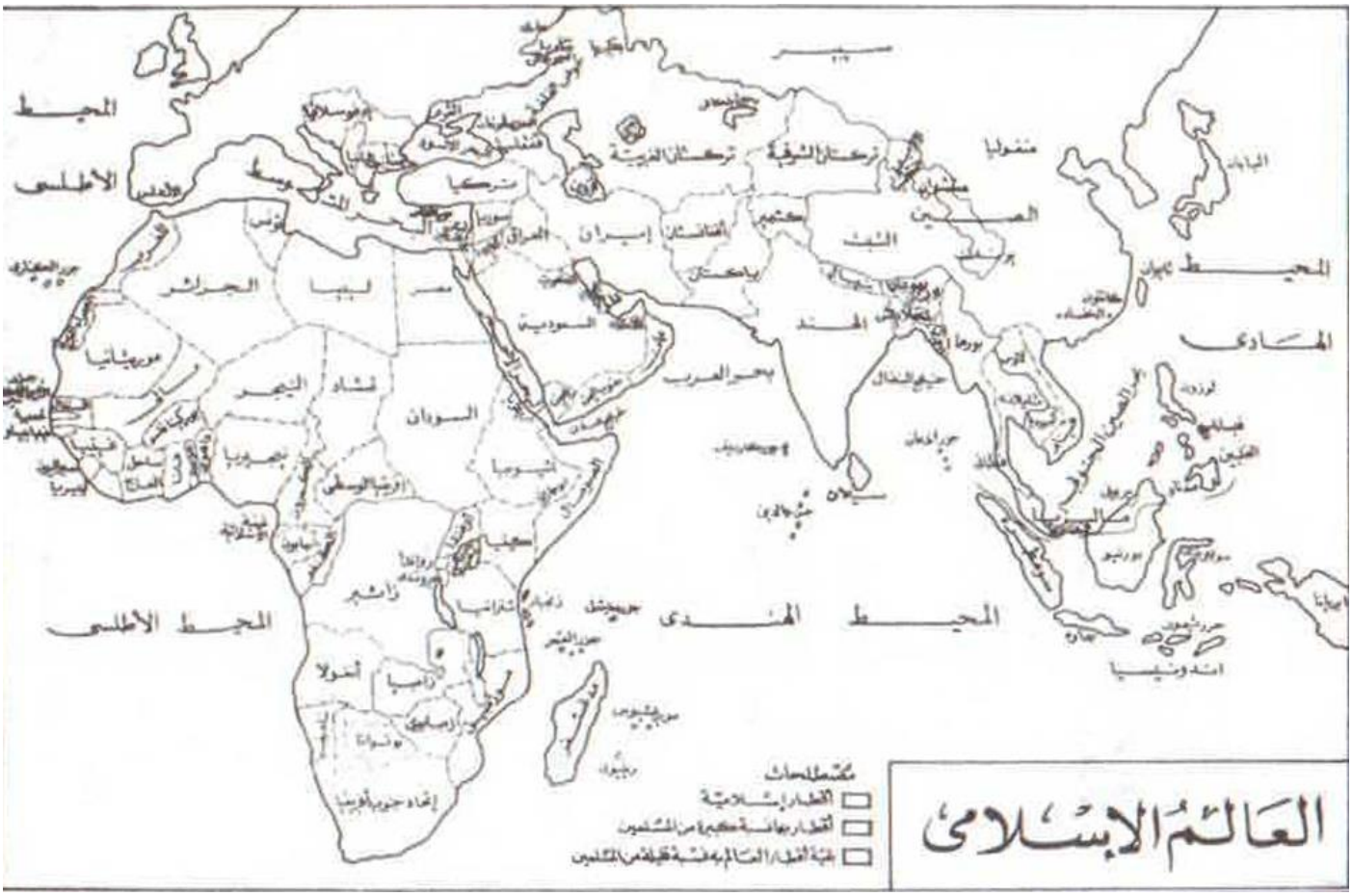

ثانيا : وفرة الثروات في العالم الإسلامي وتنوعها :

يمتاز العالم الإسلامي بأهميته الاقتصادية بما حباه الله من ثروات متنوعة زراعية ومعدنية وحيوانية وهذه فكرة موجزة عن هذه الثروات :

1- الثروات الزراعية :

يحوي العالم الإسلامي أراضي زراعية واسعة ، وتجري فيه كثير من الأنهار الهامة منها : نهر النيل والنيجر والملوية وامودايا (جيحون) والعاصي والليطاني والأردن في آسيا . بالإضافة الى مياه العالم الإسلامي الجوفية الكثيرة .

ولاتساع العالم الإسلامي يتنوع مناخه ، الأمر الذي يؤدي الى تنوع الثروات الزراعية ، والذي يؤدي بدوره الى التكامل الزراعي الذي لا يتوفر لأي عالم غير عالم الإسلام . وهذا بدوره يؤدي الى الاكتفاء الذاتي .

ومن الممكن إجمال الأقاليم المناخية الإسلامية فيما يلي :

أ- **المناخ الاستوائي** : حار ماطر طوال العام ، غاباته كثيفة ، ويسود في الملايو وأكثر الجزر الأندونيسية وجنوب السودان .

ب- **المناخ الموسمي** : حار ماطر صيفا ، وغاباته كثيفة ، ويسود في بنغلاديش ، واليمن ، وعمان ، ونيجيريا ، وساحل خليج غينية ، وهضبة الحبشة .

ج- **المناخ السوداني** : حار ، أمطاره صيفية وأقل من أمطار المناخ الموسمي وتنمو فيه الأعشاب الطويلة – السفانا – التي تصلح كمراعي . يسود في السودان ، وتشاد ، والنيجر ، ومالي ، والسنغال .

د- **المناخ المعتدل الدافيء** : (مناخ البحر الأبيض المتوسط) ويسود على سواحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبية ، والشرقية ، والشمالية .

5- المناخ القاري : وهو إما صحراوي حار في الصحراء الافريقية الكبرى ، وشبه جزيرة العرب ، وجنوب إيران ، وجنوب باكستان ، وصحراء ثار في الهند . أو صحراوي بارد في هضبة إيران ، وهضبة الأناضول ، والتركستان .

ومن الغلات الزراعية الهامة في العالم الإسلامي :

1- الأرز : في ماليزيا ، وبنغلاديش ، وباكستان ، ومصر ، واندونيسيا .

2- القمح : في إيران ، وافغانستان ، وتركيا ، وباكستان ، والشام ، ومصر ، والعراق ، وأقطار المغرب العربي . وقدمت المملكة العربية السعودية كثيرا من الدعم للمزارعين حتى أوشكت أن تصل الى الاكتفاء الذاتي في انتاجه بل وتمد غيرها من الأقطار الإسلامية .

3- الخضـــروات والفواكـــه : فـــي اقلـــيم البحـــر الأبـــيض المتوســـط . والمـــوز فـــي الصـــومال ، وافريقيـــة الغربيـــة ، والحمضـــيات فـــي تركيـــا ، وشـــمال افريقيـــا ، وبـــلاد الشـــام وخاصة فلسطين ، ونخيل التمر ، في المناطق الصحراوية .

4- القطن : وينتج العالم الإسلامي أنواعه المختلفة :

طويل التيلة : في مصر والسودان .

ومتوسط التيلة : في تركيا ، وباكستان ، وأفغانستان ، وإيران .

وقصير التيلة : في المغرب العربي ، وباكستان .

ويـزرع القطـن فـي الجمهوريـات الإسـلامية فـي الاتحـاد السـوفيتي فـي إقلـيم تركسـتان فـي وادي سـرداريا ، وأمودايـا ، وفـي أذربيجـان ، وداغسـتان غربـي بحـر قـزوين ، وتنـتج هذه المنطقة لوحدها أكثر من إنتاج دول العالم الإسلامي مجتمعة .

ويصـل إنتـاج العـالم الإسـلامي إلـى 40 % مـن الانتـاج العـالمي للقطـن . وتسـتغل بذور القطن في صناعة زيت القطن .

5- الحبـــوب الزيتيـــة : لصـناعة الزيـوت النباتيـة كالسمسـم فـي مصـر ، والسـودان ، وإندونيسيا ، وتركيا ، والفول السوداني في السودان ، ونيجيريا .

6- الأشـــجار الزيتيـــة : كزيـت النخيـل ، وجـوز الهنـد ، فـي اندونيسـيا ، وماليزيـا ، وبنغلاديش ، والزيتون في اقليم البحر الأبيض المتوسط .

7- قصب السكر : في باكستان وإندونيسيا وبنغلاديش ومصر .

8- بنجر السكر : في تركيا وسوريا وإيران وأفغانستان .

9- المطـــاط : مـن محاصـيل الأشـجار الغابيـة فـي الاقلـيم المـداري وتنـتج نيجيريـا 72 % من الانتاج العالمي . كما تنتجه كل من إندونيسيا والملايو .

1- الغـــلات العلفيـــة : كالـذرة ، والشـعير ، والبرسـيم ، والشـوفان ، فـي كثيـر مـن البلدان الإسلامية التي تربي الأبقار .

2- الثروات الحيوانية :

في العالم الإسلامي مراعي طبيعية واسعة :

أ- **الســفانا** : وهــي الحشـائش التــي تتخللهـا الأشـجار وتوجـد علـى نطـاق ضـيق فـي بعـض الأجـزاء الغربيـة مـن باكسـتان ، والأجـزاء الشـرقية مـن جزيـرة جـاوة ، وبعـض جـزر اندونيسيا الشرقية ، والسودان ، ومالي ، وتشاد ، وشمال شرق نيجيريا .

ب- **الأســتبس** : وهــي الســهوب ذات الحشـائش الخاليــة مــن الأشــجار وتوجـد فــي مــالي ، وموريتانيــا ، والنيجــر ، ووســط الســودان ، والصــومال ، والجزائــر ، والمغــرب ، والتركستان ، وهضبة الأناضول ، وبعض أجزاء هضبة إيران .

ج- **الكــلأ الصــحراوي** : وهــي الأعشــاب الشــوكية والشــجيرات القصــيرة ، وتوجـد فــي الصــحراء الكبـرى الافريقيــة ، والصــومال ، وشــبه جزيــرة العــرب ، وهضــبة إيــران ، وجنــوب تركستان .

ولوجـود مثـل هـذه المراعـي تنتشـر فـي العـالم الإسـلامي تربيـة الإبـل ، والمـاعز ، فـي الصــحراء العربيــة ، والخيــول ، والأغنــام ، والجمــل ذو الســنامين ، واليــاك (وهــو حيــوان يشــبه البلقــر) فــي تركســتان . والإبــل ، والبقــر ، والمــاعز ، والأغنــام ، فــي أفغانســتان وإيران .

والخيـل ، والبقـر ، والمـاعز ، مـن نـوع الأنجـورا المشـهور بشـعره الجيـد فـي تركيـا . والإبــل ، والأغنــام ، والمــاعز فــي الصــحراء الأفريقيــة . وهنــاك تجربــة ناجحــة للمملكــة العربيــة الســعودية رائــدة فــي اســتغلال الصــحارى وتحويلهــا إلــى جنــات تربــي فيهــا أنــواع مختلفة من الحيوانات .

3- الثروة المائية وصيد البحر :

يطـل العـالم الإسـلامي بجبهـات طويلـة علـى مسـطحات المـاء لمجموعـة مـن البحـار التــي تتوغــل فــي جســم اليــابس ، علــى شــكل خلجــان ، وأذرع كبيــرة كمــا بينــا ، كمــا أنــه يحـوي علـى أنهـار كبيـرة ، وبحيـرات ، وبحـار داخليـة ، كبحـر قـزوين ، كـل ذلـك جعـل العـالم الإسـلامي غنيـا بـالثروة المائيـة ، وصـيد البحـر ، ولكـن اسـتغلاله لهـذه الثـروات قليـل في الوقت الحاضر .

ومن أهم هذه الثروات :

أ- **الأســماك** : وتســتغلها اندونيســيا ، وباكســتان ، وتركيــا ، وماليزيــا ، ومصــر ، والمملكة العربية السعودية ، ومملكة المغرب [47] .

---

[47] ذكرت دراسة عملية أجراها معهد علوم البحار والمصايد المصري بالأكاديمية المصرية للبحث العلمي والتكنولوجيا أن انتاج الدول العربية بالبحر المتوسط من الأسماك . وهي لبنان ، وسورية ، ومصر ، وليبيا ،

ب- الأسفنج : ويصاد من أعماق تتراوح بين 6 أقدام و25 قدما ، ويكثر صيده بالقرب من سواحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبية ، وسواحل البحر الأحمر .

ج- اللؤلؤ : ويصاد من مياه الخليج العربي ، وبالقرب من سواحل باكستان ، وبعض مناطق البحر الأحمر . وكانت له شهرة تاريخية كبيرة ، وقد أخذت أهميته الإقتصادية تتدهور أخيرا تحت ضغط منافسة اللؤلؤ الصناعي الرخيص الثمن .

4- الثروة المعدنية :

والعالم الإسلامي غني بمعادنه المستغلة والغير مستغلة والأحتياطية ، وسنذكر أهمها :

أ- البترول والغاز الطبيعي : وتحتل دول العالم الإسلامي المركز المتفوق والمرموق في مجال إنتاجه واحتياطيه الذي يقدر بأكثر من75 % من احتياطي العالم كله . وأهم المناطق الإسلامية لانتاجه :

1- منطقة الخليج العربي : المملكة العربية السعودية ، والعراق ، وإيران ، والكويت ، وقطر ، وعمان ، والإمارات العربية .

2- منطقة جنوب شرق آسيا : وهي ماليزيا ، وأندونيسيا ، وسلطنة بروني .

3- منطقة قفقاسيا بين بحر قزوين والبحر الأسود ، وتستغله روسيا السوفيتية .

4- منطقة خليج السويس : مصر .

5- منطقة شمال افريقيا : ليبيا ، والجزائر .

6- منطقة غرب افريقيا : نيجيريا .

وكانت الشركات الأجنبية تتلاعب كما تشاء في إنتاجه وتسويقه ، إلى أن تكونت منظمة الدول المصدرة للبترول – الأوبك – عام 1960 م . فحافظت على المستوى المناسب للأسعار وجردت شركات الاستثمار من التلاعب بحقوق الدول المنتجة له . وقد استخدم الملك فيصل بن عبد العزيز سلاح البترول في حرب عام 1973 م [48] . وكان ناجعا ناجحا .

وتونس ، والجزائر ، والمغرب – بلغ 40 % من الانتاج الكلي للبحر المتوسط لعام 1984 م (جريدة الشرق الأوسط ص 4 الأحد 18 / 1 / 1985 م)

[48] أدرك العالم الغربي وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية أهمية استخدام سلاح البترول لمصلحة البلاد الإسلامية بعد أن شهدت نجاحه عام 1393 هـ / 1973 م . فلجأت إلى عملية تخزين البترول لتوجد المنافسة

وهـذه الـدول العشـر الأوائـل فـي احتيـاطي البتـرول الثابـت وجـوده حتـى نهايـة عـام 1985 م بملايين الملايين [49] :

1- المملكة العربية السعودية 169190 .

2- الكويت 92464 .

3- الاتحاد السوفيتي 61000

4- المكسيك 49300

5- إيران 47876

6- العراق 44110

7- أبو ظبي 31000

8- الولايات المتحدة 28000

9- فنزويلا 25591

10- ليبيا 21300

وهكـذا يظهـر بوضـوح أهميـة العـالم الإسـلامي فـي احتيـاطي البتـرول ، كمـا فـي انتاجه .

ب- الفوســـفات : ويســتعمل لصـــناعة الأســمدة ، وتنتجــه كــل مــن المغــرب ، والجزائر ، وتونس ، والسنغال ، ومصر ، والأردن ، وسوريا .

ج- الكوبلـــت : مـن معـادن السـبائك الهامـة ، ويمنـع الصـلب مـن الصـدأ ، كمـا يتحمـل درجـة الحـرارة العاليـة جـدا ، فتصـنع منـه الآلات فـي الطـائرات النفاثـة ، والآلات

بين أعضاء أوبك فتنهار . كما عمدت إلى ابتزاز إيراد البترول مقابل الأسلحة التي تمد بها الأطراف الإسلامية التي أثارت بينها النزاع كالحرب العراقية الايرانية . وقد عمدت القوى العالمية على استمرار هذا الصراع ليبقى نزيفا بشريا وماليا للعالم الإسلامي . وإفراغ المنطقة من قوتها المالية والعسكرية ليسهل إبقاء السيطرة عليها ، ودورانها في فلك النفوذ الأجنبي !

وقد بلغ إنتاج مجموعة أوبك قمته من البترول عام 1394 هـ / 1974 م فكان :

315739000 مليون برميل في اليوم . (الشرق الأوسط 11 محرم 1409 هـ / 30 / 8 / 1988 م عن : Oil and Gas Journal Varivus Issnues

[49] أرامكو – حقائق وأرقام ، عام 1985 ، ص 21 ، نشرة سنوية .

التي تدخل في صناعة الأسلحة الذرية . والمملكة المغربية هي رابع دولة في العالم في إنتاجه .

د- الكروم : وهو معدن يستعمل في صناعة السبائك المعدنية ، والعالم الإسلامي ينتج 45 % من انتاج العالم منه . وتنتجه كل من : تركيا ، وإيران ، وباكستان ، والسودان .

هـ- الحديد : في ماليزيا ، وتركيا ، وإيران ، وباكستان ، ومصر ، وغينيا ، وموريتانيا ، والمغرب ، والجزائر ، وتونس .

و- القصدير : وهو معدن تحتاجه الصناعات المعدنية الهامة فهو يشترك مع النحاس لتكوين البرونز ، ويستعمل في صناعة الصفيح ، والعلب التي تحفظ المأكولات ، وفي عمليات اللحام ، والسبائك البرونزية . وينتج العالم الإسلامي أكثر من نصف الانتاج العالمي من بلدان : ماليزيا ، واندونيسيا ، وأقطار المغرب العربي ، وإيران ، وتركيا ، ونيجيريا .

ز- المنغنيز : ويدخل في صناعة السبائك ، والصلب ، وفي الصناعات الكيمائية . وأهم البلدان المنتجة له : مصر ، والمغرب ، وتركيا .

ح- الرصاص : في إيران ، وتركيا ، والمغرب ، والجزائر ، وتونس .

ط- أملاح الصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والبروم والمغنيزيوم – الأملاح المعدنية – : وأشهر أماكن استغلال هذه الأملاح الهامة : البحر الميت ، حيث يقوم العدو الصهيوني باستغلالها في فلسطين .

ومن المعادن الهامة الأخرى في العالم الإسلامي : الكولمبايت وتنتج منه نيجيريا 90 % من الانتاج العالمي ، وهو يستغل بعد خلطه بمعادن أخرى في صناعة محركات الطائرات النفاثة . كما توجد معادن : الذهب ، والنحاس ، والتيتانوم ، والتنجستن ، والفحم الحجري ، واليورانيوم .

6- الثروة الصناعية :

إن ما بيناه من ثروات تتيح للعالم الإسلامي الفرصة في أن يصبح عالما صناعيا ، إذ تتوفر فيه مقومات الصناعة وهي :

أ- توفر المواد الخام ، من مواد زراعية ، ومعدنية ، وحيوانية ، وغابية .

ب- توفر مصادر الطاقة – القوى المحركة – من بترول ، وغاز طبيعي ، ومساقط مياه التي تولد الكهرباء المائية ، والفحم الحجري ، والطاقة الشمسية .

ج- توفر رؤوس الأموال وخاصة في البلدان المنتجة للبترول .

د- توفر الأيدي العاملة وخاصة في اندونيسيا ، وبنغلاديش ، وباكستان ، ومصر ، وسوريا ، وتونس .

هـ- توفر الأسواق الاستهلاكية : الداخلية لاتساع العالم الإسلامي وكثرة سكانه . والخارجية لسهولة المواصلات التي تصل العالم الإسلامي بغيره .

ثالثا : العالم الإسلامي مركز المواصلات العالمية :

البرية والبحرية والجوية ، ويعود ذلك إلى :

أ- موقع العالم الإسلامي في قلب العالم القديم - آسيا وأفريقيا وأوروبا - وتوسطه بالنسبة للعالم القديم والجديد - أو أمريكا الشمالية ، والجنوبية ، واستراليا .

ب- إشرافه على البحار والمحيطات العالمية الهامة .

ج- توفر مواد الوقود ، والموانى الجوية والبحرية .

د- صفاء أجوائه معظم أيام السنة الذي اجتذب خطوط الطيران العالمية .

وقد زادت هذه الأهمية بشق قناة السويس التي سهلت اتصال الشرق بالغرب بحرا وقلصت المسافات الى حد كبير .

وهكذا تتبين أهمية العالم الإسلامي . إذ أعلن مسئول في وزارة الخارجية الفرنسية عام 1952 م : " العالم الإسلامي عملاق مقيد ، لم يكتشف نفسه حتى الآن اكتشافا تاما ، وهو حائر قلق ، ضائق بتخلفه وانحطاطه ، وإن كان يعاني من الكسل والفوضى ، غير أنه راغب في مستقبل أحسن ، وحرية أوفر . وعلينا أن نبذل كل جهودنا حتى لا ينهض ويحقق أمانيه ! ! . ذلك إن فشلنا في تعويق نهضته يعرضنا لأخطار جسيمة ، ويجعل مستقبلنا في مهب الريح . .

إن صحوة العالم العربي ، وما يتبعه من قوى إسلامية كبيرة نذير بكارثة للغرب ، ونهاية لوظيفته الحقيقية في قيادة العالم " [50] .

---

[50] فتحي لاشين - الاقتصاد الإسلامي ص 32 .

الباب الثاني

التحول من ماضي الأمة الإسلامية المجيد إلى حاضرها الأليم

الفصل الأول : العوامل الداخلية

الفصل الثاني : العوامل الخارجية

الفصل الثالث : نتائج التحديات الداخلية والخارجية

التحول من ماضي الأمة الإسلامية المجيد إلى حاضرها الأليم

غير الإسلام مجرى التاريخ كله . وقطع ما بين الحضارات الوثنية مثل حضارة الفراعنة ، والرومان ، والفرس ، والهنود الوثنية ، وربط بين الحنيفية الإبراهيمية ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد أن كانت تلك الحضارات الوثنية قد طغت على الحنيفية الابراهيمية ، فأعاد الإسلام السلسلة – سلسلة النبوات وأوجد حضارة متصلة برسالات السماء ، من لدن آدم عليه السلام ، إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان كما قال صلى الله عليه وسلم : " مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كرجل بنى بيتاً فجمله وحسنه ، إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه ، فكان الناس يطوفون بالبيت ، ويعجبون ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم المرسلين " [51] .

فكان العصر الوسيط ، والنهضة الأوربية ثمرتين من ثمار الإسلام . فكان من الطبيعي والحالة هذه أن يواجه الإسلام التحديات العاتية من أول ظهوره ، التحديات الوثنية ، واليهودية والنصرانية ، والمجوسية ، وأن تتعرض أمة الإسلام إلى كثير من التحديات الداخلية والخارجية أثناء مسيرة الإسلام ، وأثبت الإسلام قدرته على البقاء والاستمرار ، والتمدد ، فما دخل في أرض وخرج منها ، وما استطاعت الأزمات أن تقضي عليه ، أو تجعله ينهار ، وظل محتفظا بذاتيته الخاصة الواضحة ، عن غيره من النحل ، والأديان [52] .

نعم واجه الإسلام منذ ظهوره في مكة إلى أن قامت دولته في المدينة التحديات : تحدي وثنية قريش ، وتحدي أهل الكتاب من اليهود ، والنصارى ، داخل شبه الجزيرة ، وخارجها ، وتغلب على هذه التحديات ، وامتد شرقا وغربا في عهد الخلفاء الراشدين ، وتعرض إلى محن داخلية إذ تمكن عبد الله بن سبأ اليهودي ومن هم على شاكلته من بذر التناقضات بين المسلمين ، ووسعوا هذه التناقضات ، فأدى ذلك الى امتشاق الحسام ، واستمرت الأحداث زمن الأسرة الأموية ، واشتد التحدي من الداخل ، بين الإسلام وبين من تظاهر بالإسلام ، من أهل الكتاب ، ومن الفرس ، والمجوس . وكانت الأمة من الوعي على دينها ، ومن القوة في إيمانها ، والتمسك بعقيدتها ، بحيث فوتت على أصحاب الشر والفساد أهدافهم ، فسار الإسلام رغم ما ما أصاب المسلمين من جراح قدما ، إلى أن بدأت عقيدتهم تضعف ، وبدأ الزيغ يدخل نفوسهم ، فأصابهم التغير ، فقادهم إلى الضعف – مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

---

[51] صحيح البخاري ج 3 ص 300 كتاب المناقب . باب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم / مسلم ج 4 ص 1790 .

كتاب الفضائل . باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين .

[52] التحديات ص 101 . أنور وجدي .

(إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّـرُ مَـا بِقَـوْمٍ حَتَّـى يُغَيِّـرُواْ مَـا بِأَنْفُسِـهِمْ) [53] . فكانـت العوامـل الداخليـة أهـم مـن العوامـل الخارجيـة التـي أثـرت علـى نقـل العـالم الإسـلامي مـن ماضـيه المجيـد إلـى حاضـره الألـيم . فحينمـا كانـت الأمـة خاضـعة خضـوعا تامـا لسـلطان الإسـلام ، حكمهـا ينبثـق عـن قانونـه ، ومجتمعهـا يقـوم علـى نظامـه ، وأخلاقهـا مسـتلهمة مـن روحـه ، عـزت وتوحـدت وأصـابها الغنـى ، وحينمـا أخـذت هـذه الأمـة فـي الغربـة عـن الإسـلام أصـابها الفرقـة والضـعف والتخلـف ، وسـنتناول فيمـا يلـي العوامـل الداخليـة ثـم الخارجيـة ، تلـك التـي أسـهمت فـي نقـل المسـلمين مـن ماضـيهم المجيـد إلـى حاضـرهم الألـيم ونتـائج ذلك في ثلاثة فصول :

---

[53] سورة الرعد الآية 11 .

الفصل الأول
العوامل الداخلية

1- انشقاق المسلمين إلى فرق : فقد نجحت القوى الحاقدة على الإسلام ، المتسللة في صفوف المسلمين ، في شق المسلمين وصدعهم . فظهرت فرق الخوارج وفرق الشيعة وقد ناهضت كل منهما أهل السنة والجماعة ، فعمل ذلك على تبديد طاقة المسلمين المادية والعسكرية والفكرية بتوجيهها إلى داخلهم في صراعات دامية . كما ظهرت فرق أخرى كالمرجئة والجهمية ، والمعتزلة ، وغيرها ، أقلقت بال المسلمين وشغلتهم .

2- اشتغال المسلمين بالفلسفة وعلم الكلام : اشتغل بعض المسلمين في العصر العباسي الأول (132 – 232 هـ) بترجمة العلوم اليونانية ، والهندية ، إلى اللغة العربية . ثم انحرف هذا الاتجاه الى ترجمة الفلسفة الإلهية الاغريقية ، فدخلت الحياة الفكرية في العالم الإسلامي [54] .

فانشغلوا بما لا ينفعهم في دنيا أو آخرة ، وبأمور جانبية ، وكان ابن المقفع ، وحنين ابن اسحق ، وثابت بن قرة ، وأضرابهم من الذين حملوا لواء هذا العمل قد استهدفوا غاية خطيرة هي نقل مذاهبهم وأديانهم إلى الفكر الإسلامي ، وكان القسم الأكبر من هؤلاء النقلة من السريان ، والأقل من اليهود ، فنقلوا ما نقلوه وفق أهواء خاصة ، وأكثرهم لم تكن غايته البحث عن الحقيقة ، بل كان همهم الدعوة إلى شيعتهم ، وتزيين أهوائهم الدينية ، وإدخال ما ليس في الإسلام فيه . لذلك كانوا يغيرون ويبدلون في النصوص التي بين أيديهم خدمة لأغراضهم . وظهر علم الكلام متسلحا بالمنطق الذي كان الوسيلة لتنمية القدرات العقلية للفيلسوف حتى يتأهل للتلقي عن العقل الفعال .

وقد ذم بعض هؤلاء الفقهاء الكلام وأهله ، قال أبو يوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة وصاحبه : " من طلب الدين بالكلام تزندق ، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ، ومن طلب غريب الحديث كذب " [55] .

وقال الإمام الشافعي : " حكمي في أهل الكلام أن يطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويضربوا بالجريد ، والنعال ، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب ، والسنة ، وأقبل على علم الكلام ، وقد أطلعت من أهل الكلام على شيء مما ظننت مسلما بقوله

---

[54] أرسل المأمون إلى حاكم صقلية النصراني يطلب منه أن يبادر بإرسال مكتبة صقلية الشهيرة الغنية بكتب الفلسفة ، وتردد في إرسالها واستشار رجال دولته فأشار عليه المطران الأكبر بقوله : " أرسلها ، إليه فوالله ما دخلت هذه العلوم في أمة إلا أفسدتها " .

[55] شرح الطحاوية ص 72 .

، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهي عنه ، ما خلا الشرك بالله ، خير له من أن يبتلى بالكلام " [56] . وقال الإمام مالك : " أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل ، تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، لجدل هؤلاء ؟ " [57] .

قال ابن الحصار : " إنما ظهر التلفظ بها زمن المأمون بعد المائتين لما ترجمت كتب الأوائل وظهر فيها اختلافهم في قدم العالم وحدوثه ، واختلافهم في الجوهر وثبوته ، والعرض وماهيته ، فسارع المبتدعون ، ومن في قلبه زيغ ، إلى حفظ الاصطلاحات ، وقصدوا بها الإغراب على أهل السنة ، وإدخال الشبه على الضعفاء من أهل الملة ، فلم يزل الأمر كذلك إلى أن ظهرت البدعة ، وصار للمبتدعة شيعة ، والتبس الأمر على السلطان ، حتى قال الأمير (المأمون) بخلق القرآن ، وجبر الناس عليه وضرب أحمد بن حنبل على ذلك ، فانتدب رجال من أهل السنة . . . فخاضوا مع المبتدعة في اصطلاحاتهم ثم قاتلوهم وقتلوهم بسلاحهم " [58] .

وفي القرن الرابع الهجري اتخذت الفلسفة طابع التحدي لعقيدة الإسلام ، على يد ابن سينا (370 – 428 هـ) ، الذي يعتبر من أخطر فلاسفة المسلمين .

وقد نعته الذهبي بأنه : " رأس الفلاسفة الإسلاميين ، الذين مشوا خلف العقول ، وخالفوا الرسول " [59] وتاب في آخر أيامه [60] . وقد روى عنه تلميذه ابن أبي أصيبعة : " أنه يجتمع كل ليلة في داره طلبة العلم ، وكنت أقرأ من الشفاء ، وكان يقريء غيري من القانون نوبة ، فإذا فرغنا حضر المغنون على اختلاف طبقاتهم ، وهيء مجلس الشراب بآلاته ، وكنا نشتغل به " [61] .

وكان والده قد استجاب للاسماعيلية الفاطمية ، وكان يحضر ابن سينا اجتماعاتهم في بيت والده [62] . ومن أشهر نظرياته : نظرية المعرفة التي وضع فيها الفلاسفة على قدم المساواة مع الأنبياء ، ثم خصهم بميزة على الأنبياء ، حين قرر أن

---

[56] نفسه ص 229 ، ص 72 / سير أعلام النبلاء ج : 1 ص 29 .

[57] حلية الأولياء ج 6 ص 324 ، سير أعلام النبلاء ج 9 ص 99 .

[58] القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – تفسير الآية رقم 170 من سورة البقرة (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا) . ج 2 ص 213 – 214 طبعة بالأوفست . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

[59] انظر سير أعلام النبلاء ج 17 ص 535 .

[60] انظر ابن خلكان . وفيات الأعيان ج 2 ص 16 .

[61] طبقات الأطباء ص 446 .

[62] نفسه ص 437 وسير أعلام النبلاء ج 16 ص 531 .

الفلاسفة استمروا في رسالتهم ، وارتقاء معارفهم ، في الوقت الذي ختمت النبوة بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم [63] .

وبعد : فماذا استفاد المسلمون من ترجمة الفلسفة اليونانية ؟ استفادوا الخبرة لفن قتل الوقت ، وقتل العقل ، واستطابوا الإدمان على تعاطي هذه الكأس ، التي يقدمها السفسطائيون للإجهاز على الأمم القوية عندما تبلغ القوة مداها ، مقابل ما خسر المسلمون من الإيمان الفطري ، والاعتقاد النقي ، وتهاونوا في دينهم ، وفرطوا في لغتهم ، وانشغلوا في محاولات عقيمة ، وداروا في حلقة مفرغة ، ووقعوا في أغلاط اليونان ، لأنهم أخذوا دون تمحيص ، ودون أن يردوا ما أخذوا إلى القرآن والسنة ، بل بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يردون القرآن إلى آراء اليونان ، كقول إخوان الصفا :

" إن إدريس هو (هرمس) المثلث بالحكمة ، صفت نفسه ، فصعدت الى السماء ، وطافت مع بعض أجرامها ثلاثين عاما ، وشاهدت من العجائب ما لا يشاهده إلا من يطوف ذلك الطواف ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم (في زعمهم) في قوله تعالى : (**وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا**) " [64] .

وهذا نوع من فهم القرآن لا يجيزه القرآن ، ولا العقل ، ولعلنا لو بحثنا تاريخ الفلسفة الإسلامية ، وما كان من المتكلمين من علماء المسلمين من خلافات لوجدنا أكثر هذه الخلافات ، إن لم يكن كلها ، راجعا إلى قضايا أخذها المسلمون عن اليونان من غير تمحيص [65] ، وساعدهم في ذلك الترف والحياة الباذخة والفراغ وفتور حركة الجهاد . مصداقا لقوله تعالى :

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [66] .

فأدى كل ذلك إلى الترهل والاستغراق في متاع الأرض بالتدريج ، والفلسفة وليدة الترف الفكري .

ولو كان هناك الوعي الكامل ، لاقتصرت الترجمة على ترجمة العلوم البحتة ، كالهندسة ، والطب ، والفلك ، وغيرها من العلوم النافعة ، وبشرط أن تكون صياغة ترجمتها متفقة مع عقيدة الإسلام . ولكن الخطأ حصل بترجمة جميع العلوم ، ومنها الإلهيات عند ارسطو ، وأفلاطون ، وغيرهم . واستخدم أهل الكتاب في ذلك فتعكر

---

[63] انظر ابن سينا – إثبات النبوات . مقدمة ص 13 .

[64] سورة مريم الآية 57 . رسائل إخوان الصفا ج 1 / 138 . والمثلث بالحكمة أي ثلاثي التعليم لأنه كان يصف الباريء تعالى بثلاث صفات ذاتية هي : الوجود ، والحكمة ، والحياة . – انظر مختصر تاريخ الدول لابن العبري ص 7 –

[65] انظر نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ثلاثة أجزاء) . على سامي النشار .

[66] سورة الرعد الآية 11 .

صفو العقيدة لدى المسلمين ، بالفكر الأجنبي ، الذي أقحم على الحياة الإسلامية ، وبضروب الجدل التي زجى بها المتكلمون في أوقات فراغهم [67] ، فقال فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية :

" هؤلاء أهل الكلام المخالفون للكتاب والسنة الذين ذمهم السلف والأئمة ، إنهم لم يقوموا بكمال الإيمان ولا بكمال الجهاد بل أخذوا يناظرون أقواما من الكفار وأهل البدع الذين هم أبعد عن السنة منهم ، بطريق لا يتم إلا برد ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا لا يقطع أولئك الكفار بالعقول ، فلا آمنوا بما جاء به الرسول حق الإيمان ، ولا جاهدوا الكفار حق الجهاد . وأخذوا يقولون : إنه لا يمكن الإيمان بالرسول ، ولا جهاد الكفار ، والرد على أهل الإلحاد والبدع ، إلا بما سلكناه من المعقولات ، وإن ما عارض هذه المعقولات عن السمعيات يجب رده تكذيبا ، أو تأويلا أو تفويضا . لأنها أصل السمعيات ، وإذا حقق الأمر عليهم وجد الأمر بالعكس " [68] .

وهكذا فشا بين المسلمين الجدل الكلامي ، والتمس كل فريق سندا لدعواه فيه المنطق الكلامي ، وأصبح الهدف افحام الخصوم وغلبة المناهضين وليس التوصل إلى الحق والتماس الصواب . ولذلك قال الذهبي عن علم المنطق : " نفعه قليل ، وضرره وبيل ، وما هو من علوم الإسلام " . كما بين خطر الفلسفة الإلهية ومخاطرها [69] .

3- الانقسام السياسي لدولة الإسلام :

فقد أفلحت النعرات السياسية في تصعيد بعض التناقضات وتعميق روح الخلافات فأدت إلى الصدع بين الزعامات المسلمة ، وجاء وقت (القرن الرابع الهجري) كان في العالم الإسلامي ثلاثة خلفاء : الخليفة العباسي الشرعي في بغداد ، والخليفة الفاطمي في مصر ، والخليفة الأموي في الأندلس . وهذا أدى إلى اهتزاز ثقة المسلمين بالخليفة ، ثم هانت عليهم الخلافة . وهذا طبعا أدى إلى طمع العدو الخارجي في العالم الإسلامي ،

وأدى إلى ضعف هذا العالم الإسلامي في مواجهة أعدائه ، فتوقف المد الإسلامي ثم أخذ بالانحسار ، ليعود إلى المد من جديد ، في عهد الدولة العثمانية حاملا معه بذور الضعف .

4- الشعوبية :

---

[67] انظر الإسلام والطاقات المعطلة . ص 112 . محمد الغزالي .

[68] موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ج 1 / 238 . تحقيق محي الدين عبد الحميد وحامد الفقي .

[69] سير أعلام النبلاء ج 1 / 24 ، وانظر ص 40 .

اكتسبت الشعوبية مفهوما خاصا فأطلقت على محتقري العرب والذين يصغرون شأنهم [70] . فهي والحالة هذه تعني التعصب ضد العرب ، وقد بدأها الذين تسللوا إلى الإسلام ، وهم يحقدون عيه ، من اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، وقد رد بعض العرب بالتعصب للعرب ، فخالف المتعصب ضد العرب ، والمتعصب للعرب ، روح الإسلام ، لأنها حملت روح التفرقة بين العرب ، وغيرهم من المسلمين [71] . واستغلت الحركة الشعوبية الأدب ، واللغة ، والشعر العربي ، والتأليف ، والمفاخرة ، والمفاضلة بين العجم والعرب [72] . فكانت الشعوبية نزيفا ، وضعفا في الأمة الإسلامية ، في وقت تزايدت فيه أخطار التحديات الخارجية على المسلمين ، وعلى العالم الإسلامي (مثل التحدي الصليبي والمغولي) .

5- الباطنية :

وكانت من أكبر عوامل الهدم من الداخل في عالم الإسلام ، فقد ضمت جميع العناصر المناهضة للإسلام ، من زرادشتية ، ومانوية ، ويهود ، ونصارى ، وكانت التناقضات فيها تبيض ، وتفرخ ، لأنها عاشت في الظلام ، وآمنت بالتقية ، بل وجعلتها أساس عقيدتها . وقالت الباطنية :

" إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة " [73] وقرروا أن لظواهر القرآن الكريم ، والأحاديث بواطن تجري مع الظاهر مجرى اللب من القشر ، وأن تصوراتهم توهم الجهال صورا جلية ، وهي عند العقلاء رموز ، وإشارات ، إلى حقائق خفية ، وأن من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا ، والأسرار ، والبواطن ، والأغوار ، وقنع بظاهرها ، كانت تحت الأغلال التي هي تكليفات الشرع ، ومن ارتقى إلى علم الباطن إنحط عنه التكليف ، واستراح من أعبائه [74] .

وبإسقاط التكاليف الشرعية ، وإنكار المسئولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي ، والجزاء الأخروي ، فتح الباب واسعا أمام حرية الشهوات ، واللذات ، والدعوة الإباحية ، وعبادة الجسد ، وقد عمدوا إلى صرف ألفظ الشرع عن معانيها الظاهرة إلى أمور باطنة ، بغير دليل من القرآن ، والسنة ، وتسقط منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأن الباطن لا ضبط له ، لا تتعارض فيه الخواطر ، ويمكن تنزيله على وجوه شتى ، حسب مقتضى الأهواء ، والغايات ، وهدفهم الرئيسي هو هدم الشريعة ، بتأويل ظواهرها ، وتحريفها ، لتلائم مقاصدهم ، فهم يقولون : للشرائع باطن ، لا يعرف

---

[70] لسان العرب ج 1 / 482 ، القاموس المحيط ج 1 / 91 .

[71] ويؤيد هذا من معاني الشعب في اللغة : (بمعنى التفريق) . انظر لسان العرب ج 1 / 479 .

[72] انظر أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري للمؤلف .

[73] انظر إخوان الصفا ج 1 / 6 . دار صادر . بيروت .

[74] انظر تلبيس إبليس . لابن الجوزي .

إلا بالإمام ، أو من ينوب منابه ، ففسروا : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ**) بأن القلائد : هم الأئمة المستورون ، والبيت الحرام : هو الخليفة الفاطمي . ومعنى قوله تعالى (**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ**) . هو : الإقرار بالإمام الناطق ، الذي يفيض عنه العلم ، ويوصل من قبله إلى معرفة الله تعالى ، والملائكة هم دعاة الإمام ، الذين يأخذون له العهد على المستجيبين ، ويربونهم على عقيدة الباطنية الاسماعيلية ، التي تمنح شخص الإمام الحاكم الريادة العقائدية ، والسياسية المغلقة ، وتمنحه مرتبة إلهية [75] .

وكذلك ما ورد في الحشر ، والنشر ، وغيرها ، فكلها عندهم رموز ، وأمثلة ، إلى بواطن ، فمعنى الغسل عندهم : بمعنى تجديد العهد عليه ، ومعنى الطهور : التبرؤ من كل مذهب خالف الباطنية ، ومعنى التيمم : أخذ العلم من المأذون ، ومعنى الصلاة : الدعاء إلى الإمام ، ومعنى الزكاة : بث العلم لمن يزكى ، ومعنى الحج : طلب العلم الذي تشد رحائل العلم إليه ، والجنابة : إفشاء السر ، والكعبة : النبي ، والباب علي ، والتلبية : إجابة الداعي ، والطواف بالبيت سبعا : الطواف بالإمام إلى تمام السبعة . والنار : الجهل بالعلوم الباطنية [76] .

ولجأت الباطنية إلى الفلسفة ، يستمدون منها أوهامهم ، فضمت فلاسفة ، ومفكرين ، مثل إخوان الصفاء ، وشعراء : مثل أبي العلاء المعري ، وعلماء مثل أبي حيان التوحيدي ، وابن سينا ، ووالده ، وتمكنت من إفراز جناح عسكري في القرن الخامس الهجري ، بقيادة الحسن الصباح ، الذي اتخذ قلعة الموت سنة 483 هـ مركزا له ، يبث منها دعاته ، ليخدعوا الأحداث ، والبسطاء ، ويضمونهم ، (باسم الدين ونصرة آل البيت) ، واستعانوا في التأثير على الأتباع ، بالمخدر ، أو الحشيش ، الذي كانوا يقدمونه لهم ، فإذا أصابهم الدوار ، أمروهم بما يريدون ، ولذلك سموا بالحشاشين . وقد بقيت هذه الفرقة تثير الفتن ، وتنشر الرعب ، وتعاونت مع الصليبيين في الشام ضد المسلمين ، واغتالوا عددا من قادة الإسلام ، كما حاولوا اغتيال صلاح الدين ، أكثر من مرة . بالإضافة إلى أن الباطنية تبرأت من الصحابة رضوان الله عليهم ، وخاصة من أبي بكر ، وعمر ، رضي الله عنهما ، وشوه الباطنيون صور شخصيات كثيرة ، من صدر الإسلام ودسوها في كتب التاريخ ، والأدب ، الأمر الذي مكن أعداء الإسلام فيما بعد من حملة التشويه المتعمدة التي لحقت برجالات القرن الأول الهجري خير القرون . نظرا لأنها موضع الفخر ، والاعتزاز الشديد ، عند المسلم . وجاء المستشرقون وتلاميذهم فتلقفوا آراء الباطنية في تلك الشخصيات باسم البحث العلمي ، والموضوعية .

---

[75] القاضي النعمان المغربي . الرسالة المذهبية ص 82 .

[76] انظر فضائح الباطنية ص 55 – 59 . الإمام الغزالي ، أبو حامد .

كما وقفت الباطنية إلى جانب الصليبيين في حربهم ضد الإسلام والمسلمين وخاصة في دمشق عام 523 هـ ، وإلى جانب المغول كما حدث في تخريب بغداد عام 656 هـ .

وأما القرامطة من الباطنية فتاريخهم معروف في محاولاتهم القضاء على الإسلام والمسلمين ، وهجومهم على بيت الله الحرام واستحلال دماء المسلمين ونزع الحجر الأسود .

وبقيت الباطنية نزيفا داخليا لجهد العالم الإسلامي ، تأخذ كثيرا من جهد قادة المسلمين ، ومن أئمة المسلمين ، وعلمائهم ، الذين تصدوا لها بكل عنف .

6- الصوفية :

نشأ التصوف من ينبوعين مختلفين تلاقيا [77] :

الأول : هو انصراف بعض العباد المسلمين إلى الزهد في الدنيا ، والإنقطاع للعبادة . وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك : فقال :

" ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ، لكني أصوم ، وأفطر ، وأصلي ، وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني " (متفق عليه) .

وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم كثر الزهاد الذين غالوا في الزهادة في الدنيا ، ونعيمها . . .

وفي وسط تلك النفوس وجد التصوف مكانه إذ وجد أرضا خصبة ، ردا على حياة الترف الذي فشا بين المسلمين .

والثاني : هو ما سرى إلى المسلمين من فكرتين : الأولى : فكرة الإشراقيين من الفلاسفة ، وهم يرون أن المعرفة تقذف في النفس بالرياضة الروحية ، والتهذيب النفسي . والثانية : فكرة الحلول الإلهي في النفوس الإنسانية ، وقد ابتدأت هذه الفكرة تدخل في الطوائف التي كانت تنتمي كذبا إلى الإسلام في الصدر الأول ، عندما اختلط المسلمون بالنصارى ، وقد ظهرت في السبئية ، والكيسانية ، ثم القرامطة ، ثم في بعض الباطنية ، ثم ظهرت في لونها الأخير في بعض الصوفية [78] .

وهناك معين آخر أخذت منه فيما يظهر النزعات الصوفية ، وهو : كون النصوص والأحكام – أي نصوص القرآن والسنة – ظاهر وباطن – ويظهر أن المتصوفة استعاروا ذلك التفكير من الباطنية . . .

---

[77] ابن تيمية – للشيخ محمد أبو زهرة ص 197 – 198 .

[78] انظر الإسلام في مواجهة الحركات الفكرية – للمؤلف .

فالمغالاة في الزهد ، فتح لأفكار الحلول ، ثم وحدة الوجود ، فظهر التصوف في الإسلام ، الذي اشتد في القرن الرابع والخامس الهجري ، ثم بلغ أقصى مداه فيما بعد ذلك ، بعيدا كل البعد عن هدي القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، حتى بلغ أن المتصوفة يسمون من يتبع القرآن والسنة (أهل الشريعة) و (أهل الظاهر) . ويسمون أنفسهم (أهل الحقيقة) و (أهل الباطن) . فالتقت الصوفية مع الفلسفة ، والباطنية ، وحجبت كثيرا من المخدوعين عن فهم حقيقة العبادة في الإسلام ، وعمدت إلى تقديس المشايخ فقالوا : " من قال لشيخه لم لم يفلح " . وانتجت التواكل بدلا من التوكل ، الذي أفسد كثيرا من عقيدة القضاء والقدر . وحولها من عقيدة إيجابية دافعة إلى عقيدة سلبية مخذلة ، وإلى الرضاء السلبي بالواقع وعدم محاولة التغيير .

ومن الجدير بالذكر أن الصوفية أخذت تنتشر في المجتمع الإسلامي زمن العباسيين ، ولكنها كانت ركنا منعزلا عن المجتمع ولكنها في عهد الدولة العثمانية ، صارت هي المجتمع ، وأصبحت بالنسبة للعامة هي المدخل إلى الدين ومجال ممارسته . فتسلطت مجموعة من الخرافات والأوهام ، تتعلق بالمشايخ الأحياء منهم والأموات ، وصار التدين هو الإيمان بالشيخ وبكراماته وبأحواله ، وقدرته على اشتفاف الغيب ، وعلى شفاء المرضى من غير دواء ، وقدرته على فك السحر ، واستخراج الشياطين من أجساد من تسلطت عليهم . كما أصبح التصوف هو التعلق بالأضرحة ، والأولياء ، ونذر النذور لهم ، والتقرب بالقرابين ، دون عمل حقيقي بمقتضى الدين . . فقد أصبح هذا في حس العامة هو الدين ، وليس هو ما أنزله الله في كتابه ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وأدرك أئمة المسلمين ، وعلماؤهم ، أهداف الفلاسفة ، والباطنية ، والصوفية ، فكانت لهم جهودهم الموفقة في تفنيد بدعهم ، ورد كيدهم ، وإبراز الحق واضحا جليا من خلال مصادره الأصلية ، كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومن أبرز هؤلاء العلماء الأئمة الأربعة ، ثم الإمام ابن تيمية وابن القيم اللذان كانت لهما صولات وجولات مع أرباب البدع ، وأئمة الكلام ، وأساطين الفلاسفة ، فأوسعوا نظرياتهم وأقوالهم نقضا ، ونقدا ، من خلال الفهم الأصيل ، والاعتقاد المستقيم ، والمنهج القويم ، لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهما العروة الوثقى التي يجب على كل مسلم أن يتمسك بها مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم :

" تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا ، كتاب الله وسنتي " .

وفي العصور الحديثة هاجمهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والشيخ الدهلوي ، والشيخ أبو زهرة ، وغيرهم ، فكان العلماء المخلصون بالمرصاد لكل من يحاول العبث بدين الإسلام .

7- الإسرائيليات [79] :

وهي جميع العقائد غير الإسلامية ، لا سيما تلك التي دسها أهل الكتاب من اليهود ، والنصارى ، بواسطة من تظاهر منهم بالإسلام ، فتمكنوا من دس تفاصيل كثيرة باطلة ، وتوسعات عديدة ، تتعارض مع الإسلام القائم أصلا على التوحيد ، والمتصل اتصالا واضحا بالإيمان بالغيب ، والبعث ، والجزاء ، والمستمد من قواعد القرآن الكريم ، ومنهجه ، ومنطقه ، في مواجهة مختلف القضايا ، والأمور الخاصة ، فيما يتعلق بعالم الغيب ، وما وراء المحسوس ، وعلى عصمة الأنبياء والرسل .

ومن المعلوم أن مدارس للتفسير تكونت في زمن الصحابة ، والتابعين ، وتداولت تلك المدارس مجموعة من التفسير بالمأثور ، المنسوب بعضه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والمنسوب كثير منه إلى الصحابة ، وأكثره منسوب إلى التابعين كمجاهد ، وقتادة ، ومسروق ، والحسن البصري ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وغيرهم ، وهم كثيرا ما اختلط بتفسيرهم من الاسرائيليات ، وأدخل أعداء الإسلام في هذا الباب كثيرا من الأوهام المضللة ، فقد توسع التابعون في الأخذ عن أهل الكتاب فكثرت الروايات الاسرائيلية في التفسير لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام ، وميل نفوس القوم إلى سماع التفاصيل ، عما يشير إليه القرآن [80] . ثم جاء بعد هؤلاء التابعين من عظم شغفه بالاسرائيليات ، وأفرط في الأخذ منها ، إلى درجة جعلتهم لا يردون قولا ، ولا يحجمون أن يلصقوا بالقرآن الكريم كل ما يروى لهم ، وإن كان بعيدا عن النص ، كالروايات في اسم الشجرة التي أكل منها آدم ، وأسماء أصحاب الكهف ، واسم كلبهم . . . واستمر هذا الشغف بالاسرائيليات ، والولع بنقل هذه الأخبار ، التي أصبح الكثير منها نوعا من الخرافة ، إلى أن جاء دور تدوين التفسير ، فوجد من المفسرين من ضمنوا كتبهم بالقصص الإسرائيلي .

لقد نجح أهل الكتاب في دس الاسرائيليات ، وأبرز ما فيها مادة الكهانة ، والتنبؤات ، التي كان لها أثر سيء على المسلمين في عصور الضعف ، والتخلف ، وتلك التفسيرات للآيات القرآنية ، والتوسع في أوصاف الملائكة ، والجنة ، والنار ،

---

[79] انظر – تفسير ابن كثير ج 1 / 4 / طبعة الحلبي بمصر . حيث قسم الإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام : الأول : هو ما علمنا صحته مما بأيدينا من الكتاب والسنة . والقرآن هو الكتاب المهيمن والشاهد على الكتب التي قبله ، فما وافقه فهو حق صدق ، وما خالفه فهو باطل وكذب . وهذا القسم عندنا غنية عنه ، ولكن يجوز ذكره ، وروايته والاستشهاد به ولإقامة الحجة عليهم من كتبهم .

والثاني : ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه ، مثل ما ذكروه من قصص الأنبياء . . . وهذا القسم ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم النهي عن روايته ، والزجر عن أخذه عنهم ، وسؤالهم عنه .

والثالث : هو مسكوت عنه ، لا من هذا ، ولا من ذاك . فلا نؤمن به ، ولا نكذبه ، لاحتمال أن يكون حقا فنكذبه ، أو باطلا فنصدقه . والأولى عدم ذكره ولا نضيع الوقت في الاشتغال به .

[80] التفسير والمفسرون ج 1 / 176. أحمد حسين الذهبي . ط لبنان .

والحشر ، وتصويره تصويرا يخرج بها عن أصلها القرآني ، والغمز في صحة عصمة الأنبياء ، والرسل عليهم السلام .

وقد ذهب أكثر الباحثين ، إلى أن أكثر الأحاديث الموضوعة من الاسرائيليات ، إنما وضعت عن تدبير ، وتخطيط ، وخصومة ، وكيد ، وأنها من عوامل الحرب الفكرية ، والعقائدية الضارية ، التي شنها اليهود ، وغلاة النحل المبتدعة ، على الإسلام ، والمسلمين ، بكافة الوسائل من التخفي ، والتسلل ، والتمويه ، بقصد تمزيق وحدة المسلمين ، وتلهيتهم عن دينهم القويم ، وتشتيتهم عن طريقهم المستقيم [81] . وقد تنبه علماء المسلمين إلى مقاصدهم ، وإلى هذا الخطر منذ وقت مبكر ، فقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، يحذر من الأخذ عن أهل الكتاب " يا معشر المسلمين : كيف تسألون أهل الكتاب ، وكتابكم الذي أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم ، أحدث الأخبار بالله ، تقرأونه لم يشب ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله ، وغيروا بأيديهم الكتاب ، فقالوا : هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلا ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسائلتهم ، ولا والله ما رأينا رجلا منهم قط يسألكم عن الذي أنزل إليكم [82] " .

وأثر عن الإمام أحمد بن حنبل قوله :

" ثلاثة لا أصل لهم : التفسير والملاحم والمغازي " . أي أنها ليست ذات أسانيد صحيحة متصلة [83] .

8- التعصب المذهبي : شاعت منذ القرن الرابع الهجري بدعة التعصب المذهبي . فانتج ذلك مخالفة الكثير من النصوص الصحيحة ، وتقديم الرأي عليها ، ونشر الفتن والخلاف بين المسلمين ، والتحايل على الدين ، والجمود على التقليد ، وإغلاق باب الاجتهاد ، والاشتغال بالافتراضات الخيالية ، الأمرالذي أدى إلى شيوع الجهل . على المدى الطويل .

وقد منع الاجتهاد بعد القرن الرابع الهجري ، ثم ساد اختيار كتب الفقه المتأخرة الخيالية من الأدلة الشرعية ، فقلت دراسة الكتاب والسنة ، والرجوع إليها عند الخلاف . فانحرف الناس عن السنة ، وشاعت البدع ، ووصل الأمر أن أبا الحسن عبيد الله بن الحسن الكوفي رئيس الحنفية بالعراق في القرن الرابع الهجري الذي صنف المختصر ،

---

[81] الإسلام والدعوات الهدامة ص 224 . أنور وجدي .

[82] صحيح البخاري / كتاب الشهادة ، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرهما . حاشية السندي ج 2 ص 74 .

[83] هنالك عدة توجيهات لعبارة أحمد منها : أنه قصد كتبا مخصوصة ، ومنها ما ذكرناه من الكتب لكنها ليست على إطلاقها فهناك روايات كثيرة مسندة صحيحة متصلة في التفسير والملاحم والمغازي .

وشرح الجامعين الصغير والكبير لمحمد بن الحسن قال : " كل آية تخالف ما عليه أصحابنا ، فهي مؤولة أو منسوخة ، وكل حديث فهو مؤول أو منسوخ " [84] .

فقدم أقوال أهل المذهب على الكتاب والسنة . فما الفرق بين قوله وأقوال الصوفية ، والباطنية ، والفلاسفة ؟

وقد وصل الخلاف والخصام بين مقلدة المذاهب إلى درجة خطيرة ، فعادى بعضهم بعضا ، وضار يسعى بعضهم بالكيد ، والأذى للبعض الآخر ، فتسبب ذلك في الفتن الكثيرة ، والقتال فيما بينهم [85] . وقد حاول كثير من العلماء أن يقف في وجه تيار التعصب المذهبي ، فكان نجاحه ضئيلا . وقد قال العالم منذر بن سعيد البلوطي خطيب الخليفة عبد الرحمن الناصر بالأندلس يشكو حال المذهبيين ، وموقفهم من الكتاب والسنة [86]

عذيري من قوم يقولون كلما طلبت دليلا هكذا قال مالك

فإن عدت قالوا هكذا قال أشهب وقد كان لا يخفى عليه السالك

فإن زدت قالوا سحنون قبله ومن لم يقل ما قاله فهو آفك

فإن قلت : قال الله ضجوا وأكثروا وقالوا جميعا أنت قرن مماحك

وإن قلت : قال الرسول فقولهم ائت مالكا في ترك ذاك المسالك

وقد أدت هذه التحديات الداخلية ، مع ما رافقها من تحديات أخرى ، وتحديات خارجية ، إلى شدة الضغط على العالم الإسلامي ، وقادت إلى الضعف ، والتفكك ، والإنحلال ، وتردى المسلمون إلى حالة من العجز في مجال الإختراع ، والإبداع ، وسادهم الجمود ، والتقليد ، والتواكل ، والانحراف ، عن النهج القويم ، والابتعاد عن الشريعة ، وشاب إيمان المسلمين كثير من الكدر ، فانهارت قواهم ، ووقع العالم الإسلامي لقمة سائغة في يد الاستعمار الأوربي الحديث ، وخر صريعا أمام الهجمات الشرسة ، التي قادتها الصليبية الحديثة ، مع الصهيونية ، والشيوعية .

---

[84] الخضري – تاريخ التشريع الإسلامي ص 256 ، 232 .

[85] انظر في ذلك : البداية والنهاية لابن الأثير ج 12 ، ص 18 ، ج 13 ص 19 ، 21 ، الكامل لابن الأثير ج 8 ص 106 ، ج 9 ص 215 ، ومعجم البلدان لياقوت ج 1 ص 273 .

[86] محمد عيد عباسي – المذهبية المتعصبة ص 247 .

الفصل الثاني
العوامل الخارجية

1- التحدي المغولي " التتري " :

المغول والتتار قبائل موطنهم الأصلي منغوليا (شمال صحراء غوبي) ، وكانت هذه القبائل تقضي أوقاتها في النزاعات القبلية ، وفي البحث عن منابت العشب ، ودانت بالوثنية ، التي تعرف باسم (الشامانية) [87] . تقول بوجود قوتين : " قوة الخير والنور والدفء ، وقوة الشر والظلام والبرد ، ويسكن إله الخير في الشرق ، وإله الشر في الغرب . وتقوم ممارساتها على السحر وعلى الرشاقة الجسدية من رقص وغيره ، فاكتسبت كلمة شامان معنى " الساحر " .

واستطاع تيموجين بن بسوكاي ، الذي ولد في منغوليا ، عام 549 هـ / 1155 م ، أن يوحد هذه القبائل عام 603 هـ / 1206 م ، ووضع لهم دستورا اجتماعيا ، حربيا ، مختصرا عرف باسم (الياسة الكبرى) ، أو (اليساق) [88] بالغ الشدة والعنف ، للطاعة فيه أكبر نصيب ، فكانوا أعظم الأمم طاعة لسلاطينهم [89] ، دون معرفة معاني الشفقة ، أو الرحمة [90] ، وبعد أن وحدهم لقب نفسه (جنكيزخان) أي أعظم الملوك . واندفع بهم إلى الصين ، واستولى على بكين عام 612 هـ ، فاستولى بذلك على مزيد من الكنوز ، والنفائس ، وتعلم المغول استعمال البارود [91] ، ثم قضى على دولة الخطا السوداء (قرة خطي) التركية ، المتاخمة لبلاد الصين 615 هـ [92] ، فأصبح يطرق أبواب العالم الإسلامي ، ويتحداه ، وكان هذا التحدي شريكا لبعض الوقت للغزو الصليبي على عالم الإسلام ، وقد حمل بهمجية ، وبربرية ، ووحشية على العالم الإسلامي ، وكانت حملاته وحملات أخلافه ، غاشمة كمد البحر ، أو الطوفان ، الذي كاد يغرق ، ويبدد ، أو يقوض الحضارة الإسلامية .

اصطدم جنكيزخان بالدولة الإسلامية الخوارزمية – وكانت قد ظهرت سنة 490 هـ / 1096 م بعد أن ضعفت دولة السلاجقة ، وكانت بمثابة السور الفولاذي المنيع ، الذي يحمي الجبهة الإسلامية من جهة المشرق [93] ، تمتد من العراق العجمي غربا ، إلى نهر السند شرقا ، ومن شمال بحر قزوين ، وآرال شمالا ، إلى الخليج العربي ،

---

[87] انظر المغول في التاريخ . د. فؤاد الصياد . ج 1 / 32 – 35 . ، معالم تاريخ الإنسانية ص 923 .

[88] انظر هذا الدستور / المقريزي – المواعظ والاعتبار ج 2 / 220 – 221 .

[89] صبح الأعشي – القلقشندي ج 4 / 212 .

[90] انظر الكامل ج 9 / 329 – 331 .

[91] المغول في التاريخ ص 53 .

[92] نفسه ص 57 .

[93] انظر النجوم الزاهرة . أبو المحاسن . ج 6 / 277 .

والمحيط الهندي ، جنوبا شاملة : أذربيجان ، والعراق العجمي ، وفارس ، وكرمان ، وكمران ، وسجستان ، وخراسان ، وأفغانستان ، والبامير ، والصغد ، وما وراء النهر . وكان على رأس هذه الدولة حين بدأت تطرقها المطارق المغولية السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه .

هاجم جنكيزخان الدولة الخوارزمية سنة 616 هـ / 1219 م ، وخاضت خوارزم حربا مدمرة مدة خمس سنوات ، إلى أن تمزقت أوصالها ، واكتسح المغول أراضيها ، وأقاموا المجازر في بخارى [94] ، وسمرقند [95] ، ومرو ، ثم بلخ ، ونيسابور ، والري ، وهمدان ، وغزنه ، فأبيد الملايين من السكان ، وتهدمت ألوف المساجد ، ودور العلم العامرة ، وتحولت حواضر الإسلام الزاهرة في تركستان ، وفارس ، إلى كتل من اللهب ، والخراب . وترك جنكيز الدولة الإسلامية الخوارزمية أشبه ما تكون بصحراء جرداء ، فأباد سكانها ، وخرب مدنها العامرة ، وأحرقها .

توفي جنكيزخان عام 624 هـ / 1227 م فقام حفيده هولاكو بإتمام دوره في بلاد الإسلام ، فتحالف مع الصليبيين ، وكانت أمه نصرانية قال عنها ابن العبري : " أحسنت تربية الأولاد ، وضبط الأصحاب ، وكانت لبيبة مؤمنة ، تدين بالنصرانية ، وتعظم محل المطارنة والرهبان ، وتقتبس صلواتهم وبركتهم " [96] كما كانت زوجته نصرانية ، وأعلن الخاقان الأعظم أنه إنما أرسل هولاكو إلى غرب آسيا ليقضي على الخلافة العباسية ، ويعيد بيت المقدس ، بعد أن كان قد حررها صلاح الدين عام 583

---

[94] وصف ابن الأثير حالة الناس في بخارى يوم سقوط المدينة سنة 616 هـ ومن وصفه :

" كان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان ، وتفرقوا أيدي سبأ ، وتمزقوا كل ممزق ، واقتسموا النساء أيضا ، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها ، كأن لم تغن بالأمس ، وارتكبوا من النساء العظيم ، والناس ينظرون ، ويبكون ، ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئا مما نزل بهم ، فمنهم من لم يرض بذلك ، واختار الموت على ذلك ، فقاتل حتى قتل . . . ومن استسلم أخذ أسيرا ، وألقوا النار على البلد ، والمدارس ، والمساجد ، وعذبوا الناس بأنواع العذاب من طلب المال " . (ابن الأثير . الكامل في التاريخ ج 9 / 332)

وحدث أن أحد السكان فر ناجيا بجلده إلى خراسان فسئل عما فعله المغول بمدينته فقال كلمات موجزة بالفارسية :

" لقد أتوا فخربوا ، وأحرقوا ، وقتلوا ، ونهبوا ، ثم ذهبوا " . الصياد . المغول في التاريخ ج 1 ص 118 عن الجويني ج 1 ص 83 .

[95] ووصف ابن الأثير أيضا ما أحدثه التتار في مدينة سمرقند سنة 617 هـ / 1220 م حاضرة بلاد ما وراء النهر وأعظم المدن التجارية آنذاك بعد أن استولوا على قلعة المدينة وجمعوا الأسلحة :

" فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج جميعهم ومن تأخر قتلوه ، فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارى من القتل والنهب والسبي والفساد ، ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع وافتضوا الأبكار وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبي . (الكامل في التاريخ ج 9 / 333)

[96] مختصر تاريخ الدول ص 248 . فهو يتعصب لها ، رغم أنه كان يعيش في كنف المسلمين .

هـ . فاعتبر هولاكو نفسه محررا للنصارى من المسلمين ، وأرسل إلى الصليبيين قبل أن يبدأ غزوه المسلمين يقول :

" إن لدينا أعدادا كبيرة من المسيحيين بين قبائلنا ، وثد جئنا بقوتنا ، وسلطاننا معلنين ضرورة تحرير جميع المسيحيين من العبودية ، ومن الضرائب ، التي فرضها عليهم المسلمون ، ومعلنين ضرورة معاملة المسيحيين معاملة تليق بهم ، فلا يعتدى عليهم ، ولا على تجارتهم أحد ، ونحن نصرح بأننا سنعيد بناء الكنائس التي خربها المسلمون [97] " .

كما قام وزير المستعصم الخليفة العباسي وهو (ابن العلقمي محمد بن محمد) بمكاتبة هولاكو ، وجسره ، وقوى عزمه على قصد العراق ، وابن العلقمي هذا رافضي شيعي ، قام بإضعاف الخلافة العباسية بمكائده المختلفة ، وأضعف الجيش ، وقلل عدده ، وأشار على الخليفة بمداراة هولاكو [98] . فاستطاع هولاكو بتشجيع من النصارى ، والشيعة ، الوصول إلى بغداد عاصمة دار الإسلام ، ودار السلام ، وبمساعدتهم تمكن دخول بغداد بجحافله ، فخربوا المساجد وأتلفوا المكتبات ، بإحراق الكتب ، أو بإلقائها في نهر دجلة ، وقتلوا معظم سكان بغداد دون أن يستثنوا إمرأة ، أو طفلاً ، ودون أن يعطفوا على مريض ، أو يقدروا عالما [99] . وقد قدر المؤرخون القتلى بمليون وثمانمائة ألف ، وبمليون ، وبثمانمائة ألف [100] وقتل الخليفة المستعصم ، بتشجيع وتحريض من ابن العلقمي ، ونصير الدين الطوسي الاسماعيلي ، فابن العلقمي نصح هولاكو بقوله : " بل المصلحة قتله ، وإلا فما يتم لكم ملك العراق " [101] أما نصير الدين الطوسي الاسماعيلي ، فكان وزيرا ، ومشيرا لهولاكو ، استصحبه هولاكو ، فهون عليه تحريب بغداد وقتل الخليفة المستعصم [102] . وجميع أفراد أسرته وأهل بيته .

وكان ابن العلقمي يطمع أن يزيل السنة بالكلية وأن يظهر البدعة الرافضة باتخاذه عند هولاكو يدا ، وعمل بالفعل على تعطيل المدارس ، والمساجد ، والجماعات ، والجمعات ، والربط ببغداد ، واستمر بالمشاهد ، ومحال الرفض ، وكان يريد أن يبني

---

[97] Lamb, The Flame of Islam pp 337

وقد ألف ميشيل السوري (ت عام 695 هـ / 1159) كتابا هاجم فيه المسلمين ، واعتبر الغزو المغولي بمثابة انتصار للنصرانية . فاروق عمر (العباسيون الأوائل) ج 2 ص 161 .

[98] الذهبي – سير أعلام النبلاء ج 23 ص 180 ، 363 .

[99] أبو الفدا – المختصر – ج 3 ص 203 .

[100] الذهبي – سير أعلام النبلاء – ج 23 ص 179 البداية والنهاية ج 13 ص 202 / السيوطي – تاريخ الخلفاء ص 472 .

[101] الذهبي – سير – ج 23 / 180 .

[102] البداية والنهاية ج 13 / 201 ، 267 .

مدرسة هائلة للرفض [103] . ولكن هولاكو أهمله ، وأذله ، فذاق وبال أمره ، وتوفى مذموما مدحورا .

وهكذا أصبحت بغداد – دار السلام – بفعل التتار ، والنصارى ، والرافضة مأوى لجماعة من النصارى ، والزط ، والشيعة ، والوثنين ، فقد طلب هولاكو من بطريق النساطرة أن يجمع النصارى في إحدى الكنائس ، حتى يميزوا عن غيرهم ، فلا يتعرض لهم جند التتار .

وكان سقوط بغداد عاصمة الخلافة أشبه بزلزال رهيب ، دك بنيان بلاد الإسلام من أقصاها إلى أقصاها ، ونظم الشعراء من العرب ، والفرس ، المرائي التي تشيع الأسى في النفس وتثير الشجون [104] .

تقدم هولاكو بعد ذلك إلى الشام ، وهاجم حلب ودخلها بعد حصار شديد وتركها شعلة من اللهب والدخان ، ودخل كتبغا دمشق ، فسقطت حاضرة الشام صريعة تحت أقدام المغول سنة 657 هـ ، واشتركت معه فرق نصرانية أرمنية ، وافرنجية ، فسنحت للنصارى الفرصة للتشفي ، والانتقام من المسلمين ، فنظموا مواكب عامة ، حملوا فيها الصلبان ، وأنشدوا الأناشيد ، ويذمون دين الإسلام وأهله ، وأجبروا المسلمين على أن يقفوا احتراما لمواكبهم ، ومن امتنع تعرض للسب والإهانة ، وبلغ بهم التحدي أقصاه فدقوا النواقيس ، وتظاهروا بالخمر في رمضان ورشوه على ثياب المسلمين في الطرقات ، كما صبوه على أبواب المساجد ، ولم يستثنوا حتى الجامع الأموي ، فضجر المسلمون ورفعوا شكواهم إلى (ابل سبان) متسلم البلد وكان نصرانيا فلم يحفل بهم ، بل أهانهم ، وضرب بعضهم ، وأخذ يزور الكنائس ، ويعظم رجالها على اختلاف مذاهبهم [105] .

وقيض الله سبحانه وتعالى لأمة الإسلام : المماليك في مصر ، بقيادة قطز ، والظاهر بيبرس ، وعلماء مثل العز بن عبد السلام (سلطان العلماء ، فتحركت في الأمة روح الجهاد ، واستثيرت طاقات الأمة ، ووجهت الى الجهاد في مصر ، والشام ، وتحركت جيوش الإسلام من مصر عام 658 هـ / 1260 م والتقت بجيوش المغول تؤيدهم وتؤازرهم بعض النجدات النصرانية من الآرمن والكرج – في عين جالوت – بين بيسان ، ونابلس ، على أرض فلسطين [106] في 25 رمضان ، وألقى قطز بخوذته على الأرض أثناء المعركة ، وصاح بصوت كالرعد :

---

[103] البداية والنهاية ج 13 / 201 / الذهبي ج 23 / 180 .

[104] البداية ج 13 / 219 / الذهبي – دول الإسلام ج 2 / 125 ، المقريزي – السلوك ج 1 ق 2 / 425 / النجوم الزاهرة ج 7 / 80 .

[105] البداية والنهاية ج 13 / 219 .

[106] ياقوت – معجم البلدان – ج 4 / 177 .

" وإسلاماه ، اللهم انصر عبدك قطز على التتار [107] " فكتب الله النصر المبين للإسلام ، وانهزم المغول هزيمة منكرة لأول مرة في تاريخهم ، بعد أن كانت القلوب قد يئست من النصرة عليهم ، لاستيلائهم على معظم البلاد الإسلامية ، ولأنهما ما قصدوا إقليما إلا فتحوه ، ولا عسكرا إلا هزموه [108] . فتكسرت حدة موجات التتار ، وتحول مدهم إلى جزر ، واسترجع المماليك منهم الشام بأكملها ، فكانت عين جالوت فاتحة سلسلة من الانتصارات توالت على المسلمين ، وحطمت أسطورة قوى المغول ، وعاد دين الإسلام غض الإهاب [109] . وأسلم (بركة خان) حاكم القبجاق وابن عم هولاكو ، فساعد المسلمين ضد ابن عمه [110] .

وبقي المسلمون يقاسون الأمرين من المغول ، في فارس ، والعراق ، واستمرت غاراتهم على الشام ، والمسلمون يردونهم ، كما حدث في وقعة حمص سنة 680 هـ [111] . وقد هداهم الله للإسلام فضاع على الصليبيين أملهم في الانتصار على المسلمين ، كما ضاعت مجهوداتهم من قبل في الشام ، فقد أعلن أحمد بن هولاكو إسلامه عام 680 هـ [112] . ولكن حالة المسلمين لم تمكنها من أن تبعث في نفوس المغول النواحي الإيجابية ، التي تقود إلى الأصالة ، وإلى المساهمة في رفع شأن الإسلام كدين ، وشريعة ، والمساهمة في بناء صرح الحضارة الإسلامية ، وأعمال (قازان) الذي غزا الشام ، واجتاحها ، سنة 699 هـ إلى سنة 702 هـ ، وفعله القبائح [113] ، دليل على ذلك . فاستمر العلماء يحرضون على جهادهم فكانت موقعة شقحب الفاصلة سنة 702 هـ ، التي انهزم فيها التتار هزيمة منكرة . وكانت فتوى شيخ الإسلام (ابن تيمية) في حربهم ، وبين الشيخ من تعاون مع التتار وسبب تعاونهم ذلك [114] . واستمرت قسوة التتار كأعمال (تيمورلنك) ، إذ ملأ بلاد آسيا الوسطى والغربية قتلى ، وأشلاء ، وأكداس من الجماجم وخرائب ، وقد لحق بالشام من فتكه وتدميره الشيء الكثير [115] .

---

[107] المقريزي – الخطط . ج 2 / 38 .

[108] أبو الفدا – المختصر ج 3 / 214 / النجوم الزاهرة ج 7 / 90 – 91 .

[109] انظر القلقشندي – صبح الأعشى ج 7 / 360 – 362 .

[110] البداية والنهاية ج 13 / 249 ، المقريزي – السلوك ج 1 ق 2 / 395 .

[111] البداية والنهاية ج 13 / 295 .

[112] ابن عبد الظاهر – محيي الدين – تشريف الأنام والعصور في سيرة الملك المنصور / تحقيق مراد كامل – وزارة الثقافة والإرشاد القومي 1969 م / ص 24 .

[113] البداية والنهاية ج 14 / 6 – 23 / النجوم الزاهرة ج 8 / 142 – 146 .

[114] انظر – العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية / للإمام محمد بن أحمد بن عبد الهادي / دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ص 120 – 141 .

[115] صبح الأعشى ج 8 / 103 – 106 .

وهكذا أسهم الغزو المغولي في ضعف بلاد الإسلام وفي انهاكها ، وقد عبر السيوطي عن مأساة هذا الغزو بقوله : " هو حديث يأكل الأحاديث وخبر يطوي الأخبار ، وتاريخ ينسي التواريخ ، ونازلة تصغر كل نازلة ، وفادحة تطبق الأرض وتملأها ما بين الطول والعرض " [116] .

وقال ابن الأثير في كامله – وهو لم يشهد خراب بغداد بل شهد خراب ما وراء النهر وخوارزم من بلاد الإسلام – : " حادثة التتار من الحوادث العظمى والمصائب الكبرى التي عقمت الدهور عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل : إن العالم منذ خلقه الله تعالى إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها [117] .

2- الحروب الصليبية :

مثل التحدي الصليبي ، التحدي الرئيسي في مواجهة الإسلام والمسلمين ، واستغلته اليهودية في صراعها مع الإسلام ، وقد حملت الدولة البيزنطية وزر مقارعة الإسلام فكريا ، وعسكريا ، من أول ظهوره ، إلى أن تهاوت وانهارت نهائيا تحت مطارق الإسلام عام 857 هـ / 1453 م . فانتقل ذلك إلى الامبراطورية الروسية ، والنمساوية ، وفرنسا ، وانجلترا ، في الوقت الذي كان فيه الاسبانيون ، والبرتغاليون ، يتحركون بدافع الحقد على الإسلام والمسلمين ، ويدفعون المسلمين عن الأندلس . وكل أولئكم يحركهم البابا في روما ، وتنفخ فيه الكنيسة روح الحقد على المسلمين ، وتثيرها حربا لا هوادة فيها . وبقيت هذه الروح هي المسيطرة حتى بعد أن انشقت الكنيسة الكاثوليكية ، وقامت بحركة الاصلاحات الدينية .

تمكن الأتراك السلاجقة أن يحيوا روح الجهاد في الأمة ، فحملوا راية الجهاد ، بعد منتصف القرن الخامس الهجري ضد البيزنطيين واصطدم سلطانهم ألب ارسلان بقوة بيزنطية هائلة ، كان يقودها الامبراطور ديوجينس ، وقد تشتت شمل النصارى في معركة ملاذكرد ، (مانزكرت) عام 463 هـ / 1071 م وكانت معركة من المواقع الحاسمة في التاريخ ، نتج عنها انتشار الإسلام في آسيا الصغرى ، وتركيزه ، وأصبحت من ذلك اليوم من ديار الإسلام – فاتجه أباطرة بيزنطة لتسوية الخلاف مع البابا ، واستنجدوا به لحمايتهم ، فوجدوا أذنا صاغية من البابا : (أوربان الثاني) الذي دعا للحروب الصليبية بإعلان (كليرمونت) عام 1095 م ، حين ألقى خطابا دعا فيه النصارى للحرب ضد المسلمين ، لاستخلاص بيت المقدس ، ووعد من يشترك فيها من النصارى ، بالغفران الكامل ، فتجاوب هتاف النصارى : " هكذا أراد الله " واتخذوا شعار الصليب ، وبدأوا بالتدفق على بلاد الإسلام ، عام 1097 م ، فاشتعلت حرب ضارية بدون هوادة طوال قرنين من الزمان .

---

[116] تاريخ الخلفاء ص 467 .

[117] الكامل في التاريخ ج 9 / 329 .

بدأ التدفق الصليبي في الوقت اذلي كان فيه المسلمون قد بدأوا بالتفتت والصراع ، بعد وفاة السلطان ملكشاه ، سنة 486 هـ / 1092 م ، فانقسمت الدولة السلجوقية بعد خمس سنوات فقط من وفاته ، إلى خمسة ممالك متنافسة هي : مملكة فارس ، ومملكة حلب ، ومملكة دمشق ، وسلطنة سلاجقة الروم والعراق . وفي الوقت نفسه تعرضت بلاد الشام إلى انقسام آخر ، وظهرت وحدات سياسية عرفت باسم (الأتابكيات) مثل أتابكية دمشق ، والموصل ، وبعضها صغير جدا لا يتعدى أسوار مدينة ، أو قلعة واحدة [118] . وساد هذه السلطنات ، والأتابكيات ، النزاع والحروب .

وبالإضافة لذلك فقد دخلت هذه الدويلات مع الدولة الفاطمية التي (تحالفت مع الحركة الباطنية الاسماعيلية) في صراع مرير ، استنفذ طاقاتها المادية والبشرية .

وفي هذا الجو تدفقت جموع الصليبيين يشترك فيها أمراء الإقطاع والفرسان ورجال الدين . فانتصروا في البداية ، وأطاحوا بملك سلاجقة الروم ، واستولوا على عاصمتهم نيقية ، سنة 491 هـ / 1097 م ، وكونوا في بلاد الشام ، وآسيا الصغرى ، إمارة الرها ، وإمارة أنطاكية ، وإمارة طرابلس ، ومملكة بيت المقدس اللاتينية ، عام 492 هـ / 1098 م . وضرب الصليبيون مثالا للحقد على الإسلام ، والمسلمين ، فاتسم الغزو بروح التعصب ، والانتقام، فقد سفكوا الدماء في الرها ، وانطاكية ، وطرابلس ، وبيت المقدس ، وسفكوا دماء سبعين ألف مسلم ، أو يزيد ، في ساحة المسجد الأقصى ، من المجاورين ، والعلماء ، والطلاب ، والعباد ، والزهاد ، وخاضت خيولهم بدم الضحايا من الرجال ، والنساء ، والأطفال [119] .

وأذكر هنا ما رواه الراهب روبرت ، أحد الصليبيين المتعصبين ، وهو شاهد عيان لما حدث في بيت المقدس واصفا سلوك قومه :

" كان قومنا يجوبون الشوارع ، والمبادين ، وسطوح البيوت ، ليرووا غليلهم من التقتيل ، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها ، كانوا يذبحون الأولاد والشباب ، ويقطعونهم إربا ، إربا ، وكانوا يشنقون أناس كثيرين بحبل واحد ، بغية السرعة . وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه ، فيبقروا بطون الموتى ، ليخرجوا منها قطعا ذهبية ، فيا للشره ، وحب الذهب ، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث . . . " [120] .

وقال كاهن (أبوس) (ريموند داجميل) شامتا :

" حدث ما هو عجيب بين العرب ، عندما استولى قومنا على أسوار القدس ، وبروجها ، فقد قطعت رؤوس بعضهم ، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم ، وبقرت

---

[118] انظر – ابن خلدون ج 5 / 21 ، وانظر البداية والنهاية ج 12 / 156 .

[119] المراجع السابقة .

[120] غوستاف لوبون – الحضارة العربية ص 325 ، وانظر فيليب حتى – تاريخ العرب ص 194 – 195 .

بطـون بعضـهم ، فكـانوا يضـطرون إلـى القـذف بأنفسـهم مـن أعلـى الأسـوار ، وحـرق بعضـهم فـي النـار ، فكـان ذلـك بعـد غيـاب طويـل ، وكـان لا يـرى فـي شـوارع القـدس ، وميادينهـا ، سـوى أكـداس مـن رؤوس العـرب ، وأيـديهم ، وأرجلهـم . فـلا يمـر المـرء إلا علـى جثـث قـتلاهم ، ولكـن كـل هـذا لـم يكـن سـوى بعـض مـا نـالوا " . وقـال واصـفا مذبحـة مسجد عمر :

" لقـد أفـرط قومنـا فـي سـفك الـدماء ، فـي هيكـل سـليمان ، وكانـت جثـث القتلـى تعـوم فـي السـاحة هنـا وهنـاك ، وكانـت الأيـدي ، والأذرع المبتـورة ، تسـبح كأنهـا تريـد أن تتصـل بجثـث غريبـة عنهـا ، فـإذا مـا اتصـلت ذراع بجسـم لـم يعـرف أصـلها . . . ولـم يكتـف الفرسـان الصـليبيون الأتقيـاء بـذلك ، فعقـدوا مـؤتمرا أجمعـوا فيـه علـى إبـادة جميـع سـكان القـدس مـن المسـلمين ، واليهـود ، وخـوارج النصـارى ، الـذين كـان عـددهم نحـو سـتين ألفـا ، فـأفنوهم علـى بكـرة أبـيهم فـي ثمانيـة أيـام ، ولـم يسـتبقوا مـنهم امـرأة ، ولا ولـدا ، ولا شـيخا " [121] .

وعمـل الصـليبيون مثـل ذلـك فـي مـدن المسـلمين التـي اجتاحوهـا . ففـي (المعـرة) قتلـوا جميـع مـن كـان فيهـا مـن المسـلمين اللاجئـين إلـى الجوامـع ، والمختبئـين فـي السـراديب ، فـأهلكوا صـبرا مـا يزيـد علـى مائـة ألـف إنسـان فـي أكثـر الروايـات . وكانـت المعركـة مـن أعظـم مـدن الشـام بعـدد السـكان بعـد أن فـر إليهـا النـاس بعـد سـقوط انطاكيـة وغيرهـا بيـد الصليبيين " [122] .

ومـن الجـدير بالـذكر أن الحـروب الصـليبية قـد بـدأت فـي الجـزء الغربـي مـن العـالم الإسـلامي قبـل هـذا التـاريخ ، فسـقطت صـقلية فريسـة سـائغة لهجمـات النورمـان سـنة 484 هـ / 1091 م [123] ، ومحيـت مـن خريطـة البلـدان الإسـلامية ، فكانـت الشـهيدة الأولـى ، التـي ذهبـت ضـحية الإهمـال والتخـاذل ، وأمـا الأنـدلس فكانـت سـنة 407 هـ [124] ، مبـدأ التفـرق والتمـزق فكـان عصـر ملـوك الطوائـف ، فأخـذت كفـة النصـارى تـرجح ، وأصـدر البابـا (اوربـان) مرسـوما حـرم فيـه علـى رجـال الـدين ، والفرسـان الأسـبان ، المشـاركة فـي صـليبيات الشـرق ، لأن محاربـة المسـلمين بأسـبانيا لا تقـل أهميـة واعتبـارا عـن الحـرب الصـليبية الشـرقية ، فنـتج عـن ذلـك أن هـرع الكثيـر مـن الفرسـان مـن مختلـف أوربـا إلـى الأنـدلس ، ليسـاهموا فـي حـرب صـليبية هـي أقـرب سـبيلا ، وأيسـر مشـقة وعنـاء ، وأعلـن البابـا (باسـكال الثـاني) الحـرب الصـليبية ضـد مسـلمي الأنـدلس ، وأصـبح مـن المـألوف أن يـأذن البابـا لملـوك الأسـبان فـي اسـتعمال أمـوال الكنـائس لمحاربـة المسـلمين ، وكانـت البعثـات الصـليبية الـواردة مـن أوربـا الشـمالية (انكليـز ، والمـان ، وهولنـديون) لا تـرى مانعـا إذا تعطلـت فـي سـيرها أن تعـين ملـوك الأسـبان فـي حـرب المسـلمين ، وأن يكتفـي

---

[121] غوستاف لوبون ص 326 – 327 .

[122] الإسلام والحضارة العربية ص 396 .

[123] ابن الأثير – الكامل ج 8 / 157 .

[124] المطوي ص 18 .

البعض منهم بتلك المساهمة . فتعرضت الأندلس المسلمة إلى عملية غزو واستيطان من قبل جميع نصارى أوربا .

وفي سنة 632 هـ / 1244 م أصدر البابا (جريجوار التاسع) قرارا وعد فيه النصارى الذين يحاربون مع ملك البرتغال ، بغفران ذنوبهم ، كما لو كانوا في الحروب الصليبية في الأراضي المقدسة ، فكان البابا يثير حماس البرتغاليون ضد المسلمين [125] . ويتدفق معهم الصليبيون من مختلف أجزاء أوربا .

وتشاء حكمة الله تعالى أن ينهض في كل دور من أدوار التاريخ الإسلامي ، وفي كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي ، رجال يقومون في هذه الأمة على طريقة الأنبياء ، في ميدان القيم ، والمعتقدات ، يجددون أمر الدين ، وينفخون روح الجهاد في الأمة . تبعا للقاعدة التي لا تتخلف : (**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**) . فظهر في بلاد الغرب دولة (المرابطين) ، ثم (الموحدين) قارعتا الصليبيين في الأندلس . ومن الله تعالى على العالم الإسلامي في القرن السادس الهجري ، بعماد الدين زنكي ، أتابك الموصل ، الذي التف حوله المخلصون من المسلمين ، وجعلوا دولته دار هجرة ، تداعوا إليها من جميع الأقطار ، فأخذ منذ توليه سنة 487 هـ يعد الناس إعدادا إسلاميا ، ويطهر الدين من التيارات الفكرية المنحرفة ، كالباطنية ، وآثار الفلسفة اليونانية ، والممارسات الفاطمية للعبادات والشعائر ، ويعمل على تحقيق الوحدة الإسلامية بين الشام ، ومصر ، وشبه الجزيرة العربية ، وشمال العراق ، وبدأ بمقارعة الصليبيين ، وهزمهم في معارك كثيرة ، واستعاد الرها ، سنة 539 هـ ، وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة [126] الفراتية .

---

[125] المطوي ص 191 .

[126] الكامل في التاريخ ج 9 / 8 .

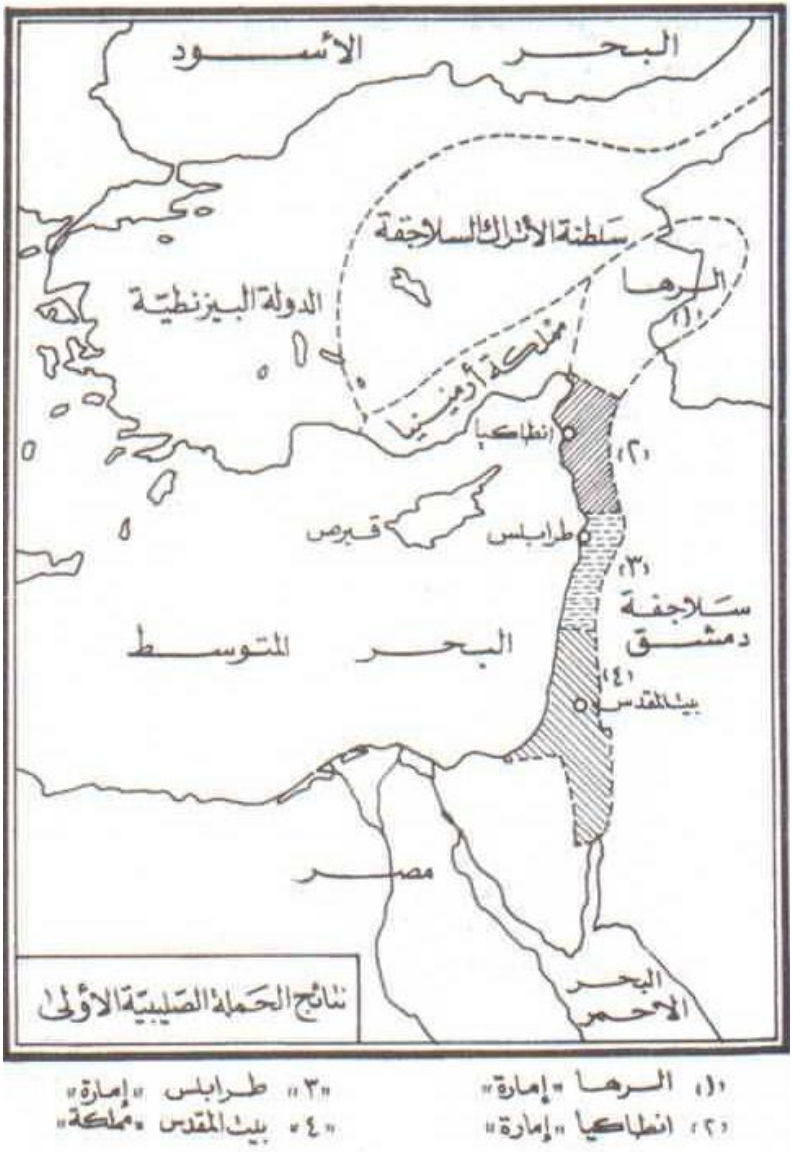

ولما استشهد سنة 541 هـ [127] خلفه ابنه : الملك العادل نور الدين محمود زنكي (ت سنة 569 هـ) [128] وفي نفس السنة تمكن عبد المؤمن بن علي من الموحدين أن يملك ما في جزيرة الأندلس من بلاد الإسلام [129] يجابه الصليبيين هناك ، وتمكن نور الدين أن يهزم الصليبيين هزائم متوالية ، وأتم توحيد مصر ، والشام ، وشمال العراق ، والحجاز ، فوضع الصليبيين بين فكي كماشة . فقد دخلت قواته مصر ، بقيادة أسد الدين شيركوه ، سنة 562 هـ [130] وتوفي أسد الدين سنة 564 هـ ، فوزر صلاح الدين ، ابن أخيه للخليفة الفاطمي ، العاضد ، ولما مات العاضد سنة 567 هـ ، أقام الخطبة العباسية بمصر ، وألغى الدولة الفاطمية ، وأصبحت مصر جزءا من الدولة النورية تابعة للخلافة العباسية [131] .

---

[127] الكامل في التاريخ ج 9 / 13 .

[128] نفسه ج 9 / 124 . في خلافة المستضيء بأمر الله ، الذي ولي الخلافة عام 566 هـ ووصفه المؤرخون أنه (أي نور الدين) كان : " ملكا صالحا ، ظاهر الدين ، بنى المساجد والمدارس والرباطات ، وفتح الأمصار ، وغزا الفرنج عدة غزوات " (المنتظم ج 1 / 248 ، الروضتين ج 1 / 227 ، أخبار الدول المتقطعة ص 309 ، سير أعلام النبلاء ج 20 / 531 – 539 ، البداية والنهاية ج 12 / 284) فكانت مجابهته للصليبيين على رأس أعماله المعدودة له رحمه الله .

[129] الكامل ج 9 / 10 .

[130] الكامل ج 9 / 95 .

[131] نفسه ج 9 / 111 .

ولما توفي نور الدين ، رحمه الله ، سنة 569 هـ ، أتم مهمته ، الناصر صلاح الدين ، يوسف بن أيوب ، الذي هيأه الله سبحانه وتعالى لاستخلاص بيت المقدس ، فقد جمع فيه من خصال الحزم ، والعز ، والإخلاص ، والحرص على الجهاد ، ونصر الإسلام ، ومكارم الأخلاق ، ما لا يجتمع إلا في أفذاذ الرجال ، فكان معجزة من معجزات الإسلام التي تتكرر ، ودليلا على أن الإسلام لم ينته دوره ، ولم يفقد الحيوية ، والانتاج ، فقد استجمع طاقة الأمة ، وهزم الصليبيين في معركة حطين بفلسطين ، عام 583 هـ / 1187 م [132] ، وكسر شوكتهم ، واستعاد بيت المقدس ، وأحضر له المنبر ، الذي أعده نور الدين بن محمود للمسجد الأقصى ، فعاد الإسلام إلى تلك الديار غضا طريا [133] . وفي الوقت نفسه كان يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي يخوض معركة الأرك ضد الصليبيين في الأندلس سنة 591 هـ [134] . وقد تم دحر الصليبيين نهائيا واخراجهم من بلاد الشام على يد الأشرف خليل بن قلاوون من سلاطين الممالك عام 690 هـ / 1291 م [135] .

---

[132] نفسه ج 9 / 178 .

[133] نفسه ج 9 / 185 ، وانظر العماد الأصفهاني / الفتح القسي في الفتح القدسي ص 397 – 398 ، وابن شامة / كتاب الروضتين ق 2 / 421 . وابن شداد – النوادر السلطانية .

[134] البداية والنهاية ج 13 / 10 الذي دعاها بالزلاقة والزلاقة قادها أمير المسلمين عام 479 هـ ، وهو يوسف بن تاشفين . انظر (بحث الزلاقة للمؤلف – مجلة الجامعة العددان 69 ، 70) ، وانظر الكامل في التاريخ ج 9 / 232 – 233 .

[135] البداية والنهاية ج 13 / 320 .

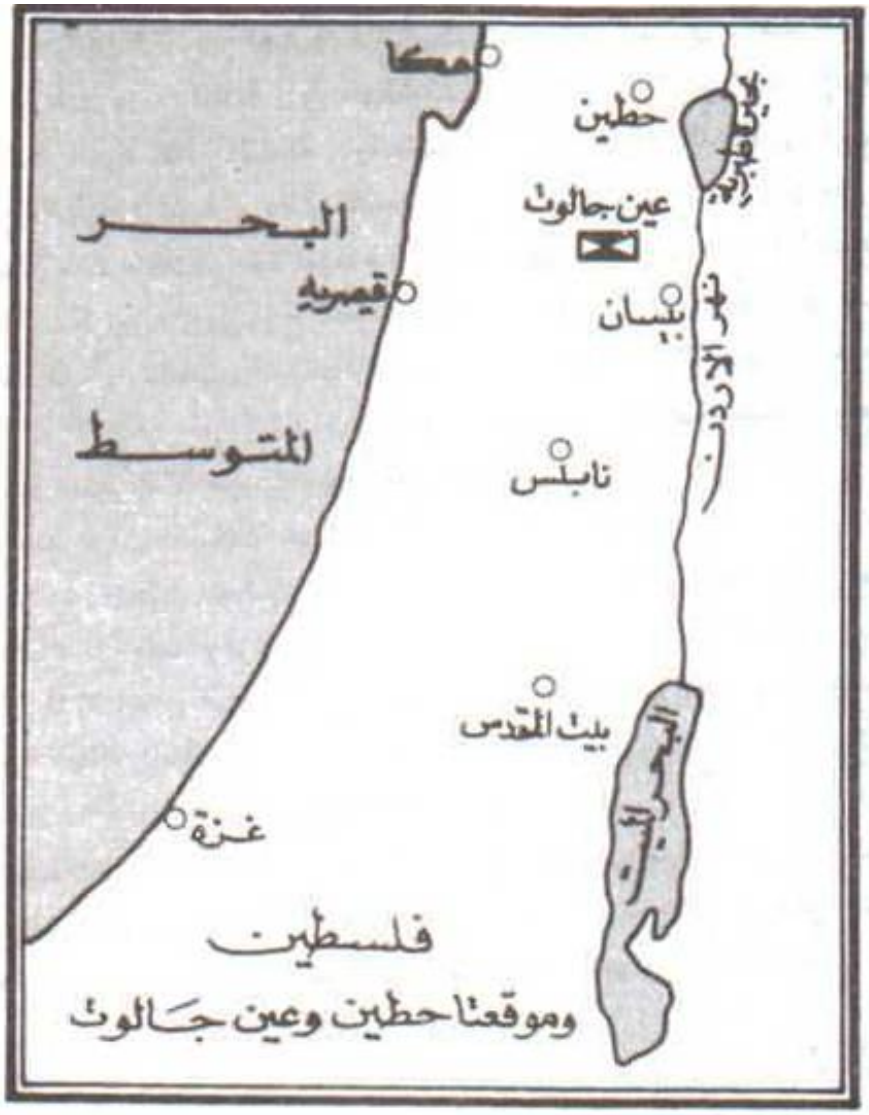

يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي يخوض معركة الأرك ضد الصليبيين في الأندلس سنة ٥٩١هـ(٤٨). وقد تم دحر الصليبيين نهائيا واخراجهم من بلاد الشام على يد الأشرف خليل بن قلاوون من سلاطين المماليك عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م(٤٩).

استطاعت الحروب الصليبية التي استمرت قرنين في المشرق ، استنزاف جميع القوى البشرية ، والماية ، في منطقة الشام ، ومصر ، واتسم الفكر الإسلامي في هذه الفترة بطابع المقاومة ، والتحدي ، ورد الفعل ، بالدعوة إلى الجهاد ، وابراز القدوة الحسنة ، ذلك كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية ، وكما فعل قبله سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، ومن نتائجها أيضا ، أن ألقيت مقاليد الأمور بيد العسكريين ، لبروز روح التحدي ، والجهاد هذه ، فجمدت أوضاع المسلمين الإقتصادية ، وتناقصت الثروة ، وصعفت الأيدي العاملة ، بالإضافة إلى الخراب ، والدمار ، الذي حل بالمسلمين في جميع أقطارهم ، وخاصة الشام ، ومصر ، وآسيا الصغرى ، وتونس ، والأندلس .

وقد عزلت الحملات الصليبية الأندلس ، عن قاعدته في المغرب الإسلامي ، وأخذت في تفتيت المسلمين ماديا ، ومعنويا ، بصورة بطيئة ، مع تجريدهم بصورة مستمرة من مصادر قوتهم . وبالرغم من ذلك بقيت الأندلس تقاوم ، واحتملت فوق قدرة احتمال البشر ، على امتداد قرون عديدة ، إلى أن سقطت غرناطة ، آخر معاقل المسلمين ، سنة 897 هـ / 1492 م بيد فرديناند وايزابيلا [136] . فاغتصبت أرض الأندلس الإسلامية ، واستوطنها الصليبيون الأوربيون ، وقد عانى المسلمون فيها معاناة عجيبة ، فلم يقبل منهم الصليبيون أحدا ، حتى الذين تنصروا من المسلمين الذين أطلقوا عليهم ايم (المورسك) . وخوفا من أن يبقى منهم من يحتفظ بالإسلام ، سلطت النصرانية الصليبية على مدن أوربا محاكم التحقيق ، التي أحرقت الألوف من الناس علنا . وقضت على حضارة المسلمين في الأندلس ، وظهر من المتعصبين الكثيرون مثل (خمينز) الذي فرض النصرانية على أهل غرناطة بالعنف ، ولما طلب المتنصرون أن تكتب لهم تعاليم النصرانية بالعربية ، لغتهم ، رد عليهم : " إننا لا نرمي حبات الدر النفيس للخنازير " . وهذا هو نفسه الذي أحرق المخطوطات العربية الرائعة التي بلغت على أقل تقدير ، ثمانين ألف مخطوطة ، في غرناطة وحدها [137] . وكانت قد ضاعت أيضا صقلية وجنوب إيطاليا وجزر البحر الأبيض المتوسط . واستوطنها الصليبيون الأوروبيون ، كما حدث في العالم الجديد إثر الاكتشافات الجغرافية . واستفاد الغرب الصليبي من الحروب الصليبية كثيرا [138] :

سياسيا : ازدادت سلطة الملوك ، باشتراك عدد كبير من أمراء الاقطاع مع فرسانهم في الحروب الصليبية ، فخلا الجو للملوك ، فزادت سلطاتهم على رعاياهم ، فظهرت الممالك الأوربية الحديثة . مثل بريطانيا ، وفرنسا ، وبروسيا ، وروسيا .

إجتماعيا : اقتبس الأوربيون كثيرا من مظاهر الآداب الاجتماعية ، والأخلاق ، واللباس ، من المسلمين ، وعادوا لتطبيقها على أوربا ، كما اهتزت طبقة الاقطاعيين وأخذت تظهر طبقات أخرى ، مثل الطبقة الوسطى من التجار خاصة ، والتي دعيت بالطبقة البرجوازية .

إقتصاديا : فقد تسلم الأوروبيون زمام التجارة بأنفسهم ، وتعلموا بعض الصناعات ، وخاصة صناعة الحرير ، والزجاج ، والورق ، ونقلوا بعض أشجار الفاكهة إلى أوربا ، وتعلموا أساليب الزراعة .

---

[136] انظر العسلي – الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ص 229 – 231 .

[137] السامرائي – د. قاسم – الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ص 36 . وعن أحوال المورسك في الأندلس المسلمة المغتصبة . انظر د. لوي كارديك – الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون – تعريب وتقديم د. عبد الجليل التميمي من منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية / الجزائر ، تونس عام 1983 م .

[138] انظر د. سعيد عبد الفتاح عاشور / أوربا العصور الوسطى ج 1 / 475 – 477 .

علميـا وثقافيـا : فقـد نشـأت حركـة واسـعة فـي ترجمـة العلـوم ، والمعـارف الإسـلامية ، إلـى اللاتينيـة ، بعـد أن أطلـع الأوروبيـون علـى معلومـات جغرافيـة ، وفلكيـة ، وتاريخيـة ، وزراعيـة ، مكنـتهم مـن حـب الاسـتطلاع . وباختصـار فقـد أحـدثت الحـروب الصـليبية تغيـرا فـي أوربـا فـي مختلـف نـواحي الحيـاة ، ومجالاتهـا ، ونقلتهـا مـن عصـر الإقطـاع المظلـم ، إلـى عهـد جديـد أطلـق عليـه اسـم : **عصـر النهضـة** – وحركـة النهضـة هـذه حركـة تغييـر شـاملة لجميـع نـواحي الحيـاة ، السياسـية ، والاجتماعيـة ، والإقتصـادية ، والثقافيـة فـي أوربـا وامتـدت مـن القـرن الثـاني عشـر الميـلادي إلـى القـرن السـادس عشـر . وابتـدأ فـي ايطاليـا لصـلتها الكبيـرة بالعـالم الإسـلامي مـن بقيـة أوروبـا ، عـدا أسـبانبا ، والبرتغـال . ويمكن تلخيص أسباب اليقظة الأوروبية في [139] :

1– الـروح الدافعـة التـي بثهـا الإسـلام ، وحضـارته ، فـي أرجـاء العـالم ، فأخـذت تسـري فـي أوصـاله ، مجـددة حياتـه وقـواه ، وقـد تلقفتهـا أوربـا عـن المسـلمين إبـان الحـروب الصـليبية فـي الشـرق ، وعـن طريـق الأنـدلس ، وصـقلية ، وجنـوب ايطاليـا ، والجامعـات الإسلامية .

2– التمـرد علـى الكنيسـة الجاهلـة ، ونبـذ سـلطانها السياسـي ، والـديني ، بكـل مـا يمثلـه مـن خطايـا ، واخطـار ، وحجـر علـى التفكيـر ، وكبـت للعلـم ، واضـطهاد للعلمـاء ، باسم دين الكنيسة ، وعصمتها .

نعـم أفـادت النهضـة الأوروبيـة مـن الحضـارة الإسـلامية كمـا تقـول المصـادر الأوروبيـة نفسـها [140] ، ولكنهـا لـم تسـر علـى الخـط الإسـلامي بمـا أفادتـه ، بـل صـبغت ذلـك كلـه بالصـبغة اليونانيـة ، والرومانيـة ، والوثنيـة ، فكانـت حركـة النهضـة ردة إلـى الوثنيـة الأولـى – يغشـيها غشـاء رقيـق مـن النصـرانية ، ظـل هـذا الشـغاء يـرقّ كثيـرا شـيئا فشـيئا ، إلـى أن تمـزق نهائيـا فـي أواخـر القـرن التاسـع عشـر ، وبدايـة القـرن العشـرين للميلاد .

فصـارت أوربـا لـذلك أعجـب مركـب حضـاري ، أخـذ مـن الإسـلام روحـه الحضـارية ، ومـن اليونـان ، والرومـان مثلـه وقـيم حياتـه الجديـدة ، التـي قامـت علـى أنقـاض مجتمـع الكنيسـة ، ودينهـا المهـزوم ، وأخـذت هـذه تتعامـل مـع العـالم الإسـلامي حـين تمـت لهـا الجولـة ، بـروح هـي خلـيط مـن هـذه التناقضـات ، فكانـت ملحـدة فـي كـل شـيء ، إلا مـع المسـلمين ، فهـي صـليبية ، تتحـالف فيهـا الدولـة العلمانيـة مـع الكنيسـة ، ويقـوم فيهـا الرجـل بـدور الراهـب ، والمبشـر ، والعـالم ، والمستشـرق ، والجاسـوس المحتـرف فـي آن واحـد أحياناً [141] .

---

[139] انظر فتح الله ص 26 .

[140] انظر غوستاف لوبون – دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي .

[141] فتح الله ص 27 .

3- حركة الاستعمار الأوروبي :

درج المؤرخون الأوروبيون على تقسيم العصور التاريخية إلى :

1- العصور القديمة : وتبدأ من ظهور الإنسان إلى عام 476 م وهو العام الذي سقطت فيه الامبراطورية الرومانية الغربية بسقوط عاصمتها روما بيد (ادواكر) زعيم القوط من البرابرة .

2- العصور الوسطى : وتبدأ في رأيهم من عام 476 م وتمتد إلى عام 1453 م وهو العام الذي سقطت فيه الامبراطورية الرومانية الشرقية (الامبراطورية البيزنطية) على يد السلطان العثماني محمد الفاتح .

3- العصور الحديثة : وتشمل الفترة الممتدة من عام 1453 م إلى الآن .

ويجب ملاحظة أن حوادث التاريخ متصلة الحلقات ومتداخلة ومن المستحيل فصل عصر عن عصر ، وفي فترات العصور الوسطى كانت أوربا قد تردت إلى الحضيض بل لقد عاشت في ظلام دعوه ظلام العصور الوسطى ، وفيما يلي إجمال لملامح تاريخ أوربا في هذه العصور الوسطى :

1- سيادة نظام الإقطاع في أوربا : لقد أدى اندفاع البرابرة من القبائل الجرمانية (القوط الشرقيين والغربيين والفرنجة والانجليز والسكسون والبيرغنديين) وانهيار الامبراطورية الرومانية الغربية إلى انعدام الأمن وانتشار الخوف والرعب والدمار والخراب ، فلجأ الضعفاء إلى الأقوياء يلتمسون الحماية ، وتنازلوا عن أرضهم وعن حرياتهم مقابل الحماية .

فنشأ ما يسمى بنظام الإقطاع بقلاعه الحصينة وفرسانه . وهو نظام إقتصادي إجتماعي حربي ، يقوم أساسا على حيازة الأرض . وقد أصبح المجتمع الأوربي في ظل هذا النظام مجتمعا طبقيا على رأسه الأشراف أو النبلاء وهم السادة من مالكي الأرض ، يدعمهم الفرسان وهم من أبناء الأشراف ، وفي حضيض هذا المجتمع طبقة الأقنان وهم المزارعون – عبيد الأرض – يعيشون على الأرض ، وللأرض ، ينتقلون من مالك إلى مالك ، ومن سيد إلى سيد ، دون أن يكون لهم الخيار ، فكانت عبودية من أقسى أنواع العبودية ، في الوقت الذي كانت راية الإسلام تحفق بعزة وجلال تعيد للرقيق إنسانيته ، ويعامل المسلمون الرقيق بما أمرهم به الدين .

وكان المجتمع الإسلامي لا يؤمن بالطبقية وليست هناك حواجز بين المسلمين ، بل يشهد تاريخنا الإسلامي على أن كثيرا من العبيد ومن الطبقات الدنيا وصلوا إلى درجة الحكم أو درجة مرموقة من العلم يشار إليهم بالبنان [142] . بحيث لم يكن يسمو

[142] انظر الموالي – موقف الدولة الأموية منهم – للمؤلف .

فيه الإنسان إلا بمقدار ما يتمتع به من طيب الخصال وبمقدار ما يقدم لإسلامه ولمجتمعه . وكان المجتمع الإسلامي بريئا من الصراعات الطبقية شهد المساواة والأخوة .

2- **سيادة نظام الكنيسة في أوربا** : دخل في روع النصارى أن بطرس تلميذ المسيح أسس كنيسة روما تجسيدا لمسيح دائم ، وأن بطرس هو رأس هذه الكنيسة ، فالكنيسة عالمية ورئيسها (أسقفها) خليفة بطرس رأس جميع الأساقفة كما أن كنيسة روما هي رأس الكنائس وأمها ، واعتقدوا أن السلطات الموعود بها القديس بطرس لا تقتصر على السلطة التعليمية بل يجب أن تمتد إلى مجال الولاية كله ، والله (كما أوحى لهم القسس) يقر في السماء ما يقره بطرس أو يرفعه على الأرض من الواجبات ، وللبابا خليفته مثل ذلك الولاية الكاملة على الكنيسة كلها ، في أمور الإيمان والآداب وتنظيم الكنيسة وإدارتها ، واعتقدوا بعصمة البابا من الغلط حين يتكلم من منصة التعليم ، والأساقفة ينقلون تعاليمه ، فتعاليمهم تحوي العصمة [143] . فأصبح البابا والقسيس بذلك يحللون ويحرمون . وهذا ما عناه صلى الله عليه وسلم عندما قال : " لعن الله اليهود والنصارى – اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله " ووصل بهم الأمر أن احتجزوا ملكوت السماء لأنفسهم واحتكروه فلا يدخلون فيه إلا من رضي عنهم ورضوا عنه ، أما الآخرون فهم محرومون من الرضوان .

واتخذت الكنيسة سمة النظام الإقطاعي فتعاون الكهنوت والإقطاع لاقتسام الضرائب الباهظة التي كانت تثقل كاهل الأمم ، والحماية متبادلة والمصالح مشتركة بين حملة السوط من جانب (السادة) وحملة صكوك الغفران من جانب آخر ! . وأصبحت طبقة الاكليروس – رجال الدين – من الطبقات المميزة في المجتمع الأوربي ، وامتلكت الكنيسة الأراضي الواسعة ، واحتكر البابا تفسير الإنجيل وفرض نظريات علمية خاطئة كبلت الفكر الأوربي ، واتخذ سلاح الحجر والحرمان ضد مخالفيه ومارس سلاحه الرهيب هذا على رجال الفكر والسياسة والدين ومن ثم أصبحت الكنيسة سيفا مسلطا على رجال الفكر والعلم وزيفت النظريات الجغرافية ، واجتهدت ألا تدع في العالم النصراني نابضا ضد الكنيسة وانبثت عيونها في طول البلاد وعرضها وأحصت على الناس الأنفاس . وبلغ من عاقبتهم محاكمها ثلاثمائة ألف أحرقت منهم اثنين وثلاثين ألفا أحياء كان منهم العالم الطبيعي (برونو) لقوله بتعدد العوالم وحكمت عليه بالقتل بأن لا تراق قطرة من دمه ، وكان ذلك يعني الحرق حيا ونفذ فيه الحكم . وكذلك حكمت على العالم الإيطالي (غاليليو) مخترع المنظار الفلكي بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس . هذا ما كان في أوربا في العصور الوسطى عداء بين الكنيسة والعلم ، فماذا كان في مجتمع الإسلام ؟ .

الإسلام يخلو من الصفة الكهنوتية ، فلا رجال دين في الإسلام ، ولا بابا ، يحللون ويحرمون ، بل هناك علماء دين وكل مسلم مسؤول عن فهم دينه والحفاظ

---

[143] انظر الإسلام في مواجهة الحركات الفكرية – للمؤلف .

عليه : " أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك " . فلا طبقات دينية ولا رجال دين ، ولا يستطيع كائن من كان أن يحلل شيئا أو يحرم شيئا إلا بنص من قرآن أو سنة ، وكل مسؤول عن نفسه (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) [144] كما أنه لا خصومة بين الدين الإسلامي والعلم فقد احتضن الاسلام العلم وتحاكم إلى العقل وميز الحق بخصائصه ، وما عليك إلا أن تردد النظر في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة لترى الدليل تلو الدليل على أن الإسلام هو دين العقل والعلم والحق ، وأنه هو وحده من بين الأديان الذي عرف الفطرة وسماها باسمها ووصفها بأوصافها وشهد لنفسه أنه دين الفطرة ، بل أنه نفس الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

وقد وصل المسلمون بتطبيق إسلامهم إلى أسمى الدرجات العلمية فجابوا البحار واشتغلوا بالتجارة وبالعلوم (من فقه ولغة وقرآن كريم وسنة مطهرة وفلك وجغرافيا وتاريخ ورياضيات وطب وهندسة) وبالصناعة . وكانت معامل الورق والمدارس والجامعات منتشرة في أرجاء العالم الإسلامي من الصين إلى قرطبة في الأندلس وكان العلم مفتوحا للراغب فيه دون قيد أو شرط ولهذا نبغ كثير من الأدباء والعلماء من الطبقات الفقيرة وكانت رحلات العلماء تتم بحرية بين المشرق والمغرب .

3- النزاع بين البابوية والامبراطورية : فرض قسطنطين النصرانية على الامبراطورية الرومانية في مؤتمر نيقية سنة 325 م ، وفرض في هذا المؤتمر مع (318) أسقفا جماعة كهنونية تلقي على الناس أوامر الدين وعليهم أن يطيعوا راغبين أو كارهين وأعلن أن تعاليم الدين لا بد أن يتلقاها الناس من أفواه رجال الكهنوت ، فكان الفصل بين السلطة الدينية التي يمثلها الكهنوت وعلى رأسهم البابا ، والسلطة الزمنية التي يمثلها الامبراطور ، أو إن شئت فقل الفصل بين الدين والدولة ، الدين من أفواه الكهنوت ، والدولة تطبق القوانين الرومانية الوثنية .

وانهارت الامبراطورية الغربية عام 476 م وبقي البابا فأصبح يتدخل في السلطة الزمنية ، وفي عام 800 م توج البابا " شارلمان " امبراطورا ، وتجددت الامبراطورية باسم جديد : " الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة " ، وكان شارلمان قد حضر إلى روما لنجدة البابا ضد مخالفيه . واتخذ البابا قصة التتويج ذريعة واعتبر نفسه أعلى من السلطة الزمنية ، في حين اعتبر الامبراطور نفسه حاميا للسلطة الدينية فهو أعلى مستوى وأجدر بالطاعة . وظهر النزاع على تعيين الأساقفة وأصبح الصراع بين الدين والسياسة في دوامة عنيفة يتنازع البابا والامبراطور السلطة ، وكان الشعب هو ميدان الصراع وهو الضحية تارة يجذبه رجال الحكم والسياسة وتارة يخضعه رجال الدين واللاهوت وهو في حيرة من أمره ، وقد ظهر هذا التنافس على أشده في القرن الحادي عشر الميلادي وانتصرت فيه البابوية فيما يعرف بحادثة (إذلال كانوسا سنة 1077 م) ، فقد اضطر الامبراطور (هنري الرابع) أن يتقدم بخضوع وذلة نحو البلاط البابوي (البابا جريغوريوس السابع) في قلعة كانوسا شمال ايطاليا ، ولم يسمح له

---

[144] انظر فصل الحياة الاجتماعية من هذا الكتاب .

البابا بالمثول بين يديه إلا بعد شفاعة الرجال ، وبعد أن بقي أمام القلعة في برد الشتاء حافيا عاري الرأس لابسا الصوف ثلاثة أيام ، فغفر له البابا زلته . ولكن الحرب تجددت ، وكانت سجالا حتى ضعفت البابوية ، وحل الأمر وسطا في " مؤتمر ورمز " سنة 1222 م بأن يقوم البابا بتعيين الأساقفة (رؤساء الكنائس) بحضور ممثلين عن الامبراطور . فهدأ الأمر إلى حين . فنشأ في أوربا (فكرة الحل الوسط) بالإضافة إلى اتساع الهوة بين الدولة والدين (فصل الدين عن الدولة) . وكل ذلك قاد إلى فكرة فصل الدين عن الحياة نهائيا .

أين ذلك من الإسلام والمسلمين في ذلك العهد ؟ الإسلام لا يفصل بين الدين والدولة وليس في سلطة دينية وسلطة دنيوية – إنه الإسلام والإسلام فقط ، فيه كل شيء من دين ودولة لا تنافر ولا فصل ، فهو عقيدة وشريعة ، نظام شامل يعالج شؤون الحياة جميعا فينظم علاقة الفرد بربه ، عن طريق العبادات ، وينظم علاقة الفرد بنفسه عن طريق الأخلاق . وينظم علاقة الفرد بالمجتمع عن طريق المعاملات ، وكلها علاقات مترابطة متآلفة متوازنة لا يطغى أحدها على الآخر !

وبعد أن عرضنا حال أوربا المتخلفة في العصور الوسطى ، وحال المسلمين المتقدمة المتحضرة ، فماذا عن الصلات بين العالمين النصراني والإسلامي في تلك العصور ؟

لقد كانت هناك صلات بين العالمين غير صلات الحرب والقتال التي تكلمنا عليها والتي سميت في وقت ما (بالحروب الصليبية) ومن وسائل الإتصالات :

أولا : المراكز الإسلامية من دار الإسلام في أوربا :

فقد كان المسلمون يسيطرون على معظم سواحل البحر الأبيض المتوسط ، أي جنوب أوربا ، فكانت بأيديهم شبه جزيرة " إيبريا " (إسبانيا والبرتغال) ، وصقلية وجنوب إيطاليا وجزر البحر الأبيض المتوسط ، وكانت هذه المراكز مراكز اشعاع للحضارة الإسلامية تنشر ضوءها على جميع الأمم النصرانية في أوربا المظلمة . هذا وقد بدأت الحروب الصليبية في هذه الأماكن والمراكز واستطاع الأوروبيون دحر المسلمين وطردهم منها بعد أن استفادوا منهم .

ثانيا : ارتياد الطلبة الأوروبيين للجامعات الإسلامية :

كانت بلاد المسلمين تشهد نهضة علمية رائعة ، وانتشرت المدارس والجامعات جنبا إلى جنب مع المسجد ، فقد كان المسجد المدرسة الأولى للإسلام فكانت الحلقات والمناظرات في الكلام والأدب والشعر والفقه والحديث تقام فيه . وكانت المكتبات والكتب توضع في متناول كل محب للاستزادة من العلم ، دون قيد ولا شرط ، ومن مراكز الثقافة الإسلامية : بخارى ، وسمرقند ، وطشقند ، وبلخ ، ونيسابور ، والري

(طهـران) ، وشـيراز ، وأصـفهان ، والقيـروان ، وجـامع الزيتونـة فـي تـونس ، وفـاس ، ومراكش ، وقرطبة ، واشبيلية ، وغرناطة ، وباليرمو ، وباري .

وأهم المراكز الثقافية التي كان يؤمها ويرتادها الأوروبيون للعلم :

قرطبة في الأندلس ، وباليرمو في صقلية ، وباري في جنوب إيطاليا .

ففـي سـنة 360 هـ أم جماعـة مـن رهبـان ديـر مـاري غـالن جامعـات الأنـدلس لـدرس العربيـة وتحصـيل معارفهـا ، كمـا أقبـل الرهبـان البنـدكتيون يطلبـون العلـوم الإسـلامية . ومـن الـذين أمـوا هـذه المـدارس البابـا " سلفسـتر الثـاني " وعـدد كبيـر مـن أهـل إيطاليـا وفرنسـا وجرمانيـا وانكلتـرا ، وكانـت جامعـة قرطبـة مـن أعظـم جامعـات الـدنيا تقـرأ فيهـا العلوم الطبيعية والفلكية والكيماوية . [145]

ثالثا : الصلات التجارية بين الشرق والغرب :

لقـد نمـت التجـارة وازدهـرت فـي بـلاد الإسـلام فـي العصـور الوسـطى ، وكـان للمسـلمين صـلات تجاريـة مـع معظـم بلـدان العـالم ، وامتـدت تجـارتهم إلـى الشـرق حتـى وصـلت الفلبـين والصـين ، وإلـى الغـرب حتـى وصـلت بـلاد الفرنجـة ، وإلـى الجنـوب حتـى وصـلت نيجيريـا والحبشـة وموزمبيـق ، وإلـى الشـمال حتـى وصـلت إلـى بـلاد الـروس وسـيبيريا وفنلنـدا ، وأصـبحت المـدن الإسـلامية مراكـز حافلـة بمظـاهر التبـادل التجـاري البـري والبحـري ومنهـا : بغـداد ، والبصـرة فـي العـراق ، والفسـطاط ، والاسـكندرية فـي مصـر ، وسـيراف ، وأصـفهان فـي فـارس ، وطـرابلس وصـيدا وبيـروت فـي الشـام ، والمنصـورة فـي الهنـد ، واسـتفاد أهـل دار الإسـلام مـن التجـارة فضـلا عـن الغنـى والثـروة الماليـة خبـرة بشـؤون الحيـاة ومعرفـة بـأخلاق النـاس ، فكـان التجـار دعـاة للإسـلام أينمـا حلوا [146] . وعلى الإجمال فقد كان المسلمون يتحكمون في الطرق التجارية وأهمها :

1- طريـق الخلـيج العربـي : وتبـدأ مـن جـزر الهنـد الشـرقية – اندونيسـيا – وماليزيـا إلـى بحـر العـرب إلـى مضـيق هرمـز إلـى الخلـيج العربـي – ومـن ثـم إلـى شـط العـرب – وبغداد – والشام – وآسيا الصغرى وأوربا .

2- طريـق البحـر الأحمـر : وتبـدأ مـن الهنـد وشـرق افريقيـا إلـى المحـيط الهنـدي – ومضـيق بـاب المنـدب – والبحـر الأحمـر – وخلـيج السـويس (بحـر القلـزم) – وغـزة والاسكندرية – ثم إلى – أوربا .

---

[145] انظر الإسلام والحضارة العربية ج 1 / 242 – 247 وانظر دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي – د. عبد الرحمن بدوي نقلا عن صاحب صناجة الطرب في أخبار العرب ص 433 وانظر عبد العزيز الشناوي وكتابه أوربا في مطلع العصور الحديثة .

[146] انظر إن شئت كتابات ابن حوقل ، والمقدسي ، وابن خرداذبه ، والمسعودي والإدريسي ، وابن رستة ، وابن بطوطة ، وابن جبير .

3- طريق البر الغربي :

وتبدأ من حيث تبدأ طريق البحر الأحمر – وتتجه برا عبر اليمن – الحجاز – الشام – أوربا .

4- طريق البر الصيني – طريق الحرير –

ويبدأ من الصين إلى الهند عن طريق ممر خيبر – وخراسان – والعراق – والشام ومصر وبلاد المغرب وأوربا .

كان المسلمون يحملون في تجارتهم هذه : البهارات والبخور والتوابل والحجارة الكريمة والذهب وريش النعام والعاج من الهند وشرق افريقيا ، واللؤلؤ من البحرين ، والمر والبخور والحجارة الكريمة من اليمن ، وغير ذلك من مواد التجارة .

وكان البنادقة والجنويون واليهود هم الذين ينقلون التجارة إلى أوربا من موانيء الشام ومصر وآسيا الصغرى . فأثرى هؤلاء إلى جانب المسلمين . وتأثرت أوربا بهذه الصلات المباشرة والغير مباشرة وخاصة ايطاليا . فلا عجب أن بدأت النهضة الأوربية في ايطاليا .

وبهذه الاتصالات انتقلت أوربا إلى عصر النهضة الأوربية وانقشعت عن الأوربيين غيوم الخرافات [147] والجهل الذي كان يسيطر على أجوائهم . وبقيت الروح الصليبية توجههم في علاقاتهم بالمسلمين .

أدرك الصليبيون أن مهاجمة العالم الإسلامي في قلبه ، ضرب من المحال ، فبدأوا بتغيير الاستراتيجية ، واتجهوا إلى أساليب أخرى . وكانوا قد تعلموا باتصالهم بالعالم الإسلامي : البوصلة ، والاسطرلاب ، وخرائط البحار ، وكروية الأرض ، وعرفوا عن أقاليم خط الاستواء ، فمكنهم ذلك من ارتياد البحار ، وتعلموا أسلوب التجربة ، فسارت مخترعاتهم قدما ، فاستطاع (جليليو) العالم الايطالي اختراع المنظار الفلكي ، ونادى (كوبرنيكس) بفكرة دوران الأرض حول الشمس ، وتطور البارود ، الذي شل نظام الاقطاع نهائيا ، وقضى عليه . واخترع (يوحنا غوتنبرج) الألماني الطباعة بالحروف المتحركة ، كل ذلك مكنهم من معاودة الهجوم على المسلمين بأسلوب آخر ، هو أصلوب الاستعمار الذي مر بمرحلتين :

المرحلة الأولى : الاستعمار الأوروبي القديم :

---

[147] ومن هذه الخرافات أنهم كانوا يعتقدون أن الماء يغلي عند خط الاستواء ، وأن الأرض مسطحة فإذا وصل الإنسان حدها يهوي في ظلام دامس ، وأن المحيط الأطلسي – البحر المظلم – هو نهاية الأرض . وما بعد ظلام .

فعرفوا باتصالهم بالمسلمين عكس ذلك . فوجد عندهم حب الاستطلاع مع ما تعلموه من الآلات .

كانت حركة الكشوف الجغرافية التي تم شطر كبير منها في القرن الخامس عشر الميلادي أهم نتيجة عملية للنهضة الأوروبية ، وكان هدف الأوروبيين من هذه الحركة تحقيق أمرين :

أ- تطويق العالم الإسلامي لإضعافه تمهيدا لضربه في الداخل .

ب- البحث عن طريق تجاري لا يمر بديار المسلمين مع الهند .

وقد ساعد الأوروبيين في مهتمهم هذه ، الاسطرلاب ، والبوصلة ، والخرائط البحرية ، ومعرفة كروية الأرض [148] ، فقد سعى البرتغاليون للحصول على علوم المسلمين الملاحية ، واستعانوا بالتجار اليهود ، في الأندلس ، الذين قاموا بدور الجواسيس ، في الحصول على معلومات المسلمين ، وتقديمها إلى أسيادهم البرتغاليين . وساعد اليهود على نجاحهم في عمليات التجسس ، معرفتهم باللغة العربية ، وقاموا برحلات بين المشرق والمغرب ، برا ، وبحرا ، لهذا الغرض ، وتظاهر بعضهم بالإسلام ، فتتابع وصول الجواسيس إلى مصر ، وسائر بلاد الإسلام ، ففي عام 894 هـ / 1488 م قام جماعة من الجواسيس اليهود متخفين في زي تجار برتغاليين ، بالسفر إلى مصر سرا ، وكان على رأسهم (الفونسودي بايفا) [149] ، ووقف الجواسيس على معلومات هامة ، عن كل ما يتصل بتجارة التوابل ، وغيرها ، من البضائع الشرقية ، ثم أقلعوا على سفينة عربية ، من السويس إلى عدن ، ثم استقلوا سفينة أخرى متظاهرين بالإسلام ، وسافروا إلى الهند ، قبل وصول (فاسكودي غاما) إليها بنحو عشر سنوات ، وجمعوا ما راق لهم من معلومات ، ثم شدوا رحالهم إلى البرتغال ، عن طريق مصر ، وفي أثناء مرورهم بالقاهرة ، التقى هؤلاء ببعثة تجسس أخرى ، كانت تضم (أبراهام دي بيا) (ويوسف لاميجو) [150] ، وهي على شاكلة البعثة الأولى ، تستهدف جمع المعلومات ، وانضمت البعثتان في بعثة واحدة سافرت إلى هرمز ، ثم زيلع ، ومنها إلى الحبشة ، ثم عادت إلى مصر ، وواصلت سفرها في رحلة العودة إلى البرتغال ، واستطاعت هذه البعثة الحصول على خرائط عربية ، عن المحيط الهندي ، ومعلومات تفصيلية ، عن التيارات البحرية ، والرياح الموسمية ، في هذا المحيط ، فضلا عن البيانات الخاصة بالتجارة الشرقية ، من حيث حجمها ،

---

[148] اهتم المسلمون بالجغرافيا وعلوم الملاحة لحاجتهم إليها لدينهم . فتحديد القبلة للصلاة ، وبيت الله الحرام للحج ، ومعرفة الأقاليم لتبليغ الدعوة ونشرها . وقد حث القرآن الكريم على طلب العلم ، والارتحال في سبيله ، والتبصر في آيات الله في الآفاق . فظهرت مؤلفات جغرافية تناولت : الجغرافية الكونية ، والطبيعية ، والبشرية ، والسكانية ، والبحار والمحيطات ، والمواصلات ، والجغرافيا العامة ، والرحلات ، والمدن ، والأمصار ، والجغرافيا الفلكية . . وظهر علماء في الجغرافيا كالبلخي ، والبكري ، والهمذاني ، واليعقوبي ، والمسعودي ، والقزويني ، وابن حوقل ، والادريسي ، والمقدسي ، والبيروني ، وابن جبير ، وابن بطوطة وغيرهم .

[149] د. عبد العزيز الشناوي / أوربا في مطلع العصر الحديث ص 97 .

[150] د. عبد العزيز الشناوي / أوربا في مطلع العصر الحديث ص 98 .

وفئاتها ، وما إلى ذلك . وقدمت البعثة كل ذلك إلى السلطات الحاكمة في لشبونة ، فكانت لهم نعم المعين ، في تقدير الموقف ، والمضي قدما في إيفاد البعوث الكشفية الجغرافية ، ابتغاء الوصول إلى الهند بحرا فتمكن (بارثلميودياز) من الوصول إلى رأس الرجاء الصالح (جنوب افريقيا) ، وأتم (فاسكودي غاما) ، بمساعدة العالم المسلم (أحمد ابن ماجد) الرحلة ، فوصل البرتغاليون إلى كاليكوت (فاليقوط) في الهند ، وأخذوا يقيمون المراكز ، والحصون ، والقلاع ، على السواحل الافريقية والآسيوية ، لبسط سيطرتهم العسكرية والتجارية ، على هذه المنطقة ، وهزموا أسطولا إسلاميا ، ضم سفنا من المسلمين في الهند ، ومن دولة المماليك في مصر والشام ، ومن الدولة العثمانية في آسيا الصغرى والبلقان 915 هـ / 1509 م ، في معركة (ديو) شمالي بومبي بالهند [151] : فتأكدت سيادة الصليبيين على البحار وانحسرت قوى المسلمين في المحيط الهندي . وكانت رحلة فاسكودي جاما صليبية واضحة ، تتخفى وراء العلم والاستكشاف . فقد قال عندما وصل كاليكوت (فاليقوط) بمساعدة أحمد بن ماجد : " الآن طوقنا رقبة الإسلام ، ولم يبق إلا جذب الحبل فيختنق " [152].

مراكز انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا

وتمكن (خريستوفر كولمبوس) الجنوي الأصل – (855 – 912 هـ / 1451 – 1506 م) – من الوصول إلى جزر البحر الكاريبي ، ظانا أنها جزر الهند لصالح أسبانيا ، وذلك لفكرة سيطرت عليه ، وهي : أنه إذا أبحر غربا من مضيق جبل طارق ، وعبر المحيط الأطلسي ، استطاع أن يصل إلى الشواطىء الشرقية لآسيا [153] .

---

[151] فتحي غيث ص 144 .

[152] محمد قطب – واقعنا المعاصر ص 189 .

[153] أوربا في مطلع العصر الحديث ص 104 .

وبالفعل وصل إلى جزر البحر الكاريبي ، سنة 898 هـ / 1492 م وعرف " أمريكو فسبوتشي " أنها أراض جديدة ، فسميت باسمه أمريكا عام 907 هـ / 1501 م [154] .

لقد حملت الاكتشافات الجغرافية الروح الصليبية ، بما فيها من حقد ، وكراهية ، على الإسلام ، والمسلمين ، تمثل ذلك في آراء البابا (نيقولا الخامس) – (851 / 860 هـ) (1447 / 1455 م) – الذي وضع خطة تنفذ مع الكشوف الجغرافية ، لضرب المسلمين ضربة أخيرة ، والقضاء على الإسلام قضاء مبرما ، وأرسل في سنة (859 هـ / 1454 م) إلى ملك البرتغال ، مرسوما بابويا تضمن ما يعرف باسم : (خطة الهند) تقوم على إعداد حملة صليبية نهائية ، تشنها أوربا الكاثوليكية ، للقضاء قضاء مبرما على الإسلام ، بعد أن تحقق كشوف البرتغاليين أهدافها ، ويتصلون بالملوك النصارى ، سواء في أفريقيا ، أو آسيا ، كي يسهم هؤلاء الملوك في تمويل الحملة الصليبية بالأموال ، والرجال ، والعتاد ، ويتم تطويق البلاد الإسلامية [155] .

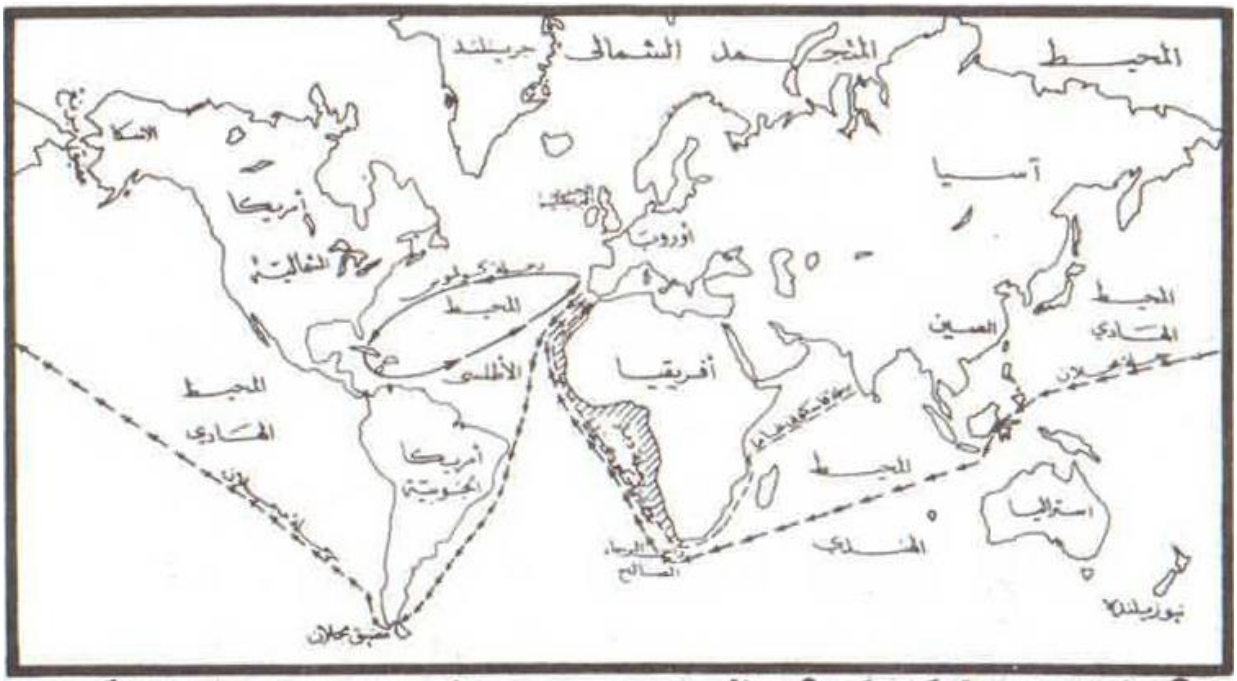

الاكتشافات الجغرافية الأوروبية وتغير طرق التجارة الى البحار الكبرى

وتمثلت هذه الروح الصليبية في (هنري الملاح) أمير البرتغال ، وفي القائد البرتغالي (البوكرك) كان يعمل بهمة ، ونشاط ، للاستيلاء على جميع النقاط الاستراتيجية ، حتى يمهد للاستيلاء على مكة ، ومصر ، وبيت المقدس ، من المسلمين . وبالرغم من ضخامة هذه الآمال ، فإنها تدل على مغزى كبير ، وهو : أن

---

(154) نفسه ص 110 .

(155) أوربا في مطلع العصر الحديث ص 61 .

قادة البرتغال ، كانت تحركهم الأفكار الصليبية ، واعتبروا أنفسهم مكلفين بالثأر للحملات الصليبية الفاشلة ، وحملوا لواء الأهداف ، التي عجز عن تحقيقها ملوك أوربا الصليبية السابقين [156] . وهذه الروح هي التي دعت القائد البوكرك أن يقول لرجاله قبل احتلاله ملقا عام 917 هـ / 1511 م :

" أجل خدمة لخضد شوكة الإسلام ، بحيث لا يقوم له قائمة بعد اليوم بعملنا هذا ، وأنا على يقين ، أننا إذا انتزعنا الأفاويه ، والبهارات ، من يد العرب ، فإن الدمار سيحل بالقاهرة ، ومكة . وستتوقف تجارة البندقية مع العرب " [157] .

وقال في يومياته :

" فكان هدفنا الوصول إلى الأراضي المقدسة للمسلمين ، واقتحام المسجد النبوي ، وأخذ رفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم رهينة لنساوم عليه العرب ، من أجل استرداد القدس ، وكان هدفنا الثاني : احتلال جنوب مصر ، من أجل تغيير مجرى نهر النيل كي يصب في البحر الأحمر ، بدلا من مروره على القاهرة في طريقه إلى البحر المتوسط ، مما يضمن لنا خنق القلب الذي يقود الحرب ضدنا " [158] .

وأما فرديناند وايزابيلا ملكا اسبانيا فقد غلب عليهما العداء للإسلام ، والمسلمين ، وشنا حربا لا هوادة فيها على البقية الباقية من المسلمين في شبه جزيرة أيبريا ، إلى أن نجحا في القضاء على آخر معقل إسلامي هناك – غرناطة – (898 هـ / 1492 م) . وكانا يمنيان النفس ببعث عهد الحروب الصليبية ، وإنفاذ حملة ، لانتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين [159] ، وأما كولمبوس الذي عمل لحسابهما ، فكان على طرازهما ، وطراز هنري الملاح ، تبرز فيه الناحية الصليبية ، فقد رسمت الصلبان على أشرعة السفن ، التي أقلته في رحلاته ، وكان يتوق لرفع الصليب عاليا في أراضي (خان الكبير) في الصين ، وتحويل ملايين الوثنين إلى النصرانية ، ولكنه شجع تجارة الرقيق ومارسها [160] .

وبعد : **فماذا كانت نتيجة هذه الكشوف الجغرافية على بلاد الإسلام ؟**

لقد تغيرت طريق التجارة عن بلاد الإسلام ، والبحر الأبيض المتوسط ، إلى المحيطات الكبرى – الأطلسي ، والهندي ، والهادي – فأدى ذلك إلى ضعف تجارة المسلمين ، ثم ضعف الصناعة ، والزراعة ، فقد هجر الناس المدن إلى الأرياف ،

---

[156] فتحي غيث ص 144 .

[157] أنور الجندي – الإسلام والحضارة – ص 65 .

[158] نجيب صالح ص 127 .

[159] أوربا في مطلع العصر الحديث ص 105 .

[160] نفسه ص 109 .

وعاد الكثير منهم إلى البادية ، فكسدت البضاعة ، وخوت الأسواق ، وقل عدد سكان المدن ، فأصبحت قرى ، الأمر الذي أدى مع الزمن إلى عزلة المسلمين ، وإلى شيوع الجهل ، والتأخر ، والأمية .

وأما من الناحية العسكرية ، فقد طمع الصليبيون بعد أن أحاطوا بالعالم الإسلامي ، بوصول " مجلان " إلى الفلبين شرقا ، ملتقيا النفوذ الاسباني بالبرتغال في أقصى المشرق من العالم الإسلامي ، فحاولت إسبانيا ، وفرنسا ، والبرتغال من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الاتصال مع الحبشة الأرثوذكسية ، للقيام بغزو بحري إلى كل من عصب ، ومصوع ، وسواكن ، على أمل غزو الحجاز ، وهدم قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالفعل قامت البرتغال بحملة دخلت البحر الأحمر ، ووصلت إلى ينبع ، وتحطمت أثر عاصفة هوجاء ، وأمام هذا التحدي الصليبي ، عجز المماليك عن المواجه ، فتوجه السلطان سليم العثماني إلى الشام (922 هـ / 1516 م) ، فضمها إلى الدولة العثمانية ، ثم ضم مصر عام (922 هـ / 1517 م) [161] ، وامتدت الدولة العثمانية وانتصبت ترد كيد الصليبيين ، ولكن دون أن تستطيع استعادة سيطرة المسلمين على البحار ، خلال البحر الأبيض المتوسط ، ولكنها استطاعت أن تمنع الصليبيين من مهاجمة قلب ديار الإسلام ، وشمال افريقيا ، وتولت أمر الخلافة والدولة ، فكبحت جماح رغبة الصليبيين الشريرة ، وامتدت في أوربا ، مما دفع الصليبية إلى مواقف الدفاع ، لفترة طويلة أمام الدولة العثمانية .

ونتج عن حركة الكشوف الجغرافية : إكتشاف العالم الجديد ، واستيطانه ، في حركة سميت : الاستعمار الأوربي القديم – واتبعت أوربا الغربية أسلوب إبادة السكان ، أو تهجيرهم ، أو الاختلاط بهم ، بعد إذلالهم ، وفصلهم عن ماضيهم نهائيا ، كما حصل في الامريكتين ، واستراليا . وأصبح العالم الجديد امتدادا لأوربا ، ومتنفسا لها ، وظهيرا ، في مواجهة الإسلام .

كما حقق الصليبيون رغبتهم ، وأهدافهم ، في تطويق العالم الإسلامي ، وتحويل طرق التجارة عن بلاد الإسلام ، وتسلم زعامة البحار ، وتدفق الذهب ، والفضة ، وغيرهما من المعادن النفيسة إلى أوربا ، وأدخلت تحسينات على بناء السفن التجارية ، من الحجم ، والحمولة ، والسرعة ، ومتانة الأجسام ، وطرأ تقدم كبير على عدد لا يستهان به من العلوم الجغرافية ، والفلكية ، والتاريخية ، فدخلت أوربا عصرا عرف في التاريخ الإقتصادي باسم : (**الثورة التجارية**) [162] . التي أدت بدورها إلى ظهور الطبقة البرجوازية في أوربا (الطبقة الوسطة) . وبدأت تقود حربا شعواء ضد الكنيسة وتسلط البابا ورجال الدين في حركة دعيت (**حركة الإصلاح الديني – أو حركة الإنشقاق الديني**) :

---

[161] د. علي حسون – الدولة العثمانية ص 48 .

[162] أوربا في مطلع العصر الحديث ص 125 .

إذ زادت مساويء الكنيسة مع بداية حركة النهضة الأوروبية ، واشتد عسف رجال الدين ، وتحكمهم في عقول الأوروبيين . وكان البابا قد احتاج لنفقات كثيرة في تزيين (فرسكة) كنيسة القديس بطرس (الفاتيكان) ، فابتكر وسيلة لجمع المال وهي : (**بيع صكوك الغفران**) التي حولت أمر الدين النصراني إلى مهزلة حقيقة .

فتحرك بعض المفكرين وشكوا في عصمة البابا والأساقفة .

فظهر **مارتن لوثر** في ألمانيا (1483 – 1546 م) وانتقد صكوك الغفران . وحرمه البابا ، فأسبغ عليه أمير سكسونيا حمايته ، وأقام في قلعته ، وترجم الإنجيل إلى الألمانية ، ونشره ، وأظهر مفاسد الكنيسة . فسمى أتباعه : **البروتستنت** (المحتجون) .

ومما يدل على تأثر لوثر بالفكر الإسلامي فكرته التي نشرها : (لا خلاص إلا بالإيمان) . وقوله : " ليس للبابا وحده حق احتكار تفسير الإنجيل "

وظهر **كلفن** في فرنسا (1509 – 1564 م) وسمي أتباعه : (الهيجونوت) . كما انفصلت الكنيسة البريطانية ودُعيت (**الانجيليكانية**) . وكان قد قام (زونجلي) (1484 – 1531 م) بحركة ضد الكنيسة الكاثوليكية في الأراضي المنخفضة ، وانتهى أمرُه بمصرعه في معركة كابل عام 1531 م وقُطعت جثته ، ثم حُرق .

وعلى كل فقد أصبحت أوربا الصليبية في الغرب دينيا كما يلي :

1- الكاثوليك : وهم أتباع البابا في فرنسا ، واسبانيا ، والبرتغال ، وإيطاليا ، وألمانيا .

2- البروتستنت : وهم الذين خرجوا على كنيسة روما ومنهم :

أ- اللوثريون : في ألمانيا ، واستكندنافيا (السويد ، والنرويج) .

ب- الكلفنيون (الهيجونوت) : في فرنسا ، والأراضي المنخفضة (هولندا ، وبلجيكا ، ولكسمبورغ ، والدانمارك) .

ج- أتباع الكنيسة الانجيليكانية في بريطانيا .

وقد أعقب هذا الانقسام صراع ديني مرير ، استعمل فيه البابا سلاحا رهيبا وهو : **ديوان التفتيش** (أو محاكم التفتيش أو التحقيق) منذ عام 1478 م لمواجهة المنشقين .

وتمت مذابح دينية مرعبة من أشهرها مذبحة القديس (بارثلميو) عام 1571 م في فرنسا . حيث قضي فيها على الهيجنوت تماما في فرنسا . فهاجر البوير على أثر ذلك إلى جنوب افريقيا وأقاموا كيانا عنصريا لا يزال يعيش هناك .

وانزوى الدين عند الأوروبيين إلى الكنيسة وإلى يوم الأحد ، وقد سايرت الكنيسة هذا الاتجاه تبعا للقاعدة التي سادت حياة أوربا : (**الغاية تبرر الوسيلة**) .

وقد واجه المسلمون الأمرين في أوربا . فأزيلوا تماما من أوربا الكاثوليكية : اسبانيا والبرتغال وفرنسا وايطاليا والعالم الجديد [163] . وتعرضوا لأبشع عمليات الإبادة التي عرفها التاريخ .

المرحلة الثانية : الاستعمار الأوروبي الحديث (الامبريالزم) :

وقام على استغلال خيرات البلاد المستعمرة (بفتح الميم) ، واستعباد سكانها ، والسيطرة على مقدراتها .

وقد نتج هذا الاستعمار عن حركة في أوربا تسمى : حركة **الثورة الصناعية** .

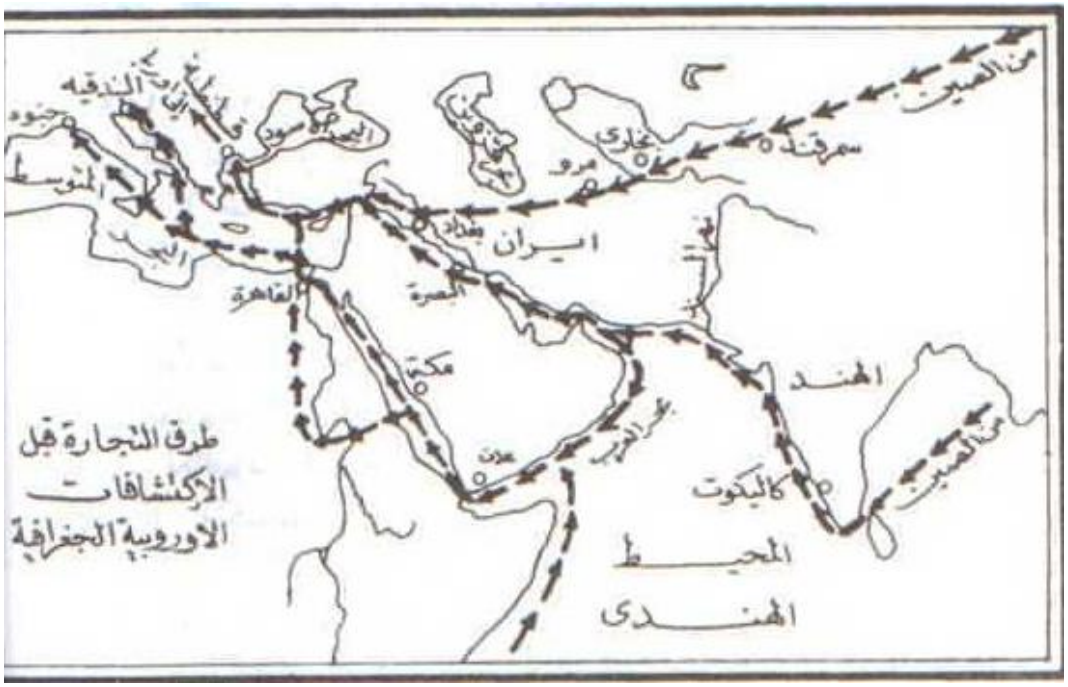

أو (الانقلاب الصناعي) : وهي عبارة عن سلسلة من التغييرات في أساليب الصناعة ، أصبح الإنسان بسببها يعتمد على الآلات في انتاج مصنوعاته .

---

(163) انظر تفاصيل ذلك إن شئت : عبد العزيز الشناوي – أوربا في مطلع العصور الحديثة ، عاشور : أوربا العصور الوسطى . ول ديورنت – قصة الحضارة .

وصارت هذه الآلات تدار بقوى غير بشرية ، سخرها الإنسان أو اخترعها كالبخار ، أو البترول ، أو الكهرباء ، وحديثا بالطاقة الذرية . وقد بدأت هذه الثورة في بريطانيا في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي ، واستمرت بعد ذلك وانتشرت في أوربا ، وأمريكا ، منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي ، وزاد الانتاج الصناعي زيادة هائلة ، بقليل من النفقات ، فاحتاج أصحاب المصانع إلى المواد الخام ، والقوى المحركة ، وإلى الأسواق لتصريف البضاعة ، فتم استغلال الفحم في أوربا ، واستخدم في استغلاله الأطفال والنساء ، كما استخدموا في المصانع ، فأدى ذلك إلى انحطاط الأخلاق وانتشر الفساد الخلقي ، كما انتشرت عادة شرب الخمر ، ولعب الميسر ، وغيرهما من المفاسد الخلقية ، واخترعت السكك الحديدية ، لنقل المواد الخام ، ولتصريف البضائع ، وظهرت طبقة تحتكر المصانع ، ازداد مالها زيادة فاحشة سميت **بالطبقة الرأسمالية** التي أصبح همها جمع المال وبأي وسيلة ، وبالتنافس الحر دون قيد من دين أو تقاليد ، الأمر الذي أدى إلى بؤس العمال في أوربا – وظهرت طبقة العمال الكادحة من عمال المناجم والمصانع . وأمام هذه التعاسة التي وقع فيها المجتمع الأوروبي ظهرت أفكار بشرية للإصلاح ولتحسين أوضاع العمال والنساء والأطفال . وحصل العمال على بعض الحقوق مثل : زيادة الأجور ، وتحديد ساعات العمل ، والإجازات الأسبوعية والسنوية والمرضية ، والتعويض عند الضرر ، والتأمين عند الشيخوخة والمرض المزمن وما إلى ذلك . . كما ظهرت فكرة تحرير المرأة ومساواتها بالرجل في الأجر ، وستتطور الفكرة لتأخذ أبعادا خطيرة . كما ظهرت قوانين حماية الأطفال ! ونشأت في أوربا تبعا لذلك فكرتان متباعدتان متحدتان في المنشأ هما : الإشتراكية والديمقراطية ، وهما على طرفي نقيض ، تقوم علاقاتهما على التناقض والصراعات .

والرأسمالية دفعت الحكومات الأوربية دفعا لحركة الاستعمار ، للحصول على المواد الخام ، وإيجاد الأسواق لتصريف بضائعها ، فتنافست الدول الأوربية في البحث عن مستعمرات ، فكان العالم الإسلامي هدفا من أهدافهم – تحركهم ضده الخلفية الصليبية . ولذلك فالاستعمار الأوربي حلقة جديدة ومرحلة متصلة بالحروب الصليبية القديمة ، وآية ذلك أن (اللورد اللنبي) القائد الانجليزي ، بعد أن دخلت قواته القدس سنة 1337 هـ / 1918 م قال كلمته المشهورة الموحية بهذا المعنى : " الآن انتهت الحروب الصليبية " .

وقد مهدت طوابير المبشرين (المخربين) والمستشرقين لحركة الاستعمار واتخذ الاستعمار الحديث أشكالا متعددة ، وليس لبوسا متنوعة منها : الاحتلال العسكري ، والاستعمار الاقتصادي عن طريق الشركات ، وربط العملات المحلية غير المتكافئة بين الدولة المستعمرة القوية والدولة المستعمرة الضعيفة فتكون المعاهدة بالطبع في صالح الدولة القوية . والحماية والانتداب والوصاية . وأما أهم أنواع الاستعمار الحديث والمعاصر وأدومها أثرا فهو الاستعمار الفكري الذي لا يزال العالم الإسلامي يعاني منه ويعيش فيه .

وقد تنافست الدول الأوربية في استعمار العالم الإسلامي ، وعلى الأخص بريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا . ولقد اختارت فرنسا ، وبريطانيا لتوسعهما الاستعماري هذا ، ولفرض سلطتهما ، على المستعمرات نظام الحماية ، حتى لا يثير احتجاج الدول الأخرى نتيجة لتغييرهما الأوضاع الدولية في بلاد الإسلام ، وحتى تموهان على أبناء البلاد بأنهما لا تريدان ضم بلادهم ، أو النزول بها إلى مستوى المستعمرات ، وحتى تحملان البلاد نفقات قوات الاحتلال ، ونفقات الاصلاحات ، التي تشيران بها عليها . وحتى تظهران أمام المعارضة في بلادهما بأنهما نزلا إلى عملية تضمن لهما المكاسب المادية ، والعسكرية ، والمعنوية ، دون أن تكلفهما الأموال ، والتضحيات ، فضمنتا بهذا النظام الحصول على كل امتيازات الدولة المستعمرة ، والسيطرة على الامكانيات المادية ، والبشرية ، والاستراتيجية ، وكأنهما تتعاونان مع السلطات الوطنية في ذلك .

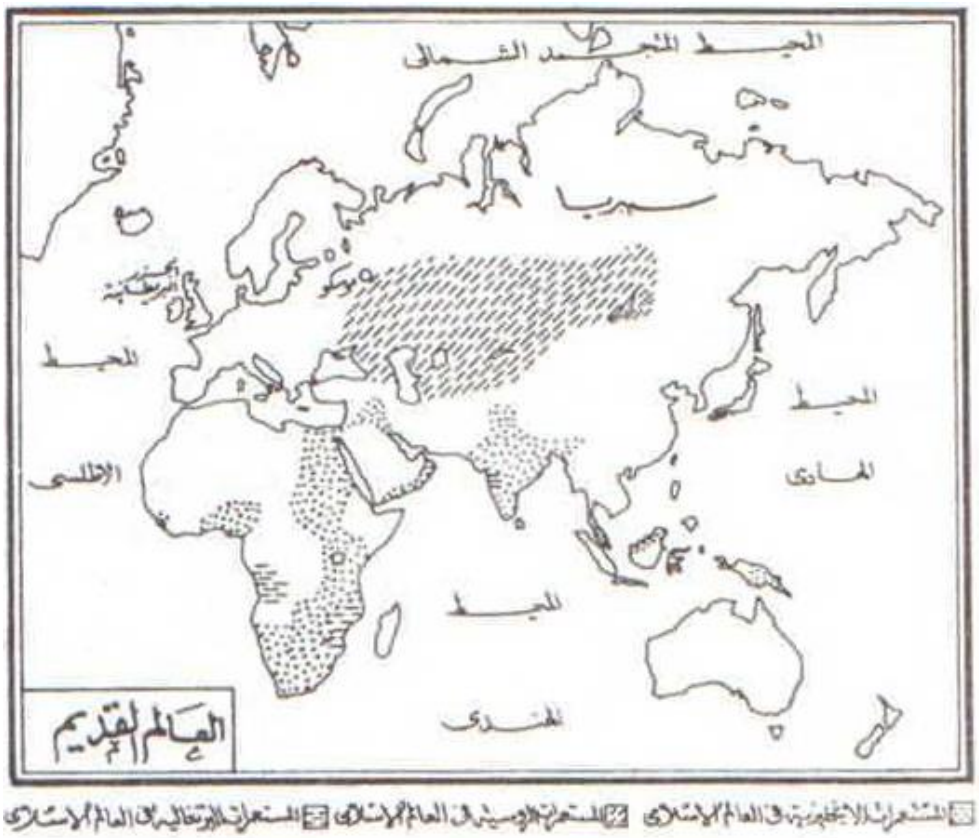

ورغم أن معاهدات الحماية تظهر وكأنها قد عقدت بين طرفين متساويين ، إلا أن الضغط العسكري الذي يصحب هذا التوقيع ، وسيطرة الدولة المستعمرة ، وإشرافها على الشئون العسكرية ، والعلاقات الخارجية للقطر ، تظهر الأمر على حقيقته ، وتحتل فيه الدولة المستعمرة جميع الوظائف العليا ، وخاصة وظائف مديري المصالح ،

مثل الاشغال ، والمعارف ، والصحة ، والمالية ، بل يصبح لهم حق إصدار القرارات الوزارية ، الأمر الذي يؤدي إلى سرعة ، وقوة استغلال المستعمرين لامكانيات القطر ، نظرا لأن رعايا الدولة المتفوقة في البلاد يمنحون الحماية اللازمة للقيام بعملياتهم ، وعضدهم أمام أي منافسة يقوم بها أي مواطن لدولة أخرى . وتظهر عمليات الاستغلال الاستعماري هذا في شكل شركات رأسمالية كبيرة ، تقوم باستغلال ، واستعمار مساحات واسعة من الأرض ، وبشكل يهدف الإستغلال الرأسمالي ، أكثر مما يهدف التوطين ، كما تمكنوا من استغلال الثروة المعدنية .

كذلك اتبعت بريطانيا وفرنسا أسلوب الوصاية والانتداب بعد الحرب العالمية الأولى لتكتسب الشرعية في تنفيذ مخططاتها في البلدان المستعمرة .

وأما روسيا فبقيت تستعمل الأسلوب القديم – الاستيطان في بلاد الإسلام مع بعض التغيير في الأسلوب .

وفيما يلي الدول الأوروبية التي سيطرت على العالم الإسلامي :

1- **بريطانيا** : واستعمرت ماليزيا ، وشبه جزيرة الهند ، وسواحل الخليج العربي ، والجنوب العربي ، ومصر ، والسودان ، وأوغنده ، وجزءا من الصومال ، واريتريا ، وتنزانيا ، ونيجيريا ، وقبرص ، وغانا . كما استعمرت بعد الحرب الأولى : العراق وشرقي الأردن وفلسطين . وغيرها .

2- **فرنسا** : واستعمرت الهند الصينية ، ومالي ، وتشاد ، والنيجر ، والسنغال ، ومدغشقر (مالاغاش) ، وموريتانيا ، والمغرب ، والجزائر ، وتونس ، وغينيا ، وجيبوتي . وبعد الحرب الأولى استعمرت سوريا ، ولبنان ، وكيليكيا .

3- **ايطاليا** : واستعمرت : ليبيا ، وجزءا من الصومال ، وأرتيريا .

4- **روسيا** : واستعمرت : سيبيريا ، وتركستان الغربية ، والأراضي الإسلامية في آرال ، وحوض نهر الفلغة ، وشبه جزيرة القرم ، وبلاد القفقاس (القوقاز) . وامتدت بنفوذها إلى شمالي إيران .

5- **أسبانيا** : واستعمرت : الريف المراكشي ، واقليم افني ، والصحراء المغربية . وإقليم مورو الإسلامي في الفلبين .

6- **هولندة** : واستعمرت : جزر الهند الشرقية (اندونيسيا) .

7- **البرتغال** : واستعمرت : موزمبيق .

8- **بلجيكا** : واستعمرت : الكونغو في أوسط أفريقيا .

وفي الوقت الذي بدأ فيه الاستعمار الأوروبي يكيل الضربات على العالم الإسلامي ، كانت كبرى دول الإسلام هي [164] :

1- **الدولة العثمانية** : في الأناضول والعالم العربي والبلقان وهي دولة الخلافة .

2- **الدولة الفارسية** : في إيران وهي شيعية .

3- **الدولة المغولية** : في الهند .

وكان الصراع قائما بين الدولة العثمانية والفارسية والمغولية ، واستغلت ذلك بريطانيا إلى أقصى حد ، فأيدت الفرس في صراعها مع الدولة العثمانية ، ففتحت فارس أبوابها للنفوذ الأجنبي مبكرة ، واتخذت من ذلك ركيزة وقاعدة لحماية الهند (درة التاج البريطاني) .

وأما الدولة المغولية فكانت دولة محلية لم تلعب دورا خارج شبه القارة الهندية ، فلم تعرف ألاعيب السياسة الاستعمارية ، فوقعت صريعة أمام المخططات الإنجليزية . ووقفت الدولة العثمانية وحدها تصارع هذه القوى العاتية إلى أن انهارت ، وضعفت تحت مطارقها ، وتمزقها في الداخل .

وظهر الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945 م) بأساليب جديدة بالابتعاد عن العنف ، والقوة السافرة ، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولجأ إلى التلون حسب الملابسات الزمنية ، والأوضاع الاجتماعية ، للبلاد التي يزحف إليها ، معتمدا على الخديعة ، والدس ، والتآمر ، لتحقيق مآربه ، وتسلم زعامة الاستعمار في هذه الفترة **الولايات المتحدة الأمريكية ، والإتحاد السوفيتي** متبعا وسائل العمل غير المباشرة وذلك :

– عن طريق غزو الشعوب والسيطرة عليها من الداخل . فاستخدم الانقلابات العسكرية ، والدعوة إلى الاشتراكية . بل إن أمريكا عملت على إيجاد أنظمة حكم تعارضها معارضة معتدلة [165] .

– وعن طريق التكتلات الإقتصادية الاحتكارية .

– وعن طريق الحرب الباردة .

فلجأ إلى :

---

[164] انظر أنور الجندي – العالم الإسلامي والاستعمار ص 386 .

[165] برنارد لويس – الغرب والشرق ص 195 .

1- إقامة القواعد العسكرية في البلاد ، تحت ستار المعاهدات غير المتكافئة ، بحجة الدفاع عن السلام العالمي ، أو للحماية . ولا تلبث البلاد أن تجد نفسها مكبلة بتلك القواعد التي تنطلق منها قوى العدوان في أي وقت .

2- عقد الأحلاف وجر البلاد إليها ، وعن طريقها تحرك البلاد الضعيفة الداخلة في نطاق هذه الأحلاف حسب هواها ، وبما يحقق المصالح الاستعمارية فحسب .

3- فرض السيطرة الإقتصادية عن طريق إدخال البلاد في نطاق عملة البلد المستعمر ، وما يستلزمه ذلك من خلق جهاز مصرفي يحقق التبعية الإقتصادية للبلد المستعمر .

4- تقديم المعونات المشروطة للبلاد لتبقى البلاد مكبلة بمحض إرادتها لما يريده الاستعمار الجديد من ضغط وإزهاق .

5- عرض المساعدات الفنية غير البريئة ، عن طريق استغلال الاستعمار الجديد لحاجة البلاد النامية إلى تلك المساعدات . فيبدأ بمديد المساعدة الفنية ، حتى إذا ما اطمأنت البلاد المحتاجة إلى تلك المساعدة ورتبت حياتها على ذلك يفاجئها الاستعمار بطلباته ، أو بوقف تلك المساعدات ، أو يعرقلها ، وعندئذ لا تجد الضحية من سبيل غير الاستسلام لهذا الاستعمار الجديد . وقد أجادت الولايات المتحدة هذه اللعبة لتصفية النفوذ البريطاني والفرنسي نهائيا بعد أن أنهكتهما الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945 م) وكانتا بحاجة إلى المساعدة . فطلب (ترومان) عام 1947 م من الكونجرس الأمريكي الإذن بمساعدة اليونان وتركيا ، حيث أن انجلترا لا تستطيع الاستمرار في مساعدتهما ، بحجة الخطر الشيوعي ، ثم توسعت المساعدات الأمريكية فشملت إيران [166] ، وكثيرا من أقطار العالم الإسلامي .

6- إقامة الدولة اليهودية الصهيونية في فلسطين : وإمدادها بالرجال من روسيا ، وبالأموال والأسلحة من أمريكا ، لتبقى الذراع الطويلة التي تهدد العالم الإسلامي ، فلا تجد الأقطار الإسلامية مناصا من أن تلجأ إلى أحد المعسكرين ، وهما وجهان لعملة واحدة [167] .

4- الحركة الصهيونية :

من جراء الثورة الصناعية في أوربا ، انتقلت المصانع من البيوت ، إلى المؤسسات الكبيرة ، التي تحتاج إلى أموال هائلة ، فاستغل ذلك اليهود الذين كانوا يملكون المال ، فبرزت البيوتات المالية اليهودية الكبيرة ، وفي مقدمتها بيت أسرة

---

[166] برنارد لويس – الغرب والشرق ص 201 .

[167] جريدة الشرق الأوسط – شجون عربية – علاقات موسكو وتل أبيب / ص 2 السبت 19 / 2 / 1406 هـ / 2 / 11 / 1985 م .

(روتشيلد) ، وأصبح زعماء اليهود يؤثرون تأثيرا كبيرا في العلاقات الدولية ، لأنها هي التي تحرك الصناعة ، وتستغل الحكومات ، في البحث عن مستعمرات فنشأت الفكرة الصهيونية في أحضان الاستعمار ، وولدت في فراشه . وأصبحت تمثل بعدا جديدا للاستعمار ، والغزو الغربي ، المتطلع للسيطرة والنفوذ في العالم الإسلامي . وقد حاولت الصهيونية منذ قيامها كحركة منظمة ، أن تضمن التحالف ، والارتباط بالدول الاستعمارية في العالم (فرنسا ، وألمانيا ، وبريطانيا ، والولايات المتحدة) [168] .

والصهيونية حركة سياسية عنصرية دينية ، قام بها أصحابها في مواجهة التحديات ، والأخطار ، التي واجهت اليهود في أوربا تحت ظل فكرة القوميات ، فهي تهدف إلى جمع الملايين من اليهود في العالم في كيان يهودي قومي (في فلسطين) استنادا إلى مزاعم تاريخية ودينية تربطهم بها ، واتخاذ فلسطين نقطة انطلاق لدولة كبيرة تمتد من الفرات إلى النيل [169] ، ومن ثم تكوين امبراطورية صهيونية عالمية تكون وريثة للحضارة الغربية .

واعتبرت الصهيونية اليهود قومية بدون وطن ، وحملت أمم العالم مسئولية إيجاد هذا الوطن ، واختارت فلسطين لذلك [170] . وقد أخذوا فكرتهم العنصرية من التلمود ثاني الكتب المقدسة عند اليهود بعد التوراة المحرفة ، الذي يدعوهم إلى التعالي على غيرهم فهو يقول : " الشعب المختار فقط يستحق الحياة الأبدية ، وأما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير " .

أيها اليهود : إنكم من بني البشر لأن أرواحكم مصدرها روح الله ، وأما باقي الأمم فليست كذلك ، لأن أرواحهم مصدرها الروح النجسة " .

ويقول : " سلط الله اليهود على أموال باقي الأمم ودمائهم ، فالله لا يغفر ذنبا ليهودي يرد للأممي ماله المفقود ، ورد الأشياء المفقودة من الأجانب " .

وهذه الأقوال دعوة صريحة إلى التعالي ، والاستغلال ، وامتصاص دماء الشعوب والأفراد [171] .

وقد ذمهم الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم لذلك :

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) [172] .

---

[168] انظر خيري حماد . الصهيونية . ص 79 – 80 .

[169] ذكر ذلك الحاخام يهودا وزير الأديان الاسرائيلي في مؤتمر الكيرن كايميت بالقدس 1951 م (خيري حماد ص 73)

[170] مع ملاحظة أن اليهودية دين وليست جنسا ، وفي اليهودية أجناس كثيرة كاليهودي الخزري واليهودي الأسود واليهودي العربي والأوروبي .

[171] خيري حماد . الصهيونية . ص 13 .

(قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) [173] .

وقد ربطت الحركة الصهيونية الهدف السياسي العنصري بالدين اليهودي ربطا محكما ، بأن حولت العلاقة الروحية التي تربط اليهودي بفلسطين (كالتي تربط المسلمين بمكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وبيت المقدس ، وكالتي تربط النصارى ببيت لحم ، والناصرة ، وكالتي تربط السيخ بمعبدهم الكبير في لاهور ، والشيعة بكربلاء) [174] ، حولت هذه الرابطة إلى هدف سياسي للاستيطان بفلسطين ، مدعية أن اليهود يمثلون جنسا مميزا يعود إلى بني إسرائيل ، وأعلنت فلسفة مستمدة من الأساطير ، تتمثل في العودة إلى فلسطين ، بموجب الحق الطبيعي ، والتاريخي ، الذي يعود إلى ما قبل ثلاثة وعشرين قرنا . وحاولت أن تجعل من بعض نصوص العهد القديم وسيلة لكسب النصارى إلى صفها . ووضعت مخططا واسعا في سبيل إكساب وجود اليهود في فلسطين حقا تاريخيا ، بالتزوير في كتابات التاريخ ، ووضع الموسوعات ، والكتب باللغات المختلفة [175] ، وكذلك القصص المسرحية ، والسينمائية ، التي تحاول فرض نظرية جديدة ، قوامها القول بأن إسرائيل هو الشعب المختار الذي واجه الاضطهاد على مدى التاريخ [176] ، وأن عظماء الفكر في العالم ، وكبار المكتشفين والباحثين في مختلف العلوم ، كانوا من اليهود ، وإعلاء شأن الجنس اليهودي ، والدعوة إلى السامية ، واعتبار كل من يقف في وجه حركتهم هو من أعداء السامية [177] ، فنجحت الصهيونية في دمج الفكر الديني والسياسي ، معتمدة على إثارة المشاعر الدينية ، بعد تحويرها من ناحية ، وعلى الإفادة من التجارب السياسية العنصرية المتزمتة في العالم ، تحت شعارات (القومية) . وكانت الحركة الماسونية التي سبقت الحركة اليهودية في سبيل تحقيق هدف عريض تسعى له اليهودية العالمية للسيطرة على العالم . وقد تكشفت هذه المخططات من خلال ما تسرب إلى العالم من نصوص التلمود ، وما كشفت عنه بروتوكولات حكماء صهيون ، ويوميات هرتزل ، وعديد من الكتابات التي سمحت الصهيونية بإذاعتها بعد الحرب العالمية الثانية ، وحاولت بها أن تكشف عن مخططاتها الخفية التي كانت سرية ، ومحاطة بقدر كبير من الكتمان ، وذلك في محاولة لتضخيم دورها في سياسة العالم ، مما يولد اليأس لدى

---

[172] سورة المائدة الآية 18 .

[173] سورة آل عمران الآية 75 .

[174] ظفر الإسلام خان – التلمود ص 70 .

[175] تقول الموسوعة (دائرة المعارف البريطانية : " إن الصهيونية حركة يهودية قومية ، هدفها خلق دولة قومية لليهود في فلسطين ، إذ يعتبرون هذه البلاد وطنهم الأصلي ويسمونها أرض إسرائيل " خيري حماد ص 8) .

[176] انظر : جارودي – الصهيونية ص 37 ، ص 45 .

[177] تمكن اليهود من استصدار قانون بفرنسا سنة 1881 م إلى عدم التشهير بأي شخص بسبب انتمائه إلى عرق معين أو أمة ما أو جنس أو دين ولذلك من السهل اتهام من يكشف حقائق الصهيونية باللاسامية ويتعرض للمحاكمة القضائية / انظر جارودي . الصهيونية . ص 5 – 6 .

أعـدائها ، بعـد أن نجحـت فـي كثيـر مـن مخططاتهـا ، وتحكمـت فـي مصـائر كثيـر مـن دول العالم .

هذا وقد سميت الصهيونية بهذا الاسم نسبة إلى جبل صهيون (Zion) بالقدس

واســتخدمت الصــهيونية الاســتعمار الأوروبــي ، والشــيوعية الروســية ، لتحقيــق أهـدافها , وتحركـت فـي جسـم الأمـة الإسـلامية بواسـطة مؤسسـاتها الجهنميـة الماسـونية ، والنـوادي الرياضـية ، والأنديـة الثقافيـة مثـل الروتـاري ، والليـونز وغيرهمـا ، والجمعيـات المختلفـة ، فأحـدثت الفـراغ الفكـري ، الـذي حـاول أن يتغـذى بـالفكر الغربـي الـديمقراطي ، أو الاشــتراكي . فــأدى ذلــك إلــى ازدواج الشخصــية المســلمة ، ولــم تواجــه التحــدي الصـهيوني كعـادة الأمـة الإسـلامية فـي مواجهـة التحـديات . فاشـتد الخطـر الصـهيوني . وسـنتناول ذلـك بتفصـيل عنـد البحـث فـي قضـايا العـالم الإسـلامي المعاصـرة فهـي قـد قامـت في مهمتين :

أ- المزيـد مـن الصـلات بـالغرب ، والمزيـد مـن التأكيـد علـى أهميـة دورهـا فـي الديمقراطيـة الغربيـة ، وحمايـة المصـالح الأساسـية للحضـارة الغربيـة ، فـي منطقـة الشـرق الأوسط .

ب- المزيــد مــن ربــط الصــهيونية بالشــيوعية . واســتغلال الشــيوعية لتنفيــذ المخططـات الصـهيونية ، بارتبـاط الأحـزاب الشـيوعية فـي الـبلاد الإسـلامية بالمخططـات الصهيونية .

وقـد هـدفت الصـهيونية بالتعـاون مـع الاسـتعمار إلـى أهـداف أساسـية فـي العـالم الإسلامي :

1- تمزيــق وحــدة العــرب والمســلمين ، والحيلولــة دون وحــدة العــالم الإســلامي ، بالفصــل بــين قــارتي آســيا وأفريقيــا ، فهــدفت الصــهيونية إلــى وراثــة النظــام الرأســمالي ، والسيطرة على العالم الإسلامي .

2- تتمــة الغــزو الثقــافي للعــالم الإســلامي ، بتــدمير كــل القــيم ، والأنظمــة ، والأخلاقيات ، ونقل أسلوب الإلحاد ، والإباحية ، والتسلط .

وقـد أفـرزت الصـهيونية فكـرا خطيـرا فـي عـالم الإسـلام وفـي العـالم أجمـع هـو **الفكـر الماسوني** .

والماســونية جمعيــة يهوديــة ، تهــدف إلــى تــدمير القــيم ، والأديــان ، وهــي تتشــكل فــي إدارات اجتماعيـة ، هـدفها الأساسـي تنفيـذ مـا جـاء فـي التـوراة المحرفـة ، مـن إحيـاء الأوهـام التــي تســيطر علــى الزعامــات اليهوديــة ، مــن إقامــة مملكــة إســرائيل الكبــرى ، وفــي الوقــت

نفسه ، تحقيق ما جاء في بروتوكولات حكماء صهيون ، التي حملت المخططات الصهيونية اليهودية العالمية .

والترجمة الحرفية للاسم تعني : (جمعية البنائين الأحرار) أي الذين لا تربطهم رابطة أو تلزمهم نقابة [178] . وهي تزعم أنها مؤسسة اجتماعية ، فلسفية ، تحب الخير للإنسانية ، وترجو لها الترقي ، والتقدم ، وتهدف إلى البحث عن الحقيقة ، وترمي إلى تحقيق الأخلاق الدنيوية ، وتطبيق أسس التعاون ، والتآزر ، وتتخذ من وسائل الرقي المادية ، والمعنوية أساسا للتعامل الاجتماعي ، والفكري للإنسانية . ورفعت شعارا براقا هو : الإخاء والحرية والمساواة التي خدعت كثيرا من المفكرين واستهوتهم .

وقد كشفت بعض محافلها عن الأهداف الحقيقية لها وهي [179] :

1- المحافظة التامة على اليهودية .

2- محاربة الأديان بصورة عامة .

3- بث روح الإلحاد والإباحية بين الشعوب .

وقد احتضنت بريطانيا هذا الاخطبوط الماسوني فكانت أسبق الدول بإنشاء محفل ماسوني أعظم ، ثم توالى بعد ذلك إنشاء المحافل الماسونية [180] ، ودخلت بذلك البلاد الإسلامية لتزيد من تمزقها ومشاكلها [181] . وأنتجت الماسونية معاول هدامة في جسد المجتمع المسلم منها : البهائية ، والقاديانية ، ويهود الدونمة ، والروتاري ، والليونز ، والروحية الحديثة [182] .

5- الحركة الشيوعية :

ومن المصائب التي حلت بالعالم الإسلامي في القرن الرابع عشر الهجري ظهور الشيوعية ، كاتجاه عقائدي يناقض الإسلام بالكلية ، وككيان رسمي هدفه إبادة الوجود الإسلامي واستئصاله ليس من الاتحاد السوفيتي فحسب وإنما من المعالم أجمع .

والشيوعية فلسفة مادية جدلية للتاريخ ونظام الحياة تقوم أساسا على المادة ، ومعاداة الأديان ، تنتسب إلى " كارل ماركس " الفيلسوف الألماني وحفيد الحاخام اليهودي " مردخاي ماركس " . ركز مع الفيلسوف الانجليزي " إنجلز " على فكرة

---

[178] الماسونية . محمد سفوت السقا وزميله ص 11 .

[179] د. صابر طعيمة – الماسونية ذلك العالم المجهول ص 159 .

[180] انظر مجلة دار الهلال – القاهرة – العدد يونيو 1977 م ص 33 – 34 .

[181] انظر عن الماسونية في مصر / محمد صفوت السقا . الماسونية . ص 122 .

[182] انظر القوى الخفية لليهودية العالمية – الماسونية – لداود عبد العفو سنقرط – ص 117 وما بعد .

الصراع الطبقي في إحداث التغيرات الاجتماعية ، والتي أخذها عن فكرة (الديالكتيك) الجدلية من الفيلسوف الألماني " هيجل " بعد أن قلبها وجعل المادة أصلا لا الفكر . بل اعتبر الفكر نفسه مادة . كما أخذ كثيرا من أفكار " موشي هس " صاحب كتاب الدولة اليهودية الذي تأثر به " هيرتسل " صاحب فكرة الصهيونية الحديثة ومنظرها .

وفي عام 1336 هـ / 1917 م قام لينين مع قادة الحزب الشيوعي بثورة دموية ، سقط خلالها عرش القيصرية الروسية ، فتحقق بذلك قيام دولة للفكر الإلحادي اللاديني في واحدة من أكبر دول العالم ، لتكون منطلق الغزو التبشيري للعقيدة الماركسية المادية التي أعلن أصحابها : بأنه لا مبرر بعد للهدنة مع الميراث الديني ، وأصحابه ، وإلا أدت هذه المهانة إلى بعث ديني فيه خطر على التجربة الاشتراكية [183] .

وتحرك الفكر الماركسي اللينيني وليد الصهيونية [184] في جسم الأمة الإسلامية فكريا ، وواكبته حرب دموية ، هدفها استئصال المسلمين وتصفية وجودهم البشري والفكري في البلاد الإسلامية التي حكمتها . فقد بدأت الاشتراكية في البلاد الإسلامية العربية على شكل (موضة) بواسطة بعض الكتاب النصارى منهم : النصراني السوري شبلي شميل (1860 – 1917) ، والكاتب النصراني المصري : سلامة موسى (1887 – 1959) [185] دون أن يكون لهم تأثير على المجتمع .

وبعد ظروف إنهاء الخلافة العثمانية وفدت الشيوعية إلى العالم الإسلامي يحملها يهود إلى مصر سنة 1340 هـ / 1921 م وسنة 1346 هـ / 1927 م حيث تعددت فيها المنظمات الشيوعية وكان أشهرها :

1- الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني ، واختصر إلى (حدتو) بزعامة اليهودي كوريل .

2- منظمة أسكرا (الشرارة أو الشعلة) ورئيسها يهودي ماركسي يدعى (إيلي شوارتز) وغير الاسم إلى : نحو حزب شيوعي مصري ومختصره (نحشم) .

---

[183] د. صلاح الدين المنجد – كتاب بلشفة الإسلام ص 24 .

[184] قال الملك فيصل بن عبد العزيز من كلمة في فريق طلبة الكلية الحربية بواشنطن : " عندما نقول الصهيونية والشيوعية نذكر اسمين ولكن في الحقيقة إن الشيوعية وليدة الصهيونية وهدفها الأساسي هو التخريب والتحطيم " . (جريدة البلاد السعودية . جدة / عدد يوم الخميس 26 صفر 1391 هـ / 21 ابريل 1971 م . عن وكالة الأنباء السعودية) .
وكان هذا عنوان كتاب أصدره أحمد عبد الغفور عطار (الشيوعية وليدة الصهيونية) .

[185] برنارد لويس – العرب والشرق الأوسط ص 95 .

3- منظمة الفجر الجديد – التي سميت فيها بعد الديمقراطية الشعبية (د. ش) وأسسها : يوسف درويش ، وريمون دويك . واختصت هذه المنظمة باصطياد العمال ، والعاطلين ، والمنحرفين من الشبان والشابات .

4- المنظمة الشيوعية المصرية (م. ش. م) وأسسها اليهوديان (أوديت) وزوجها (سلامون سدني) .

وقد أثر الدعاة الشيوعيون في كثير من الطلبة ، والطالبات ، والعمال ، والمدرسين ، باسم الأماني الوطنية ، وتحرير مصر من الاستعمار ، ومناهضة الأحلاف العسكرية ، وسحروهم بالماركسية اللينينية ، وزعموا لهم أن الشيوعية نصير الشعوب المستعمرة المظلومة ، وأنفقوا الأموال الكثيرة التي كانت تصلهم من موسكو بلا حساب [186] .

وكذلك حمل الشيوعية إلى العراق يهود . واستطاعوا استمالة كثير من شباب العراق ، وشعرائه ، وأدبائه ، وكتابه ، وكان منهم بدر شاكر السياب الذي روى للأستاذ قدري قلعجي ما لديه من علم عن الشيوعية في العراق [187] .

وفي سوريا أسس الحزب الشيوعي يهودي يدعى (شامي) سنة 1343 هـ / 1924 م وكان يتقن العربية [188] .

واستطاعت الشيوعية أن تتسلل إلى الأقطار الإسلامية وأصبح في بعضها أحزاب شيوعية قوية كاندونيسيا ، وبنغلاديش ، والعراق ، وسوريا ، والبلدان الأفريقية .

واستطاعت الصهيونية والشيوعية أن تشغل المسلمين بصراع وهمي مع الاستعمار ، وبصراع حقيقي ورهيب فيما بينهم ، مما أسموه التقدمية ، والرجعية ، والاقطاع ، والرأسمالية [189] ، وكانت الاشتراكية المخدر الذي أمات الشعور الإسلامي ، وألهاه عن الأخطار اليهودية وغيرها [190] . فكانت بذلك تحديا خطيرا تحول من تحد خارجي إلى داخلي . والتحدي الداخلي أشد وأعنف من التحدي الخارجي . فما بالك إذا كان هذا التحدي الداخلي مدعوما بقوى خارجية هائلة الشيوعية والصهيونية ؟ !

وكانت الشيوعية عاملا مساعدا لانتشار ونمو كثير من الاتجاهات الفلسفية المادية ، التي تلتقي معها في أسس النظرة إلى الكون ، والإنسان ، والحياة ، **والوجودية** . كانت أبرز هذه التيارات على الإطلاق ، وقد وضع فلسفتها (جون بول

---

(186) الشيوعية وليدة الصهيونية . ص 89 .

(187) في كتابه تجربة عربي في الحزب الشيوعي – ص 19 ، 21 – 22 .

(188) الشيوعية وليدة الصهيونية ص 92 .

(189) نفسه ص 74 .

(190) انظر الاشتراكية في التجارب العربية . باشميل ص 34 .

سـارتر) ذو النسـب اليهـودي (1323 – 1400 هـ) (1905 – 1980 م) وتقـوم نظريتـه علـى إبطـال مبـررات الوجـود ، وإبطـال تفسـيره والحكمـة منـه . ومـن هنـا تلتقـي نظريته بالشيوعية من حيث إنكار وجود الله .

ودعوتـه جريئـة للإباحيـة والتحـرر مـن المعتقـدات ، والأعـراف ، والقـيم ، والتقاليـد ، ممـا تعتبـر المبـرر الرئيسـي لنشـاط الفئـات الشـاذة فـي العـالم كـالهيبيين والخنـافس وأشياعهم .

يقـول سـارتر : " إن مـا ينبغـي أن تكـون عليـه حيـاة الوجـودي هـو توديـع مـا يسـميه الجبنـاء وجـدانا ، وضـميرا ، والاسـتجابة إلـى داعـي الحيوانيـة ، وتلبيـة كـل مـا تـدعو إليـه شـهواته ، ونبـذ كـل التقاليـد ، والتعـاليم الاجتماعيـة ، وتحطـيم القيـود ، التـي ابتـدعتها الأديـان " [191] . ودخلـت فكـرة الوجوديـة إلـى العـالم الإسـلامي ، وزار سـارتر كثيـرا مـن دوله ، ومعه عشيقته (سيمون دي بوفوار) المؤمنة بفلسفته [192] .

الفصل الثالث
نتائج التحديات الخارجية والداخلية على العالم الإسلامي

كان من نتائج هذه التحديات ما يلي :

أولا : الابتعاد عن تطبيق الشريعة الإسلامية :

إن تـوالي هـذه التحـديات ، والوقـوف فـي وجههـا تصـدها الأمـة ممثلـة فـي علمائهـا ، ومجـدديها ، وقادتهـا المخلصـين ، اسـتنزف قواهـا ، وقادهـا أخيـرا إلـى الضـعف ، وأخـذ العـالم الإسـلامي يسـير مـن ضـعف إلـى ضـعف . وأخـذ المسـلمون يتخلـون عـن مـوقعهم الأساسـي فـي قيـادة البشـرية ، وتوجيههـا إلـى وجهـة الخيـر التـي يكلفهـم بهـا الإسـلام ، وتخلـوا عـن التبعـات التـي أناطهـا بهـم فـي كـل اتجـاه ، حـين قعـدوا عـن الاجتهـاد وركنـوا إلـى التبعية والتقليد .

---

[191] وليم جيمس . إرادة الاعتقاد ص 121 ترجمة د. محمود حسب الله .

[192] وسيمون هذه لا توارب ولا تلف في ذكر أفكارها فهي ترى أن الزواج الذي قررته الأديان شيء سخيف ، وإن من حق المرأة أن تعاشر من تحب وإذا كانت متزوجة فلا يسوغ إكراهها على الرضا بشخص واحد . . / وقد نشرت مجلة الهلال في 1 / 1 / 1966 م مقالا ضد الزواج طافحا بأوسخ الأفكار / وهو عدد ممتاز من مجلة الهلال يتضمن (موسوعة الجيب الاشتراكية ، من الاشتراكية الخيالية إلى الواقع المعاصر ، وفيه عرض أفكار سيمون هذه . واستقدم سارتر وعشيقته إلى القاهرة ليتحدثا إلى المثقفين في الجمهورية العربية المتحدة وعرضت لهما الدعاية في الأهرام وأسرة تحريرها : حسنين هيكل ولطفي الخولي ولويس عوض . وعقدت الندوات والمحاضرات ألقيت وتحدث الراديو والتليفزيون ينشر المشاهد والمحاورات وفي جامعة القاهرة . . . انظر . محمد الغزالي . الإسلام في وجه الزحف الأحمر ص 36 – 37 .

وانقطعت صلتهم بماضيهم وأسلافهم في الجهاد وتضحياتهم ، فانحسر إرثهم الإسلامي في بطون الكتب ، يدورون حوله ، فأهدرت في الأمة روح الإبداع ، والابتكار ، وانقاد المسلمون إلى عصر من **الجمود** ، وهو نوع من الانطواء على الذات في مواجهة التحديات ، حفظ عليهم حضارتهم ، وكيانهم ، ولو في حالة توقف حضاري ، والتزم علماء الأمة ومفكروها دائرة الحواشي ، والمتون ، وعكفوا على نصوص السابقين ، وكتبهم ، ينزلونها أحيانا منازل العصمة والقداسة [193] .

وفي الوقت الذي بدأ فيه العالم الإسلامي يتحرك من جموده ، ويبعث الإسلام في مختلف مجالات حياته ، وينفض عنه غبار الجمود ، والتقليد ، والجبرية ، والتواكل ، بقيام دعوات سلفية لإحياء الإسلام في قلب الأمة (كحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد ، والحركة السنوسية في ليبيا ، والحركة المهدية في السودان ، والحركة الدهلوية في الهند ، والسلفية في المغرب ، وشركة إسلام والجمعية المحمدية في أندونيسيا ، وحركة عثمان دنفويو في السودان الغربي) كان قد طغى سبيل الحضارة المادية ، والتهم الاستعمار الغربي بلاد الإسلام ، واشتد التحدي ، فلم تنجح هذه الحركات في لم شعث المسلمين ، وكان نجاحها محدودا ، وفي بلاد معينة . فابتعد المسلمون عن تطبيق الشريعة بفعل هذا الاستعمار والصهيونية والشيوعية وأساليبها أكثر فأكثر [194] ، واشتد الأمران : الوهن الداخلي ، والتآمر الخارجي ، على الكيد للشريعة الإسلامية وتشويه معالمها فكريا ، وصرف المسلمين عنها واقعيا .

وكان أول قطر بدأ فيه إلغاء الشريعة الإسلامية هو **الهند** ، فقد أخذ الانجليز يلغون القانون الإسلامي آنا بعد آن ، ويستبدلون به القوانين الوضعية ، حتى تم إلغاؤه في أواسط القرن التاسع عشر ، ولم يبق منه إلا ما يسمى بقانون الأحوال الشخصية ، الذي يتعلق بمسائل النكاح والطلاق وغيرهما [195] .

وألغى الانجليز الحكم بالشريعة في **السودان** ، عام 1317 هـ / 1899 م ، وقد أخذ أساسا من قانون العقوبات الذي وضعه الانجليز للهند سنة 1277 هـ / 1860 م .

وفي **العراق** استبدل الانجليز فور الاحتلال بقانون الجزاء العثماني قانونا جديدا ، أصدره قائد قوات الاحتلال ، سنة 1337 هـ / 1918 م ، باسم (قانون العقوبات البغدادي) . وفي **تونس** طبق القانون الوضعي عام 1333 هـ / 1914 م . وصدر بعنوان (المجلة الجنائية) واقتبست نصوصه من القوانين الفرنسية ، والإيطالية .

---

[193] فتح الله ص 24 .

[194] انظر وضف لوثروب ستودوارد للعالم الإسلامي في القرن الثامن عشر الميلادي . حاضر العالم الإسلامي ج 1 ص 259 – 260 .

[195] فتح الله ص 104 – 105 عن أبي الأعلى المودودي / رسالة القانون الإسلامي وطرق تنفيذه ص 10 – 11 . وانظر التفاصيل : أصول قانون العقوبات ص 13 ، 14 .

وفي الوقت نفسه كانت بريطانيا وفرنسا تدفعان **الدولة العثمانية** – دار الخلافة – إلى منزلق خطير جدا ، يأخذ اسم الإصلاح وشكله ، بينما ينطوي في داخله على أكبر المفاسد ، وقد أعان على ذلك جنود الغزو الفكري من أبناء الدولة نفسها ورعاياها ، فأصدرت الدولة العثمانية عقب مؤتمر باريس سنة 1272 هـ / 1856 م الذي أنهى حرب القرم [196] . قوانين عرفت باسم (التنظيمات الخيرية) – التجديدات – وتضمنت إنشاء ما يسمى بالمحاكم المختلطة والمحاكم التجارية تابعة للدولة نفسها وتطبيق قوانين أجنبية باسم دولة الخلافة الإسلامية ذات السيطرة الواسعة على المسلمين . وكان هذا هو حدث الأحداث في بداية انهيار التشريع الإسلامي من حيث التطبيق والتنفيذ . وحتى مجلة الأحكام الشرعية – الأحكام العدلية التي أصدرتها الدولة عام 1295 هـ / 1869 م وقننت فيها أحكام المعاملات من مذهب أبي حنيفة لتقابل ما يسمى بالقانون المدني في الأنظمة الوضعية – حتى هذه المجلة لم تكن تطبق إلا على رعايا الدولة فقط وفي الأحوال التي لا يكون فيها أحد طرفي النزاع أجنبيا ، ثم مع ذلك استمرت عرضة للتحريف والانتقاص [197] إلى أن انحسرت دولة الخلافة ثم زالت .

وأما **مصر** : فقد تعرضت لحملة نابليون الفرنسية عام 1798 م الذي حاول تنحية الشريعة الإسلامية . فصرخ أحد علماء الأزهر (وهو الشرقاوي) في وجهه قائلا : " لو كنت مسلما حقا كما تدعي ، لطبقت الشريعة الإسلامية في بلدك فرنسا ، بدلا من تنحية الشريعة هنا ، ووضع القوانين الوضعية " .

وبعد فشل حملة نابليون – اتجهت فرنسا لتدعيم محمد علي باشا والترحيب ببعثات الطلاب المصريين في بلادها ، وبعث العلماء والأطباء والقادة العسكريين إليه ، ليكونوا في الحقيقة رسل التغيير ، وحملة الحضارة الفرنسية . وكان في بداية هذا إدخال بعض القوانين التجارية والحربية إلى مصر نقلا عن قوانين فرنسا .

وظل النفوذ الفكري الفرنسي يتسلل إلى مصر حتى كان الخديوي إسماعيل الذي ربي في فرنسا ، وصاغته صالونات باريس ، وصداقاته المتعددة لرجالها ونسائها صياغة جديدة غريبة تماما عن الأمة ، فكان مبهورا بما رأى وسمع ، وكانت أمنيته التي صرح بها مرارا أن يجعل مصر قطعة من أوربا ، فأسرف في تشييد القصور ، وإقامة التماثيل والحدائق والمتنزهات والمسارح ودور الغناء بلا ضرورة ولا وعي ، فأغرق بلاده في الديون ، وأنشأ دار الأوبرا ، واستقدم لها المغنيين والمغنيات ، واستأجر أشهر موسيقي أوربا ليضعوا لها الألحان .

وكان إسماعيل هذا أول من تجرأ على هدم شريعة الإسلام هدما غير مسبوق في تاريخها ، فقد أنشأ أول مدرسة للحقوق على النمط الفرنسي ، فأصبحت مصدرا أساسيا

---

[196] انظر د. علي حسون . الدولة العثمانية ص 158 .

[197] انظر فتح الله ص 46 – 47 ، د. محمود مصطفى . أصول قانون العقوبات في الدول العربية ص 9 – 10 ، علي حسون ص 161 – 162 .

لتخـريج أجيـال مقطوعـة الصـلة بشـريعة الإسـلام ، ثـم طـورت لتصـبح كليـات واسـعة النطاق .

ويـذكر محمـد طلعـت حـرب – الإقتصـادي المصـري الشـهير [198] : أن إسـماعيل لمـا أراد أن ينفصـل بمصـر عـن الدولـة العثمانيـة ، وعـد ملـوك أوربـا إن أيـدوه أن يبـدّل أحكـام القـرآن فيمـا يتصـل بالحيـاة السياسـية والاجتماعيـة ، ويفصـل السياسـة عـن الـدين ، ويطلـق الحريـة للنسـاء ، بحيـث يسـرن فـي إثـر المـرأة الغربيـة ، وينقـل إلـى مصـر معـالم المدنية الأوروبية .

وغرقـت مصـر فـي الـديون . فتـدخل الأجانـب بحجـة حمايـة أمـوالهم حتـى كـان فـي الـوزارة المصـرية وزيـران انجليـزي وفرنسـي . فـدخلت ريـاح الانقـلاب التشـريعي وانتهـت باحتلال البلاد كلها ثم فرض شريعة الغرب عليها .

أمـا فـي **المغـرب والجزائـر** فقـد فصـل عـلال الفاسـي خطـوات محاولـة القضـاء علـى الشريعة الإسلامية فقال [199] :

" كانـت الشـريعة الإسـلامية هـي المرجـع الـذي تـؤول إليـه كـل القضـايا ، والقاضـي الشرعي هو الذي يتولى الحكم في المسائل المدنية والجنائية ، وفي نظام الأسرة كذلك .

ولكـن الحمايـة الفرنسـية بمجـرد انتصـابها حـدت مـن اختصاصـات المحـاكم الشـرعية ، وقـوت محـاكم الأحبـار اليهوديـة ، وأسسـت المحـاكم العرفيـة فـي القبائـل البربريـة ، ولكـن المحـاكم التـي كانـت تطبـق قـوانين منظمـة هـي المحـاكم الخاصـة بالأجانـب . أمـا المغاربـة فـإنهم كـانوا يخضـعون للعـرف فـي القبائـل البربريـة ، وللقـانون المغربـي حينمـا يرفعـون للمحـاكم الفرنسـية ، وللشـريعة الإسـلامية غيـر المقننـة فـي محـاكم القضـاء . هـذا فـي جنـوب المغـرب ، أمـا فـي الشـمال فقـد احتفظـت المحـاكم الشـرعية باختصاصـاتها فيمـا يرجـع للجنايـات والجـنح ، والشـئون المدنيـة والأحـوال الشخصـية . وأسسـت محـاكم أسـبانية مغربية للأجانب ، وللقضايا التي فيها أجانب . . .

وهكـذا أصـبحت الشـريعة الإسـلامية معطلـة وملقـاة ، لأن الاسـتعمار جعـل مـن تسـرب القـانون الأجنبـي سـبيلا للقضـاء علـى الكيـان المغربـي ، وعلـى الفكـر الإسـلامي فـي المغرب " .

ثـم قـال فـي لجـوء الحكومـة الفرنسـية إلـى استصـدار الظهـائر البربريـة كوسـيلة للعمـل على إلغاء الشريعة خاصة بين البربر [200] :

---

[198] ويضيف فتح الله (ص 52) أن هذه الواقعة التاريخية لم نجد من يكذبها وهي مأخوذة عن : تربية المرأة والحجاب الذي نشر عام 1899 م ردا على كتاب قاسم أمين . تحرير المرأة . للدكتور ماهر حسن فهمي ص 140 . ط وزارة التعليم المصرية / ص 65 من ط سلسلة أعلام العرب .

[199] دفاع عن الشريعة ص 127 – 131 .

" وهذه السياسة التي أطلقت عليها فرنسا اسم السياسة البربرية وقننتها منذ عام 1851 م في الجزائر حيث أخرجت القبائل من أحكام الشريعة الإسلامية زاعمة أن البربر الجزائريين هم الذيين طلبوا بعث أعرافهم ، وتكوين أنظمة قضائية تقوم مقام القضاء الإسلامي .

وفي 29 أغسطس عام 1874 م ألغت فرنسا تلك الجماعات العرقية التي أسستها ، وضمت القبائل البربرية إلى اختصاص قضاة المصالح الفرنسية الذين يطبقون عليهم القوانين الفرنسية ، فيما عدا الاستثناءات المعروفة بقانون الأندية ، وفيما عدا الأحوال الشخصية ، فقد أبقتها على مقتضى العرف ، ولكن قاضي الصلح الفرنسي هو الذي يطبقه .

وفي 10 سبتمبر عام 1886 م ضمت فرنسا اختصاصات المحاكم الشرعية في القطر الجزائري كله إلى دائرة قاضي الصلح الفرنسي .

وهكذا جعلت فرنسا من سياسة الرجوع إلى الأعراف الجاهلية قنطرة لضم الجزائر إلى المحاكم الفرنسية وتطبيق قوانينها بعد إلغاء القانون الإسلامي الشرعي .

وبمجرد ما تم بسط الحماية الفرنسية على المغرب استصدرت الإقامة الفرنسية ظهير عام 1914 م في عنفوان الحرب العظمى الذي يقضي باحترام العوائد البربرية . وتظهر أهمية هذا الظهير بالنسبة لإلغاء المحاكم الشرعية من التعليق الذي كتبه المسيو رينو قال : " فظهير 11 سبتمبر في نظر الفرنسيين سبيل إلى إخراج القبائل البربرية من الإسلام ، لأن الفرنسيين متيقنون أن قبول التحاكم لغير الشريعة الإسلامية تخل نهائي من الإسلام . . . " وفي سبيل ذلك استصدرت الحماية عدة ظهائر وقرارات ، وقد توج ذلك كله بظهير 16 مايو عام 1930 م .

وهكذا كان النتيجة أن ألغي العمل بالشريعة الإسلامية في معظم بلاد الإسلام . وبقيت زاوية ضيقة لها هي زاوية الأحوال الشخصية التي حاول تلاميذ الغرب زحزحة الشريعة عنها إلى أن أزالوها عن كثير من البلدان الإسلامية .

ثانيا : سقوط الخلافة العثمانية وتفكك الأمة الإسلامية :

العثمانيون من شعب الغز التركي ، وأصلهم من بلاد التركستان ، نزحوا أمام اكتساح جنكيز خان لدولة خوارزم الإسلامية ، بزعامة سليمان الذي غرق أثناء عبوره نهر الفرات سنة 628 هـ . فتزعم القبيلة ابنه (أرطغرل) الذي ساعد علاء الدين السلجوقي في حرب البيزنطيين فأقطعه وقبيلته بقعة من الأرض في محاذاة بلاد الروم غربي دولة سلاجقة الروم .

---

(200) نفسه ص 159 – 161 .

ويعتبر عثمان بن أرطغرل هو المؤسس الأول للدولة العثمانية ، وبه سميت ، عندما استقل بإمارته سنة 699 هـ / 1300 م ، نتيجة لانحلال دولة سلاجقة الروم ، وأخذت هذه الإمارة على عاتقها حماية العالم الإسلامي ، وتولت قيادة الجهاد ، وأصبحت المتنفس الوحيد للجهاد ، فجاءها كل راغب فيه ، واجتذبت المتحمسين لنصرة الإسلام من مجاهدين وعلماء ودعاة ، فتمكنت بذلك من رد الصليبيين ونقلت الصراع من آسيا إلى أوربا [201] بعد أن كان العالم الإسلامي على وشك الوقوع بين كماشة الصليبية أحد فكيها : البرتغاليون في البحر من الجنوب الشرقي ، وقواعدهم في شبه القارة الهندية ، والفك الآخر : كان زحف الروس من الشمال .

وبهذه العاطفة الإسلامية المتأججة في نفوسهم ممتزجة بالروح العسكرية المتأصلة في كيانهم ، حملوا راية الإسلام ، وأقاموا أكبر دولة إسلامية عرفها التاريخ في قرونه المتأخرة ، امتدت على ثلاث قارات هي : آسيا ، وأوربا ، وأفريقيا ، فاستطاعوا إزالة الدولة البيزنطية من الوجود ، واستولوا على البلقان ، ودقوا أبواب فينا عاصمة الامبراطورية النمساوية على نهر الدانوب ، ووصلوا جنوب روسيا ، وساحل بحر الأدرياتيك ، وهددوا روما نفسها مركز البابوية ، فبسطت بذلك لواء الإسلام على ما يعرف اليوم بدول أوربا الشرقية ، واليونان ، وجزر البحر المتوسط ، وأجزاء من ايطاليا ، والنمسا ، كما خضعت لها الأرض الممتدة من شمال القفقاس شمالا ، حتى الصحراء الأفريقية جنوبا ، وحدود المغرب الأقصى غربا ، ومدت جناحها الشرقي حتى بلاد فارس ، وجبال كردستان ، شاملة مساحة من الأرض قدرت بأكثر من عشرة ملايين ميل مربع . فكانت أقوى دولة في العالم آنذاك [202] . وأبطلت عمل الكماشة الصليبية ، وهددت أوربا ، وألزمتها جانب الدفاع أمام الإسلام فترة طويلة من الزمن . وبقيت الحارس الأمين للعالم الإسلامي أربعة قرون ، وأطلقت على دولتهم اسم (بلاد الإسلام) ، وعلى حاكمها اسم (سلطان) وكان أعز ألقابه إليه : (الغازي) أي المجاهد . أما اللفظان العثماني والتركي فهما من المصطلحات الحديثة . كما أطلق على جيوشها : (جند الإسلام) ، وعلى عالمها الديني : (شيخ الإسلام) [203] . وحكمت بالعدل بالعمل بالشرع الإسلامي . في القرون الثلاثة الأولى لتكوين هذه الدولة .

ويتساءل المؤرخون كيف تمكن الأتراك العثمانيون منذ البداية المبكرة أن يحرزوا الانتصارات على الدولة البيزنطية العريقة ، وتأتي الإجابة على ألسنتهم . وفي مقدمتهم المؤرخ الشهير (ستافريانوس) الذي يؤكد " أن نصرهم لم يكن بالإمكان تحقيقه لولا عظمة الإسلام ، وما غرسه في قلوبهم من حب عميق للقتال في سبيل الله ، والرغبة الصادقة في نشر رسالة الإسلام ، واستمد عثمان ومن خلفوه قوتهم من الفيض الدائم

---

[201] العسلي . الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ص 300 .

[202] علي حسون . الدولة العثمانية ص 9 .

[203] برنارد لويس – الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية ص 468 .

المتدفق من الغزاة أو المقاتلين في سبيل الله والدين ، والذين وفدوا من كل أنحاء الأناضول ليقاتلوا ضد أعداء الإسلام " .

لقد تكونت في كل أنحاء الأناضول جمعيات الإخوة الإسلامية ، تدعو للجهاد في سبيل الله ، وتتعاون من أجل إعداد المجاهدين لإعلاء كلمة الحق ، وكان شعارها الدائم (فضل أخاك على نفسك) . وحين زار الرحالة المسلم الشهير (ابن بطوطة) آسيا الصغرى في عام 1333 م وصف معيشتهم وتعاونهم وكرمهم وأعجب بسمو أخلاقهم ، وعندما افتتح محمد الفاتح القسطنطينية عام 1453 م اتخذها عاصمة للإسلام ، وكتب إلى أمراء المسلمين ينبئهم بهذا الفتح العظيم ، فقال في رسالته إلى إينال شاه سلطان مصر المملوكي (1453 – 1460 م) :

" إن من أحسن سنن أسلافنا أنهم مجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون في الله لومة لائم ، ونحن على تلك السنة قائمون ، وعلى تلك النية دائمون ، ممتثلين بقوله تعالى : (قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ) . ومتمسكين بقوله عليه السلام : " من أغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار " فهممنا هذا العام . . . . إلى أداء فرض الغزاء في الإسلام مؤتمرين بأمره تعالى (قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ) . وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجورا وكفرا ، والتي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخرا . . . " [204] .

ولقد قدم المسلمون من الأتراك للنصارى في أوربا أمثلة صادقة حية تمثل سماحة الإسلام ، وعظمة المسلمين ، فاعتزوا به ، وعزوا ، وصار منهم كبار القادة في جيش المسلمين ، وتولى كثيرون منهم أهم المناصب في الدولة [205] ، الأمر الذي أزعج أوربا ، وجعلها تعقد التحالفات الصليبية المتكررة لطرد العثمانيين ، ولكن الفشل كان لها بالمرصاد [206] ، فظهر في عالم السياسة الأوربية ما عرف باسم (المسألة الشرقية) التي كانت تعني حينذاك ضرورة تكاتف أوربا النصرانية لمواجهة خطر العثمانيين ، وإيقاف تيار فتوحهم الجارف . وقد وصفها بعض الكتاب من الشرق ومن الغرب ، بأنها مسألة النزاع بين النصرانية والإسلام ، أي مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدولة العثمانية القائمة بأمر الإسلام وبين دول النصرانية [207] .

وبعد أن أصاب الوهن المسلمين بما فيهم الدولة العثمانية تغير مفهوم المسألة الشرقية ، وأصبحت تعني ، ضرورة طرد العثمانيين من أوربا ، وتقسيم ممتلكاتهم في

---

[204] عمر عبد العزيز عمر – تاريخ المشرق العربي ص 44 .

[205] انظر : د. محمد كمال الدسوقي . الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص 14 – 15 .

[206] كالتحالف الصليبي عام 1364 م وسنة 1396 م . معركة نيبوليس . وسنة 1479 م . انظر د. دسوقي ص 23 ، ص 26 ، ص 48 . وتحالف الأساطيل الأوروبية حيث هزمت الدولة العثمانية في معركة ليبانت بعد سلسلة من هزائم تعرضت لها من الأسطول العثماني عام 979 هـ / 1571 م .

[207] د. محمد محمد حسين . الاتجاهات الوطنية . ج 1 / 23 عن المسألة الشرقية ص 5 لمصطفى كامل .

هـذا الميـدان الأوربـي ، ثـم تقسـيم ممتلكـاتهم جميعـا ، وخرجـت التسـمية الأوربيـة للدولـة العثمانيـة باسـم (الرجـل المـريض) ، وكانـت روسـيا القيصـرية لا تنقطـع عـن إثـارة الفـتن بـين دول البلقـان ، وتـأليبهم علـى الحكـم العثمـاني ، ومـدهم بالسـلاح بـدعوى الـتخلص مـن حكـم المسـلمين [208] . وبلـغ التعصـب بأحـد كتـاب فرنسـا أن اقتـرح حـلا للمسـألة الإسـلامية ، القضـاء علـى المسـلمين ، ونـبش قبـر الرسـول الكـريم صـلى الله عليـه وسـلم ، ونقـل عظامه إلى متحف اللوفر بباريس [209] .

أمـا فـي بريطانيـا ، فتظـاهرت بأنهـا تقـف مـع وحـدة أمـلاك السـلطان ، وكانـت تبتلـع شـيئا مـن أملاكـه كلمـا حانـت الفرصـة ، ثـم تنتظـر مـدة لتهضـم مـا ابتلعتـه دون ضـجة مـن بقية الدول الأوروبية [210] .

لقـد اتهـم الكثيـرون الدولـة العثمانيـة بكـل باطـل ، وألصـقوا بهـا صـورة التخلـف الـدائم ، وتناقلـت ذلـك الأقـلام الغربيـة الحاقـدة علـى هـذه الدولـة ، وعلـى الإسـلام وربطـوا فـي غمـرة حقـدهم بـين ذلـك التخلـف وبـين الإسـلام ، ونسـبوا لـه كـل مـا أصـاب الدولـة مـن ضـعف ووهـن ، وكـل مـا جـاء بهـا مـن كـوارث ومشـاكل علـى مـر العصـور ، ونسـوا أو تناسـوا أن كـل مـا يصـيب الأمـة الإسـلامية مـن خيـر وعـزة ، يصـيبها دائمـا حـين تتمسـك بـالقيم الإسـلامية ، وأن كـل مـا يحـل بهـا مـن هـوان ، يحـل بهـا حـين يضـعف تمسـكها بالـدين الحنيف ، وأن الإسلام والتمسك به سر عظمة هذه الأمة .

وقـد بقيـت الدولـة العثمانيـة عزيـزة الجانـب وهـي تـذود عـن حمـى الإسـلام وأسـدت خـدمات جليلـة للإسـلام والمسـلمين علـى امتـداد تاريخهـا ، ولكنهـا فـي الفتـرة الأخيـرة مـن حياتهـا وقعـت فـي أخطـاء عديـدة ، أخطرهـا علـى الإطـلاق هـو : تشـجيع الصـوفية ، وعـدم اتخـاذ الإسـلام مصـدرا أساسـيا للتشـريعات والقـوانين والأنظمـة التـي تسـير عليهـا الدولـة – فكثـر إصـدار التشـريعات والقـوانين الوضـعية فيمـا سـمي بالتجديـدات (كمـا ذكرنـا) وذلـك بسـبب الضـغوط الأوروبيـة ، فتنكبـت الدولـة الطريـق فـي مواجهـة العواصـف الاسـتعمارية ، مما نتج عنه عدم استطاعتها المقاومة وانهارت في النهاية .

وفـي هـذا الجـو الحـرج ارتقـى عبـد الحميـد الثـاني سـلطة الخلافـة (1293 – 1327 هـ / 1876 – 1909 م) ، فـي أسـوأ ظـروف التـآمر علـى الدولـة وعلـى المسـلمين ، فقـد اسـتولى أعـداء المسـلمين علـى أفريقيـا شـمالها وجنوبهـا وغربهـا وشـرقها وتوغلـوا فـي وسـطها ، كمـا اسـتولوا علـى معظـم آسـيا فـي القوقـاز والتركسـتان وهندسـتان وجميـع جنـوب شـرق آسـيا ، وشـواطيء شـبه الجزيـرة العربيـة عـدن وحضـرموت وعمـان وإمـارات الخلـيج ، ولـم يبـق خارجـا عـن سـيطرة أعـداء المسـلمين إلا نجـد والإحسـاء وعسـير والـيمن داخـل شـبه الجزيـرة العربيـة ، والعـراق والشـام والحجـاز وبـلاد الأناضـول وجـزء مـن البلقـان فـي شـرق

---

[208] تاريخ الدلوة العلية ص 341 .

[209] تاريخ الأستاذ الإمام ج 1 / 801 .

[210] انظر – المسألة الشرقية لدسوقي . ص 280 ، ص 304 .

أوربا وطرابلس الغرب (التي سقطت عام 1330 هـ / 1911 م بيد ايطاليا) تحت سلطان الخلافة العثمانية . وعقدت أوربا مؤتمر برلين بإشراف (بسمارك) رئيس وزراء ألمانيا ، وأشركت فيه الدولة العثمانية ، وقد أهمل هذا آراء العثمانيين ، بل كانوا محتقرين خلال انعقاده ، وانتهت قراراته إلى إعادة رسم خريطة البلقان ، وكانت كلها موجهة ضد الدولة العثمانية ، وسعت كل دولة إلى نهب قطعة من الدولة العثمانية بأية وسيلة كانت ، فأخذت بريطانيا قبرص بحجة حماية الأملاك العثمانية الآسيوية ، ولفتت أنظار فرنسا إلى تونس ، وتطلعت هي إلى مصر ، وإلى شرق أفريقيا وقرنها . وبصفة عامة خسرت الدولة العثمانية في مؤتمر برلين ما لم تفقده في أي حرب سبقت [211] .

في هذه الظروف نادى السلطان عبد الحميد بفكرة الجامعة الإسلامية في مختتم القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين ، في محاولة لحفظ الدولة العثمانية المتداعية من الانهيار ، وليصون عقدها من الانفراط ، وفي محاولة لتنمية الشعور بالرابطة الإسلامية ، وتغذية الإحساس بالخطر الذي يهدد شعوبها أمام غول الاستعمار المتربص بها [212] ، فيدعوها إلى التجمع حول دولة الخلافة ، بوصفها أقوى البلدان الإسلامية وأقدرها على قيادة المعركة ضد العدو المشترك فكان نداؤه : " يا مسلمي العالم اتحدوا " . وأنشأ مدرسة للدعاة ، سرعان ما انبث خريجوها في كل أطراف العالم الإسلامي . كما لجأ السلطان عبد الحميد إلى الاستفادة من التنافس القائم بين الدول الأوروبية ، فحاول جهده الإيقاع بينها . وطعا كانت هذه السياسة على حساب بعض التنازلات منه . واهتم بالبلاد العربية وباللغة العربية . وكون حرسه الخاص من العرب وعين بعضهم في وظائف كبيرة ، واهتم بإنشاء خط سكة حديد الحجاز .

ومن الحق أن يقال إن حركة السلطان عبد الحميد ودعوته هزت دول العالم الغربي ، وخاصة انجلترا ، وفرنسا ، وروسيا ، وكلفتها جهدا كبيرا في سبيل مقاومتها ، ورميها بكل نقيصة ، واتهام السلطان عبد الحميد والتشكيك فيه ، وأخذت تضع الخطط لإسقاط الخلافة العثمانية وبأيدي مسلمين ، فلجأت إلى التآمر بالاشتراك مع الصهيونية والمحافل الماسونية للإطاحة به . وانطلقت الصحافة الأوروبية بذلك وتابعتها الصحافة العربية في مصر التي قاد حركتها خريجو الارساليات الأجنبية التبشيرية مثل : سليم سركيس ، وجورجي زيدان ، وفارس نمر ، ويعقوب صروف ، وفرح أنطون ، وغيرهم من الصحفيين النصارى الذين حملوا لواء التشهير بالسلطان عبد الحميد ، ومعارضته ، وإشاعة الاتهامات المختلفة حول شخصه ، وتصويره بصورة رديئة لحساب اليهودية العالمية ، وبعطف الدولة البريطانية الحاكمة في مصر وتشجيعها . وظهرت هذه الحملة بصورة خاصة في صفحات (الهلال) المجلة التي كان يشرف على تحريرها جرجي زيدان . وفي صفحات رواياته ومؤلفاته .

---

[211] انظر نوار (د. عبد العزيز سليمان) – الشعوب الإسلامية ص 203 .

[212] الاتجاهات الوطنية ج 1 / 20 .

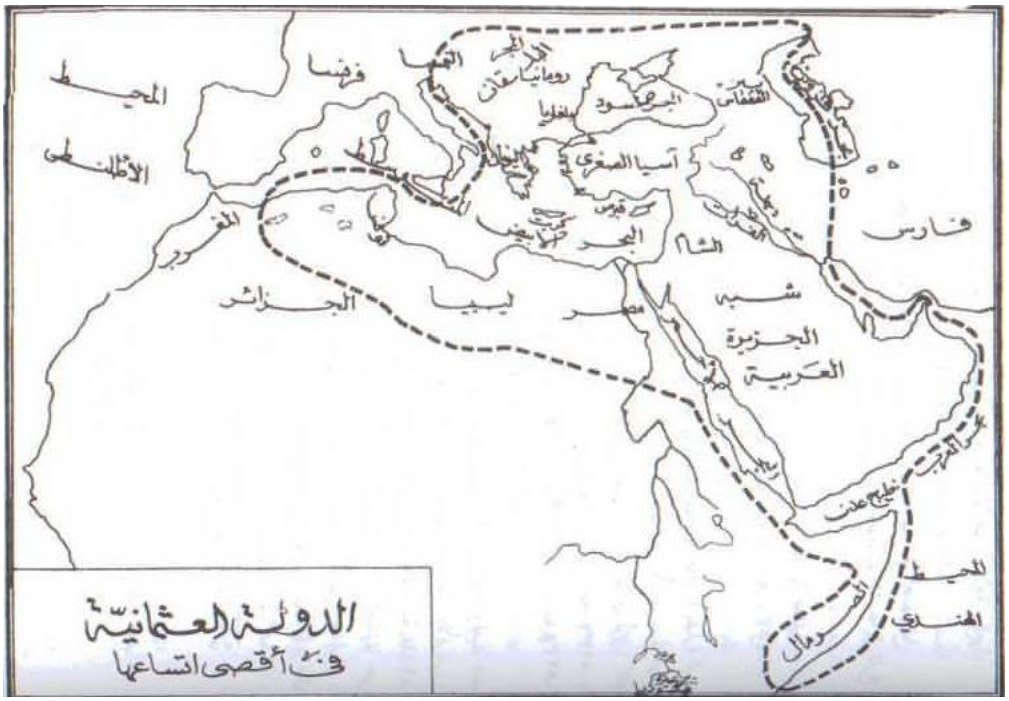

وكـان كرومـر المعتمـد البريطـاني فـي مصـر سـنة (1301 – 1325 هـ / 1883 – 1907 م) هـو أول مـن ألـب علـى الجامعـة الإسـلامية ، وحـرص علـى أن يتحـدث فـي تقـاريره السـنوية عـن الجامعـة الإسـلامية بـبغض شـديد . وفـي الوقـت نفسـه نشـرت الأهـرام (المصـرية) تصـريحات مثيـرة لـوزير فرنسـي هـو (هـانوتو) هـاجم فيهـا الجامعـة الإسـلامية . وكانـت مهاجمـة الجامعـة الإسـلامية تسـتتبع بالتـالي مهاجمـة الدولـة العثمانيـة حتـى تتفـرق الوحـدة التـي تجمـع مـن حولهـا الـدول الإسـلامية لتواجـه النفـوذ الاسـتعماري الزاحـف ، الـذي قـد رسـم مخططـه علـى أسـاس التهـام هـذه الوحـدات ، والحيلولـة دون التقائهـا مـرة أخـرى فـي أي نـوع مـن الوحـدة ، ليسـتديم سـيطرته عليهـا [213] . فاتخـذوا لـذلك عدة أعمال أساسية [214] :

1- تعميق الدعوات الاقليمية والخاصة بالوطنية والأرض والأمة والعراق .

2- خلق جو فكري عام لمحاربة الوحدة الإسلامية وتصفيتها .

---

[213] أنور الجندي . العالم الإسلامي والاستعمار ص 178 – 179 / انظر حاضر العالم الإسلامي ج 4 / 66 – 86 لشكيب أرسلان .

[214] نفسه ص 182 .

وكل هذا مقدمة لإلغاء الخلافة العثمانية نهائيا وبالتعاون مع الصهيونية .

وقبل أن نذكر كيف زالت الخلافة لا بد لنا من ذكر الجوانب المشرفة في تاريخ الدولة العثمانية ومنها :

1- أن العثمانيين هم الذين أزالوا من خريطة العالم أعتى امبراطورية صليبية ، هي الامبراطورية البيزنطية ، وفتحوا عاصمتها القسطنطينية سنة 857 هـ / 1453 م ، التي استعصت على المسلمين ما يربو على الثمانية قرون .

وكانت الدوافع الحقيقية وراء محاولة الفتح إسلامية جهادية حافزها بشارة النبي صلى الله عليه وسلم وثناؤه على الفاتح وجيشه ، وغايتها إعلاء كلمة الله في الأرض ، والجهاد في سبيله [215] ، كما تابعوا المد الإسلامي في أوربا حتى أصبح شرق أوربا كله ترفرف عليه رايات الإسلام ، ففتحوا بلغراد سنة 927 هـ ، وبودا عام 932 هـ ، وحاصروا فينا عاصمة النمسا في قلب أوربا 935 هـ / 1529 م . وسنة 938 هـ زمن السلطان سليمان [216] وسنة 1094 هـ / 1683 م [217] .

2- حفظت الدولة العثمانية لشمال إفريقيا إسلامه وعروبته ، عندما وقفت ضد أطماع الصليبيين الأسبان ، الذين بدأوا يتجهون إلى استعمار الشمال الأفريقي ، بعد قضائهم على الدولة الإسلامية في الأندلس ، بسقوط غرناطة سنة 987 هـ فقد هاجر الكثير من المسلمين إلى شمال أفريقيا ، وقام الأسبان بملاحقتهم حتى وصلوا الشواطيء الإسلامية ، واحتلوا بعض موانيء المغرب الأقصى والجزائر ، وقبل الحفصيون في تونس الحماية الأسبانية بالضغط والقوة . فقام العثمانيون بإلحاق الجزائر بناء على طلب أهلها سنة 935 هـ ، ثم حرروا تونس سنة 941 هـ [218] ، وحرروا طرابلس الغرب من الأسبان سنة 926 هـ [219] ، فكبحوا جماح الصليبيين هناك .

3- جعل العثمانيون البحر الأحمر بحرا إسلاميا مغلقا بمعنى تحريم الملاحة في هذا البحر على السفن النصرانية ، وكان التبرير لهذا الإجراء هو أن البحر الأحمر تطل مياهه على الأماكن المقدسة الإسلامية ، فيجب ألا تدنس تلك المياه بوجود سفن نصرانية ، وكان سبب هذا الإجراء الوقائي هو تآمر البرتغاليين مع ملك الحبشة على

---

[215] ويعني قوله صلى الله عليه وسلم : " لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش " . رواه الإمام أحمد والحاكم عن بشر الغنوي كما في كنز العمال .

[216] المسألة الشرقية ص 57 .

[217] د. علي حسون ص 96 .

[218] انظر علي حسون ص 52 ، 54 .

[219] نفسه ص 51 .

غـزو الأمـاكن المقدسـة فـي مكـة والمدينـة . واسـتولى البرتغـاليون علـى عـدن ومسـقط عـام 921 هـ . فكان حافزا للدولة العثمانية على إلحاق المنطقة لانقاذها [220] .

4- تحقـق فـي ظـل الدولـة العثمانيـة الوحـدة الإسـلامية علـى مسـاحة كبيـرة مـن العـالم الإسـلامي ، مـن العـراق شـرقا إلـى مـراكش غربـا ، ونعمـت تلـك المنطقـة بالهـدوء والاسـتقرار نوعـا مـا . فقـد ضـم السـلطان سـليم الشـام عـام 922 هـ ومصـر عـام 924 هـ ، ووصـل تبريـز عـام 920 هـ ، وفـتح السـلطان سـليمان العـراق سـنة 940 هـ وحمـاه مـن تغلغـل المـذهب الشـيعي الصـفوي . وكانـت الدولـة الصـفوية علـى علاقـات طيبـة مـع ملـوك الصـليبية وفتحـت أبوابهـا لنفـوذهم . كمـا كانـت الدولـة العثمانيـة علـى علاقـات طيبـة بملـوك المغرب الأقصى .

5- حفظـت الدولـة العثمانيـة قلـب العـالم الإسـلامي مـن الزحـف الاسـتعماري الصـليبي الأوروبـي مـا بقيـت قويـة لمـدة ثلاثـة قـرون ، وجـه الصـليبيون خلالهـا اهتمـامهم إلـى تطويـق العـالم الإسـلامي بـالزحف علـى أطرافـه البعيـدة عـن مركـز الخلافـة . وخاضـت حربـا لا هـوادة فيهـا مـع الصـليبيين البرتغـال فـي ميـاه المحـيط الهنـدي والهـادي ، وفـي بحـر العـرب ، والخلـيج العربـي ، ورفعـت معنويـات المسـلمين فـي جـزر الهنـد الشـرقية وجنوب آسيا والشرق الأقصى . واستمرت دعوة الإسلام تواصل انتشارها هناك .

6- ولعـل مـن أنصـع تلـك الصـفحات المشـرفة موقـف السـلطان عبـد الحميـد مـن المطـامع الصـهيونية فـي فلسـطين ، حيـث رفـض رفضـا قاطعـا السـماح لليهـود بـالهجرة إلـى فلسطين ضاربا بإغراءاتهم المادية عرض الحائط ، كما سنتحدث عنه في حينه .

هـذا ولا يخفـى عليمـا لًـوات التـي ترتفـع بـين حـين وآخـر ، فتصـف الخلافـة العثمانيـة بعديـد مـن الصـفات المسـتقاة مـن التصـورات الغربيـة ، فهـي دولـة إسـتعمارية ، أخضـعت الشـعوب بالقسـر والقـوة ، وكبتـت الحريـات ، واسـتخدمت الأسـاليب الدكتاتوريـة فـي خنـق أصـوات المعارضـة ، إلـى غيـر ذلـك مـن المسـاوىء التـي يعـددها العـض ، انسـياقا وراء كتـاب الغـرب ، أو التجاهـل عـن عمـد للـدور الأساسـي الـذي قامـت بـه هـذه الخلافـة فـي صـد أعـداء الإسـلام ، أو اتباعـا لحمـلات التشـويه المتعمـدة التـي قادتهـا الصـحف المشبوهة .

وإذا ذكرنـا المسـاوىء : فإننـا يجـب أن نركـز علـى الانحـراف عـن الـنهج الإسـلامي ، مثـل قتـل الأقربـاء خوفـا مـن المنازعـة علـى الحكـم ، أو للتفـرد بالسـلطة ، أو إباحـة شـرب الخمـور للانكشـارية ، وتشـجيع الصـوفية ، فـالواقع أن الدولـة العثمانيـة كانـت ذات عاطفـة إسـلامية قويـة ، وإن لـم تكـن تسـتطيع إسـتيعاب المفـاهيم الإسـلامية بشـكل سـليم وصـحيح فـي أحيـان كثيـرة ، وهـذا هـو الـداء الحقيقـي وكـان العـلاج يكمـن فـي العـودة إلـى الـنهج الإسلامي لا في إبعاده نهائيا .

---

[220] نفسه ص 460 .

ولا ننسى أن الدولة العثمانية قامت بخدمات للمسلمين والإسلام فاحتفظت بنظام الخلافة ، وأعادت للخليفة هيبته ، وبقيت الخلافة تحتل قوة إسلامية كبيرة تجد لها في مسلمي الهند ، وأندونيسيا ، وتركستان ، والصين ، وفي مختلف أنحاء العالم الإسلامي صدى وتأييدا كرمز لوحدة المسلمين . وكان هذا السبب الرئيسي في عداء العالم الأوروبي لها ، إذ خشيت أوربا أن تتكر أحداث التاريخ فيعود المسلمون لمجدهم ، وعزهم ، في ظل الخلافة ، فلم يهدأ بالها حتى قضت على هذا النظام .

كانت الصهيونية وليدة الاستعمار قد لجأت بمساعدة الدول الاستعمارية للاتصال بالدولة العثمانية ، وبالسلطان عبد الحميد ، بعد أن نجحت في عقد مؤتمرها الأول في بال بسويسرا سنة 1315 هـ / 1897 م ، برئاسة هرتزل اليهودي النمساوي . ففي عام 1319 هـ / 1901 م قام ثيودور هرتزل زعيم الحركة الصهيونية العالمية ، يرافقه (ايمانويل قره صو) زعيم الأقلية اليهودية التركية والحاخام (ليفي موستيه) بزيارة كانت الأولى من نوعها للسلطان عبد الحميد حاولوا أن يحصلوا على إذن يسمح فيه لليهود بالهجرة إلى فلسطين ، بصفتهم رعايا للدولة العثمانية ، كما حاولوا إغراءه بتسديد ديون الدولة العثمانية وقدرها خمسون مليونا من الجنيهات (وهي تعادل 150 مليون ليرة عثمانية ذهبا) ، وهبة مقدارها خمسة ملايين من الجنيهات لخزينة السلطان الخاصة [221] ، فرفض السلطان عبد الحميد بإباء ، وأعلن استحالة تحقيق هذا الهدف طالما هو على قيد الحياة . ومن أقواله لهرتزل لما تكرر طلبه :

" لو كنت أعلم أنك جئت اليوم تطلب في ما رفضت إجابتك إليه من قبل لما سمحت لك بالدخول علي . واعلم يا هيرتسل أن فلسطين جزء من أرض الإسلام وأرض الإسلام لا تباع بالذهب والدراهم ، ولقد حصلنا على كل شبر منها ببذل دماء أجدادنا ، ولن نفرط بشبر منها قبل أن نبذل كل دمائنا دفاعا عنها " [222] .

فكان من نتائج ذلك أن عمل اليهود ومن والاهم ، على إسقاط عبد الحميد ، وكان من أقوى الأسلحة التي قاومت بها الدول الأوروبية حركة الجامعة الإسلامية الدعوة الإقليمية ، وإعلاء شأن الجنسية ، والوطن ، والعرق ، والعمل على تشويه سمعة السلطان ، بوسائل الإعلام المختلفة ، واتهامه بالاستبداد ، والرجعية ، والتخلف ، والفساد .

ونجح الاستعمار والصهيونية ومن والاهم في إسقاط السلطان عبد الحميد والإغراء بين العنصرين الكبيرين في الدولة وهم : الأتراك والعرب .

---

[221] علي حسون ص 192 ، أسرار الانقلاب العثماني كتبه بالتركية مصطفى طوران ، ترجمة كمال خوجة ط 4 ص 16 – 17 .

[222] من مذكرات هرتزل / علي حسون ص 192 .

فكـان (جلادسـتون) ، زعـيم حـزب الأحـرار بـانجلترا ، يلقـي الخطـب الرنانـة ويؤلـف الرسـائل المطولـة ناسـبا إلـى تركيـا اضـطهاد النصـارى مشـيرا إلـى السـلطان عبـد الحميـد بقوله : " الشيطان وعدو المسيح " [223] .

أمـا لـورنس العـرب فقـد قـال فـي إحـدى المـرات [224] : " علينـا أن نـدفع بـالغرب لانتـزاع حقوقـه مـن تركيـا بـالعنف . . . لأننـا بهـذا نقضـي علـى خطـر الإسـلام ونـدفع بـه (أي الإسـلام) لإعـلان الحـرب علـى نفسـه وبـذلك نمزقـه مـن القلـب ، إذ يـنهض فـي مثـل هـذا الصـراع خليفـة فـي تركيـا ، وخليفـة فـي العـالم العربـي ، ويخـوض الخليفتـان حربـا دينيـة ، وبذلك يقضى على خطر الخلافة الإسلامية بصورة نهائية . . . " .

وقـادت حمعيـة الدونمـة [225] (وهـم اليهـود الـذين أسـلموا تقيـة وعاشـوا فـي سـالونيك فـي ظـل الدولـة العثمانيـة) الحركـات ضـد السـلطان عبـد الحميـد . تحـت أسـماء مختلفـة أهمهـا حركـة تركيـا الفتـاة ، وحركـة حـزب الاتحـاد والترقـي ، التـي اتخـذت مـن مقـار المحافـل الماسـونية مراكـز لهـا للعمـل ، وخلقـت حركـة ضـخمة سـداها ولحمتهـا الحملـة علـى السـلطان عبـد الحميـد ، واتهامـه بالإسـتبداد . وقـد سـاعدتها وآزرتهـا الطريقـة البكتاشـية الصوفية [226] .

فقـد تكونـت جمعيـة سـرية فـي كليـة الطـب العسـكري فـي إسـتانبول ، وعرفـت باسـم جمعيـة الاتحـاد والترقـي ، تزعمهـا شـاب إلبـاني اسـمه إبـراهيم تيمـو وتـأثرت هـذه بحركـة الكاربونـاري الايطاليـة ، وبـآراء القـوميين الأتـراك ، وفـي مقـدمتهم الشـاعر الماسـوني نـامق كمـال . المتـأثرين بالمستشـرقين الـذين أدوا دورا خطيـرا فـي انتبـاه التـرك المبهـورين بـالغرب إلى فكرة القومية ، لتكوين البديل عن الإسلام هويتهم المميزة لهم [227] .

---

[223] الدولة العلية ص 239 .

[224] د. علي حسون ص 262 . كان لورنس كالحاوي يضحك على العرب ، ويحرضهم ضد الأتراك . ووصف العرب بأقبح الصفات ، فوصفهم بأنهم لا عقيدة لهم ، وأنه يمكن أرجحتهم على فكرة كما لو كانوا على حبل ، وهم دون عقيدة يمكن قيادتهم إلى زوايا العالم الأربع ، ولكنهم إذا قابلوا في الطريق دجلا أو نبيا لا يلبثون أن يصدقوا وحيه ويتبعوه ، إنهم كالماء في عدم الاستقرار (انظر ادوارد سعيد ص 248) .

[225] السلطان عبد الحميد – مذكراتي – ص 104 .

[226] والبكتاشية طريقة صوفية ، ذات طابع سري باطني شيعي ، لعبت دورا كبيرا في التاريخ السياسي العثماني . حلها السلطان محمود الثاني بعد مذبحة الانكشارية عام 1242 هـ / 1826 م ، وتعقبها وسجن شيوخها ، وخرب زواياها . وتعاونت مع جمعية الاتحاد والترقي ، ومع الماسونية في سبيل القضاء على الدولة العثمانية ، وكان أعضاء تركيا الفتاة بكتاشيين ، وماسونيين في آن واحد .
(انظر حول البكتاشية ما كتبه المستشرق اليوغسلافي – محمد موفاكو – مجلة العربي العدد 220 مارس 1977 م ، دائرة المعارف مجلد 2 ص 177)

[227] برنارد لويس – الغرب والشرق ص 126 .

واكتسبت هذه الجمعية السرية كثيرا من الأنصار ، وانضم إليها أعضاء جمعية تركيا الفتاة . واتخذوا من جنيف مركزا لقيادة الجمعية ، وأنشأوا في باريس جريدة تمثل آراء الجمعية أسموها الميزان [228] .

ومع بداية القرن العشرين انتشرت جمعيات سرية كثيرة ، وخاصة في سالونيك ، باسم الوطن ، والحرية ، تتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي ، لمعارضة الحكومة العثمانية [229] . وتمكنت هذه الجمعيات أخيرا من الثورة سنة 1326 هـ / 1908 م وإسقاط السلطان عبد الحميد سنة 1327 هـ / 1909 م ، وكان قره صو اليهودي واحدا من الذين اشتركوا في خلعه وقدم له قرار العزل [230] .

وبدأ اليهود يقطفون الثمار بعد زوال السلطان عبد الحميد ، فاشتروا معظم الصحف التركية ، وعينوا العديد من شخصياتهم في حكومة الاتحاديين ، مثل جاويدبك الذي أصبح وزيرا للمالية ، فاستطاع تأمين بعض القروض المالية ، مما سهل أمامه مهمة التعاون مع جمعية الاتجاه الإسرائيلية في فلسطين ، واستطاع إلغاء معظم القوانين التي وضعت للحيلولة دون تسرب اليهود إلى فلسطين [231] زمن السلطان عبد الحميد . وبسيطرة جمعية الاتحاد والترقي غدت الحكومة العثمانية تركية في مضمونها ، قومية في عصبيتها ، بينما كانت من قبل عثمانية في مضمونها ، وإسلامية في

---

[228] المسألة الشرقية . د. دسوقي ص 313 .

[229] نفسه ص 315 .

[230] وتقتطف هذه الفقرات من الرسالة التي وجهها السلطان عبد الحميد إلى شيخه بعد عزله يوضح فيها أسباب تنازله عن الخلافة :

" إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما ، سوى أنني – بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والترقي باسم (جون ترك) وتهديدهم – اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة .

إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف وأخيرا وعدوا بتقديم 150 مليون ليرة انجليزية ذهبا ، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضا وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي :

إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا فضلا عن 150 مليون ليرة انجليزية ذهبا فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي ، لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين ، لهذا لن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي أيضا .

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي ، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى (سلانيك) فقبلت بهذا التكليف الأخير – هذا وحمدت المولى وأحمده لأنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشيء عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة فلسطين ، وقد كان بعد ذلك ما كان . . " نشر هذه الرسالة سعيد الأفغاني في مجلة العربي الكويتية في عددها الصادر في شهر شوال سنة 1392 هـ الموافق لكانون الأول سنة 1972 م ، ضمن مقال بعنوان : سبب خلع السلطان عبد الحميد .

[231] مصطفى محمد ص 72 .

رابطتها [232] . فقد تأثرت هذه الجمعية بقوة الأفكار القومية الطورانية التي تدعو إلى تحرير جميع الأتراك . مدعين أن الشعوب الإسلامية في الأناضول وآسيا الوسطى تشكل أمة واحدة ، وهي الأفكار التي تطورت أخيرا بمجهودات الكاتب التركي الشهير ضياكوك آلب (البكتاشي وهو من أصل كردي وأطلق عليه أبو القومية التركية) فاتبعت سياسة التتريك وذلك بجعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية الوحيدة ، بعد أن كانت تقف اللغة العربية إلى جانبها . فتأججت حركة الدعوة إلى القومية العربية ، في مواجهة حركة التتريك .

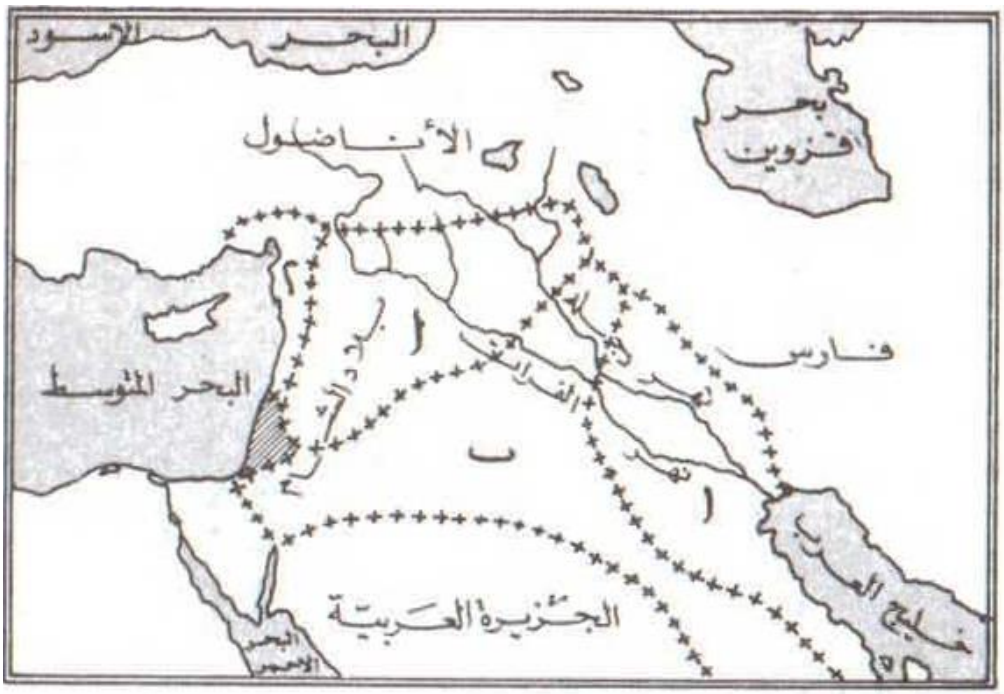

تقسيم بلاد الشام والعراق حسب اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦ م
١. لبريطانيا ٢. لفرنسا منطقة دولية
أ. منطقة نفوذ فرنسية ب. منطقة نفوذ بريطانية

كون العرب حزب اللامركزية ، وتعني أن تأخذ الولايات غير التركية استقلالا ذاتيا ، وتبقى خاضعة خارجيا لاستانبول . كما كونوا جمعيات سرية ، مثل الجمعية القحطانية برئاسة عبد الكريم الخليل ، والضابط عزيز علي المصري ، والجمعية العربية الفتاة ، التي تشكلت في باريس عام 1329 هـ ، على منهج جمعية تركيا الفتاة ، ومن قبل طلاب يدرسون هناك تشبعوا بالأفكار الغربية ، وخاصة مباديء العصبية القومية ، واستعمل بعضهم المصطلحات الماسونية ، وكان قصدهم : استقلال العرب التام ، وقد نقلوا مقرهم من باريس إلى بيروت ، ثم إلى دمشق ، حيث ازداد عدد الأعضاء وخاصة من النصارى العرب .

---

[232] أضاعت تركيا في فترة الأربع سنوات الأولى من حكمهم جميع ولايات الدولة الأوروبية عدا تراقيا الشرقية . فضمت النمسا ولاية البوسنة والهرسك عام 1326 هـ ، وانفصلت بلغاريا ، واحتلت ايطاليا ليبيا وجزر البحر الأبيض المتوسط ، وأخذت اليونان جزيرة كريت .

وتكونت الجمعية الإصلاحية في بيروت عام 1331 هـ وتعاونت مع جمعية النهضة اللبنانية في المهجر ، فقدمتا رسالة مشتركة إلى حكومة فرنسا عام 1331 هـ التمستا فيها منها احتلال سوريا ولبنان ، بينما اتجه المصلحون العراقيون نحو الانجليز ، وأيد بعضهم إقامة إشراف بريطاني على برامج الإصلاح ، بل وحتى إلى بسط الحماية البريطانية على البلاد [233] ولما بطش الاتحاديون بأعضاء الجمعيات العربية

---

[233] تاريخ الدولة العثمانية د. علي حسون ص 249 .

وليس من قبيل الصدف أن نجد الرواد الأوائل لنمو الأفكار القومية والوطنية من النصارى في معظمهم ، واعتبرتهم وسائل الإعلام رواد النهضة فمنهم :

1- أحمد فارس الشدياق 1801 – 1887 م / 1216 – 1305 هـ في كتابه الساق على الساق . وهو لبناني من أبوين نصرانيين ، أعلن إسلامه في تونس وأسمى نفسه أحمد . بعد أن أكرمه الباي واستقدمه . وأصبح له مكانا مرموقا في تونس والآستانة .

2- بطرس البستاني : 1819 – 1883 م ، سوري ، تربى في الدير الماروني في عين ورقة ، وعمل في القنصليتين الانجليزية والأمريكية في بيروت ، ووطد علاقته بالمراسلين الأمريكيين الانجيليين ، فاعتنق مذهبهم ، وساعدهم على ترجمة التوراة إلى العربية ، واشتغل بالتدريس في معاهدهم ، وأسس المدرسة الوطنية عام 1863 م ، وركز على الدعوة إلى الوطنية ، واعتبر سوريا وطنا واحدا .

3- ناصيف اليازجي 1800 – 1871 م لبناني .

وقد احتضنت مصر في ظل الاحتلال الانجليزي عددا منهم مثل :

1- سليم نقلا 1829 – 1892 م ، الذي أسس جريدة الأهرام .

2- يعقوب صروف 1852 – 1927 م ، وفارس نمر 1860 – 1972 م وقد هاجرا إلى مصر عام 1883 م ، وأصدرا مجلة المقتطف التي كانت تصدر في بيروت ، كما قاما بإصدار جريدة المقطم عام 1889 م التي استمرت في الصدور إلى وفاة فارس نمر عام 1952 م .

3- جورجي زيدان 1861 – 1914 م ، مؤسس الهلال ، الذي تلقى عمومه في الكلية البروتستنية السورية . ونهج في كتابة روايات الإسلام نهج الكاتب الانجليزي وولتر سكوت ، وشوه بها التاريخ الإسلامي .

4- فرج أنطون 1874 – 1922 م جاء إلى القاهرة من طرابلس الشام عام 1897 م وقضى بقية حياته بين مصر ونيويورك ، رئيسا لعدة مجلات عربية أشهرها مجلة : الجامعة . ودعا إلى وضع أسس علمانية يشترك فيها المسلمون والنصارى على قدم المساواة .

وقد أنشئت عام 1875 م أول جمعية سرية لها أهداف قومية في سوريا من بعض النصارى من حلقة البستاني . وتظاهرت بالتركيز على بعث التراث العربي ، والتغني بأمجاد العرب ، وذلك وسيلة لكسب تأييد العرب المسلمين للتيارات الانفصالية عن الأتراك .

كما أسس نجيب عازوري النصراني اللبناني عام 1904 م في باريس منظمة قومية باسم رابطة الوطن العربي ، وكانت ثقافته فرنسية ، وادعى أن غاية الرابطة تحرير بلاد الشام والعراق من سيطرة الأتراك . وأصدر عام 1905 م كتابه بالفرنسية (يقظة الأمة العربية) ، واعتبر الوطن العربي منه : البلاد العربية الآسيوية . وأما مصر وشمال أفريقية فهي خارجة عنها .

، قامت العربية الفتاة ، بعقد مؤتمر عربي في باريس سنة 1332 هـ / 1913 م ، وقد هيأ الفرنسيون المكان المناسب لعقد الاجتماع ، وقرر المؤتمرون [234] :

1- ضرورة تنفيذ الإصلاح بسرعة .

2- إشراك العرب بالإدارة المركزية .

3- جعل اللغة العربية لغة رسمية في جميع الولايات العربية .

4- جعل الخدمة العسكرية محلية بالنسبة للعرب إلا حين الضرورة .

5- التعاطف مع مطالب الأرمن .

وواضح أن مطالبهم معتدلة ولا تدعو للانفصال عن الدولة ، وأكد الأعضاء بأن حركتهم لا دينية ، وتعادل عدد النصارى مع عدد المسلمين في المؤتمر ، وكان برئاسة عبد الحميد الزهراوي .

وقد علقت فرنسا آمالا كبيرة على المؤتمر ، وكان لها العديد من الأنصار في داخله ، ثم قامت بنشر مقرراته .

ولما وقعت الحرب العالمية الأولى (1333 – 1337 هـ / 1914 – 1918 م) ، دخلت تركيا الحرب إلى جانب دول الوسط (ألمانيا والنمسا) ، في حين تمكن الانجليز (بمراسلات الحسين مكماهون) [235] من جر العرب إلى جانب الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا) ، فسادت فكرة القومية العربية ووقع الصدام بين العرب والترك [236] . وسقطت تركيا بعد هزيمتها في الحرب ، واحتل الحلفاء واليونان أجزاء منها ، ووقعت الآستانة تحت سيطرة الانجليز ، وأصبح الخليفة كالأسير فيها .

إن خلع السلطان عبد الحميد وقيام جمعية الاتحاد والترقي في الحكم كانت خطوة أساسية نحو تحقيق المخطط الذي تم أثناء الحرب وبعد الحرب في مراحل نلخصها فيما يلي :

1- اتفاق الحلفاء على تقسيم العالم الإسلامي الخاضع للدولة العثمانية بين الحلفاء ، تجلى ذلك في معاهدة **سايكس بيكو** سنة 1334 هـ / 1916 م السرية ، في الوقت الذي وعدوا فيه العرب بالاستقلال . وأهم ما تضمنته هذه المعاهدة :

---

[234] الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص 333 .

[235] بلغ مجموع الرسائل المتبادلة بين شريف مكة و (آرثر هنري مكماهون) عشر رسائل منها خمس كتبها مكماهون ، وخمس كتبها الحسين .

[236] انظر : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص 370 ، 396 – 401 .

أ- أن يكون جنوب العراق لبريطانيا وأشير لها على الخريطة باللون الأحمر ، وساحل سوريا الشمالي (لبنان والساحل الشمالي من سوريا) لفرنسا . وأشير لها على الخريطة باللون الأزرق .

ب- تتكون دولتان عربيتان شمال العراق وأواسط بلاد الشام وجنوبها ، يكون النفوذ في الأولى التي تشمل شمال العراق وشرق الأردن لبريطانيا ، والنفوذ في الثانية التي تشمل أواسط سوريا والجزيرة الفراتية لفرنسا .

ج- تكون فلسطين دولية . ولا يتقرر شكلها النهائي إلا بعد استشارة روسيا ، وشريف مكة .

د- تكون الآستانة والمضائق (البوسفور والدردنيل) لروسيا .

هـ- تكون الأماكن المقدسة (الحجاز) والجزيرة العربية ضمن حكومة إسلامية مستقلة .

2- **وعد بلفور** الذي أصدرته بريطانيا للصهيونية في 2 / 11 / 1917 م (محرم 1336 هـ) بأن تكون فلسطين وطنا قوميا لليهود .

3- تسليم تركيا لأبشع حركة **تغريب** وتدمير للقيم الإسلامية ، وبنقلها من دولة ذات طابع إسلامي ، إلى دولة غربية الطابع ، فيمكن القول بأن الفترة التي بدأت في تركيا بخلع السلطان عبد الحميد وتولي الاتحاديين للحكم هي الفترة التي اجتمعت فيها إرادة الحاكمين والاستعمار على تصفية الدولة العثمانية ، وإبراز طابع الجامعة الطوارنية ، وإبلاغ العلاقة بين الترك والعرب أشد مراحلها عنفا وقسوة ، مما مهد إلى زوال الدولة ، والتهام الغرب للأجزاء العربية ، ومنح اليهود وعد بلفور ، اذلي يعطيهم الحق في إقامة دولة في فلسطين .

فقد قام الاتحاديون بتوجيه الدولة وجهة قومية لا دينية ، ولما احتل الانجليز استانبول (الآستانة) وأصبح الخليفة شبه أسير في أيديهم ، وأصبح المندوب السامي البريطاني والجنرال هارنجتون (القائد العام لقوات الحلفاء في استانبول) هما أصحاب السيادة الفعلية [237] ، ظهر مصطفى كمال [238] باشا بمظهر المنقذ لشرف الدولة من

---

[237] علي حسون ص 270 .

[238] ولد عام 1299 هـ / كان والده كما يقول (مصطفى كمال) : رجلا ضائع الفكر يقاوم علماء الدين ويؤيد الأفكار التي تتسرب من الغرب وتشبث بها . فنشأ ابنه على ذلك وتأثر بأفكار نامق كمال ذو الآراء غير الملتزمة ، وطالع العديد من الكتب عن الثورة الفرنسية وازداد اعجابه بنابليون . قام بتأليف جمعية سرية – الوطن في دمشق – ففشلت . فانضم إلى جماعة الاتحاد والترقي في سالونيك . اكتسب الكثير من طبائع الغرب وبهرت أنظاره وافتتن بحضارته ومعاييرها الفنية والاجتماعية . واهتم بحرية الجنس والعلاقات بين الرجل والمرأة . وفي عام 1377 هـ / عين قائدا لأحد الجيوش في فلسطين حيث قام بإنهاء القتال مع الانجليز فورا وبصورة تامة

الحلفاء واليونان الذين احتلوا إزمير بتمكين من بريطانيا سنة 1338 هـ ، وتوغلوا في حقد صليبي دفين في الأناضول وكان الحلفاء قد عقدوا معاهدة سيفر عام 1920 م ، جردت المعاهدة الدولة العثمانية من ممتلكاتها في أوربا سوى العاصمة وقطعة أرض صغيرة . ووضعت الممرات تحت إشراف دولي . كما فقدت الدولة كل ممتلكاتها العربية ، فوضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، ووضع العراق وفلسطين وشرق الأردن تحت الانتداب الانجليزي ، وأعطيت إزمير وضواحيها لليونان وتقرر تأسيس دولة أرمنية في الأناضول الشرقي [239] .

فقام **مصطفى كمال** باستثارة روح الجهاد في الأتراك ، ورفع القرآن ، ورد اليونانيين على أعقابهم ، في موقعة سقاريا عام 1921 م ، وتراجعت أمامه قوات الحلفاء بدون أن يستعمل أسلحته ، وأخلت أمامه المواقع ، ولعلها كانت بداية الطعم لإظهار شخصية مصطفى كمال ، وجعلها تطفو على السطح تدريجيا [240] ، فقد ابتهج العالم الإسلامي وأطلق عليه لقب الغازي الذي كان ينفرد به سلاطين آل عثمان الأول . ومدحه الشعراء وأشاد به الخطباء .

فأحمد شوقي قرنه بخالد بن الوليد في أول بيت من قصيدة مشهورة [241] :

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

ثم يجعله في مصاف صلاح الدين الأيوبي حين يقول :

حذوت حرب الصلاحيين في زمن فيه القتال بلا شرع ولا أدب

بل وشبه انتصاره بانتصار بدر فيقول :

يوم كبدر فخيل الحق راقصة على الصعيد وخيل الله في السحب

تحية أيها الغازي وتهنئة بآية الفتح تبقى آية الحقب

فكان الناس إذا قارنوا كفاح مصطفى كمال المظفر ، باستسلام الخليفة القابع في الآستانة ، مستكينا لما يجري عليه من ذل ، كبر في نظرهم الأول ، بمقدار ما يهون الثاني . وزاد في سخطهم على الخليفة ما تناقلته الصحف بإهداره دم مصطفى كمال واعتباره عاصيا متمردا . ولم يكن مصطفى كمال في نظرهم إلا بطلا مكافحا يغامر

وسمح للعدو بالتقدم شمالا دون مقاومة وسحب قواته شمالا بعد حلب حسب مخطط متفق عليه . (انظر علي حسون ص 263 – 265 والرجل الصنم) .

[239] الشرق الأوسط الحديث ص 222 .

[240] علي حسون ص 245 .

[241] الاتجاهات الوطنية ج 2 / 26 – 27 .

بنفسه لاستعادة مجد الخلافة ، الذي خيل إليهم أن الخليفة يمرغه في التراب تحت أقدام الجيوش المحتلة .

ولكنه لم يلبث غير قليل حتى ظهر على حقيقته ، صنيعة لأعداء الإسلام من اليهود والنصارى وخاصة انجلترا ، التي رأت أن الغاء الخلافة ليس بالأمر الهين ، وإن ذلك لا يمكن أن يتم دون اصطناع بطل ، وإعطائه صورة عظيمة ، وإظهار هالة حوله ، وتصويره وكأن المعجزات تجري على يديه ، وعندها يمكن توجيه الطعنة على يديه ، بلا ألم عميق ، إذ الشعور قد تخدر من نشوة الانتصارات الزائفة . فالحلفاء أنفسهم هم الذين اصطعنوا القلاقل ، وطلبوا من السلطان إخمادها ، واقتروا اسم مصطفى كمال لتلك المهمة ، ليصبح محط آمال الناس ، وموضع تقدير ضباط الجيش ، فتتصاعد مكانته وهيبته ، وتتدهور سمعة الخليفة ، وينحط مركز الخلافة في أعين الناس ، فالألاعيب الانجليزية لا تدرك بسهولة [242] .

كان مصطفى كمال قد انتقل إلى أنقرة واتخذها مقرا له ، واستقبل هناك استقبال الفاتحين سنة 1337 هـ . وكان يقول : " إن كل التدابير التي ستتخذ لا يقصد منها غير الاحتفاظ بالسلطنة والخلافة وتحرير السلطان والبلاد من الرق الأجنبي " [243] .

وفي عام 1341 هـ / 1923 م أعلنت الجمعية الوطنية التركية قيام الجمهورية في تركيا ، وانتخب مصطفى كمال أول رئيس لها وفصل بذلك بين السلطة والخلافة ، وتظاهر بالاحتفاظ مؤقتا بالخلافة – فاختير عبد المجيد بن السلطان عبد العزيز خليفة ، بدلا من محمد السادي الذي غادر البلاد على بارجة بريطانية إلى مالطة ، ولم يمارس السلطان عبد المجيد أي سلطات للحكم . وفي عام 1342 هـ / 1924 م قدم مصطفى كمال أعظم هدية للغرب ، وهي إلغاء الخلافة ، التي كانت في اعتبار المسلمين جميعا عقدة الصلة ، والرابطة الوثيقة ، بحسبانها قوة خاصة لهم في مواجهة الغزو الغربي ، والصهيوني ثم الشيوعي . وأخرج السلطان عبد المجيد من البلاد ، وأعلن دستورا جديدا لتركيا ، وبدأ حكم كمال أتاتورك كرئيس للجمهورية التركية رسميا . فأثار بذلك موجة من الاستياء الشديد عمت العالم الإسلامي . فشوقي الذي مدحه سابقا بكى الخلافة ، وهاجم مصطفى كمال في عنف ، لا يعدله إلا تحمسه له بالأمس ، فيقول [244] :

بكت الصلاة وتلك فتنة عابث بالشرع عربيد القضاء وقاح

أفتى خزعبلة وقال ضلالة وأتى بكفر في البلاد بواح

---

[242] د. علي حسون ص 277 .

[243] نفسه ص 279 .

[244] من قصيدته في رثاء الخليفة / ديوان شوقي ج 1 / 114 .

وعم الاستياء المسلمين في الهند ، الذين علقوا على تركيا أملا كبيرا في الخلاص من الاستعمار البريطاني لبلادهم . بل إن عددا من زعمائهم كان قد هاجر بالفعل إلى أنقرة . واستطاع الانجليز بدهائهم أن يفرزوا الأغاخان في الهند ليتزعم فكرة إبقاء الخلافة في تركيا ، وهو نفسه الذي حاول الانجليز أن يجعلوه منافسا للسلطان عبد الحميد في زعامة المسلمين من قبل فكان ذلك سببا في هجمات صحفية في تركيا على الخلافة [245] .

وفشلت المحاولات التي بذلت في سبيل إحياء الخلافة الإسلامية في أي بلد من البلدان الإسلامية الأخرى ، لأن الأحوال الملائمة لذلك لم تكن متوفرة في أي بلد إسلامي آخر . وحين عرضت الخلافة على الغازي أبى أن يقبلها [246] ، وقد تأكد أن مصطفى كمال كان ينفذ مخططا مرسوما له في المعاهدات التي عقدت مع الدول الغربية . فقد فرضت معاهدة لوزان سنة 1340 هـ / 1923 م على تركيا ، فقبلت شروط الصلح والمعروفة بشروط كرزون الأربع ، (وهو رئيس الوفد الانجليزي في مؤتمر لوزان) وهي [247] :

1- قطع كل صلة لتركيا بالإسلام .

2- إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاء تاما .

3- إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد ومصادرة أموال الخليفة ، وتتعهد بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة .

4- اتخاذ دستور مدني بدلا من دستور تركيا القديم .

---

[245] انظر نجيب صالح ص 313 .

[246] المسألة الشرقية ص 249 / د. دسوقي كان الانجليز يعارضون في ظهور الخلافة الإسلامية في أي صورة من الصور . ولكنهم – كعادتهم – لم يكونوا يصرحون بهذه المعارضة حتى لا يثيروا المسلمين ويدعوهم إلى التشبث بالخلافة ، فكانوا يعملون على تعقيد المساعي المبذولة في اعادتها بوسائل ملتوية خفية . والذي يقرأ كتاب Whither Islam ص 169 مثلا يستطيع أن يدرك بين سطوره شماتة الكاتب في الجهود المبذولة لإقامة الخلافة . (الاتجاهات ج 2 / 51) .

[247] ويعترف رضا نور في كتابه حياتي وذكرياتي ص 1188 بأن الحاخام (ناحوم) أو (ناعوم) أعلن في مؤتمر الصلح في لوزان علمانية تركيا ، بقوله : لقد أصبحت تركيا علمانية ، لقد انفض الدين عن الدولة ، وإذا تم الصلح فإننا سنقوم بوضع القوانين المدنية . ويواصل رضا نور قوله : وكانت هذه أهم نقاط الارتكاز التي اعتمدنا عليها في لوزان ، إن صفقة بيع وشراء الخلافة ، والتنازل عن الموصل قد تم بين لندن وأنقرة ، وماحضور وفد تركي إلى لوزان إلا للتمويه والتوقيع . واعترف رضا نور أن الدور الأساسي في موضوع الصلح كان قد أعطي لقره صو (حابيم ناعوم) ، فقد كان الشخص الأول في المؤتمر هو عصمت اينونو ، والثاني هو رضا نور ، إلا أن الأمور كلها كانت بيد مستشار الوفد قره صو الذي كان يجلس خلف عصمت ابنونو ورضا نور ويهمس لهما بما يريد فلا يترددان في الإعلان .

وقد نفذ مصطفى كمال المخطط كاملا وبدأت حكومته تبتعد تدريجيا عن الخطوط الإسلامية ، وتسلم تركيا لعمليات التغريب . فألغيت وزارة المحاكم الشرعية ، ووزارة الأوقاف ، عام 1343 هـ / 1924 م وعهد بشئونها إلى وزارة المعارف ، وفي عام 1344 هـ / 1925 م أغفلت المساجد . وقضت الحكومة في قسوة بالغة على كل تيار ديني . وواجهت كل نقد ديني لتدابيرها بالعنف فقد قام **الشيخ سعيد** بحركة بعد إلغاء الخلافة ، اتخذ لها راية خضراء ، وشعارا : لتحيا الخلافة ، ولتسقط الجمهورية ، وسيطرت حركته على معظم المناطق ، وأصبحت أنقرة نفسها على وشك السقوط ، فأعلن مصطفى كمال أن الحركة كردية ، وأنها تهدف إلى إقامة دولة كردية ، وجرد عليها حملة كبيرة عام 1925 م فاستطاع بعد مذابح رهيبة لم يعرف التاريخ لها مثيلا أن يقضي على الحركة ، بعد استشهاد أكثر من نصف مليون مسلم ، سقطوا دفاعا عن الخلافة الإسلامية [248] ، ونشر محاكم الاستقلال في الأقاليم حيث كانت ترسل المعارضين إلى المشنقة لأتفه الأسباب .

وفي عام (1350 – 1351 هـ / 1931 – 1932 م) حددت الحكومة عدد المساجد ولم تسمح بغير مسجد واحد في كل دائرة من الأرض يبلغ محيطها 500 متر ، وأعلن أن الروح الإسلامية تعوق التقدم .

وتمادى مصطفى كمال في تهجمه على المساجد فخفض عدد الواعظين الذي تدفع لهم الدولة أجورهم إلى ثلاثمائة واعظ ، وأمرهم أن يفسحوا في خطبة الجمعة مجالا واسعا للتحدث عن الشئون الزراعية ، والصناعية ، وسياسة الدولة ، وكيل المديح له . وأغلق أشهر جامعين في استانبول ، وحول أولهما وهو مسجد أيا صوفيا إلى متحف ، وحول ثانيهما وهو مسجد الفاتح إلى مستودع .

أما الشريعة الإسلامية فقد استبدلت ، وحل محلها قانون مدني أخذته حكومة تركيا عن القانون السويسري عام 1345 هـ / 1926 م . وغيرت التقويم الهجري ، واستخدمت التقويم الجريغوري الغربي ، فأصبح عام 1342 هـ ملغيا في كل أنحاء تركيا ، وحل محله عام 1926 ميلادية .

وفي دستور عام 1347 هـ / 1928 م أغفل النص على أن تركيا دولة إسلامية ، وغير نص القسم الذي يقسمه رجال الدولة عند توليهم لمناصبهم ، فأصبحوا يقسمون بشرفهم على تأدية الواجب ، بدلا من أن يحلفوا بالله ، كما كان عليه الأمر من قبل [249] . وفي عام 1935 م غيرت الحكومة العطلة الرسمية فلم يعد الجمعة ، بل أصبحت العطلة الرسمية للدولة يوم الأحد ، وأصبحت عطلة نهاية الأسبوع تبدأ منذ

---

[248] مصطفى محمد ص 100 وانظر الذئب الأغبر ص 206 / الرجل الصنم ص 422 / بروكلمان ج 5 / 16 .

[249] تركيا الحديثة ص 201 ، جميل بيهم – العرب والترك ص 178 . عزة دروزة .

ظهر يوم السبت وتستمر حتى صباح الاثنين . وحرم الاحتفال بعيد الفطر والأضحى ، وطبعت طوابع بريد تمثل صورة الذئب الأغبر إله الأتراك القدماء [250] .

وأهملت الحكومة التعليم الديني كلية في المدارس الخاصة ، ثم تم إلغاءه بل أن كلية الشريعة في جامعة استانبول بدأت تقلل من أعداد طلابها إلى أن أغلقت عام 1352 هـ / 1933 م .

وأمعنت حكومة مصطفى كمال في حركة التغريب فأصدرت قرارا بإلغاء لبس الطربوش ، وأمرت بلبس القبعة ، تشبها بالدول الأوروبية .

ومنذ عام 1348 هـ / 1929 م بدأت الحكومة تفرض إجباريا استخدام الأحرف اللاتينية في كتابة اللغة التركية بدلا من الأحرف العربية . وبدأت الصحف والكتب تصدر بالأحرف اللاتينية ، وبدأ مصطفى كمال بنفسه هو ورجال الجمعية الوطنية يعلمون طريقة الكتابة بالحروف اللاتينية . وحذف من الكليات التعليم باللغة العربية واللغة الفارسية ، وحرم استعمال الحرف العربي لطبع المؤلفات التركية ، وأما الكتب التي سبق لمطابع استانبول أن طبعتها في العهود السالفة ، فقد صدرت إلى مصر ، وفارس ، والهند ، وهكذا قطعت حكومة تركيا ما بين تركيا وماضيها الإسلامي من ناحية ، وما بينها وبين المسلمين في سائر البلدان العربية والإسلامية من ناحية أخرى [251] ، فكان هذا اقلرار من أخطر القرارات ، لأنه أدى إلى تجهيل الأمة ، بفصل الجيل الجديد عن منهجه ، وثقافته وتراثه .

وتشبها بالغرب أصدرت حكومة مصطفى كمال قانونا عام 1353 هـ / 1934 م يقضي بأن يحمل كل فرد اسم أسرته ، وألا يتعامل رسميا إلا بذلك الاسم مما لم يكن معروفا قبل ذلك في تركيا . وبعد أن صدقت الجمعية الوطنية على القانون الخاص بألقاب الأسر خلعت على مصطفى كمال لقب (أتاتورك) ومعناه أبو الأتراك ، وأخذ أتاتورك ينفخ في الشعب التركي روحا جديدة للاعتزاز بقوميتهم بصفتهم أسلاف الأتراك الأولين ، واستغل ما نادى به بعض المؤرخين من أن لغة السومريين أصحاب الحضارة القديمة في بلاد ما بين النهرين كانت ذات صلة باللغة التركية فقال : بأن الأتراك هم أصحاب أقدم حضارة في العالم ، ليعوضهم عما أفقدهم إياه من قيم ، بعد أن حارب كل نشاط إسلامي . وأطلق الحرية لنقد الدين والتحامل عليه وانتقاصه بمختلف الوسائل والأساليب [252] .

---

[250] الذئب الأغبر ص 215 .

[251] انظر ما كتبه الأمير شكيب أرسلان عن أعمال مصطفى كمال في تركيا ج 3 / 351 – 353 .

[252] مثل ما كان يكتبه أحمد أغاييف في جريدة (احتشام) عام 1352 هـ / 1933 م ، يندد بالقرآن الكريم ، ويسفه الإسلام . (أرسلان – حاضر العالم الإسلامي ج 1 / 212 ، الرجل الصنم ص 345) .

وعملت حكومته على الاهتمام بكل ما هو أوربي ، فازدهرت الفنون وأقيمت التماثيل لأتاتورك في ميادين المدن الكبرى كلها ، وزاد الاهتمام بالرسم والموسيقى ، ووفد إلى تركيا عدد كبير من الفنانين أغلبهم من فرنسا والنمسا [253] .

وعملت حكومته على إلغاء حجاب المرأة وأمرت بالسفور ، وألغى قوامة الرجل على المرأة وأطلق العنان باسم الحرية والمساواة ، وشجع الحفلات الراقصة والمسارح المختلطة والرقص . وتزوج من لطيفة هانم ، ابنة أحد أغنياء أزمير الذين كانوا على صلة كبيرة مع اليهود من سكان أزمير ، وجرت مراسم الزواج على الطريقة الغربية ، كي يشجع على نبذ العادات الإسلامية ، واصطحبها وطاف بها أرجاء البلاد وهي بادية المفاتن تختلط مع الرجال وترتدي أحدث الأزياء العصرية [254] .

وأمر أخيرا بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية ، ففقد كل معانيه ومدلولاته ، وأمر بكون الأذان باللغة التركية ومنع الحج .

لقد تجلت سياسة أتاتورك في برنامج حزبه (حزب الشعب الجمهوري) لعام 1349 هـ مرة ، وعام 1355 هـ مرة ثانية والتي نص عليه الدستور التركي ، وهي المباديء الستة التي رسمت بشكل ستة أسهم على علم الحزب وهي :

(القومية ، الجمهورية ، الشعبية ، العلمانية ، الثورة ، سلطة الدولة) فتم تغيير المناهج الدراسية ، وأعيد كتابة التاريخ من أجل إبراز الماضي التركي القومي ، وجرى تنقية اللغة التركية من الكلمات العربية والفارسية ، واستبدلت بكلمات أوروبية أو حثية قديمة . وجرى التخلي عن أهداف الجامعة الإسلامية والجامعة الطورانية ، والعثمانية ، في السياسة الدولية [255] وأعلن أنه اتجه إلى أوروبا ، وانفصل عن العالم الإسلامي ، والعرب ، وآسيا ، وأمعنت حكومته في استدبار الإسلام ، حتى حاربت بقسوة أي محاولة ترمي إلى إحياء المباديء الإسلامية [256] .

وكانت خطوات الغازي هذه بعيدة الأثر في مصر ، وأفغانستان ، وإيران ، والهند الإسلامية ، وتركستان ، وفي كل مكان في العالم الإسلامي ، إذ أتاحت الفرصة لدعاة التغريب وخدام الثقافة الغربية الاستعمارية أن ينفذوا إلى مكان الصدارة ، وأن يضربوا المثل بتركيا في مجال التقدم والنهضة . فقد هللت له صحف مصر – الأهرام والسياسة والمقطم – وكان (هذا التأييد معروف المصدر ، فقد كانت الصحف أجيرة لأكثر من نفوذ) وبررت تصرفات كمال أتاتورك ، ووافقت عما ابتدعه ، ونشرت له أقوال : " ليس لتركيا الجديدة علاقة بالدين " . وأنه – أي مصطفى أتاتورك : " ألقى القرآن ذات

---

[253] انظر دسوقي المسألة الشرقية ص 428 – 432 .

[254] علي حسون ص 265 . نجيب صالح ص 314 – 317 .

[255] علي حسون ص 294 .

[256] الاتجاهات الوطنية ج 2 / 10 .

يـوم فـي يـده فقـال : إن ارتقـاء الشـعوب لا يصـلح أن ينفـذ بقـوانين وقواعـد سـنت فـي العصور الغابرة " [257] .

وكـان للإعـلام اليهـودي دور كبيـر فـي التـرويح لهـذه الـردة ، مثلمـا كـان لـه دوره البـارز فـي تشـجيع أتـاتورك علـى الـبطش بأيـة معارضـة إسـلامية ، وكانـت تـزين لـه أن مـا يقـوم بـه مـن مـذابح وحشـية ضـد المسـلمين ليسـت سـوى معـارك بطوليـة ، كمـا كانـت منبـرا لكـل دعـوات التشـبه بـالغرب الصـليبي والمنـاداة بالحريـة الفـاجرة للمـرأة التركيـة ، والتـرويج لفنـون الانحـلال الخلقـي معتبـرة أن شـرب الخمـر والمقـامرة والزنـا ليسـت إلا مظـاهر للتمـدن والتحضر [258] .

كـل ذلـك أسـهم فـي حركـة التغريـب فـي مصـر وإيـران وأفغانسـتان . **فـإيران** كانـت قـد فتحـت أبوابهـا للمـؤثرات الأجنبيـة [259] منـذ عهـد الدولـة **الصـفوية** الشـيعية (906 – 1135 هـ / 1500 – 1722 م) ، فقـد تعاونـت مـع البرتغـال ثـم الانجليـز ، وشـجع الصـفويون بنـاء الكنـائس ودخلهـا المبشـرون والقسـس . وفرضـت المـذهب الشـيعي الاثنـي عشـري علـى إيـران ، واضـطهدت أهـل السـنة ، ووقفـت فـي وجـه الدولـة العثمانيـة وشـغلتها فكانت أحد أسباب ضعفها .

ثـم حكمـت الأسـرة **القاجاريـة** بعـد الصـفوية ، التـي تصـفت بـالعنف والتخريـب ، والمذابح الدموية ، وبشكل خاص ضد أهل السنة .

كمـا كانـت فـي عهـدها حركـات أغاخـان والإسـماعيلية ، والحركـة البابيـة ، بتـآمر مـن الانجليـز والـروس ، مـن أجـل زيـادة حـدة الانقسـامات ، فيـزداد الضـعف ، ويـزداد تسـلط الانجليـز والـروس علـى الـبلاد ، فشـهدت الـبلاد الفوضـى والخـراب ، والنفـوذين الانجليـزي والروسي . وخاصة الانجليزي [260] .

وفـي عـام 1346 هـ / 1927 م ألغـى **رضـا بهلـوي** أحكـام الشـريعة الإسـلامية ، ووضع قانونا مدنيا ، وآخر للعقوبات ، بني على الأساس الفرنسي .

وفـي عـام 1344 هـ / 1925 م نصـب رضـا خـان نفسـه ملكـا ، ولقـب نفسـه (بهلـوي) ، وكـان صـديقا حميمـا لكمـال أتـاتورك ، وحـرص علـى تقليـده واقتفـاء خطـاه ،

---

[257] وكان هذا تحديا سافرا لمشاعر المصريين الذين كانوا يعطفون على الخلافة ويتمسكون بها ، ويتمسكون بإسلامهم . (انظر الاتجاهات الوطنية ج 2 / 12 – 24) .

[258] وقد امتدح برنارد لويس أتاتورك ، بالطبع ، وشبه انتصاره وزمرته بانتصار اليابان على روسيا (الغرب والشرق ص 170) .

[259] انظر د. عبد الله محمد الغريب – وجاء دور المجوس ص 80 – 95 عن إيران في ربع قرن للدكتور موسى الموسوي .

[260] انظر نوار – الشعوب الإسلامية ص 333 – 369 .

ففي عام 1345 هـ / 1926 م ألغى الحجاب الشرعي وهاجمه ، وكانت زوجته أول من كشفت عن رأسها في احتفال رسمي ، وأمر الشرطة بمضايقة النساء اللواتي يرفضن الاقتداء بملكتهن ، وخرجن محجبات .

وفي عام 1349 هـ / 1930 م قلص مادة التعليم الديني في المدارس الحكومية ، ثم جعلها غير إلزامية في المدارس الابتدائية والثانوية . وفرض اللغة الفارسية بدلاً من اللغة العربية .

وتوج صداقته لأتاتورك بزيارة قام بها عام 1353 هـ / 1934 م . وفي عام 1354 هـ / 1935 م . غير اسم الدولة فأصبحت إيران بعد أن كانت فارس .

وأما ابنه **محمد رضا** فكان على صلة وثيقة مع عميل المخابرات البريطانية مسيو (براون) . واصطحبه معه إلى بلاده بعد أن أنهى دراسته الاعدادية في مدرسة روزه قرب جنيف .

وفي عام 1368 هـ / 1948 م اعترف شاه إيران بإسرائيل ، وأقام علاقات متينة معها . وهكذا خطت إيران خطواتها نحو التغريب .

وكان من نتائج خطوات أتاتورك أن وجد اليأس أيضا في قلوب مسلمي **الهند وأندونيسيا** ، وتسللت الأفكار الغربية إلى حركاتهم ، وأفرد الحكم الشيوعي بمسلمي الاتحاد السوفيتي فتمكن لينين من ضرب الإسلام والمسلمين هناك وضربت آمالهم في التحرر .

وأما **العرب** فقد استمر التآمر ضدهم بعد معاهدة سايكس – بيكو – ووعد بلفور ، فاقتسم الانجليز والفرنسيون بلادهم المتبقية ، بموجب معاهدة **سان ريمو** عام 1339 هـ / 1920 م ، فأصبحت العراق وشرق الأردن وفلسطين بيد الانجليز ، مع التزام بريطانيا بسياسة تهويد فلسطين لتنفيذ وعد بلفور ، وأصبحت سوريا ولبنان بيد فرنسا ، حيث قامت فرنسا بتجزئة سوريا إلى لبنان ودولة الدروز والعلويين ولواء الاسكندرونة ودمشق وحلب ، وأثارت النعرات الطائفية والقبلية !

فتمزقت أوصال العرب في كيانات متعددة ، لكل منها نظامها الخاص وحدودها الخاصة ، وحال الاستعمار والصهيونية دون التقائها في وحدة واحدة .

فكان سقوط الخلافة العثمانية أكبر انتصار للصليبية واليهودية العالمية والشيوعية ، يقول وزير المستعمرات البريطانية :

" مـن دواعـي فرحنـا أن الخلافـة زالـت ، لقـد ذهبـت ، ونتمنـى أن يكـون ذلـك إلـى غير رجعة " [261] .

وبـذلك بـدأت الأمـة الإسـلامية دورا جديـدا مـن أدوار الجهـاد ضـد التحـديات والبحـث عـن الـذات [262] ، وشـهد العـالم الإسـلامي تغيـرات فكريـة واجتماعيـة وسياسـية وإقتصـادية هامة ، سنتعرض لها في الباب القادم إن شاء الله .

وقبـل ذلـك نـذكر نتـابع التطـور الـذي حصـل فـي **تركيـا الجديـدة** لنـرى هـل اسـتفادت مـن تخليهـا عـن الإسـلام ونبـذها لـه فـي حياتهـا القانونيـة والتطبيقيـة وتخليهـا عـن المسـلمين والتجائها إلى التغريب والغرب ؟

تـوفي أتـاتورك عـام 1356 هـ بعـد أن حقـق علمانيـة تركيـا رغـم أنـف المسـلمين ، وبعـد وفاتـه فـاز **عصـمت اينونـو** برئاسـة الجمهوريـة متابعـا سياسـته ، وقـد التزمـت تركيـا الحيـاد فـي الحـرب العالميـة الثانيـة ، وعنـدما ظهـر انهـزام المحـور بشـكل حتمـي دخلـت الجـرب فـي نهايتهـا إلـى جانـب الحلفـاء ، ولكـن الـروس اقترحـوا عليهـا بعـد الحـرب التخلـي عـن أراضـي شـرقي آسـيا الصـغرى ، وضـم مسـاحة كبيـرة مـن شـمالي شـرق الأناضـول إلـى جورجيـا السـوفيتية ، فتلفتـت تركيـا إلـى الولايـات المتحـدة الأمريكيـة فأقامـت علـى أرضـها القواعـد العسـكرية الأمريكيـة ، وجـرى تقويـة الجـيش ، وارتفعـت نسـبة الانفـاق العسـكري ، وظهـرت الأزمـات الإقتصـادية العنيفـة التـي تزايـد خطرهـا يـوم بعـد يـوم ، وازداد التضـخم المالي . واعترفت بإسرائيل عام 1948 م .

وفـي الوقـت نفسـه تظـاهر اينونـو بـبعض الاسـتجابة لمشـاعر النـاس الـذين يحرصـون على شعائر الإسلام فأعاد تعليم الدين في المدارس في غير ساعات الدراسة [263] .

وسـمحت الدولـة بتشـكيل أحـزاب علمانيـة جديـدة فنشـأ الحـزب الـديمقراطي عـام 1366 هـ مـن انشـقاق داخـل صـفوف حـزب الشـعب الجمهـوري نفسـه ، وفـاز فـي الانتخابـات بدغدغـة عواطـف النـاس ، فقـد أدرج فـي برنامجـه الانتخـابي أنـه إذا تـولى الحكـم فسـيعيد الآذان باللغـة العربيـة ، وسـيرفع الحظـر عـن الـراغبين فـي الحـج ، كمـا أنـه سـيعيد التعلـيم الـديني إلـى سـيرته الأولـى . هـذا فضـلا عـن المحافظـة علـى عربيـة القـرآن . فكانت هذه أسباب نجاحه [264] .

---

[261] الغزالي – هموم داعية .

[262] انظر – جب – الاتجاهات الحديثة في الإسلام ص 150 – 155 .

[263] دروزة – تركيا الحديثة ص 117 ، وتحدث عن رحلته إليها عام 1944 ، محمد جميل بيهم : العرب والترك ص 181 ، وتحدث عن رحلته إليها عام 1955 م . وكلاهما أكد على حرص الناس على شعائر الإسلام .

[264] جميل بيهم – العرب والترك ص 148 .

وفي الوقت نفسه تبنى السياسة الأمريكية وأصبح رئيسه **جلال بايار** رئيسا للجمهورية عام 1374 هـ ، كما أصبح **عدنان مندريس** رئيسا للوزراء ، وأصبح منصب رئيس الوزراء يفوق في الأهمية منصب رئيس الجمهورية . فأقام مندريس مدارس الأئمة والخطباء ، وتألفت من المرحلة الابتدائية والمتوسطة والثانوية وتهتم بالدراسات الإسلامية وتعليم اللغة العربية أساسا وأقيمت معاهد إسلامية عالية [265] . فأخذت الماسونية واليهودية في العمل ، وبث الدعاية ضد مندريس ، وتزعم أحمد أمين بالمان الحملة ، وهو يهودي الأصل ، وصاحب جريدة (مليت وطن) ، وساعده أقطاب الدونمة [266] .

وبقيت الأزمات والكوارث الإقتصادية في ترد مستمر وتوجهت الانتقادات للحزب الحاكم ، فحل الحزب القومي (الذي ظهر عام 1368 هـ) بحجة معارضته المباديء الكمالية ، ولكنه تشكل باسم آخر هو الحزب القومي الجمهوري . وفرضت غرامات فادحة على الصحفيين الذين يحطون من قدر الحكومة ، وضيق على أساتذة الجامعات والقضاة والموظفين المدنيين بصورة عامة ، وفرضت قيود على الاجتماعات عام 1376 هـ .

ووجه الحزب الديمقراطي التهمة إلى كثير من الأبرياء بالاشتراك بما سمي : (مؤامرة الضباط التسعة) وانهمهم بالارتداد عن مباديء العلمانية والميل إلى جانب المنظمات الدينية الإسلامية .

وقد حصل بالفعل بعض التراجع عن بعض العداء ضد الإسلام بفعل الضغط الشعبي الإسلامي ، تمثل ذلك في [267] :

إعادة الآذان إلى الأداء باللغة العربية ، وسمح بتلاوة القرآن الكريم بالإذاعة ، وامتد التدريس الديني إلى المدارس ، وسمح بافتتاح المدارس الشرعية ، وافتتحت كلية الدين الإسلامي في أنقرة ، وجرى بعض التراجع عن المباديء العلمانية ولكنهم أظهروا بوضوح عدم رغبتهم بالتالي في إشراك الدين بالسياسة ، واستمروا في إخماد الجماعات الإسلامية التي تنادي بالأحكام الإسلامية . وحرصوا على ما حرص عليه أتاتورك : أن تركيا جزء لا يتجزأ من أوربا وأن ذلك مقدس لا يجوز المساس به .

ولما خشي بعض الحاقدين على الإسلام من رفاق أتاتورك الكماليين العودة إلى الإسلام ، افتعلوا الاضطرابات وتدخل الجيش فقلب نظام الحكم سلميا عام 1380 هـ بقيادة **جمال جورسيل** ، قائد القوى البرية . وأجريت التصفيات بتهمة خقر الدستور –

---

[265] مصطفى محمد – الحركة الإسلامية في تركيا ص 23 – 24 .

[266] التل – الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ص 100 .

[267] علي حسون ص 299 .

الكمالي [268] ، ثم أصبح جمال جورسيل رئيسا للجمهورية . وظهر في خضم الاضطرابات عام 1381 هـ حزب العمال التركي وسيطر عليه الماركسيون .

وأصبحت المصادمات هي الصورة المألوفة يوميا للحياة التركية العادية . كما سادت روح التطاحن داخل حزب العدالة الحاكم ، فسقطت الحكومة عام 1390 هـ . وتشكلت حكومة جديدة برئاسة المهندس **سليمان ديميريل** زعيم حزب العدالة بأغلبية ضئيلة . تبعها عدة انقلابات متتالية وتدخلات من الجيش حيث أصبحت البلاد مسرحا للفوضى فازداد التأخر الاقتصادي وشقاء الإنسان التركي .

هذا وقد انحازت تركيا إلى جانب **حلف شمال الأطلسي** عام 1371 هـ وحصلت على العضوية الكاملة فيما بعد . فحصلت على التزامات دول حلف الأطلسي بالدفاع عنها [269] واضطرت إلى إبرام مجموعة من الاتفاقيات الثنائية بينها وبين الولايات المتحدة ، ونظمت هذه الاتفاقيات العلاقة بين القانونين التركي والأمريكي بحيث أن الأمريكي الذي يقترف جريمة في تركيا كان لا يخضع إلى القانون الجنائي التركي . فعادت بذلك فكرة الامتيازات الأجنبية . ونتيجة لذلك قام الجنود الأمريكان بعدد من الجرائم في تركيا أدت إلى استياء الرأي العام التركي ضد الوجود الأمريكي . وبالتالي إلى انتشار الأفكار اليسارية . كما أدت هذه الاتفاقيات إلى انتشار معالم الفكر الغربي في تركيا عن طريق فيالق السلام التي أرسلتها الولايات المتحدة إليها ، والتي قامت بعملية الغزو الحضاري . وكانت لهذه الظاهرة آثار سلبية على التراث الإسلامي في تركيا . كما أن هذه الاتفاقيات جلبت لتركيا تقييدات خطيرة لسيادتها من حيث ترجمتها ، وتفسيرها في آن واحد ، إذ كانت هناك حوالي مائة قاعدة عسكرية أنشئت عن طريق هذه الاتفاقيات ودون معرفة المجلس الوطني الكبير [270] . وقد استمر هذا الوضع مع أمريكا إلى أن عدلت هذه الاتفاقيات عام 1969 م بمباديء جديدة [271] . لا تختلف عن السابقة إلا في الشكل .

وكل ذلك أدى إلى انفاق تركيا مبالغ طائلة على قواتها العسكرية ، فتعرضت إلى أزمات اقتصادية خانقة . ولم يستطع مبدأ ترومان في مسادات تركيا حل معضلات الاقتصاد التركي ، إذ كان نصيب تركيا ضئيلا بالنسبة إلى اليونان .

وحاولت تركيا الانتساب إلى السوق الأوروبية المشتركة عام 1957 م ، وانتسبت عام 1963 م على أن يكون ذلك على ثلاثة مراحل :

---

[268] الأفعى اليهودية ص 100 .

[269] أحمد نوري النعيمي – تركيا وحلف شمال الأطلسي ص 9 .

[270] نفسه ص 147 .

[271] نفسه ص 157 .

أ- التحضيرية : وفيها يلتزم السوق تقديم مساعدات لتركيا في شكل تعريفة تفضيلية وقرض مالي قدره 170مليون دولار لمساعدة تطوير المشاريع الصناعية .

ب- الانتقالية : وفيها يتم التغيير التدريجي للإتحاد الجمركي .

ج- النهائية : وفيها يتحقق الإتحاد الجمركي في تركيا ، وتنسق السياسات الإقتصادية [272] .

وهكذا انساقت تركيا في أحضان الغرب ، واستسلمت إليه عسكريا واقتصاديا ، وضاعت هويتها المميزة لها .

وتظاهر عدنان مندريس بتأييد الغرب حينما أرسل الجنود إلى كوريا لمساعدة قوات الأمم المتحدة عام 1370 هـ ، وعقدت تركيا اتفاق صداقة مع اليونان ويوغسلافيا سنة 1373 هـ تحول فيما بعد عام 1374 هـ إلى حلف بغداد ، بتوقيع الميثاق العراقي التركي سنة 1375 هـ ، وانضمت إليه باكستان وبريطانيا [273] ، ووقع اتفاق منفصل مع الولايات المتحدة . وقد فشل حلف بغداد بثورة العراق عام 1958 م . وبقيت العلاقات مع العرب فاترة . وخاصة مع سوريا التي خسرت لواء الاسكندرونة لصالح تركيا 1939 م .

الحركة الإسلامية أمام التحديات في تركيا [274] :

قاد المسلمون ثورات مسلحة ضد الحكم العلماني التركي المعادي للإسلام وظهرت أهم الثورات في المنطقة الجنوبية الشرقية عام 1344 هـ ، ثم في منيمين عام 1349 هـ وقد قمعها الكماليون بشدة منقطعة النظير وذهب ضحيتها عدد كبير من العلماء ، وأهملت المنطقة اقتصاديا وعلميا .

وقامت حركة النور بزعامة الشيخ **بديع الزمان سعيد النورسي** وتلامذته من بعده ، وقد كتب العديد من الرسائل الإسلامية تحت عنوان (رسائل النور) في سبيل التوعية الإسلامية ومقاومة مباديء الكماليين والعلمانية ، ولم تعمد حركته إلى حمل السلاح واقتصر جهادها على اللسان . وقد حاول أتاتورك استمالته وناقشه واستنكر دعوته الناس إلى الصلاة مدعيا أنها تثير الفرقة بين أعضاء المجلس فأجابه :

" إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإسلام إنما هي في الصلاة ، وإن الذي لا يصلي خائن وحكم الخائن مردود " .

---

[272] نفسه ص 196 – 198 .

[273] علي حسون ص 304 .

[274] انظر علي حسون ص 308 – 311 .

فسجنه ثم نفاه بعد أن اتهمه بمؤامرة لقلب نظام الحكم ، ولكن دعوته استمرت في الانتشار سرا بين صفوف الجامعيين ومعسكرات الجيش ودوائر الدولة ، ومثل للمحاكمة مرة أخرى بتهمة اتهامه أتاتورك بالدجال ، فوقف أمام المحكمة . ومما قال :

" إنني لأعجب كيف يتهم أناس يتبادلون فيما بينهم تحية القرآن وبيانه ومعجزاته باتباعهم للسياسة والجمعيات السرية ، على حين يحق للمارقين الإفتراء على القرآن وحقائقه في وقاحة وإصرار ، ثم يعد ذلك أمرا مقدسا لأنه حرية . أما نور القرآن الذي يأبى إلا أن يشع في أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين بدستوره ، فهو خطورة ينهال عليها جميع ألفاظ الشر والخبث والسياسة . . . إسمعوا يا من بعتم دينكم بدنياكم وتنكستم في الكفر المطلق : إنني أقول بمنتهى ما أعطاني الله من قوة إفعلوا ما يمكنكم فعله فغاية ما نتمناه أن نجعل رؤوسنا فداء لأصغر حقيقة من حقائق الإسلام . . . " [275] .

فأعيد إلى منفاه وبقي حتى عام 1367 هـ حين بدأت الحكومة بالتراخي بخصوص النشاط الديني ، وأجازت طباعة رسائل النور فانتشرت بسرعة ، فروع ذلك السلطات فألقي القبض عليه وأحيل للمحكمة الجزائية عام 1368 هـ وحكم عليه بالجسن لمدة عشرين شهرا وفرضت عليه الإقامة الجبرية حتى وفاته في 27 رمضان 1379 هـ . وبقيت حركته مستمرة في تركيا [276] . ولكنها اتخذت صورة صوفية فيها الشيخ والمريد .

وقام أيضا حزب السلام الوطني ، الذي تزعمه السيد المهندس الميكانيكي **نجم الدين أربكان** عام 1392 هـ . وهو ذو اتجاه إسلامي . وعن طريق اشتراكه في الحكم مع حزب العدالة ، حقق بعض المكاسب الإسلامية .

ولد البروفسور المهندس المسكانيكي نجم الدين بسينوب بأقصى شمال تركيا عام 1926 م . ووالده محمد صبري بك .

توصل بكفاءته إلى أن أصبح رئيسا لاتحاد غرف التجارة والصناعة عام 1968 م ، فثارت ثائرة الشيوعيين والماسونيين . واقرأ معي ما نشرته صحيفة (أنت)

---

[275] علي حسون ص 310 .

[276] ولد بديع الزمان عام 1873 م في ولاية بتلس من أبوين كرديين ، واتقن علوم اللغة والعلوم العقلية على اختلافها ، وعلم الأصول والفقه ، وعلوم القرآن . حرص على التواضع والتقشف ، وتعلم الرماية والمصارعة ، وركوب الخيل ، فكان شجاعا مقداما لا يخاف ولا يتردد ، ولقبه العلماء – بديع الزمان – كرس حياته لخدمة القرآن الكريم . أساء أتباعه بعده فهم عبارته : السياسة والشيطان سواء . فصار أكثرهم ضعيف الفهم في السياسة مما أوقعهم في حبائل السياسيين من حيث لا يشعرون (انظر بالتفصيل مصطفى محمد ص 125 – 149) .

الشيوعية بحقد تعليقا على هذا الحدث تحت عنوان (استنبول تحت رحمة الرأسماليين) :

" هناك صراع واضح في هذه الأيام في عالم التجارة والصناعة بين فئتين : فئة الرفاق الماسونيين الذين يعملون بحماية رئيس الوزراء ديميريل ، وفئة الإخوان المسلمين الذين يعملون برئاسة نجم الدين أربكان . فما هي حقيقة هذا الصراع ؟ . . . " [277] .

أسس أربكان حزب النظام الوطني عام 1970 م ، وأغلقته الحكومة عام 1971 م بعد ستة عشر شهرا فقط بحجة [278] :

1- أن المباديء التي قام عليها الحزب ، وتصرفاته فيما بعد تخالف مباديء الدستور التركي .

2- العمل على إلغاء العلمانية في البلاد ، وإقامة حكومة إسلامية .

3- قلب جميع الأسس الإقتصادية ، والإجتماعية والحقوقية التي تقوم عليها البلاد .

4- العمل ضد مباديء أتاتورك .

5- القيام ببعض التظاهرات الدينية .

وتصاعدت أعمال العنف ، بعد عام 1971 م ، وزادت الاغتيالات التي بدأت باغتيال بعض الضباط الأمريكيين الذين يخدمون في القواعد العسكرية . . وانتهت باغتيال عدد لا بأس به من ضباط الجيش التركي ، وزادت حوادث نسف المنشآت ، وسرقة البنوك بقوة السلاح ، وتردت حال الأمن ، فازدادت البلاد ضعفا على ضعف من الناحية الاقتصادية . ففرضت الأحكام العرفية ، وتدخل الجيش [279] .

وفي ظل هذه الأوضاع أنشأ نجم الدين حزب السلام الوطني عام 1972 م .

وتمكن أن يحتل المركز الثالث في انتخابات عام 1974 م ، فشكل مع حكومة الشعب الجمهورية الحكومية . وكان من نصيبه سبع وزارات . وقد نص الائتلاف على إطلاق الحريات العامة بما فيها الصحافة ، وإطلاق سراح المساجين السياسيين [280] .

والمكاسب التي حققها حزب السلامة التركي من اشتراكه بالحكم [281] :

---

[277] مصطفى محمد ص 160 عن العدد 127 بتاريخ 3 / 6 / 1969 م .

[278] نفسه ص 186 .

[279] نفسه ص 197 .

[280] مصطفى محمد ص 203 .

– فتح عدد كبير من مدارس الأئمة والخطباء .

– البدء – ولأول مرة – بتدريس مادة الأخلاق (وتعني الإسلام) كمادة إجبارية في المدارس .

– الدعوة إلى تصنيع مناطق الأناضول النائية . . وتبني الصناعات الثقيلة .

– السماح للأتراك بالسفر برا إلى الحج . وكان ذلك ممنوعا .

– العفو السياسي – فلأول مرة – يتناول العفو السياسي الإسلاميين الذين كانوا يموتون في السجن ، ولا يحس بهم أحد .

– التدخل عسكريا في قبرص . . وإحراز نصر عسكري .

– طالب الحزب – لأول مرة – في البرلمان وبشكل علني إعادة النظر في الماسونية وخطورتها . وبالضرب على أيدي الماسونيين .

وبالنسبة للسوق الأوروبية المشتركة أعلن الحزب رأيه بصراحة وبين أن : لا مصلحة لغير اليهود في هذه السوق ، وأن تركيا هي الخاسر الأكبر من هذه الصفقة ، ودعا بدلا من ذلك إلى التعاون مع المسلمين [282] . والتقارب مع البلاد العربية المسلمة .

ففي الجمعية العامة للأمم المتحدة في 20 تشرين الثاني عام 1974 م ساندت تركيا الأقطار العربية ، كما أنها صوتت بجانب قرار الأمم المتحدة الصادر في 10 تشرين الثاني عام 1975 م حول اعتبار الصهيونية شكلا من أشكال النظرية العرقية والتمييز العنصري . ولعبت تركيا دورا مهما في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في جدة عام 1975 ، وصوتت إلى جانب اقتراح طرد الكيان الصهيوني من الأمم المتحدة في المؤتمر المذكور .

والأكثر من ذلك أن تركيا رغبت إقامة المؤتمر الإسلامي فيها ، فعقد المؤتمر الإسلامي في استانبول عام 1976 م .

---

(281) نفسه ص 206 – 207 .

(282) نفسه ص 215 .

وأمام تزايد التيار الإسلامي في تركيا قام انقلاب قادة الجيش الثاني في 1 / 1 / 1980 م بقيادة كنعان ايفرين ، وبتأييد من أمريكا وإسرائيل [283] ، واعتقل أربكان عام 1981 م .

هذا ولا تزال الحركة الإسلامية في نمو متصاعد على الرغم من ضخامة الأعداء المحيطين بها ، وجسامة الأخطار التي تواجهها من اليمين واليسار على السواء . فتركيا كسائر ديار الإسلام لن تعرف هويتها وذاتها إلا بالإسلام . فهي حاليا ليست بالدولة الغربية التي حلم بها مصطفى كمال ، ولا هي بالدولة المسلمة ، فهي في ضياع وتشتت . وأعاد نجم الدين أربكان الحزب بتسمية جديدة هو : (حزب الرفاه) . كما أخذت الباطنية النصيرية تنشط في تركيا في مواجهة الصحوة الإسلامية . باسم الحزب الشعبي الديمقراطي اليساري وبزعامة دنيز بايفال النصيري [284] .

كما أن تركيا تابعت الصلات ببلاد المسلمين في عهد كنعان ايفرين واوزال . وعادت مآذن مسجد (أياصوفيا) في استنبول تردد : (الله أكبر) . . بعد أن كان حوله أتاتورك إلى متحف ، واستمر أكثر من نصف قرن كذلك ! !

ثالثا : تمزق العالم الإسلامي بين التكتلات والأحلاف الدولية المعاصرة

ظروف ضرورة التكتلات الدولية المعاصرة : يتميز الزمن المعاصر بتقارب المسافات بين دول العالم ، وشعوبه ، وباتصال المجتمعات ، وبتشابك المصالح ، وتعقدها . وذلك يعود إلى : سهولة المواصلات ، البرية ، والبحرية ، والجوية . وتوافر وسائل الإعلام من : صحافة ، ومذياع ، وتلفاز ، وخيالة ، وفيديو ، واتصالات سلكية ، ولا سلكية ، وأقمار صناعية . وسهولة تبادل النقد عن طريق البنوك ، والمصارف ، والحوالات ، والشيكات . كما يتميز بالحرب الباردة بين ما يسمى بالمعسكر الاشتراكي الذي تتزعمه روسيا ، وما يسمى بالمعسكر الديمقراطي الغربي الذي تتزعمه أمريكا . وبأساليب الجاسوسية المبتكرة ، والتسابق في التسلح ، والتنافس في إنتاج الأسلحة الفتاكة المدمرة ، وتكديسها ، والتفنن في إدخال التعديلات عليها . وبالقلق الناتج عن البحث وراء الماديات ، والتسابق في اقتناء الكماليات التي تغرق الأسواق مع بريق الإعلانات والدعايات وتسهيل الحصول عليها بالتقسيط ! ! وبخفوت الفكر الديني ، والفراغ العقدي .

---

[283] نفسه ص 241 . النعيمي ص 306 / محاضرة نجم الدين أربكان عن الحركة الإسلامية في تركيا – المدينة المنورة 25 / 2 / 1987 م . وقد استعمل فيها تعبير فكر الأمة كناية عن الشريعة الإسلامية / حيث يمنع استخدامها .

[284] انظر تفصيل ذلك : مجلة المجتمع الكويتية العدد 888 / الثلاثاء 14 ربيع الأول 1409 هـ / 25 أكتوبر 1988 م ص 24 – 25 .

كل ذلك وغيره قاد العالم (دولا وشعوبا) إلى البحث عن التكتلات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية . . وإلى التنسيق بين مجموعات الدول التي تلتقي في مصالحها ، لتحافظ على نفسها ، وتنمي مرافقها ، أو لتحافظ على هيمنتها على غيرها . فظهرت بذلك تكتلات مختلفة توصف بالعالمية ، والإقليمية ، والمحورية ، والقومية ، والقارية ، أسهم في صنع معظمها ، وخطط لها ، القوى المتنفذة في العالم ، ملبية الرغبة الملحة لدى بعض الدول ، ومن أجل المحافظة على نفوذها وهيمنتها على تلك الدول وحتى لا ينفلت حبل النفوذ من يدها . فاعتمدت معظم التكتلات على **المصلحة** دون العقيدة ، وتوزعت بينها ، الأمر الذي أضعف جهود البلاد الإسلامية ، وربطها بعهود ومواثيق مختلفة ، تتناقض في كثير من الأحيان مع عقيدتها الإسلامية ، وشريعتها . حيث ضعف صوت الإسلام ، وخفت ، في مواثيق هذه التكتلات ، وسارت الأمور لصالح الدول المتنفذة صاحبة القوة والسلطان ، وصاحبة التخطيط لمعظم هذه الأحلاف ، وأصبح العالم الثالث (والذي يعد الإسلام مرشحا لزعامته) نهبا مقسما ، موزعا على تلك الأحلاف ، والتكتلات الدولية .

وفيما يلي نبذة عن أهم هذه التكتلات والأحلاف الدولية حيث يظهر أثرها جليا على العالم الإسلامي في سياق عرضها :

أولا : هيئة الأمم المتحدة : U.N.

ظهر ضعف الدولة العثمانية المسلمة للعيان ، مع بداية القرن الرابع عشر الهجري ، وفقدت وزنها أمام الدول الأوروبية القومية المتغطرسة وخاصة روسيا ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، والنمسا ، وإيطاليا . فاتجهت تلك الدول لاقتسام أملاك الدولة العثمانية فيما أسموه : المسألة الشرقية . وازداد الانتاج الصناعي لتلك الدول ، وسيطرت فيها الرأسمالية ، واشتدت حركة القوميات ، فأخذ تتسابق على المستعمرات للحصول على المواد الأولية الرخيصة الثمن ، والسوق الأعظم لاستهلاك المواد المصنعة . فأدى ذلك إلى اشتداد المنافسة بينها ، فتكونت نتيجة ذلك الأحلاف : إذ تقاربت بريطانيا وفرنسا وروسيا رغم ما بينها من عداء . فانقسمت أوربا إلى كتلتين متنافستين ، واشتد سباق التسلح ، ومع وجود الأزمات – وخاصة أزمة البلقان – اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918 م) التي انتهت بانتصار الحلفاء وهم : بريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا (التي انضمت للحلفاء أثناء الحرب) . والولايات المتحدة (التي عادت لعزلتها بعد انتهاء الحرب) .

وقامت الدول المنتصرة بإنشاء عصبة الأمم ، وقد هيمنت عليها بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، واتخذتها ستارا لاقتسام العالم . واتبرتها هيئة دائمة ، تشد من أزرها الحكومات القومية .

وتألفت **عصبة الأمم** من جمعية عمومية مؤلفة من مندوبين يمثلون الدول الأعضاء في العصبة ، تنعقد مرة كل عام لمدة شهرين في **جنيف** مقرها الدائم ، ومن

مجلس كان يتكون أولا من تسعة مندوبين ، خمسة منهم ينوبون عن الدول الكبرى التي لها كراسي دائمة في مجلس العصبة ، وينعقد هذا المجلس أكثر من مرة في العام . وتعد سكرتارية العصبة (وهي هيئة دولية من الموظفين المدنيين) أعمال الجمعية والمجلس [285] . كما أنها تشرف على تنفيذ أعمالها .

وقد بلغ أكبر عدد لأعضاء العصبة (ستين دولة) ، وانضمت لها روسيا عام 1934 م ، في حين انسحبت منها اليابان عام 1933 م ورفضت الولايات المتحدة الانضمام إليها ، وكان للصهيونية نشاط كبير في تكوينها لتحقق أهدافها باسم الشرعية الدولية عن طريق هذه العصبة .

وقد حمل ميثاق العصبة بذور فشلها . فقد كانت العصبة رابطة دول ذات سيادة ، ولم تكن اتحاد دول ، وكانت القرارات يلزمها الإجماع ، وهذا أضعف مواقفها ، كما أنها لم تكن تملك القوة الضرورية لفرض احترام مقرراتها . وعملت في الغالب كأداة للحفاظ على (الحالة الراهنة) أي أنها كانت تعمل لصالح بعض الدول وخاصة فرنسا وبريطانيا [286] ، ولم تتفق على شيء كاتفاقها ضد مصالح المسلمين .

فقد أقرت مبدأ الانتداب والوصاية ، كما اعترفت بوعد بلفور ، وأصدرت صك الانتداب على فلسطين الذي تضمن الاعتراف بوعد بلفور ، وتكليف بريطانيا بتنفيذه ، مع مشاركة الوكالة اليهودية ، فكانت شكلا من أشكال الاستعمار .

وقد فشلت العصبة فشلا ذريعا في محاولاتها منع استخدام القوة في فض المنازعات الدولية ، وفي الحد من التسلح بين الدول .

فعاد سباق التسلح ، كما عادت التكتلات والأحلاف الدولية ، فانقسمت أوربا ثانية إلى :

أ- الحلفاء : الإنجليز والفرنسيين .

ب- دول المحور : ألمانيا وإيطاليا ، وانضمت إليهما اليابان .

فجر ذلك إلى نشوب الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945 م) وفي أثناء هذه الحرب ظهرت فكرة تطوير عصبة الأمم إلى اسم جديد هو : هيئة الأمم [287] . حيث ظهرت أفكار إنشائها عام 1941 م بميثاق الأطلسي بين روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، وتشرشل رئيس وزراء بريطانيا .

---

[285] فشر – تاريخ أوربا في العصر الحديث ص 571 .

[286] بيير رونوفن – تاريخ القرن العشرين ص 367 وما بعد .

[287] فشر – ص 732 .

وتلا ذلك مشاورات كثيرة أثناء الحرب بين دول الحلفاء وبشكل خاص : الولايات المتحدة ، وروسيا ، وبريطانيا ، وعقدت مؤتمرات بشأن إنشاء هيئة الأمم أهمها :

أ- اجتماع البيت الأبيض عام 1942 م الذي أفر عن تصريح الأمم المتحدة من قبل ممثلي (26) دولة . ذكر فيه ميثاق الأطلسي مع إضافة الحرية الدينية [288] .

ب- مؤتمر موسكو عام 1943 م الذي ضم : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتي ، وبريطانيا ، ومثل هذه الدول : روزفلت ، وستالين ، وتشرشل . وقد اعترفوا بضرورة وضع تنظيم دولي في أول ساعة ممكنة يقوم على : مبدأ المساواة في حقوق السيادة بين جميع الدول المحبة للسلام ، وتعهدوا بفتح باب العضوية لجميع هذه الأمم صغيرها وكبيرها ، كي تعمل على كفالة السلام ، والأمن الدوليين [289] .

ج- مؤتمر طهران عام 1944 م وضم روزفلت ، وستالين ، وتشرشل [290] . وأكدوا فيه ما سبق .

د- مؤتمر (دمبرتن اوكس) : حيث اجتمع ممثلو بريطانيا وروسيا والولايات المتحدة ، والصين في فندق (دمبرتن أوكس) بواشنطن عام 1944 م ، وعملوا على وضع مشروعات تمهيدية لمنظمة دولية . ووضعوا خطوطها العريضة [291] .

هـ- مؤتمر يالطا عام 1945 م بين روزفلت وتشرشل ، وقد بحث فيه أمر المنظمة [292] .

و- مؤتمر سان فرانسيسكو في مارس عام 1945 م ، وقام بالدعوة إلى هذا المؤتمر كل من : روسيا ، وبريطانيا ، والولايات المتحدة ، والصين . وقد اشتركت فيه فرنسا دون أن تكون داعية إليه باعتبار أنها لم تساهم في مؤتمر (دمبرتن أوكس) ولا في يالطا . وحضره مندوبون عن إحدى وخمسين دولة . حيث تم في 26 يونيو من العام نفسه الموافقة على ميثاق الأمم المتحدة ، وأعلن عن قيام هيئة الأمم المتحدة في اليوم نفسه . واتخذت مقرها الدائم في **نيويورك (إمبايرستايت)** .

وقد تضمنت شرعة الأمم (19) فصلا في (111) مادة ، عرفت أولا مباديء المنظمة وأهدافها ، (الديباجة والفصل الأول) ، ثم وصفت مختلف الهيئات ، وكيفية سير أعمالها . وقد حددت **أهدافها** في :

---

[288] دروزيل – التاريخ الدبلوماسي – ص 34 .

[289] فشر ص 732 .

[290] التاريخ الدبلوماسي ص 45 .

[291] فشر ص 732 .

[292] التاريخ الدبلوماسي ص 80 .

1- حفظ السلام والأمن في العالم ، وذلك بمقاومة الأخطار التي تهدد السلام العالمي ، ومنع الحروب واستعمال القوة في حل المشكلات .

2- تنظيم توثيق التعاون الدولي ، ومد يد المساعدة للدول المختلفة في المجالات الاقتصادية ، والاجتماعية ، والفنية .

3- حل المشكلات الدولية والخلافات الإقليمية بالطرق السلمية عن طريق المفاوضة ، والتوفيق ، أو الوساطة ، أو التحكيم .

وتكونت هيئة الأمم المتحدة من الأجهزة الرئيسية التالية :

1- الجمعية العمومية :

وتكونت من جميع الدول الأعضاء ، التي بلغ عددها عام 1987 م (159 دولة) . ويمثل كل عضو فيها مندوبون لا يزيد عددهم على خمسة لهم جميعا صوت واحد . وتقوم الجمعية : بتوثيق العلاقات والتعاون الدولي ، وبحث المشكلات التي تؤثر في السلم ، والأمن العالمي . وتسوية الخلافات بين الدول ، والمحافظة على حقوق الإنسان وحرياته الأساسية . وزيادة التضامن الدولي في ميادين الاقتصاد ، والاجتماع ، والثقافة ، والتربية ، والصحة . وإقرار ميزانية الأمم المتحدة ، وانتخاب أعضاء وموظفي الأجهزة الأخرى التابعة لهيئة الأمم .

وتصدر الجمعية قراراتها في المسائل الهامة بأغلبية ثلثي الأعضاء الحاضرين . وتكتفي في المسائل العادية بالأغلبية العادية .

ومما يجدر ذكره أن سلطات الجمعية استشارية محضة ، فهي تدرس ، وتناقش ، وتوصي ، وتفحص التقارير ، ولا تقرر أبدا [293] . فيما عدا الموافقة على عضوية دولة من الدول .

2- مجلس الأمن :

ويتكون من خمسة أعضاء دائمين هم ممثلو : الاتحاد السوفيتي ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والصين (الوطنية سابقا ، والشعبية حاليا) . ومن ستة أعضاء غير دائمين يكون انتخابهم لمدة سنتين . وقد زيد عدد الأعضاء الغير دائمين فأصبح خمسة عشر عضوا .

وتصدر القرارات في المسائل الهامة بالأغلبية العددية على أن يكون منها الأعضاء الدائمين الخمسة . كما يحق للأعضاء الدائمين استعمال **حق الفيتو**

---

[293] التاريخ الدبلوماسي ص 113 .

(النقض) لأي قرار يعرض على المجلس . وهذا أدلى إلى تسلط الدول الكبرى في هذا المجلس . وضياع أي حق ما لم يوافق هواهم جميعا .

ويقوم مجلس الأمن : بالمحافظة على الأمن والسلام في العالم بالتعاون مع الجمعية العامة (طبعا بمفهوم الدول المهيمنة) ، واتخاذ قرارات بتوقيع عقوبات اقتصادية ، أو اجراءات لمنع وقوع العدوان ، او لوقفه ، واتخاذ إجراء حربي ضد المعتدي في ظروف خاصة . وقد وافقت جميع الدول الأعضاء على أن تضع تحت تصرف المجلس أية قوات مسلحة ، وتقدم كل تسهيلات عسكرية يطلب منها أو يتفق عليها [294] .

3- الأمانة العامة : (السكرتاريا) :

وتتألف من أمين عام تعينه الجمعية العمومية للهيئة ، ومن عدد من الموظفين .

ويمثل الأمين العام حلقة الوصل بين الجمعية العمومية ومجلس الأمن ، وبين الدول الأعضاء ذات المصلحة ، وبين مجلس الأمن والجمعية العمومية . كما تنظم أمور اللجان الأخرى .

4- المجلس الاقتصادي والاجتماعي :

ويتألف من ثمانية عشر عضوا ، تنتخبهم الجمعية العمومية ، ومهمته تقديم خدمات إقتصادية ، واجتماعية ، وصحية ، وثقافية للدول اعضاء ، عن طريق وكالات متخصصة في هذه الميادين ، يتعاون بعضها مع الآخر عن طريق المجلس الإقتصادي والإجتماعي ، الذي يقوم بدور جهاز التنسيق . ومن أهم هذه الوكالات :

منظمة الأغذية والزراعة : F.A.O. ، ومنظمة اليونسكو للثقافة والتعليم U.N.E.S.C.O ومقرها باريس . ومنظمة العمل الدولية L.L.O. ومنظمة الصحة العالمية W.H.O والبنك الدولي للإنشاء والتعمير ، ومنظمة اللاجئين الدولية U.N.R.W.A .

5- محكمة العدل الدولية :

وتتألف من خمسة عشر قاضيا من كبار رجال القانون من مختلف الدول . ومركزها مدينة لاهاي في هولندة . ويعود تأسيسها إلى عام 1921 م للنظر في الخلافات بين الدول ، والمطالب التي تتقدم بها على ضوء المعاهدات والاتفاقيات الدولية القائمة .

6- مجلس الوصاية :

---

[294] فشر ص 733 .

وحل محل لجنة الانتدابات الدائمة القديمة . ويشرف على شئون المستعمرات السابقة لدول المحور (ألمانيا ، وإيطاليا ، واليابان) . ويتألف من أعضاء الدول التي تتولى إدارة تلك البلدان .

وقد انضمت الدول الإسلامية المستقلة إلى منظمة هيئة الأمم منذ تأسيسها وتوقيع ميثاقها ، فضمت المملكة العربية السعودية ، وتركيا . وقبلت فيها أفغانستان عام 1946 م . ثم انضمت إليها اليمن والأردن وألبانيا عام 1947 م ، وأندونيسيا عام 1948 م . كما ضمت هذه المنظمة الكيان الصهيوني في فلسطين باسم (دولة إسرائيل) التي اعترفت بها أمريكا والاتحاد السوفيتي من أول إعلانها عام 1948 م [295] . كما انضمت إليها الدول العربية والإسلامية تباعا بعد استقلالها .

وقد عرضت القضية الفلسطينية على الهيئة مرارا ، ولا تزال ، كما عرضت عليها القضايا الإسلامية المختلفة ، والمتتبع للأحداث يجد أن هذه القضايا لا تحل في اجتماعات هيئة الأمم وقاعاتها ومناقشاتها . فهي لا تعدو أن تكون منبرا دوليا تعرض عليه مشكلات الأمم ، ومجلس الأمن مجمد بنظام الفيتو فهو غير قادر على اتخاذ قرارات في الحالات الخطيرة ، والجمعية العامة لا تستطيع أن تصدر إلا توصيات ، كما أنه من الممكن أن يطرح كل بلد مهما كان صغيرا توصيات الجمعية ، وأعمال اليهود في فلسطين ، وأعمال الحكومة العنصرية في جنوب أفريقيا ماثلة للعيان [296] .

ثانيا : مجموعة الدول ال 77 :

ظهرت هذه المجموعة في إطار هيئة الأمم ، فقد دعت الأمم المتحدة إلى عقد مؤتمر للتجارة والتنمية من أجل بحث إمكانية توسيع التبادل التجاري بين الدول النامية والدول المتقدمة صناعيا . والتعاون من أجل بناء مجتمع دولي متعاون . وفي نطاق هذا المؤتمر الذي أصبح يعقد بصورة دورية تجمعت سبع وسبعون دولة من الدول النامية في قارات : آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ، وعقدت أول مؤتمراتها عام 1964 م في مدينة نيودلهي عاصمة الهند ، وعقدت مؤتمرها الثاني في مدينة الجزائر عام 1967 م .

وانضم لهذه المجموعة عدد من الدول النامية الأخرى حتى بلغ مجموع أعضائها عام 1974 م خمسا وتسعين دولة . وأثرها ضئيل . ومعظم دول العالم الإسلامي أعضاء في هذه المجموعة .

ثالثا : دول حلف الأطلسي N.A.T.O

وهذا الاسم نسبة إلى شمال المحيط الأطلسي .

---

[295] التاريخ الدبلوماسي ص 117 .

[296] نفسه ص 418 .

كان هجوم هتلر الصاعق على الاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية عام 1941 م ، قد دفع روسيا إلى الانخراط في المعسكر الديمقراطي الغربي ضد ألمانيا النازية . الأمر الذي دعا إلى إعادة النظر في الوضع السياسي بين لندن وواشنطن . فقابل الرئيس الأمريكي (روزفلت) ، رئيس وزراء بريطانيا (تشرشل) في 14 آب (أغسطس) عام 1941 م على ظهر الدارعة الانجليزية (أمير ويلز) الراسية في جون – الأرض الجديدة – ووضعا صكا يعتبر أول معلم ، وضع لتشكيل تضامن شعوب الأطلسي . فقد اتفقت الدولتان على [297] :

ألا تحدثا أي تغيير أرض مضاد لأماني الشعوب . ويحق لكل شعب اختيار شكل الحكم بحرية . ولجميع الشعوب الحق في الوصول إلى المواد الأولية . وترجوان التعاون الإقتصادي بين جميع الدول .

وأن السلام بعد تقويض النازية يجب أن يكفل الأمن الدولي ، وحرية البحار ، وأعلنا عن تخفيض عام للتسلح .

هذا وقد أسفرت الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945 م) عن ظهور قوتين غربيتين : روسيا وأمريكا . تحاول كل منهما أن تحل محل أوربا الغربية في استعمار العالم ، والهيمنة عليه . فظهرت روسيا بمظهر الحامية للنظام الاشتراكي (الأيدولوجية الشيوعية) ، وظهرت أمريكا بمظهر الممثل للنظام الديمقراطي الغربي (الأيديولوجية الرأسمالية) . وقد تمت القطيعة بين النظامين عام 1947 م لتسير كل من أمريكا وروسيا في تكوين حلف تتزعمه لاقتسام العالم . باسم المعسكر الشرقي ، والمعسكر الغربي .

وأدت القطيعة بين روسيا وأمريكا إلى خوف الدول الأوروبية فبحثت عن أحلاف وتكتلات فكان **ميثاق بربوكسل** (عاصمة بلجيكا) عام 1948 م الذي ضم دول البينولوكس الثلاثة : هولندة ، وبلجيكا ، ولكسمبورج ، وذلك باقتراح من بريطانيا وفرنسا . وقد وافقت الحكومات الثلاثة على معاهدة لمدة خمسين سنة ، وتنص على معونة عسكرية آلية في حالة عدوان ضد أحد موقعيها في أوربا ، وعلى تبادل المشورة في حالة عدوان في قارة أخرى . أو في حالة تهديد ألمانيا لأي منها ، كما أكدت على منع وقوع الأقطار الأوروبية تحت النفوذ السوفييتي ، ونصت على إنشاء مجلس استشاري ينعقد بناء على طلب أحد الأعضاء . وتضمنت تقوية الروابط الثقافية والتبادل التجاري بين هذه الأقطار [298] .

---

[297] التاريخ الدبلوماسي ص 33 .

[298] النعيمي ص 17 ، والتاريخ الدبلوماسي ص 215 .

كما ظهرت الرغبة عندهم في التعاون مع الولايات المتحدة التي وضعت شرطا هو (التنظيم المسبق في أوربا لسياسة الدفاع ضد كل عدوان من حيث أتى) [299] . فبدأ الكلام عن ميثاق أطلسي محتمل ، يضم اتحاد بروكسل والولايات المتحدة وكندا .

وفي الوقت نفسه كانت الدول الإسكندنافية : النرويج ، والسويد تفكر في تحقيق ميثاق خاص . وفي جنوب أوربا اقترح تسالداريس وزير خارجية اليونان على بيفن (رئيس وزراء بريطانيا) إشراك انجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا ، وايطاليا ، واليونان للدفاع عن البحر المتوسط [300] وهكذا تهيأ الأمر لميثاق الأطلسي بزعامة أمريكا . فنقح النص الكامل للميثاق في 8 آذار (مارس) عام 1948 م ، ووصل إلى باريس ثم إلى لندن حيث تناقش به مجلس الخمسة الاستشاري في لندن دون إدخال تعديل عليه ، وحضر المجلس وزراء الخارجية للدفاع الوطني والمالية الموقعين على معاهدة بروكسل . وفي 15 آذار دعا الخمسة والولايات المتحدة وكندا : النرويج والدانيمارك ، وأيسلندا ، والبرتغال إلى الاشتراك في الميثاق [301] . وفي نيسان (إبريل) عام 1949 م تم توقيع الحلف في واشنطن من قبل اثنتي عشرة دولة هي : الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وايطاليا ، وهولندا ، وبلجيكا ، ولكسمبورغ ، والنرويج ، والدانيمارك ، والبرتغال ، وكندا ، وأيسلندا .

ثم انضمت لهذا الحلف تركيا واليونان عام 1952 م ، وألمانيا الغربية عام 1955 م [302] .

وواضح من بيان الدول المشتركة في هذا الحلف أن العامل الاستراتيجي العسكري هو المعيار الحاسم في عضويته ، وليس العامل الإقليمي كما قد يوحي بذلك اسمه ، فالحلف كما نلاحظ يضم دولا تترامى في قارتين : من تركيا واليونان في المشرق ، وهما دولتان غير أطلسيتين ، إلى أمريكا وكندا في الغرب مرورا بمعظم أوربا الغربية سواء أطلت على الأطلسي أم لا. وهذا الحلف لا يضم دول أمريكا اللاتينية أو أفريقيا الأطلسية . فالقصد من الحلف كان إقامة حزام أمان واحد قبالة الإتحاد السوفييتي [303] .

وادعى منشئوا هذا الحلف أن طابعه دفاعي ، وأنه موجه ضد خطر العدوان الشيوعي على أوربا الغربية . وأعربت دوله عن الثقة بأهداف هيئة الأمم ومبادئها ، ونصت مقدمته على رغبة المتعاقدين في السلام ، والتصميم على حماية النظام الديمقراطي – النموذج الغربي – بالقوة .

---

[299] التاريخ الدبلوماسي ص 216 .

[300] التاريخ الدبلوماسي ض 218 .

[301] نفسه ص 218 .

[302] الموسوعة ص 66 .

[303] محمد عبد العزيز شكري – الأحلاف والتكتلات ص 45 .

وتعد البنود العسكرية الأساسية من بين بنوده : ففي المادة الرابعة يميز بين التهديد والعدوان ، ففي حالة التهديد تتشاور الأطراف ، ويكفي لتعريف التهديد أن يصرح أحدهم أنه موجود .

وأما المادة الخامسة والتي تعتبر من أهم مواد هذا الحلف كلها فقد ذكرت أن أي عدوان مسلح يقع على دولة من دول حلف الأطلسي يعتبر عدوانا ضد كل الدول المتحالفة . ويتعين في هذه الحالة اتخاذ ما تراه ضروريا من الإجراءات القادرة على مقاومة العدوان بما في ذلك بالطبع استخدام القوة . وتقوم دول الحلف بالإبلاغ عن العدوان والترتيبات التي اتخذت في مواجهته إلى مجلس أمن الأمم المتحدة . ليقوم بواجباته المنصوص عليها في الفصل السابع من الميثاق .

كما يخضع البند الثامن في المعاهدة جميع الاتفاقيات الأخرى الدولية وبالتالي كل سياسة مشتركي الناتو الخارجية لأحكام هذه المعاهدة [304] .

ودخل الميثاق حيز التنفيذ في 24 آب (أغسطس) عام 1949 م ، وأنشيء مجلس عسكري لتحقيق أغراضه ، وقيادة عامة للحلف . وتؤمن إدارة العمليات العسكرية (الوحدة الاستراتيجية الدائمة) وتتألف من ممثلين من الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وفرنسا . وتحت أمرها خمس وحدات إقليمية للعمليات : كندا – أمريكا ، وشمال الأطلسي ، والشمال الأوروبي ، والغرب الأوروبي ، والجنوب الأوروبي للمتوسط الغربي .

وعين الجنرال دوايت إيزنهاور قائدا أعلى في أوربا عام 1950 م . كما خولت السلطة التنفيذية إلى مكتب دائم دعوه : (مكتب الثلاثة عقلاء) عام 1951 م [305] .

وتحول الحلف إلى أداة كبلت بواسطتها الدول الأخرى الداخلة فيه بقيود التبعية العسكرية للولايات المتحدة . كما حولت إلى رؤوس جسور لمرابطة القوات الأمريكية . وإقامة القواعد النووية ، وغيرها من القواعد العسكرية الأمريكية . وإلى مصادر للموارد البشرية والأسلحة الإضافية المطلوبة للاستراتيجية الأمريكية [306] . فقد تحدث الجنرال الأمريكي (جرونتر) بعد إنشاء الحلف فقال : " يحلو لنا ذلك ، أم لا ، ولكن رداء قيادة العالم يقع على أكتافنا ، ونجاح هذا الحلف سيتوقف على مقدار ما نستطيع تحقيق هذه القيادة " [307] .

---

[304] تاريخ السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي ج 2 / 202 ، وانظر عزيز شكري ص 46 .

[305] وكانوا عام 1951 م هاريمان عن الولايات المتحدة ، وغيتسكيل عن بريطانيا ، وجان موليه عن فرنسا .

[306] تاريخ السياسة الخارجية ج 2 / 202 .

[307] نفسه ص 204 .

وقد قام الاتحاد السوفييتي بحملات عنيفة على هذا الحلف وهاجمه بشدة بالصحافة والإذاعة [308] . وذلك بهدف ضم الدول الأخرى إلى جانبه . الأمر الذي يدعونا إلى القول مطمئنين : أن اتفاقا سريا حصل بين ما يسمى بالعملاقين لاقتسام العالم ، وكبت القوى التي يمكنها الوقوف أمام كل منهما وخاصة الإسلام . وقد تحولت أمريكا بموجب هذا الحلف إلى شرطي يفرض هيمنته على العالم ، ويتدخل في كل قضاياه صغيرها أو كبيرها . وأمام ذلك انسحبت فرنسا عام 1966 م رسميا من الجهاز العسكري تبعا لسياسة ديغول في أن يكون لأوربا وجود مستقل عن أمريكا ، والاتحاد السوفييتي ، فانتقل مركز الحلف من باريس إلى بروكسل . وألغيت الإدارة التنفيذية للجنة العسكرية وأوجدت جهازا جديدا أطلق عليه اسم (الهيئة العسكرية الدولية) [309] .

ومن حلف الأطلسي انبثقت : (منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية) E.C.D.O بقصد ربط دول أوربا الغربية بعجلة الاقتصاد الأمريكي . ومنافسة للسوق الأوروبية المشتركة . وضمت إلى جانب دول الحلف بعض الدول المحايدة مثل : النمسا ، والسويد ، وسويسرا ، وفنلندا ، ويوغوسلافيا .

والواقع أن الحلف أكد انقسام العالم إلى كتلتين متناهضتين ، وشدد رياح الحرب الباردة التي أوقعت الخوف في قلوب الدول الأخرى الصغيرة فدفعتها إلى الإنضمام لأحد الكتلتين . كما أن ذلك أدى إلى التسابق في التسلح . وانفاق الملايين على التسلح المدمر . كما استخدم في قمع الحركات التحررية في بلاد المسلمين خاصة على نحو ما جرى إبان الثورة الجزائرية . وعلى نحو ما جرى بعد ذلك في المستعمرات البرتغالية في أفريقيا . حيث استخدمت أسلحة الحلف وخبراته في اغتيال الآلاف من البشر الطامحين للتخلص من عبء الرجل الأبيض [310] .

رابعا : دول حلف وارسو THE WARSOW PACT :

نسبة إلى وارسو عاصمة بولندة (بولونيا) .

كان الاتحاد السوفييتي قد سيطر أثناء الحرب العالمية الثانية وما بعدها مباشرة على أوربا الشرقية سيطرة كاملة . حيث شملت عام 1948 م : ألمانيا الشرقية ، وبولندة ، وتشيكوسلوفاكيا ، وهونغاريا ، ويوغوسلافيا ، وألبانيا ، وبلغاريا ، ورومانيا . وربطت روسيا هذه البلدان بها بمعاهدات ذات طابع سياسي وضعت أولياتها زمن الحرب [311] ، أطلقت عليها اسم (علاقات الصداقة والمساعدة المتبادلة بين الاتحاد

---

[308] نفسه ص 205 .

[309] النعيمي ص 26 .

[310] عزيز شكري ص 56 .

[311] التاريخ الدبوماسي ص 235 .

السوفييتي ودول الديمقراطية الشعبية) [312] . واعتمدت على قيام أنظمة شيوعية مخلصة لموسكو ، وركز على دكتاتورية البرولوتاريا (الطبقة العاملة) [313] ، واعتمدت في الحكم على القهر ، والتضييق ، وكبت الحريات على مختلف أشكالها وألوانها .

وبعد القطيعة بين روسيا وأمريكا عام 1947 م أشرفت روسيا على عقد معاهدات بين الدول التي تسير في فلكها ، بعضها مع بعض [314] . كما عقدت مع الصين الشيوعية معاهدة للصداقة والتحالف والمساعدة المتبادلة عام 1950 م [315] ، وأنشأت جمهورية ألمانيا الشرقية عام 1949 م [316] . وأخذت تصدر الشعارات الاشتراكية إلى بلاد الإسلام ، باسم التقدمية ومحاربة الرجعية والاستعمار والرأسمالية ، فاستهوت كثيرا من الناس ، وخفت صوت الإسلام ، وضرب المسلمون ضربات موجعة تحت اسم هذه الشعارت في بلاد الإسلام التي في الاتحاد السوفييتي ، وفي يوغسلافيا ، وأوربا الشرقية ، والصين ، ومصر ، وأندونيسيا ، والهند الصينية . ثم في أقطار إسلامية أخرى .

ولما وقع ميثاق حلف الأطلسي حمل الاتحاد السوفييتي مع منظومته الاشتراكية عليه بشدة ونظم مؤتمرا في موسكو عام 1954 م يبحث الأمن الأوروبي ودعا إليه البلاد الغربية : بريطانيا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة ، فرفضت . وعليه فقد اشتركت منظومة الاتحاد السوفييتي في هذا المؤتمر وحدها .

وأعلن التصريح الختامي لهذا المؤتمر " بأن الموقعين في حال تصديق المعاهدات التي تستأنف فيها ألمانيا الحياة العسكرية على استعداد لاتخاذ إجراءات مشتركة تتعلق بتنظيم قواها المسلحة وقيادتها [317] " .

ثم أخذ الاتحاد السوفييتي بفسخ معاهدات تحالفه مع بريطانيا وفرنسا .

وفي عام 1956 م قام بعقد مؤتمر وارسو للكتلة التي دعاها (الشرقية) بزعامته . وأسفر هذا المؤتمر عن توقيع معاهدة حلف وارسو بين ثمانية بلاد من تلك التي تسير في فلكه ، وتأتمر بأمره . وهي بالإضافة إلى الإتحاد السوفييتي : بولنده (بولونيا) ، وتشيكوسلوفاكيا ، وألمانيا الشرقية ، ورومانيا ، وبلغاريا ، وألبانيا ، وهونغاريا .

---

[312] تاريخ السياسة الخارجية ص 70 .

[313] نفسه ص 76 .

[314] نفسه ص 72 .

[315] نفسه ص 74 .

[316] نفسه ص 76 .

[317] التاريخ الدبلوماسي ص 339 .

وبنود الميثاق نسخة عن ميثاق الأطلسي وتنص مادته الخامسة على : " تنظيم قيادة عسكرية موحدة ، يعهد بها إلى الماريشال السوفييتي كومنيف " [318] .

وحلف وارسو لم يغير من واقع الكتلة العسكرية الشرقية ، ولكنه أعطاها معنى مؤثرا ، وكرس انقسام العالم إلى كتلتين ، وألقى الرعب في قلب من كان يحاول أن يقف في وجه الكتلتين . وقد هاجمته أمريكا بالدرجة نفسها التي هاجم بها الاتحاد السوفييتي حلف الناتو ، وذلك للعمل على جر الدول الأخرى إلى السير في مخططاته ، والارتماء في أحضان إحدى الكتلتين . كما أن هذا التنظيم العسكري أضفى مسحة من الشرعية على الوجود السوفييتي في شرق أوربا ، وجعل من الصعب على الدول الأعضاء فيه أن تنسحب منه ، لأن الانسحاب يقابل بمقاومة القوة المجتمعة لدى دول الحلف . كما حدث لمأساة تشيكوسلوفاكيا عام 1968 م [319] .

خامسا : السوق الأوروبية المشتركة :

المجموعة الاقتصادية الأوروبية E.E.C :

كانت فرنسا قد فقدت دورها الاستعماري ، ونفوذها بعد الحرب العالمية الثانية أمام الكتلتين الشرقية ، والغربية ، فقامت بمشاريع للعمل على تكتل أوربا لإعادة دورها . فتكونت بجهودها (مجموعة الأسرة الأوروبية للفولاذ والفحم) عام 1951 م ، من دول : فرنسا ، وألمانيا الغربية ، وايطاليا ، وبلجيكا ، ولوكسمبورج ، وهولندة [320] . واتخذت لوكسمبورج مركزا لها .

وانبثقت من هذه الأسرة فكرة (الدمج الأوروبي) . حيث تكونت (جمعية مختصة) ، تألفت من جمعية أسرة الفولاذ والفحم ، ومن تسعة أعضاء . وكلفت عام 1952 م بتحضير دستور سياسي أوروبي . وتبنت هذه الجمعية مشروع معاهدة يتضمن نظام الأسرة الأوروبية ذات الطابع (فوق القومي) يكون لها نظام : برلمان من مجلسين نواب وشيوخ ، ومجلس تنفيذي مسئول أمام البرلمان ، ومجلس وزراء وطنيين ومحكمة عدل ، ومجلس اقتصادي واجتماعي . ولكن المشروع اصطدم بتحفظات كثيرة فتراجعت عنه فرنسا عام 1954 م [321] وعادت إلى أسلوب التكتل الاقتصادي . فاجتمع مؤتمر الوزراء الستة فقي مسينا عام 1955 م ، وأعقب هذا الاجتماع ثمانية اجتماعات أخرى أسفرت في النهاية عن وضع مشروع **(السوق الأوروبية المشتركة)** في الاجتماع الثامن بروما عام 1957 م . ووقعت المعاهدة . ووافقت اللجنة على نقطة ركزت عليها فرنسا وهي : (إدخال ما وراء البحار في السوق

---

[318] نفسه ص 340 .

[319] محمد عزيز شكري ص 74 .

[320] التاريخ الدبلوماسي ص 211 .

[321] نفسه ص 362 .

المشتركة) . وقد تولى أمرها سلطة عليا هي : **مجلس الوزراء** ، ويساعده لجنة أوروبية تتألف من خبراء تكلف بتحضير عمل الوزراء . وأصبحت السوق الأوروبية المشتركة ، والأسرة الأوروبية للفولاذ والفحم مؤلفة من (142) برلمانيا ، تعطي آراءها بأكثرية الثلثين في مراقبة اللجنة الأوروبية وتساعدها : اللجنة الاقتصادية والاجتماعية ، واللجنة النقدية ، وتوجد محكمة عدل ، وبنك أوروبي للتوظيف برأسمال قدره مليار دولار [322] . وأعلنت المجموعة **أهدافها** في :

أ- ازالة التعرفة الجمركية بين الدول الأعضاء تدريجيا وعلى مراحل وضحتها وبينتها ، وسارت في تطبيقها .

ب- إقامة تجارة حرة فيما بين دول السوق ، وفتح الحدود تدريجيا لحركات العمال ، ورؤوس الأموال .

ج- وتخضع بلاد ما وراء البحار التي تقبل في هذه المجموعة للتجربة لمدة خمس سنوات .

ووقعت سبع دول أوروبية على ميثاقها هي : فرنسا ، وألمانيا الغربية ، وايطاليا ، وهولندة ، وبلجيكا ، ولوكسمبورج ، والدانيمارك . وانضمت لها ايرلندا عام 1963 م ، وبريطانيا عام 1967 م وكانت **بريطانيا** قد تزعمت منافسة هذا السوق في بداية الأمر وكونت : (**الرابطة الأوروبية للمبادلة الحرة**) بزعامتها عام 1959 السوق الأوروبية (بالحصار القاري) . وتكونت الرابطة من : بريطانيا والدانيمارك ، والنرويج ، والسويد ، والبرتغال ، والنمسا ، وسويسرة . ولكن الرابطة فشلت لعدم تجانسها ، وتباعدها الجغرافي [323] ، ثم لاتجاه زعيمتها بريطانيا ، للسوق الأوروبية المشتركة .

هذا وقد حققت **السوق الأوروبية** النجاح على أكثر من صعيد ، وأصبحت واضحة الأثر في الحياة الأوروبية اليومية ، رغم ما كان بين دولها من تاريخ دموي حافل بالحروب ، والضغائن ، والإثارة منذ ما قبل حروب نابليون إلى الحرب العالمية الأولى ثم الثانية [324] . فقد نجحت هذه الدول في تأمين أرضية مشتركة لتنسيق الأهداف والبرامج ، ودمج المصالح ، ومنع التعارض والتضارب والتنافس فيما بينها . فأدى ذلك إلى تحقيق نوع من التكامل الاقتصادي الأوروبي ، الذي أدى بدوره إلى نوع من التطور السياسي والعسكري بحيث أصبحت السياسات الدفاعية والخارجية ، والداخلية لمختلف دول السوق شبه موحدة [325] . وتسير أوربا الغربية عن طريق السوق بخطوات عملية إلى تحقيق الوحدة بين أقطارها .

---

[322] التاريخ الدبلوماسي ص 365 .

[323] تاريخ عصرنا ص 214 .

[324] موسوعة إسلامية ص 44 .

[325] نفسه ص 48 .

ونرى في الآونة الأخيرة (ويا للأسف) تهافت أكثر من دولة من دول الإسلام على طلب الانضمام إلى السوق الأوروبية بهدف الإفادة من عضويتها الآنية ، دون النظر إلى أبعاد ذلك على التأثيرات على عالم الإسلام ، واستغلاله لمصالح تلك الدول الصناعية . التي نجحت في التحكم في أسعار المواد الأولية التي في معظمها في بلاد الإسلام ، كما نجحت في رفع أسعار المواد المصنعة المصدرة إلى بلاد الإسلام ، فأثر ذلك كثيرا على أوضاع بلاد المسلمين وعلى نقدها .

سادسا : دول الكومنولث Common Wealth

ابتكرت **بريطانيا** نظام الكومنولث (رابطة الشعوب التي تتكلم الانجليزية) لتحافظ على نوع من السلطة على البقاع التي كانت تسيطر عليها . وبدأت تكوينه مع كندا عام 1867 م بعد أن نجحت في صد الولايات المتحدة عنها [326] .

وبعد الحرب العالمية الأولى رسمت سياسة أسمتها : (**التفضيل الامبراطوري**) لتحقيق لون من ألوان الاكتفاء الذاتي الاقتصادي والسياسي بالتضامن مع مستعمرات **الدومنيون** ، ومستعمرات **التاج** . وبينت هذه السياسة في مؤتمر رؤساء وزراء الإمبراطورية الذي عقد في اوتاوة (كندا) عام 1932 م . وكانت الأراضي الخاضعة للتاج البريطاني تنتمي لثلاثة أقسام وزارية كبيرة حتى عام 1944 م وهي :

أ- **وزارة الدومنيون** : وتشرف على كندا ، واستراليا ، وزيلندة الجديدة ، واتحاد جنوب افريقيا ، ودولة إيرلندة الحرة . وكان لجنوب أفريقيا وضع خاص إذ وضع لها نظام عام 1926 م على أساس المساواة ، والاستقلال الذاتي ، والولاء للتاج البرطاني .

وأخيرا تحررت تلك الدول من كل رقابة برطانية ، ولكنها بقيت تقيم مع بريطانيا علاقات خاصة . فتحولت وزارة الدومنيون إلى : (وزارة الشئون الخارجية المكلفة بعلاقات مع الأسرة) .

ب- **وزارة الشئون الهندية** (مع وزارة برمانيا الملحقة بها) وكانت تدير سياسة الهند ، ومسئولة أمام برلمان وستمنستر عن حكومة الهند ، وتتخذ القرارات مباشرة دون الرجوع إلى زعماء البلاد ، مع أن بريطانيا كانت وقد وعدت الهند بنظام الدومنيون منذ عام 1917 م .

ج- وزارة المستعمرات : وكانت تشرف على مستعمرات بريطانيا في أفريقيا ، وجنوب شرق آسيا ، وجزر الهند الغربية ، والمحيط الهادي ، والبحر الأبيض المتوسط ولم يعرض على بساط البحث تحويل هذه المستعمرات إلى دومنيون .

---

[326] تاريخ عصرنا ص 94 .

فالكومنولث ضم البلاد التي تشرف عليها وزارة الدومنيون ، والتي أصبحت عام 1944 م ذات سيادة كاملة .

وقد مر الكومنولث بعصره الذهبي بين عامي 1927 – 1954 م ، وأطلق عام 1947 على وزارة الدومنيون اسم (وزارة العلاقات مع الكومنولث) . وهي التي ورثت عام 1966 م جميع علاقات المملكة المتحدة مع بلاد امبراطوريتها القديمة ، قبل أن تنصهر عام 1968 م مع وزارة الخارجية [327] . فأصبح الكومنولث يدل على رابطة حرة مستقلة ومتساوية ضمت عام 1968 م : المملكة المتحدة ، وكندا ، واستراليا ، وزيلندة الجديدة ، والهند ، وباكستان ، وسيلان ، وغانا ، وماليزيا ، ونيجيريا ، وسيراليون ، وقبرص ، ومالطة ، وتانزانيا ، وجامايكا ، وترينداد ، وتوغو ، وأغندة ، وكينيا ، ومالاوي ، وزامبيا ، وغامبيا ، وسنغافورة ، وغوايانا ، وليسوتو ، وبوتشوانا ، وباربادس ، والمالديف ، وناورد ، وساموا الغربية ، وجزيرة موريشيوش ، وسوازيلاند . كما يدل عى توابع المملكة المتحدة ، وبعض المستعمرات أو المحميات .

هذا وقد أضيف إلى حق الاشتراك في الكومنولث حق الخروج منه ، كما فعلت بورما (برمانيا) عام 1948 ، وايرلندة عام 1949 م . وانضمت الهند وسيلان عام 1949 م ، وباكستان عام 1948 م [328] .

ولم يكن للكومنولث سلطة تنفيذية اتحادية ، ولا سلطة تشريعية فكانت بريطانيا هي المهيمنة عليه . وشهد ضعفا شديدا بعد عام 1968 م لأسباب نوجزها فيما يلي :

1- التنظيمات الجديدة التي شهدتها أوربا ومواثيقها العسكرية .

2- نفوذ الولايات المتحدة وروسيا ودورهما في محاولات الحلول محل النفوذ البريطاني والفرنسي . والتكتلات الجديدة التي تزعمتها روسيا والولايات المتحدة .

3- ظهور كتل أخرى بمساندة الولايات المتحدة وغيرها مثل : ميثاق دفاع بين : استراليا ، وزيلندة الجديدة ، والولايات المتحدة . ومنظمة معاهدة جنوب شرق آسيا التي ضمت : أندونيسيا ، وتايلاند ، والفلبين ، وماليزيا ، وبروني ، وسنغافورة .

4- سياسة التمييز العنصري في أفريقية الجنوبية ، وموقف بريطانيا الحرج في ذلك أمام دول الكومنولث .

5- الاعتداء الثلاثي على مصر – عملية السويس – عام 1956 م ، حيث اشتركت بريطانيا مع فرنسا ودولة اليهود في مهاجمة مصر . فسبب ذلك تصادمات عنيفة بين بريطانيا وأعضاء دول الكومنولث .

---

[327] تاريخ عصرنا ص 95 .

[328] نفسه ص 95 .

6- وأخيرا اتجاه بريطانيا للقارة الأوروبية ، وتشابك مصالحها ، وتناقضها مع كثير من مصالح الكومنولث . وضعفها الاقتصادي الذي جعلها بحاجة ماسة إلى أمريكا . ففقدت زعامتها وقيادتها ، وبالتالي ضعفت أهمية الكومنولث وفقد فعاليته .

سابعا : جامعة الدول العربية

وهي منظمة إقليمية أنشئت عام 1945 م من أجل مزيد من التعاون السياسي ، والاقتصادي ، والثقافي بين الدول العربية المستقلة . وأعضاؤها اثنان وعشرون دولة هي : المملكة العربية السعودية ، الكويت ، البحرين ، قطر ، عمان ، اليمن الشمالية ، اليمن الجنوبية ، الامارات العربية ، الأردن ، سوريا ، لبنان ، العراق ، مصر ، السودان ، الصومال ، جيبوتي ، ليبيا ، تونس ، الجزائر ، المغرب ، موريتانيا . بالإضافة إلى فلسطين . وكان مقرها القاهرة ، وانتقل إلى تونس عام 1979 م بعد اعتراف مصر بالكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة .

كان عقد المسلمين قد انحل ، وتبعثر بعد الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918 م) وإلغاء الخلافة العثمانية رمز الوحدة الإسلامية ، وقسمت بلاد الإسلام ، ومنها العربية إلى مستعمرات حكمها الإنجليز والفرنسيون والإيطاليون ، ولم يبق من يتمتع باستقلاله إلا : المملكة العربية السعودية ، واليمن الشمالية ، وأفغانستان . وأخذت الاتجاهات الوطنية والإقليمية تجد لها صدى بين شعوب العالم الإسلامي تحت شعارات : الاستقلال ، والحرية ، ومكافحة الاستعمار ، إلى جانب الاتجاهات الإسلامية التي لا يمكن إغفالها .

وبدأ تقارب البلاد العربية على الصعيد الدبلوماسي بمعاهدة الإخاء والتحالف بين المملكة العربية السعودية والعراق عام 1936 م ، وتنص المادة السابعة منها : " يتعاون الفريقان المتعاقدان الساميان على توحيد الثقافة الإسلامية والعربية ، والأساليب العسكرية في بلادهما ، بتبادل بعثات علمية وعسكرية ، للإطلاع على الأساليب المتبعة في المملكتين ، وتوحيد ما يمكن منها ، والاستفادة من المعاهد السلمية والعسكرية والتدريب بها . . " [329] وتركت المعاهدة الباب مفتوحا أمام الدول العربية ، فاشتركت فيها اليمن عام 1937 م . كما عقدت معاهدة صداقة بين المملكة السعودية ومصر في عام 1936 م في القاهرة . وأقامت هذه المعاهدة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين لأول مرة ، كما ألفت خطوة نحو تقارب البلاد العربية .

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية (1939 0 1945 م) برزت مشاريع تدعو لوحدة بعض الأقطار العربية قبل مشروع الجامعة العربية ومنها :

أ- مشروع سوريا الكبرى الذي نادى به الأمير عبد الله بن الحسين أمير شرق الأردن .

---

[329] الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب – إصدار جريدة الأيام الدمشقية .

ب- مشروع الهلال الخصيب : (وحدة بلاد الشام والعراق) الذي نادى به نوري السعيد رئيس وزارء العراق عام 1942 م .

وكانت بريطانيا قد واجهت أحلك الظروف في الحرب العالمية الثانية ، ووقفت وحدها أمام دول المحور بعد استسلام فرنسا لهتلر ، وقبل دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانبها . كما كانت ألمانيا تحاول استثارة العرب ضدها بإطلاق الوعود . فخشيت بريطانيا انفلات الأمر من يدها ، كما خشيت أن يتجه العرب إلى الاتجاهات الإسلامية ، وهم بحكم وضعهم ولغتهم من الممكن أن يسلم لهم العالم الإسلامي بالزعامة . هذا بالإضافة إلى أن بريطانيا كانت ترغب في إقامة منطقة نفوذ اقتصادية في الشرق الأوسط كله ، فرغبت بالتالي في تمهيد الطريق أمام تقارب العرب فيما يشبه الحلف أو التضامن يسهل عليها التعامل معهم ، من مركز واحد ، كما كانت ترغب في انتزاع لبنان وسوريا من فرنسا ليخلو لها الجو [330] . علاوة على أنها بتبنيها أماني العرب في الوحدة تحقق هدفا غاليا عند العرب طالما تمنوه وعملوا من أجله ، ويزيل ما علق بنفوسهم من حقد على بريطانيا لموقفها من فلسطين وتهويدها ، وتبنيها للصهيونية . من أجل ذلك كله كان تصريح (إيدن) رئيس وزراء بريطانيا عام 1941 م في مجلس العموم البريطاني ، وجاء فيه :

" لهذه البلاد – بريطانيا [331] – تقاليد طويلة من الصداقة مع العرب ، وهي صداقة قد أثبتتها الأعمال ، وليس الأقوال وحدها ، ولنا بين العرب عدد لا يحصى ممن يرجون لنا الخير ، كما أن لهم هنا أصدقاء كثيرون ، وقد قلت منذ أيام في مجلس العموم أن حكومة جلالته تعطف كثيرا على أماني سوريا في الاستقلال ، وأورد أن أكرر ذلك الآن ، ولكني سأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول : " إن العالم العربي قد خطا خطوات عظيمة منذ التسوية التي تمت عقب الحرب الماضية . ويرجو كثير من مفكري العرب للشعوب العربية درجة من الوحدة أكثر من الدرجة التي يتمتعون بها في الحاضر ، وهم إذ يحاولون بلوغ هذه الوحدة ، يعتمدون على مساعدتنا . وهذا النداء الصادر عن أصدقائنا ، يجب ألا يبقى دون جواب . ويبدو لي أن من الطبيعي والعادل معا أن تقوى الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلاد العربية ، وكذا الروابط السياسية .

---

(330) طربين – الوحدة العربية ص 200 .

(331) اتصفت السياسة الانجليزية بعمق التخطيط والبطء في التنفيذ ، والمرونة ، فهي سياسة ذكية تعرف كيف تستغل الأحداث لتحقق ما تريده ، وتحسن المراقبة ، والاستكشاف ، ثم تحسن الاستغلال والتوجيه ، فهي كما وصفها السياسي الفرنسي المشهور جول فري : " تعرف من أين تؤكل الكتف " . وسياستها هذه تركت أخاديد غائرة خطيرة في عالم الإسلام ، وقضاياه الصعبة الحل في : فلسطين ، وفطاني ، وأراكان ، وماليزيا ، والهند ، والخليج العربي ، والجنوب العربي ، وأريتريا ، والصومال ، والسودان ، ونيجيريا ، فما من قضية إسلامية إلا تجد بصمات السياسة الانجليزية عليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

وإن حكومة صاحب الجلالة من جانبها ستبذل مساعدتها التامة لكل خطوة يمليها اتفاق عام " [332] " .

وقد أعقب هذا التصريح جهود عربية لم تتعد نطاق الاستشارة أو المكاشفة والمداولة التي لم تتخذ أية صفة رسمية عملية [333] .

وجدد إيدن تصريحه عام 1943 م " بعطف بريطانيا على أماني العرب في الاتحاد ، على أن تكون المبادرة من العرب أنفسهم " . وكانت ظروف التصريح الجديد تختلف عن ظروف سابقه : فدول المحور ابتدأت بالتراجع ، والحلفاء يتقلبون من نصر إلى نصر ، والصهيونية تكيد لفلسطين وتكشر عن أنيابها ، والفرنسيون يتشبثون بسوريا ولبنان ، والجو العربي لا يخلو من سوء التفاهم [334] . فبادر النحاس باشا رئيس الوزراء المصري إلى الاتصال بزعماء العرب عام 1944 م ، وتمت عدة لقاءات ومشاورات أسفرت عن مشروع وحدوي واسع في بروتوكول الاسكندرية (مؤتمر الاسكندرية) الذي جمع في 7 تشرين الأول عام 1944 م الدول العربية : مصر ، والمملكة العربية السعودية ، وسورية ، ولبنان ، والأردن ، واليمن ، والعراق .

ولكن المشروع الشبه اتحادي الذي أقره بروتوكول الاسكندرية اصطدم بالتحفظات فأسفر عن ميثاق من نوع المنتدى الدبلوماسي براوبط مرنة ، ورخوة ، وهو ميثاق جامعة الدول العربية [335] . وقعت عليه الدول العربية في 22 آذار عام 1945 م . والواقع أن بعض التحفظات كان لا بد منها عند بعض الدول ، وكمثال على ذلك :

من بين أهداف الجامعة العربية : " السعي لتوحيد الثقافة العربية وتوحيد التشريع بين الدول العربية " . ولما كان أكثر البلاد العربية قد تمسك بالعلمانية ، فإن المملكة العربية السعودية بينت أن ظروفها ، ووجود البلاد المقدسة فيها ، يجعل لها وضعا خاصا ، فهي ستمتنع عن أي مبدأ في التعليم ، أو التشريع يخالف قواعد الدين الإسلامي وأصوله [336] . ولو أخصلت النيات لتبنت جميع الدول هذه النقطة واتجهوا إلى تحكيم الإسلام الذي هو القاسم المشترك بينهم .

---

[332] التاريخ الدبلوماسي ص 151 ، 152 ، الوحدة العربية ص 198 عن : The Times 30 May 1491 .

[333] الوحدة العربية ص 226 .

[334] نفسه ص 227 .

[335] تاريخ عصرنا ص 475 .

[336] نص الكتاب الذي قدمه الشيخ يوسف ياسين إلى دولة أحمد ماهر باشا رئيس اللجنة التحضيرية بتاريخ 3 / 1 / 1945 م في مرفق رقم 6 من محاضر اللجنة التوعية السياسية . ص 17 – 18 .

وقد عبر عبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة لمدة طويلة عن الميثاق بقوله : " يعبتر ميثاق الجامعة هو الحد الأدنى لما كان يمكن التوصل إليه آنذاك [337] " .

والبت في أمورها معقد ، شاق طويل الأمد ، إذ يتم عرض المشروع ، ثم يناقش ، ويتخذ القرار ، ثم يصدق عليه من الدول الأعضاء كل على حدة ، والقرارات غير ملزمة للأعضاء ولو كانت بالأغلبية . فالمادة السابعة : " ما يقرره المجلس بالإجماع يكون ملزما لجميع الدول المشتركة في الجامعة ، وما يقرره المجلس بالأكثرية يكون ملزما لمن يقبله [338] " .

وأما أهداف الجامعة كما بينها الميثاق فهي :

1- توثيق الصلات بين الدول العربية ، وتنسيق خططها ، تحقيقا للتعاون بينها ، وصيانة لاستقلالها وسيادتها .

2- توثيق التعاون بين البلاد العربية في الشئون الاقتصادية ، والمالية ، والثقافية ، والاجتماعية ، والصحية ، والعسكرية .

3- تحقيق التعاون مع الهيئات الدولية التي تعمل لنشر السلام في العالم ، خاصة هيئة الأمم المتحدة وفروعها .

وأجهزة الجامعة هي :

1- مجلس الجامعة : ويتألف من ممثلي الدول العربية المشتركة ، وينعقد مرتين في العالم بشكل عادي ، وينعقد بصفة استثنائية إذا دعت الحاجة إلى ذلك . ولكل دولة عضو صوت واحد ، وعدد من الممثلين .

2- الأمانة العامة : وتتألف من أمين عام ، وأمناء مساعدين ، وعدد كبير من الموظفين . ويعين الأمين العام من قبل مجلس الجامعة بأكثرية ثلثي الأعضاء . ومهمته : دعوة مجلس الجامعة حين الحاجة ، والاشراف على اعداد مشروع الميزانية ، وتحديد نصيب كل دولة من نفقات الجامعة بعد موافقة مجلس الجامعة على ذلك .

3- اللجان الخاصة : ومنها :

اللجنة السياسية ، واللجنة الاقتصادية والمالية ، واللجنة الاجتماعية ، واللجنة الثقافية ، واللجنة الصحية ، ولجنة التنسيق والجوازات .

---

[337] ألمانيا والعالم العربي – ترجمة د. مصطفى ماهر ص 362 .

[338] نفسه ص 368 .

هذا وقد قامت الجامعة بأنشطة رغم ضعف ميثاقها مثل :

1- لعبت دورا في معارك التخلص من الاستعمار في الغرب ، وتونس ، وليبيا ، والجزائر ، والجنوب العربي ، وذلك على مختلف الجبهات والمستويات سواء أكان ذلك بالعمل المنظم في الأمم المتحدة ، أو بالطرق الدبلوماسية بواسطة الأعضاء ، أو بالوسائل المادية ، أو عن طريق الدعاية .

2- حصلت على شرعيتها العالمية ، فمنها وفد في الأمم المتحدة ، وهو عضو في منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) حيث أدخلت اللغة العربية لغة عالمية . وهي عضو بمنظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة . وعضو بمنظمة الصحة العالمية . ومنظمات أخرى مماثلة .

3- كلفتها الأمم المتحدة بالوساطة وفض النزاع في بعض القضايا مثل : الصراع بين العراق والكويت .

4- لها تمثيل دبلوماسي لدى بعض الدول منها الهند ، واسبانيا [339] .

5- قامت بمشاريع توحيد نظم التعليم ، وبرامجه ، والتقريب بين القوانين ، واجراءات تنفيذها . والتخطيط المشترك في شئون المواصلات وشبكة الطرق . وبتوحيد الغرف التجارية والصناعية والزراعية . وبتنسيق سياسة البترول ، والمواصلات الجوية والبحرية ووسائل الإعلام . وبتوجيهات بشأن السوق العربية المشتركة ، وانجازاتها في هذه المجالات ضعيفة .

وأبرز مساهمتها في الأمم المتحدة ، وفي الكتلة الآسيوية الأفريقية ، وفي مجموعة ال 77 . كما قامت بتنظيم عقد مؤتمرات القمة العربية حيث عقد حتى عام 1988 م خمسة عشر مؤتمرا . الأول في القاهرة عام 1964 م ، والرابع عشر بعمان عام 1987 م ، والأخير في الجزائر (وكان طارئا) عام 1988 م ، 1408 هـ . ولا تزال تؤدي دورها رغم أنها تعاني من الإفلاس .

ثامنا : دول عدم الانحياز The Non Alignment Group

وعدم الانحياز Neutralism Positive يقصد به عدم الانحياز إلى إحدى الكتلتين اللتين تتزعمهما روسيا والولايات المتحدة ، والوقوف إلى جانب الحق والعدل . وأطلق عليه اسم : (الحياد الإيجابي) ، بمعنى أنه : موقف سياسي تتخذه الدول ابتعادا عن المشاركة في صراع المعسكرين ، ورفضا للاستسلام لأي منهما في الميادين السياسية ، والاقتصادية ، والعسكرية .

---

[339] انظر ألمانيا والعالم العربي ص 394 – 395 .

وقد بدأت فكرة عدم الانحياز في كولومبو (عاصمة سيلان) عندما عقد مؤتمر عام 1954 م ضم : الهند ، وباكستان ، وأندونيسيا ، وبرمانيا ، وسيلان . حيث بحث المؤتمر تقرير موقف مشترك أمام الدول الكبرى الاستعمارية ، ودراسة قضية الهند الصينية ، ومحاولة إنشاء جبهة آسيوية محايدة .

وأعقب مؤتمر كولومبو توقيع المعاهدة التي أقامت منظمة حلف جنوب شرق آسيا عام 1954 م ، التي ضمت الدول : تايلاند ، وماليزيا ، وسنغافورة ، وأندونيسيا ، وسلطنة برونـي ، والفلبين . وبعد توقيع هذه المعاهدة اجتمع أعضاء مؤتمر كولومبو الخمس في (بوغور) بالقرب من جاكارتا بأندونيسيا في العام نفسه وقرروا دعوة الدول الأفريقية والآسيوية للاجتماع معهم في باندونغ عام 1955 م . ووجهوا الدعوة إلى 24 بلدا ، بالإضافة إلى دول مؤتمر كولمبو الخمس . وهذه البلاد هي :

أ- البلاد العربية المستقلة : مصر ، وليبيا ، والعراق ، والأردن ، ولبنان ، وسوريا ، والمملكة العربية السعودية ، واليمن ، والسودان .

ب- البلاد الإسلامية المستقلة الأخرى في آسيا وهي :

تركيا ، وإيران ، وأفغانستان .

ج- من البلاد الأفريقية المستقلة :

الحبشة ، وساحل الذهب (غانا) ، وليبيريا ، واتحاد أفريقيا الوسطى (وهي البلد الوحيد الذي لم يحضر المؤتمر من الدول المدعوة إليه) .

د- من البلاد الآسيوية المستقلة :

كامبوتشيا (كمبوديا) ، ولاوس ، والفيتنام ، وتايلاند ، والفلبين ، ونيبال ، والصين الشعبية ، واليابان .

وانعقد مؤتمر باندونغ بالفعل عام 1955 م ، وسط مظاهر الدعاية والشعارات ، حيث ضم ممثلين عن 65 % من سكان الأرض . وبرز فيه أسماء كبار قادة ماسمي بالحياد الإيجابي : نهرو رئيس الهند ، وأحمد سوكارنو الرئيس الأندونيسي ، وبروز تيتو الرئيس اليوغسلافي ، وشوان لاي الزعيم الصيني ، وجمال عبد الناصر الرئيس المصري .

وكان جدول أعمال المؤتمر غامضا للغاية ، كما كانت القضية معرفة ما ستكون عليه المناقشات . وبعد جو من الخطابة صوت على ميثاق من عشر نقاط ذات طابع

عـام جـدا ، ومـرن للغايـة [340] ولا نجـد فيهـا إشـارة صـريحة إلـى سياسـة الحيـاد الإيجـابي (عدم الانحياز) هي :

1- احترام حقوق الإنسان .

2- احترام أهداف ومباديء شرعة الأمم المتحدة .

3- احترام سيادة الدول وسلامتها القومية .

4- مساواة الشعوب والأمم .

5- عدم التدخل في شئون الدول الداخلية .

6- تسوية الخلافات بالطرق السلمية .

7- إعلاء شأن المصالح المشتركة والتعاون .

8- شجب الاستعمار بجميع مظاهره .

9- شجب التمييز العنصري .

10- دعم حقوق الشعب العربي في فلسطين .

وعنـدما طالبـت سـيلان وتركيـا والعـراق شـجب الاسـتعمار الروسـي فـي أوروبـا الشـرقية ، قـام نهـرو بهجـوم ، وطالـب باشـتراك الـبلاد الأفـرو – آسـيوية بقـوة دوليـة ثالثـة لتشـجيع التعـايش بـين الشـرق والغـرب . واكتفـى أخيـرا بـالاقتراح الغـامض : شـجب الاسـتعمار بجميـع مظـاهره ، وأمـا الحيـاد فلـم يؤخـذ بـه لأن أحـد المبـاديء صـيغ علـى الشكل التالي :

" احتـرام حقـوق كـل أمـة بالـدفاع عـن نفسـها فرديـا وجماعيـا ، طبقـا لشـرعة الأمـم المتحـدة [341] " وفـي هـذا إقـرار بحـق الـدول فـي الـدخول فـي أحـلاف عسـكرية ثنائيـة أو جماعية .

ومـن خـلال هـذه الـدول تأسسـت عـام 1958 م منظمـة التضـامن الآسـيوي الأفريقـي ، واتخذت القاهرة مقرا لها .

وعقـدت دول عـدم الانحيـاز عـددا مـن المـؤتمرات بعـد مـؤتمر بانـدونغ كـان عاشـرها بزيمبـابوي عـام 1986 م . وضـمت دولا أخـرى فبلـغ عـدد المنتمـين إليهـا 106 دول ،

---

[340] التاريخ الدبلوماسي ص 409 .

[341] نفسه ص 410 .

ولكن الدول الغير منحازة فعلا لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، ولهذا ظلت أهداف هذه المنظمة ومبادؤها وشعاراتها نوعا من أضغاث الأحلام ، أو السراب .

بحيث أصبح لسان حال أقطابها اليوم :

" نحن نجتمع ، إذن نحن موجودون " [342] . ولم تؤثر على الأحلاف التي أقامتها الولايات المتحدة وروسيا بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، في آسيا أو في أفريقيا [343] .

تاسعا : منظمة الوحدة الأفريقية :

أخذت الدول الأفريقية التي استقلت تنتبه إلى أهمية المسائل الاقتصادية ، وإلى ضرورة معالجتها ، فظهرت محاولات في هذا الميدان .

وبدأ التفكير بتكوين منظمة في مؤتمر باندونغ عام 1955 م ، ثم في اجتماعات القاهرة عام 1957 م ، وكونكري عام 1960 م . فتكونت **مجموعة دول كازبلانكا** (الدار البيضاء) عام 1961 م من دول : المغرب ، وجبهة التحرير الجزائرية ، وغانا ، ومالي . **ومجموعة دول برازفيل** من اثني عشرة دولة ناطقة بالفرنسية في أفريقية ، حيث وقعت اتفاقا في (تناناريف) (عاصمة مالاجاش) عام 1961 م ، ودعي بميثاق : (**اتحاد أفريقية – مالاجاش**) . وكذلك تم **اجتماع مونروفيا** حضرته دول أفريقية السوداء ، وأعقبه مؤتمر لاجوس (عاصمة نيجيريا) عام 1962 م بهدف إقامة تعاون بين الشعوب الأفريقية السوداء [344] .

كل هذه الاتفاقيات والمؤتمرات كانت خطوات نحو انعقاد مؤتمر كبير في **أديس أبابا** (عاصمة أثيوبيا) عام 1963 م بحضور ثلاثين وزير خارجية أفريقي من الدول المستقلة . حيث أنهى هذا المؤتمر ميثاق كازبلانكا ، وميثاق مونروفيا ، واقترح إنشاء منظمة الوحدة الأفريقية .

وفي العام نفسه عقدت بأديس أبابا أول قمة أفريقية ، وتم إعلان إنشاء منظمة الوحدة الأفريقية ، متعهدة بالتمسك بأهداف ومباديء الأمم المتحدة ، والاتجاهات الدولية السلمية . واتخذت أديس أبابا مركزا لها .

وتبع ذلك عدة مؤتمرات منها : المؤتمر الثاني في القاهرة عام 1964 م ، والثالث في أكرا عام 1965 م . وهكذا أخذت أديس أبابا تلعب دورا في السياسة الأفريقية لصالح أثيوبيا التي ظهرت من خلال هذه المنظمة بطلة الوحدة الأفريقية ،

---

[342] الموسوعة ص 59 .

[343] التاريخ الدبلوماسي ص 410 .

[344] العمري – الأفريقيون والعرب ص 210 .

مما أثر كثيرا على قضايا المسلمين في قارة أفريقيا ، وخاصة في أريتريا وأوجادين ، والحبشة .

هذا وقد اهتمت قمة أديس أباب عام 1980 م بالمشكلات الاقتصادية الأفريقية ، دون أن تتوصل إلى نتائج عملية .

وتتلخص أغراض هذه المنظمة في :

– العمل على تعاون الشعوب الأفريقية في شتى الميادين السياسية ، والاقتصادية ، والفنية ، والاجتماعية .

– والسعي إلى تحرير بقية الأجزاء من الاستعمار ، ومجابهة الاستعمار الجديد .

– وتسوية مشكلات القارة الأفريقية كمنازعات الحدود .

– ومكافحة التمييز العنصري في القارة الأفريقية .

وهي أغراض كما تلاحظ عامة وغير محددة . كقرارات مؤتمراتها .

وأما أجهزة المنظمة فهي :

1– الجمعية العمومية : وهي مجلس رؤساء الدول الذي يعقد اجتماعا سنويا .

2– مجلس وزراء الخارجية : ويجتمع مرتين في العام .

3– الأمانة العامة : ومقرها أديس أبابا .

4– لجان متنوعة منها : لجنة الوساطة والتحكيم ، واللجان المتخصصة العليا الاقتصادية [345] .

عاشرا : منظمة أوبك – الدول المصدرة للنفط O.P.E.C.

وهي تنظيم رسمي لمجموعة من الدول المنتجة والمصدرة للبترول ، بهدف تنسيق ، وتوحيد ، وتطوير السياسات النفطية لهذه الدول بالصورة التي تكفل المحافظة على مصالحها بالتفاوض مع شركات البترول العالمية .

فقد رأت الدول المنتجة للنفط والمصدرة له أن الشركات الغربية التي تستخرج النفط من أراضيها تستغلها ، وتتحكم بأسعاره كما تشاء .

---

[345] الموسوعة ص 68 – 69 .

فقامت بإنشاء هذه المنظمة للحد من استغلال الشركات ، وتحديد أسعار النفط لخدمة هذه الدول الاقتصادية والتنموية .

وقد تأسست هذه المنظمة في بغداد عام 1960 م من الدول الخمس التالية : الكويت ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، وإيران ، وفنزويلا . وتركت المجال مفتوحا لانضمام أي دولة منتجة ومصدرة للبترول بشرط أن يوافق على انضمامها ثلاثة أرباع الدول كاملة العضوية من بينها الخمسة المؤسسة للمنظمة . فتوالى انضمام الدول الأعضاء ، فأصبح عددها ثلاثة عشرة دولة . وهي بالإضافة إلى الخمسة :

الجزائر ، والاكوادور ، والغابون ، وأندونيسيا ، وليبيا ، ونيجيريا ، وقطر ، والإمارات العربية .

وأنشأت المنظمة الصندوق الخاص بها . وكان مقرها في جنيف ، ثم نقل إلى فينا [346] .

ويمكن تلخيص أهدافها كما أعلنتها في :

1- تنسيق وتوحيد وتطوير السياسات البترولية للدول الأعضاء ، وتحديد السبل لحماية مصالحهم منفردين أو مجتمعين .

2- المشاركة الفعالة في وضع السياسات التسعيرية التي تضمن تحقيق استقرار الأسعار في الأسواق العالمية وتجنب التقلبات الضارة في إيرادات البترول .

3- المشاركة الفعالة في وضع السياسات الانتاجية التي تضمن مصالح الدول المنتجة والمستهلكة .

4- تحقيق عائد عادل على الاستثمار في الموارد الناضبة .

كما عملت على امتلاك الدولة المنتجة للبترول لأسهم شركات البترول عن طريق مبدأ المشاركة الذي طرحته المملكة العربية السعودية بديلا لمبدأ التأميم . وهذا المبدأ يقوم على مساهمة الدولة المنتجة للبترول بجزء من الشركة البترولي ، وتمتد المشاركة لتشمل جميع مراحل الانتاج البترولي .

فأصبحت المملكة العربية السعودية تملك جميع الأسهم عام 1980 م عن طريق هذا المبدأ [347] .

---

[346] الموسوعة ص 63 .

[347] سيد فتحي أحمد الخولي – اقتصاديات البترول – .

هذا وقد نجحت منظمة أوبك ، وأفادت الدول المشتركة ، وكانت بمثابة القذى في أعين الأوروبيين والروس والأمريكان ، فاستهدفت منذ تأسيسها ، واشتد الكيد لها . وكانت أعمالها ، وقراراتها ، ومشاريعها عرضة للمؤامرات والمناورات والدسائس . واستخدم الغرب والشرق مع أعضائها شتى صنوف المغريات ، وأقسى أنواع التهديدات ، بقصد فصم عرى وحدتها [348] . وبذلت المملكة العربية السعودية وبعض الدول المشتركة الأخرى جهودا جبارة للإبقاء عليها ، رغم الظروف المرة التي مرت بها هذه المنظمة ، والتي اشتدت منذ عام 1975 م إلى اليوم ، ورغم عمق تناقضات أعضائها .

وقد أنشأت بعض الأقطار العربية : **(أوابك)** منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول . بهدف تنسيق السياسة البترولية العربية . ووقع على اتفاقيتها كل من : المملكة العربية السعودية ، والكويت ، وليبيا . عام 1968 م واتخذت الكويت مقرا لها . ثم ضمت بعد ذلك : الإمارة العربية ، والبحرين ، والجزائر ، والمغرب ، وقطر ، ومصر ، وسوريا [349] .

ومن هذا العرض السريع للتكتلات الدولية يتضح تبعثر جهد المسلمين ، وخفوت صوت الإسلام ومنهاجه فيها ، ولما كان الإسلام يفرض وجوده ، ويجمع أفراده ، فقد تحركت الغيرة في بعض بلدانه ودوله وقادته فقامت جهود مشكورة في سبيل تجميع المسلمين وطاقاتهم . فظهر للوجود : منظمة المؤتمر الإسلامي ، ومجلس التعاون لدول الخليج العربية [350] .

---

[348] الموسوعة ص 59 وانظر هذا الكتاب ص 24 – 25 [كما في النسخة المطبوعة].

[349] الموسوعة ص 63 .

[350] انظر ص 273 من الكتاب [كما في النسخة المطبوعة].

الباب الثالث

واقع العالم الإسلامي

الفصل الأول : من الناحية الفكرية .

الفصل الثاني : من الناحية الاجتماعية .

الفصل الثالث : من الناحية السياسية .

الفصل الرابع : من الناحية الاقتصادية .

الفصل الأول
واقع العالم الإسلامي من الناحية الفكرية

الفكر ركيزة هامة في حياة الأمم ودليل على حيويتها وتقدمها أو على جمودها وتخلفها في جميع المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية [351] والأمة القوية هي التي يجتمع أبناؤها على عقيدة واحدة ومباديء واحدة فتكون لها وجهة نظر واحدة أي تتمتع بوحدة الفكر .

وتعتبر وحدة الفكر من أبرز ظواهر التاريخ الإسلامي ، فقد انتظم مختلف وحداته ودوراته وموجاته فكر واحد وثقافة واحدة ، بقيت الربط المشترك الأعظم بينها مهما اختلفت أقطارها ودولها وأنظمتها . هذا الفكر هو روح الجماعة الإسلامية والمحرك الأساسي والقالب الذي تشكلت فيه مختلف القيم والمفاهيم والتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ولعل أبرز ما يتمثل في الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية هو :

الأصالة : فقد قام الفكر الإسلامي على التوحيد والنبوة والمساواة والعدل . وهي أسس جديدة خاصة بالحضارة الإسلامية لا صلة لها بالحضارات المادية السابقة للإسلام – السريانية والفارسية والرومانية واليونانية والهندية .

ولقد أدرك الأوروبيون وفي وقت مبكر ما للفكر من أهمية في صراعهم الحضاري مع المسلمين ولمسوه يقينا بما ترتب على نتائج الحروب الصليبية – لمسوا يومها أن انتصارهم العسكري لم يجدهم شيئا أو يبق لهم وجودا في الأمة الإسلامية بعد أن دحرهم صلاح الدين ومن بعده ، ولذلك اتجهوا إلى أفكار الإسلام فانكبوا على الفكر الإسلامي فترجموه وقاموا بدراسته وتلخيصه ، فكانت أولى أعمالهم ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية وبعدها فتح باب الدراسات الإسلامية والعربية عندهم على مصراعيه [352] ، فكانت حركة الاستشراق التي مهدت لهم طريق الاستعمار فيما بعد . هكذا عمل الأوروبيون على اكتشاف الفكر الإسلامي وترجمته من أجل إثراء ثقافتهم فقادهم ذلك إلى حركة النهضة الأوروبية وساروا فيها أشواطا . ثم عملت أوربا على كشف الفكر الإسلامي مرة أخرة لهدف سياسي لتضع خططها الرامية للسيطرة على بلاد الإسلام مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه هذه السياسة في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب الخاصة فيها لسلطانها [353] . ومن هنا بدأ يظهر الأثر السلبي للانتاج الاستشراقي الفكري الذي

---

[351] السحمراني – مالك بن نبي – مفكرا اصلاحيا ص 132 .

[352] السحمراني – نفسه ص 132 .

[353] انتاج المستشرقين أحمد . م.س. ص 12 وأحمد يوغسلافي الجنسية مسلم . نال درجة الدكتوراة من الأزهر عام 1974 م برسالته التي عنوانها : فلسفة الاستشراق وأثرها على الأدب المعاصر .

كتب عن المسلمين وأحيانا بالعربية ليمارس دور التخدير أو الاهاء ليبقى العالم الإسلامي خلوا من أي توجيه أصيل ، وليبقى الباب مفتوحا لتلقي ما يصدرونه من أفكار تحكم سيطرة المستعمرين السياسية الاستعمارية تحت شعار التقدمية التي هي في الواقع ستار يخفي مطامع الغرب ووحشيته .

هذا الأسلوب هو ما نسميه : **بالغزو الفكري** : وهو الوسائل غير العسكرية التي اتخذها الغزو الصليبي لإزالة مظاهر الحياة الإسلامية وصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام ، مما يتعلق بالعقيدة وما ينبثق منها من أفكار وتقاليد وأنماط حياة .

وهو من شعب الجهد البشري المبذول ضد عدو ما لكسب معارك الحياة منه ولتذليل قياده وتحويل مساره وضمان استمرار هذا التحويل حتى يصبح ذاتيا إذا أمكن ، وهذا هو أقصى مراحل الغزو الفكري بالنسبة للقلوب وإن كان في الوقت نفسه هو أقصى درجات نجاح الغزاة .

وسلاح هذا الغزو : الفكرة ، والرأي والحيلة والنظريات والشبهات وخلابة المنطق وبراعة العرض وشدة لدادة الخصومة ، وتحريف الكلم عن مواضعه وغير ذلك .

ويتميز الغزو الفكري بالشمول والامتداد فهو حرب دائبة لا يحصرها ميدان ، بل تمتد إلى شعب الحياة الإنسانية جميعا ، وتسبق حروب السلاح وتواكبها ، حتى تستمر بعدها لتكسب ما عجز السلاح عن تحقيقه ، فتشل إرادة المهزوم وعزيمته ، حتى يلين ويستكين ، وتنقض تماسكه النفسي حتى يذوب كيانه ، فيقبل التلاشي والفناء في بوتقة أعدائه ، أو يصبح امتدادا ذليلا لهم [354] . وقد دمغ الله سبحانه وتعالى قادة هذا اللون من الحرب بأسماء وصفات غاية في النكارة ، مثل : الشياطين ، السفهاء ، المعوقين ، المرجفين ، أكابر المجرمين ، وأئمة الكفر ، والذين في قلوبهم مرض .

كذلك سمى هذا اللون ذاته بصفات أساليبه الخسيسة ونتائجه الخبيثة مثل : زخرف القول ، الغرور ، الخبال ، الفتن . . إلخ [355] .

وقد بين القرآن الكريم أن نتائج وغايات هذا اللون من الحرب هي أخبث وأنكد من آثار السيف والقتل – قال تعالى : (وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ) [356] .

وفي مرحلة السيطرة الاستعمارية على بلاد الإسلام اهتم الغرب كثيرا بإحداث الفراغ الفكري ، واقتلاع الشعوب الإسلامية من جذورها الحضارية ، بإظهار تهافت كل ما تملكه من مقومات أمام عصر الذرة وغزو الفضاء ، ولم يفصل الغرب في عدائه للإسلام والمسلمين أبدا بين العروبة والإسلام ، وإن حاولت جامعاته وإرسالياته أن تلقن

---

[354] د. عبد الستار – فتح الله – الغزو الفكري ص 7 .

[355] فتح الله ص 11 .

[356] سورة البقرة الآية 217 ، فتح الله ص 12 .

المسلمين غير ذلك ، (فموروبيرجر) أستاذ الشرق الأدنى بجامعة برنستون الأمريكية ومؤلف كتاب العالم العربي اليوم يقول في معرض حديثه عن معارضة الغرب للوحدة العربية :

" لقد ثبت تاريخيا أن قوة العرب تعني قوة الإسلام ، ونفس الشيء يمكن أن يتكرر اليوم حيث يحرز الإسلام انتصارات واسعة في أفريقيا " [357] .

وعمل المستعمر على نقل المعركة بين أبناء البلد المغلوب على أمره ، بأن استخدم من تربى في معاهده ، ومن قلده ، فأثارهم ضد دعاة الفكر الإسلامي في بلادهم ، فتحول الأمر إلى صراع داخلي ، أثار الفوضى ، وسرب في غمرته الأفكار الهدامة ، وزرع اليأس في نفوس دعاة الفكر الأصيل من إمكانية التغيير . بذلك حاول الغرب والمتغربون تعطيل النشاط الفكري ، فبقي النشاط السياسي بالتالي أعمى ، والأفكار دون جدوى [358] .

وحتى يتم تعطيل دور المفكر فقد عمل الإستعمار على :

أ- تنفير الرأي العام من أفكاره بجميع الوسائل المتاحة للإستعمار .

ب- تنفيره هو نفسه من القضية التي يكافح من أجلها بإشعاره بعبث كفاحه [359] .

فيخلق المستعمر بهذه الطريقة نمطين من المواجهة لأي مفكر يريد أن يدخل حلبة الصراع لمواجهته ، حين يستغل إمكاناته الضخمة الإعلامية والثقافية وعملاءه في السر والعلن لكي يحارب شخصا وعى مشكلات بلاده ، وأراد أن يوجهها بأسلوب سليم ، بدايته وضع الأسس الفكرية ، واستقطاب الناس حولها ، وكثيرا ما تحاول حكومات بلاده التعتيم على ما ينشره أو يقوم به ، وتزداد معاناته حين يواكبه قومه باللامبالاة ، ويواجه بالأفكار المصدرة الملونة بالأحمر أو الأزرق ، ولكنها في مضمونها تحمل القناعات الاستعمارية القديمة برداء الحرية والإخاء والمساواة ، أو الماركسية والاشتراكية [360] ، وبهذا عمل الاستعمار على تحطيم المعنويات الإسلامية وبقية الروح الإسلامية التي يستند إليها وجود الأمة التاريخي بملامحها الخالدة المميزة له .

وقد شهد العالم الإسلامي تغيرات فكرية في عهد الجمود ، وقبل انهيار الخلافة العثمانية ، فنشطت دعوة المفكرين للعودة إلى الإسلام ، والتكتل الإسلامي ، أي فكرة الجامعة الإسلامية ، وإصلاح أوضاع المسلمين وعقيدتهم كدعوة الشيخ محمد بن عبد

---

[357] محمد جلال كشك – الغزو الفكري ص 7 .

[358] سمابلوفتش – أحمد م. س الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ص 42 ، 43 .

[359] السحمراني – مالك بن نبي ص 137 .

[360] نفسه ص 139 .

الوهـاب فـي نجـد [361] ، والـدعوة السنوسـية فـي ليبيـا [362] ، والمهديـة فـي السـودان . والدهلويـة فـي الهنـد [363] ، إلا أن هـذه الـدعوات الـثلاث ومـا شـابهها كانـت محـدودة النجـاح حيـث لـم تتجـاوز نطـاق بيئتهـا الإقليميـة . أمـا دعـوة الشـيخ محمـد بـن عبـد الوهـاب فكان لها أثر في بقاع كثيرة من العالم الإسلامي .

وبعـض هـذه الـدعوات انحصـر عنـد حملـة الأقـلام والمفكـرين ولـم تمـس عامـة النـاس إلا مسـا خفيفـا ، فبقـي عامـة النـاس علـى أوضـاعهم العقديـة ، كمـا نشـط دعـاة التغريـب وكـان حملـة الفكـر فـي جميـع الأطـراف مضـطرين أن يبـرروا اتجاهـاتهم وأفكـارهم بـالتوفيق مـع الإسـلام العميـق الجـذور لـدى الأمـة ، وإن كـان التخلـف الفكـري عنـدهم قـد هـد كيـانهم وكيـان الأمـة ، وكـان مـن الممكـن أن تنتهـي الأمـة فـي نهضـتها علـى أسـس الإسـلام ، ولكـن الضـربات الموجعـة مـن قبـل التحـديات الخارجيـة ، وشـدة الانحـراف عـن الـنهج

---

[361] حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

ولد الشيخ محمد عام 1115 هـ / 1703 م في بلدة العيينة ، إحدى قرى نجد ، في شمال الرياض . في أسرة علمية . حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره ، وتتلمذ على أبيه في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل . وكان مشغوفا بالعلم والدراسة ، واعتنى بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله .

رحل في طلب العلم ، فذهب إلى مكة حاجا ، ثم انتقل إلى المدينة ، وطوف في البلدان الإسلامية المجاورة لنجد ، وأخذ عن شيوخها وعلمائها ، فزار الإحساء ، وأقام في البصرة نحو أربع سنوات ، وفي بغداد خمس سنوات وعاد إبل حريملة حيث كان يقيم والده بعد تركه العيينة ، وبدأ دعوته وهو الخامسة والثلاثين من عمره ، وقد ارتكزت هذه الدعوة على مبدئين رئيسيين :

1- التوحيد : أي الدعوة إلى الله وحده ، والتعبد له دون شريك ، واعتمد في ذلك على القرآن الكريم والسنة النبوية وآثار السلف ، ونادى بالجهاد في سبيل نشر عقيدة التوحيد الخالصة لوجه الله دون اشتراك أحد معه في العبادة .

2- الاجتهاد : بشرط عدم مخالفة نصوص القرآن والسنة ، وآثار السلف الصالح . وأنكر تقليد أحد غير الأئمة الأربعة – أهل السنة والجماعة .

وركز الشيخ على محاربة البدع ، وتقديس الأولياء والحج إلى قبورهم ، والتمسح بأضرحتهم ، وتقديم النذور ، والاستشفاع بهم لجلب منفعة أو لدفع ضر . وكانت هذه الأضرحة والقبور في كل مكان وفي كل مدينة من العالم الإسلامي في عصر انحداره ، بحيث انحرف أكثر المسلمين عن التوحيد الصحيح . وقد ركز الشيخ على مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله . وأطلق على نفسه وأتباعه اسم : (الموحدين) . أما (الوهابية) فهو اسم أطلقه عليهم خصومه . واستعمله الأوروبيون . ثم جرى على الألسن .

وقد تحولت دعوته إلى حركة جهاد ، حين التقى بالأمير محمد بن سعود في الدرعية وبايعه على الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله والتمسك بسنة رسول الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الشعائر الدينية . وقامت المملكة العربية السعودية الأولى . وتوفي عام 1206 هـ / 1791 م . (انظر ابن غنام – روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام ، الشيخ أحمد بن حجر – الشيخ محمد بن عبد الوهاب . د. صالح العبود : عقيدة محمد بن عبد الوهاب)

[362] انظر فصل أفريقيا والمسلمون في هذا البحث .

[363] اتظر فصل المسلمون في الهند وكشمير في هذا البحث .

الإسلامي لدى عامة الناس كانت من الشدة بحيث حالت بين تلك العناصر المفكرة على أسس الإسلام وبين العامة . فذهبت جهود المفكرين بفائدة محدودة .

وبعد انهيار الخلافة العثمانية عام 1343 هـ / 1924 م ، واجه الغرب الصليبي والشيوعية ، والصهيونية الأمة الإسلامية بالتحدي الكبير فنشط الاستشراق [364] ، والتبشير [365] ، والمنحرفون من الأمة نفسها ، وأصبحوا في حل من القيود ، يعبثون كما شاء لهم العبث ، وأخذت أفكارهم بما أوتيت من دعاية منظمة ، تجد هوى وتأييدا لدى العامة لتصبح رأيا عاما باسم التقدمية ، والنهضة ، والإصلاح ، ومقاومة الاستعمار ، وقامت مدرسة فكرية جديدة بين المسلمين ترمي إلى تقريب الشقة بين تعاليم الإسلام ، وبين ما جاءت به حضارة الغرب ، من أفكار ونظريات في ميادين الحياة ، فبرزت **الأفكار التوفيقية** وكان عماد هذا العمل هو تفسير النصوص تفسيرا عصريا يلائم الفكر السائد ، ومحاولة إيجاد نقطة التقاء بين الخطين الإسلامي والمادي على تباينهما ، وعلى الأقل على تباعدهما – وقد ألجأ الهجوم الفكري في هذه المدارس إلى مواقف دفاعية غريبة عن الإسلام ، إذ جردته من كثير من أحكامه الصريحة ، وجاءت لها بمعان جديدة بعيدة كل البعد عما تلقاه المسلمون عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وذلك مثل : تعدد الزوجات ، والطلاق ، والربا ، والتماثيل ، والجهاد ، وأهل الذمة . . .

وهذه الأمور كلها بلغ فيها الإسلام الغاية العليا في الأحكام والسمو ، ولكنها عادت في رؤية المدارس المغلوبة أمام الضغط الفكري الغازي – عادت مثالب أو نقاط ضعف في الإسلام تحتاج إلى دفاع – أو هي في أوهامهم – كانت فضائل صالحة لزمانها ، واحتاج التطور البشري إلى تعديلها [366] . ولووا عنق النصوص ليؤيدوا فروضهم التي وضعوها . ووجد المفكرون المسلمون الخلص أنفسهم في مؤخرة الركب ، لا في الصدارة الجديرة بهم ، فالإلحاديون والماديون وتلاميذ المستعمرين والتوفيقيون يسددون عليهم الطرق ، ويثيرون حولهم الضجيج ، ورغم ذلك ظلوا على ولائهم للفكر الأصيل وإيمانهم به فعالجوا قضايا الفكر الإسلامي ومدى ارتباطه بواقع البشر معالجة بارعة مقنعة .

---

[364] معظم المستشرقين من المبشرين .

[365] التبشير باعثه الحقيقي والأول في رأي القائمين به هو القضاء على الأديان غير النصرانية توصلا إلى استعباد أبنائها ويبدو بوضوح أن أشد الأديان مراسا في إباء الاستعباد هو الإسلام ولذلك يتمنى المبشرون أن ينصروا المسلمين كلهم . ومع أن التبشير يتناول البوذيين والبرهميين أيضا فإن المقصود الأول بالجهود التبشيرية هم المسلمون ، ولقد استوى في هذه الرغبة جميع المبشرين على الرغم من اختلاف طوائفهم وتباين الأقنعة التي يرفعونها على وجوههم .
(التبشير والاستعمار ص 45)

[366] انظر فتح الله ص 93 – 94 .

وأطلت رؤوس الأفكار المنحرفة بدون حاجز وبحرية كاملة ، بما يملكونه من وسائل نشر ودعاية وإعلان ووظائف عليا وحراسة ، فدخل الفكر القومي والوطني والعلماني والمادي والاشتراكي والعالمي الوجودي إلى صفوف المسلمين باسم العلم وحرية البحث ، والنهضة ، والإصلاح ، والثورة على كل قديم على حساب الرابطة الإسلامية . فمبدأ القومية يستهدف العنصرية ، وهي تستهدف إيجاد الصدع بين العرب والفرس والترك والهنود وهم جميعا مسلمون ، كما تهدف إلى إعلاء شأن التاريخ الإقليمي [367] ، وفكرة العالمية تستهدف القضاء على الذاتية الإسلامية المتميزة ، وهي كثيرة ، كانت تلبس ثوب الرحمة والإنسانية وحب السلام والوئام منها : الماسونية والشيوعية والروحية والدعوة إلى التوفيق بين الأديان ، وبين الإسلام والنصرانية منها خاصة [368] والدعوة إلى القومية والعالمية – سارت في خط واحد من أجل معارضة مفهوم الإسلام الذي دعا إلى وحدة فكرية واجتماعية بين أهله تعلو على العنصر والقومية والدم .

وأدرك الغرب أن العالم العربي بخصائصه وحسن موقعه الجغرافي وأهميته السياسية يحسن الاضطلاع برسالة الإسلام ، ويستطيع أن يتقلد زعامة العالم الإسلامي ، ويزاحم أوربا وينتصر عليها ، إذا هو تمسك برسالة الإسلام ، ولقد مر معنا ، أن الغرب في عدائه للإسلام والمسلمين لم يفصل أبدا بين العروبة والإسلام ، كما مر معنا رأي موروبيرجر ، والبيانات الفرنسية في حرب الجزائر كانت تعلن مصرع كذا من المسلمين في معارك الجزائر [369] ، فبعد أن حاول الفصل بين العرب والعالم الإسلامي ، واجه العرب بالتحدي فأثار في مختلف أجزائه أفكارا إقليمية ضيقة تبدد أفكاره ، فبرزت فيه دعوات فكرية هدامة نذكر منها :

1- الدعوة إلى الإرتماء في أحضان الغرب ، وأخذ حضارته دون وعي ولا تمييز ، وقد ترجم هذا الإتجاه كثير من الذين تقدموا إلى الصفوف الأولى في قيادة الأمة ، بعد زوال الخلافة العثمانية ، مثل : طه حسين ، وسلامة موسى ، وقاسم أمين ، وأحمد لطفي السيد ، وصهره إسماعيل مظهر في مصر .

فسلامة موسى في كتابه (اليوم والغد) 1345 هـ (1926 م) يرى أن مصر جزء من أوربا ، وليست جزءا من آسيا (أي من الإسلام) [370] ويرى : " أننا إذا أخلصنا النية مع الانجليز فقد نتفق معهم إذا ضمنا لهم مصالحهم . وهم في الوقت

---

[367] أنور الجندي – تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات ص 300 .

[368] الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 315 .

[369] كشك – ص 7 ، ص 12 .

[370] الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 222 .

نفسه إذا أخلصوا النية لنا فإننا نقضي على الرجعية في مصر وننتهي منها ، فلنول وجهنا شطر أوربا " [371] .

وطه حسين في كتابه مستقبل الثقافة في مصر (ظهر سنة 1357هـ / 1938 م) فيقول : " إن سبيل النهضة واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء وهي : أن نسيرة سيرة الأوروبيين ، ونسلك طريقهم ، لنكون لهم أندادا ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد وما يعاب " [372] وهذا شبيه بقول (أغا أوغلي أحمد) أحد غلاة الكماليين من الترك في أحد كتبه :

" إننا عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيين ، حتى الإلتهابات التي في رئيهم والنجاسات التي في أمعائهم " [373] .

وقاسم أمين يقول في كتابه المرأة الجديدة ، بعد أن تحدث عن أوضاع المرأة المسلمة في مصر : " هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له دواء إلا أن نربي أولادنا على أن يتعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها ، وإذا أتى ذلك الحين – ونرجوا ألا يكون بعيدا – انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس وعرفنا قيمة التمدن الغربي ، وتيقنا أن من المستحيل أن يتم إصلاح ما في أحوالنا ، إذا لم يكن مؤسسا على العلوم العصرية [374] .

وتقاطرت البعثات على الدول الأوروبية من أبناء المسلمين استكمالا لتعليمهم العالي وما ماثله ، وكانت هذه هي نهاية المطاف في الإجهاز على بقايا الإسلام وطباع الشرق وعاداته في نفوس أكثرهم ، حيث لا يرجعون إلا وقد تأثروا بوجهة الغرب وفلسفته ، أو أخذوا طريقة العيش الأوربي ، (على حد تعبير المؤرخ توينبي) وبذلك أصبحوا رصيدا في حساب أعداء الإسلام بالسلوك والتربية ، لإحداث الانقلاب الجذري في حياة المسلمين من حيث علموا أو جهلوا ، ومن حيث أرادوا أو انساقوا مع التيار بلا فهم ولا وعي [375] . وقد عم هذا الأسلوب بلاد الإسلام ، ومن هذه الصور ما كتبه ك. ك. برج : الأستاذ بجامعة ليدن يقول :

" اضطر الأندونوس من جانبهم إلى انتجاع الجامعات الهولندية لاستكمال دراستهم . . . نجد أولئك المعلمين ينسفون بقوة ثقافتهم الغربية من نفوس الناس

---

[371] نفسه ج 2 ص 227 .

[372] مستقبل الثقافة في مصر ص 41 .

[373] مصطفى صبري – موقف العقل والعلم والعالم ج 1 هامش ص 369 . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم " لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع – والله لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه وراءهم " .

[374] المرأة الجديدة ص 192 – 193 .

[375] فتح الله ص 74 .

اعتقادهم بالعادات القديمة واحترامهم لها – ومعنى هذا أنهم يوهنون أساس المجتمع القديم وأساس الإسلام أيضا . .

إن تغير نزعة الشباب الأندونيسي المستنير إزاء ثقافته القديمة بتأثير التعليم الأوربي وبتأثير البيئة الهولندية يشبه ما حدث عند الشباب المصري منذ نصف قرن أو ثلاثة أرباع القرن ، ومسلك الشباب الأندونيسي إزاء التعليم الغربي يسير على مثل ما سار في مصر ، يظهر الشباب عداءه للعقلية الغربية ولكنه لا يستطيع في الوقت نفسه الاستغناء عن الثقافة الغربية . . وهو ينزع نزعة قومية شديدة ولكنه رغم ذلك منقطع من وجوه كثيرة – بسبب ثقافته الغربية – عن جمهور الأمة التي ولد فيها " [376] .

2- احتقار الماضي الإسلامي وتربية الأجيال تربية علمانية (لادينية) حديثة :

والاتجاهات الفكرية التي حملت وزر هذا ، تلك التي دعت إلى الإرتباط بالماضي التاريخي الغامض ، البعيد ، السابق على ماضيهم الإسلامي الحي ، ودعوة إحياء الحضارات القديمة ظهرت في وقت واحد في كل من تركيا ومصر والشام والعراق وشمال أفريقية وفارس والهند وأندونيسيا [377] . يقول أحد المستشرقين : " إننا في كل بلد إسلامي دخلنا ، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام ، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام ، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وتلك الحضارات [378] " .

ومن **الدعوات : الفرعونية في مصر** : التي أطلت برأسها عند غزو نابليون لمصر عام 1897 م فقد استصحب معه بعثة علمية للتنقيب عن آثار الفراعنة ، وأنشأ معهد الآثار الفرعونية في حي المنيرة بالقاهرة وما يزال قائما مكانه إلى اليوم . فنشط دعاتها لغزو الأقطار بها وملأوا أبصار قارئي الصحف ، وأسماع شاهدي الندوات بالدعاية لها ، ورسموا رأس أبي الهول على طوابع البريد وعلى أوراق النقد واتخذه النحات محمود مختار شعارا لتمثال نهضة مصر الذي وضع نموذجه في باريس عام 1920 م .

واتخذت كل كلية من كليات الجامعة شعارا لها يمثل وثنا من معبودات الفراعنة ، ونقلت رفات سعد زغلول بعد وفاته بثلاث سنوات إلى ضريح بني على طراز فرعوني [379] . وأصبحت هذه الجامعة الفرعونية دعوة انفصالية ، تنزع نحو الأنانية والانطواء

---

[376] (كتاب وجهة الإسلام ص 190 ترجمة أبي ريدة) . فتح الله ص 77 .

[377] حصوننا مهددة من الداخل ص 69 .

[378] محمد قطب – واقعنا المعاصر ص 202 عن Near East, Cultured, Society Ediled by. T. Cuylan Young .

[379] الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 146 .

على النفس . وتعارض الجامعة الإسلامية والجامعة العربية [380] . ورأت في العرب غزاة دخلاء كاليونان والرومان سواء بسواء . وتزعمت صحيفة السياسة الأسبوعية هذا الاتجاه فأفسحت صدرها لدعاته ، وأعان عليه رئيس تحريرها محمد حسين هيكل في شطر كبير من حياته ، إلى أن عدل من اتجاهه إلى الاتجاه الإسلامي [381] .

وأثيرت **الفنيقية** في لبنان ، **والأشورية والسومرية والبابلية** في العراق ، **والكنعانية** في فلسطين ، و**البربرية** في المغرب ، و**الحثية** في آسيا الصغرى ، و**ماجاباهيت** الهندوكية في أندونيسيا **والفارسية** في إيران لعزل هذه الأجزاء عن بعضها والتفريق بينها تفريقا يحول دون التقائها في وحدة واحدة قوية . وكأن ذلك كان مبررا للدعوة العبرية اليهودية في فلسطين .

وقد عرضت **المناهج** – مناهج الدين والتاريخ الإسلامي بالذات عرضا منفرا مغرضا يجعلها على هامش المنهج الدراسي ، مما يغرس في نفوس الأطفال والتلاميذ والناشئة عامة عدم الاهتمام بهما . ويطبعهم على الإعتقاد بعدم جدواهما دراسيا . ويرسب في نفوسهم بالتالي الإستخفاف بالدين من حيث هو سلوك وعبادات ، وبالتاريخ الإسلامي من حيث هو سجل لأمجاد الأمة الإسلامية [382] .

3- العمل على تطوير المعاهد الدينية وخاصة الأزهر في مصر :

الأزهر كما نعرف أعرق المعاهد الإسلامية ، بل هو أعرق جامعة في العالم كله ، وقد استطاع بفضل الأوقاف العديدة التي وقفها عليه أغنياء المسلمين خلال عصره الطويل ، وبفضل ما كان يتمتع به علماءه من هيبة ومكانة ، أن يحمي العلوم الإسلامية والعربية بعيدة عن أن تمتد إليها يد الملوك والحكام بالتغيير والتبديل [383] ، وظل هذا المعهد الوحيد – بمنأى عن العبث ببرامج التعليم فيه ، في حين امتدت يد المحتل الأوربي إلى كل برامج التعليم في مصر ، فشكلها حسب ما تقضي به مصالحه ، ورسخت مكانته حتى احتل مكانا مرموقا في العالم الإسلامي كله ، يتوارد عليه الطلاب من شتى بقاعه ، ثم يعودون إلى بلادهم ينشرون فيها الوعي الإسلامي ، وينشرون معه فضل الأزهر ، ويشيدون به ، ويدعمون مكانته في نفوس الناس . وازدادت مكانته بعد سقوط الخلافة العثمانية فأصبح رمز الجامعة الإسلامية [384] والقلعة الإسلامية التي حسب لها أعداء الإسلام كل حساب ، وكان فيه رجال يلتهبون غيرة على الإسلام ويجابهون أعداءه في الداخل والخارج بكل جرأة . وأدرك نابليون عند

---

[380] نفسه ج 2 ص 147 .

[381] نفسه ج 2 ص 149 .

[382] فتح الله ص 70 .

[383] الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 176 .

[384] الاتجاهات الوطنية ج 1 ص 176 .

غـزوه مصـر أهميـة الأزهـر فحـاول اسـتمالة علمائـه ، فلمـا فشـل ضـربه بالقنابـل مـن القلعـة ، واتخذه اصطبلا للخيل .

مـن أجـل ذلـك كلـه تعـرض الأزهـر لمقـت أعـداء الإسـلام ، وصـب اللعنـات مـن قبـل دعـاة التغريـب واللادينيـة ، حتـى جعلـوه رأس المشـاكل الثقافيـة فـي مصـر ، والعقبـة ونفـوذ المعاهـد الإسـلامية الأخـرى كـالقرويين فـي فـاس ، والزيتونـة فـي تـونس – وتهـوين مركـزه ، حيـث وقفـوا فـي طريـق علمائـه ، وحـالوا بيـنهم وبـين مراكـز القيـادة ، ومناصـب الحكـم ، ووظـائف الإدارة ، وأشـاعوا بـين النـاس أنهـم يهـدفون إلـى تكـريم الـدين ، علـى أن يكـون الإسـلام علـى حـد تعبيـرهم بعيـدا عـن السياسـة ، وبمعـزل عـن الحكـم ، فـأعفوا علمـاء الـدين مـن التجنيـد وأسـقطوا الجهـاد عمـن حفـظ كتـاب الجهـاد – القـرآن الكـريم – فأبعـد القـرآن وتعـاليم الـدين عـن المـدارس والمحـاكم وسـائر دواويـن الحكومـة [385] . قـال أحـد المبشـرين فـي كلمـة لـه فـي المـؤتمر التبشيري الـذي عقد فـي القاهيـة عـام 1906 م وهـو يتسـاءل عمـا إذا كـان الأزهـر يتهـدد كنيسـة المسـيح بـالخطر : " إن السـنيين مـن المسـلمين رسـخ فـي أذهـانهم أن تعلـيم العربيـة فـي الجـامع الأزهـر مـتقن ومتـين أكثـر منـه فـي غيـره والمتخرجـون مـن الأزهـر معروفـون بسـعة الاطـلاع علـى علـوم الـدين ، وبـاب التعلـيم مفتـوح فـي الأزهـر لكـل مشـايخ الـدنيا ، خصوصـا وأن أوقـاف الأزهـر الكثيـرة تسـاعد علـى التعلـيم فيـه مجانـا ، لأن في استطاعته أن ينفق على 250 أستاذا " .

ثـم عـرض اقتراحـا يريـد بـه إنشـاء مدرسـة جامعيـة نصـرانية ، تقـوم الكنيسـة بنفقاتهـا ، لتـتمكن مـن مزاحمـة الأزهـر بسـهولة ، وتتكفـل هـذه المدرسـة الجامعـة بإتقـان تعلـيم اللغـة العربية . وختم كلامه قائلا :

" ربمـا كانـت العـزة الإلهيـة قـد دعتنـا إلـى اختيـار مصـر ، مركـز عمـل لنـا ، لنشـرع بإنشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير الممالك الإسلامية " [386] .

وبقـي الأزهـر رغـم ذلـك مركـزا مـن مراكـز الدعايـة المعاديـة لبريطانيـة كبيـرة ومتعـددة الامكانيـات ، وكـان يـدرك دوره ، يظهـر ذلـك ، فـي البيـان الـذي أذاعـه شـيخه الأكبـر سـنة 1349 هـ / 1930 م عنـدما اشـتدت حملـة فرنسـا علـى الإسـلام وعلـى اللغـة العربيـة بـين مسـلمي البربـر فـي المغـرب الأقصـى [387] . فجنـد النفـوذ الاسـتعماري عـددا حملـوا لـواء السـخط عليـه مـن أبنـاء المسـلمين ، وكانـت بدايـة ذلـك سـنة 1343 هـ / 1924 م عنـدما قامـت فـي الأزهـر حركـة تـدعو إلـى إصـلاحه ، وفـي عـام 1346 هـ / 1927 م أخـذت صـحيفة السياسـة تطالـب : " بصـبغ الأزهـر بالصـبغة العصـرية العلميـة ، وهجـر طـرق التـدريس العتيقـة " . مسـتهدفة مـؤامرة قديمـة كـان قـد عجـز عـن تنفيـذها الإنجليـز خوفـا مـن

---

[385] أنور الجندي – العالم الإسلامي – ص 345 .

[386] الغارة على العالم الإسلامي ص 57 – 58 .

[387] انظـر الاتجاهـات الوطنيـة ج 2 ص 176 نـور الإسـلام العـدد الخـامس مـن المجلـد الأول ص 342 – 343 .

الهياج الديني – وجاءت الآن تحت شعار الوطنية والإصلاح تارة وبسلاح البطش والإستبداد تارة أخرى ، وهذه المؤامرة تستهدف : عزل الأزهر عن الحياة ، واخضاع برامجه لرقابة تضمن إفناء شخصيته وفرنجته ، بحيث يصبح الدين تبعا للحياة وذيلا لها ، يتبعها ويتشكل بها بدل أن يقودها ويقومها . وسار الشيخ محمد عبده في هذ المجال شوطا عن حسن نية ، وربما عن شعور بالنقص ، وربما كان هذا من أهم أسباب التقدير والتمجيد اللذين حظى بهما الشيخ من المستشرقين والمبشرين ، ومن كرومر عميد الاحتلال في مصر [388] .

وجاء الدكتور طه حسين ، ولطفي السيد ، وأضرابهما وطالبوا أن تزال هذه الصخرة العنيفة التي تعترض الجسر الثقافي العريض الذي يمتد في أوربا إلى مصر عابرا البحر الأبيض المتوسط ، زاعمين أن مصر اكتشفت هويتها غريبة مئة بالمئة . فيصوره طه حسين أثرا من مخلفات العهود المتأخرة المنحطة ومشكلة من المشاكل التي تتطلب حلا [389] ، ويقول :

" ولا بد من تطور طويل دقيق قبل أن يصل الأزهر إلى الملاءمة بين تفكيره وبين التفكير الحديث ، والنتيجة الطبيعية لهذا أننا إذا تركنا الصبية والأحداث للتعليم الأزهري الخالص ولم نشملهم بعناية الدولة ورعايتها وملاحظتها الدقيقة المتصلة ، عرضناهم لأن يصاغوا صياغة قديمة ، ويكونوا تكوينا قديما . . .

فالمصلحة الوطنية العامة من جهة ، ومصلحة التلاميذ والطلاب الأزهريين من جهة أخرى تقتضيان إشراف وزارة المعارف على التعليم الأولي والثانوي في الأزهر " [390] .

وصدرت قوانين تطويع الأزهر باسم تطويره [391] تباعا من عام 1936 م 1355 هـ إلى عام 1976 م 1396 هـ . وتم التطويع في عهد الاستقلال وكان ثمرة من ثماره ونضرب لذلك مثلين :

أ– إلغاء القضاء الشرعي جملة وإدماج محاكمه في دوائر تابعة للمحاكم الأهلية التي قامت من أول يوم على القانون الوضعي ، فقد ألغيت المحاكم الشرعية المصرية عام 1955 م – 1375 هـ .

---

[388] الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 271 / وانظر الحاشية رقم 2 ص 271 – 272 [كما في النسخة المطبوعة]..

[389] مستقبل الثقافة في مصر ص 87 .

[390] نفسه ص 75 .

[391] العلمانية – ص 601 .

ب- إدخال القانون الوضعي في صلب البرامج الدراسية لكلية الشريعة بجامعة الأزهر وتسميتها كلية الشريعة والقانون بموجب القانون المعروف بقانون تطوير الأزهر . وهذا عمل يقصد به تقريب الشقة بين الشريعة والقانون وحل عقدة الرفض في الرؤوس والنفوس التي يخشى دائما أن تنبعث منها قيادة جادة لحركة تحكيم الشريعة وإعادتها إلى التفرد بالهيمنة على شئون الحياة [392] .

وكان من أثر الانتصار في تطوير الأزهر أن تم تطويع البقية الباقية في معاهد الثقافة الإسلامية خارج مصر بسرعة إما بدوافع ذاتية وإما بقوانين إجبارية ، كجامع الزيتونة في تونس [393] ، والقرويين في المغرب ، والمعاهد الدينية في الهند . وكان قد أثر عن الحاكم الفرنسي (ليوطي) – صنو (كرومر) في مصر – قوله : إذا تم لفرنسا القضاء على القرويين فقد ضمنت لنفسها الخلود في المغرب .

ورغم ذلك فقد بقيت هذه المعاهد بشيوخها وشبابها ، تحمل الفكر الإسلامي الأصيل وتواصل رسالته ، وأنشئت جامعات أخرى إسلامية تحمل الرسالة كالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، وجامعة أم القرى في مكة المكرمة وجامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض . . . وكلها تهدف إلى :

أ- تعليم الأمم الإسلامية المتأخرة في المعارف وهدايتها إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنة ومعرفة الفقه الإسلامي وتاريخ الإسلام ورجاله .

ب- إثارة كنوز العلم التي خلفها علماء الإسلام في العلوم الدينية والعربية والعقلية وهي مجموعة مرتبطة بعضها ببعض وتاريخها متصل الحلقات .

ج- عرض الإسلام على الأمم غير المسلمة عرضا صحيحا في ثوب نقي خال من الغواشي المشوهة لجماله ، وخال مما أدخل وزيد فيه من الفروض المتكلفة التي يأباها الذوق ، ويمجها طبع اللغة العربية .

د- العمل على إزالة الفروق المذهبية ، أو تضييق شقة الخلاف بينها ، فإن الأمة في محنة من هذا التفريق ومن العصبية لهذا الفرق ودراسة أسباب الخلاف دراسة بعيدة عن التعصب تهدي إلى الحق [394] .

هـ- تخريج الدعاة الواعين على عقيدتهم ، الواعين على أوضاع أمتهم ووسائل نهضتها ، وتحقيق الخير لها .

---

[392] فتح الله ص 132 .

[393] الذي أغلق عشية الاستقلال عام 1956 م ، وافتتح بعد تنحية الحبيب بورقيبة عن رئاسة الجمهورية التونسية عام 1987 م ! ! .

[394] أنور الجندي – العالم الإسلامي ص 345 – 346 .

4- مهاجمة اللغة العربية والدعوة إلى العامية :

اللغة العربية اختصها الله لغة للقرآن الكريم ، وخصها مرة أخرى لتكون لغة أهل الجنة ، وخصها أيضا لغة لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم . ولذلك فقد رافقت رحلة الإسلام وانتشاره إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي . وبها كتب المسلمون على مختلف أجناسهم وديارهم . وأثرت تأثيرا كبيرا في اللغات الفارسية والتركية والأوردية واللغات الأفريقية في شرق أفريقيا واللغة الماليزية .

وكان المسلمون يتطلعون إلى أن تأخذ الدولة العثمانية العربية لغة للدولة . غير أن التحول الذي أصاب تركيا بعد الحرب ، وتغريبها وانسلاخها من العالم الإسلامي دفعها للتخلص من الأثر العربي – فعملت على تصفية اللغة التركية من الكلمات العربية ، حيث عقد عدد من المؤتمرات التي قامت بإخراج 13650 كلمة عربية [395] حلت محلها كلمات تركية وأوربية . ففقدت تركيا تراثا ضخما يتمثل في مئات المجلدات ، في الأدب والنقد والثقافة ، التي كتبت باللغة التركية العثمانية – فضلا عن أن استعمال الأتراك للحروف اللاتينية أفقدهم تصوير الأحرف المشابهة كالفاء والحاء والصاد والضاد والظاء والعين . فإن هذه الحروف لا يمكن أن تجد في اللاتينية ما يصورها بحرف واحد يقوم مقامها .

ومنذ أن اتسع النفوذ الأجنبي في العالم الإسلامي واجهت اللغة العربية مقاومة بعيدة الأثر من اللغات الثلاث : الفرنسية والإنجليزية والهولندية . فقد **قطع الاستعمار الغربي الطريق على توسع اللغة** بين مسلمي العالم بالعمل على :

1- نقل كثير من اللغات إلى الحروف اللاتينية وترك الخط العربي وفي مقدمتها اللغة التركية والاندونيسية .

2- شجع لغة محلية أو أكثر في كل بلد إسلامي غير عربي لتصبح لغات قومية . وهذا طبعا يتم على حساب اللغة العربية كالأوردية والسنسكريتية والبنغالية في الهند . واللغات المحلية في أفريقيا .

3- توسيع نطاق لغته وجعلها اللغة الرسمية كما فعل في الهند الإسلامية وبنغلاديش وباكستان وفي غرب أفريقيا ووسطها وشرقها [396] .

---

[395] أنور الجندي – الاستعمار ص 358 . والتراث : مجموعة تجارب الأمة ومعطياتها ومكونات حياتها ، وعوامل التأثير والصياغة في الحياة . فإذا انقطعت الصلة به ، طفت الأمة على السطح ، كالزبد الذي يذهب جفاء ، وضاعت شخصيتها ، وتعرضت للقتل أو البتر .

[396] انظر – أنور الجندي – العالم الإسلامي ص 359 .

أمـا فـي الـبلاد العربيـة فقـد عمـد الاسـتعمار إلـى **الـدعوة لاسـتخدام العاميـة** والتحـريض علـى جعلهـا لغـة التـأليف والكتابـة . كمـا فعـل فـي الجزائـر ومصـر وبـلاد الشـام والعراق وتونس والمغرب .

ففـي **الجزائـر** – واجهـت اللغـة العربيـة محـاولات خطيـرة كـادت هـذه اللغـة تمحـى مـن الأسـاس محـوا تامـا ، حتـى أتـيح لجمعيـة العلمـاء الجزائريـة وقادتهـا عبـد الحميـد ابـن بـاديس – والبشـير الإبراهيمـي وغيرهمـا أن تعيـد بنـاء اللغـة العربيـة مـن خـلال ثـلاث مائـة مدرسـة أقيمـت فـي المسـاجد علـى نحـو بـارع اسـتطاع بـأن يتحقـق تحـت مـدافع الاسـتعمار وفوهـات بنادقـه . وكـان لـذلك أبعـد الأثـر فـي التحـول التـاريخي الـذي شـهدته الجزائـر . وقـد أشـار إلـى ذلـك المـؤرخ الفرنسـي (جـاك بيـرك) حـين قـال : " إن أقـوى القـوى التـي قاومـت الاسـتعمار الفرنسـي فـي المغـرب هـي اللغـة العربيـة فهـي التـي حالـت دون ذوبـان المغـرب فـي فرنسـا " [397] فقـد حاولـت فرنسـا جهـدها لإحـلال اللغـة الفرنسـية مكـان اللغـة العربيـة فـي اقطـار المغـرب ، بعـد أن عملـت علـى التفرقـة بـين العـرب والبربـر عـن طريـق الظهيـر البربري [398] .

أمـا فـي **مصـر** بلـد الأزهـر فقـد كانـت الحملـة أشـد . وبـدأت عـام 1881 م / 1299 هـ حـين اقتـرح المقتطـف كتابـة العلـوم باللغـة التـي يتكلمهـا النـاس فـي حيـاتهم العامـة [399] ، مـن غيـر أن تحـدث هـذه الـدعوة أثـرا . ثـم هاجـت المسـألة مـرة أخـرى 1320 هـ / 1902 م حـين ألـف أحـد قضـاة محكمـة الاسـتئناف الأهليـة فـي مصـر مـن الإنجليـز – وهـو القاضـي ولمـور – كتابـا سـماه لغـة القـاهرة وضـع لهـا فيـه قواعـد ، واقتـرح اتخاذهـا لغـة للعلـم والأدب . كمـا اقتـرح كتابتهـا بـالحروف اللاتينيـة . فحملـت عليـه الصـحف مشـيرة إلـى موضـع الخطـر مـن هـذه الـدعوة التـي لا تقصـد إلا إلـى محاربـة الإسـلام فـي لغتـه . وفـي ذلك الوقت كتب حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة على لسان اللغة العربية [400] :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ونـاديت قومي فاحتبست حياتي

رمـوني بعقم في الشباب وليتني عقمت فلم أجزع لقول عداتي

وفـي عـام 1926 م / 1345 هـ دعـا مهنـدس الـري الانجليـزي – السـير (ولـيم ولكـوكس) إلـى هجـر اللغـة العربيـة – وتـرجم أجـزاء مـن الإنجيـل إلـى مـا سـماه اللغـة المصـرية . ونـوه سـلامة موسـى بالسـير ولكـوكس وأيـده . فعـاد النـاس لمهاجمـة الفكـرة . ولكنهـا اكتسـبت نفـرا مـن دعـاة الجديـد ، فاتخـذوا القوميـة والشـعبية سـتارا لـدعوتهم وخاصـة بعـد حركـة الكمـاليين فـي تركيـا . وسـاعد علـى انتشـارها **المسـرح الهزلـي** الـذي اتخـذ اللهجـة

---

[397] نفسه ص 362 .

[398] علال الفاسي – دفاع عن الشريعة ص 163 – 164 .

[399] الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 359 .

[400] نفسه ج 2 ص 360 / ديوان حافظ ج 1 ص 253 .

السوقية ، ثم انتقلت إلى **المسرح الجدي** حين تجرأت عليه وقتذاك فرقة تمثيلية تتخذ اسما فرعونيا وهي فرقة رمسيس . ثم ظهرت الخيالة – السينما – فاتخذت هذه اللهجة . ولم يعد للعربية الفصحى وجود في هذا الميدان . ثم ظهرت هذه السوقية العامية في الأدب المكتوب فاستعملها كثير من كتاب القصة في الحوار [401] .

وفي سياسة التعليم التي خططها (دنلوب) في مصر ، واتبعها المستعمرون في أرجاء العالم الإسلامي انحدر **وضع مدرس اللغة العربية** بقدر ما انحدر راتبه ، وأصبح مادة للسخرية يتحدث الناس عن جهله ، وتخلفه ، وضيق أفقه ، وفقره وانحطاط مستواه الاجتماعي والفكري وأصبح مادة للتندر في القصص والروايات والمسرحيات والأفلام ، وانعكس ذلك على الوضع المهين على اللغة التي يدرسها ، فأصبحت موضع الإزدراء ، والتحقير والنفور . . وأصبحت الشكوى مرة من صعوبة اللغة العربية ، وأصبح الإنسان يقارن ذلك بما عليه مدرس اللغة الانجليزية ، والنظرة إلى اللغة الانجليزية ! ! . وتسللت الدعوة إلى **مجمع اللغة العربية** – فظهرت في مجلته الناطقة باسمه سلسلة من المقالات عن اللهجة العربية العامة كتبها أحد أعضائه هو عيسى اسكندر المعلوف المعروف بعدائه للعربية الفصحى . والغريب أن هذا المجمع ضم المستشرق جب المعروف بصفته الاستعمارية ، وحاييم ناعوم كبير حاخامي تركيا [402] . وأعجب من ذلك أن عبد العزيز فهمي باشا ثالث الثلاثة الذين بني عليهم الوفد المصري 1943 م / 1363 هـ ، اقترح كتابة العربية **بالحروف اللاتينية** . وشغل المجمع ببحث اقتراحه عدة جلسات امتدت خلال ثلاث سنوات [403] . ودعا خلفه توفيق الحكيم في المجمع اللغوي إلى قاعدة **سكن تسلم** ، وتبعا لهذه القاعدة فتح الباب في البلاد العربية في كليات اللغة العربية والآداب لما سمي : التراث أو **الأدب الشعبي** وحضرت فيه رسائل جامعية عليا .

---

[401] الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 362 .

[402] وقد سبق أن ذكرنا دوره في إسقاقط السلطان عبد الحميد ، وحضوره معاهدة لوزان ، وبعد إلغاء الخلافة انتقل إلى القاهرة ، وكان حلقة وصل بين زعماء اليهود في أوربا وأمريكا ، والسياسيين الانجليز من جهة ، وكمال أتاتورك من جهة أخرى . وأصبح كبير حاخامي القاهرة ، وبقي يخدم الصهيونية إلى آخر حياته ، حيث أقام في بيته بالقاهرة ناد للقمار رصد كل أرباحه للحركة الصهيونية في فلسطين (انظر مذكرات الحاج أمين الحسيني / مجلة فلسطين – العدد 147 / السنة 13 جمادى الأولى 1393 هـ ، ص 7)

[403] الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 363 . وانظر كتاب (تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر) ص 209 – 210 .

وقد وجدت هذه الدعوة صدى لها في بلاد الشام فمنهم المتطرف كسعيد عقل وأنيس فريحة ، والمتدرج كبعض المهجريين . وقد ردت هذه الدعوى بشدة وفندت مزاعمها [404] .

وعلى كل فقد كانت الدعوات الهدامة للغة العربية تستهدف غايتين :

أ- تفريق المسلمين ، والعرب خاصة ، بتفويقهم في الدين وفي اللغة والثقافة ، وقطع الطريق على توسع اللغة العربية المحتمل بين مسلمي العالم ، وبذلك لا تتم لهم وحدة .

ب- قطع ما بين المسلمين وبين قديمهم ، والحكم على كتابهم – القرآن الكريم [405] – بأن يصبح أثرا ميتا كأساطير الأولين التي أصبحت حشو لفائف البردي ، أو بأن يصبح أسلوبه عتيقا باليا بتحويل أذواق الأجيال الناشئة عنه . والحكم على تراثهم كله بالموت لأ هذا القديم المشترك هو الذي يربطهم ويضم بعضهم إلى بعض [406] .

وبقي في لبنان من يصر إلى اليوم على اللهجة اللبنانية وعلى رأسهم الشاعر سعيد عقل ، ويسمونها : اللغة اللبنانية . ووصل به التطرف إلى كتابة هذه اللغة بحروف لاتينية وله جريدة أسبوعية محدودة الانتشار والتأثير ، تطبع بالحروف اللاتينية . وأما تمويلها فلك أن تتساءل عن مصدره .

---

[404] انظر هذه التفنيدات – الاتجاهات ص 377 – 380 . وقد عمد الدكتور أنيس فرنجة (أحد أساتذة التاريخ واللغات السامية في الجامعة الأمريكية) إلى إرجاع فكرة الكتابة العامية بالحرف اللاتيني تحت ستار تسهيل اللغة . وظهر له في هذا الباب : تبسيط قواعد العربية وتبويبها على أساس منطقي جديد (طبع جونية سنة 1952 م) فيقول : " ولا نرى حلا للكتابة إلا بتبني الحرف اللاتيني وضبط الكلمات فيه مرة واحدة " .
وفي تسهيل اللغة هذا الذي يقترحه فريحة يقترح لأسماء اشارة (ص 33 – 34) عددا أكبر من العدد الذي كتبته كتب النحو المدرسية .
وفي كتابه (محاضرات في اللهجات وأسلوب درساتها) و (نحو عربية ميسرة) وفيه ينضح بالحقد على اللغة العربية الفصحى وبالبغض لأهلها وبالتهكم على تراثها والهزء برجالها (انظر الصفحات 11 ، 13 ، 18 – 19 ، 22 ، 23 ، 53 ، 73 ، 123 ، 125 – 126 ، 194 .
وفي الصفحة 198 يقول : ولكن للناس أن يسألوا : ماذا سيحل بالقرآن الكريم ؟ وماذا سيحل بالأدب القديم : وجوابنا هو أن القرآن الكريم سيخلد ، سيبقى على ما هو عليه كما بقيت كتب دينية عديدة رغم انحراف لغة الناس عن لغة هذه الكتب "
انظر التبشير والاستعمار لفروخ والخالي ص (225 – 232) .

[405] وهيهات أن يتم ذلك لهم . فالله سبحانه وتعالى تكفل بحفظه . (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) .

[406] انظر الاتجاهات الوطنية ص 384 .

ومنهم أيضا الشاعر موريس عواد الذي يخرج قصائده بهذه اللغة الشعبية كما يسميها ، وخرج حديثا برواية من 192 صفحة كتب على غلافها : (روايي باللغا اللبناني) وقد سبقه في ذلك تجربة قام بها الشاعر المصري بدر نشأت شقيق د. كمال نشأت [407] . ومنهم الشاعر أحمد سعيد علي ، ترك الإسلام ، وتنصر ، وغير اسمه إلى (أدونيس) ، وقد ركز هذا الشاعر في أشعاره على استخدام قصة مهيار الديلمي الشعوبي القديم ليخدم قضيته المعاصرة [408] .

وعلى الإجمال فاللغة العربية تهان وتنقص من عدة جهات حاليا [409] .

1- الروايات التمثيلية التي تحكي عبارات السوقة والعقليات الجاهلية . فتحيي ألفاظا كان يجب أن تموت مكانها وتؤذي المسامع باللهجات العامية المنكورة .

2- الزعماء الذين لا يحسنون الفصحى ويحلو لهم أن يتحدثوا إلى الجمهور ساعات طويلة . تختلط كلماتهم العربية والعامية .

3- الأشخاص الذين يقلدون المنتصر والذين ذابت شخصياتهم ذوبانا تاما ، فيرون من الري أن يكون حديثهم بأي لغة إلا العربية .

4- ورجال المجامع الذين يرون العربية تنهار أمام ألفاظ الحضارة المحدثة ومصطلحات العلوم الكثيرة ، ومع ذلك فهم لا يحركون ساكنا ، مع أن العربية في خطر حقيقي .

وامتد التلاعب باللغة العربية إلى **لوائح الإعلانات** في الشوارع العامة وأسماء المحلات والمعارض التي تكتب بخطوط عريضة ومليئة بالأخطاء اللغوية ، بعد أن أقصيت من ميادين العلوم ، ولحق أدبها من تشويه وغبن في ميادين الآداب والفنون [410] .

وبالرغم من ذلك بقيت العربية الفصحى : رباط وحدة الأمة ، وأداة ارتقاء العلم والحياة .

من أبيات للشاعر / محمد بهجت الأثري العراقي / بعنوان الفصحى (73) بيتا :

أحببتها حب نفسي ، والهوى غرد وحبها الروح والريحان والرغد

---

[407] الشرق الأوسط ص 19 السبت 2 / 11 / 1985 م .

[408] حلمي محمد القاعود – الحرب الصليبية العاشرة ص 17 .

[409] محمد الغزالي – مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ص 91 .

[410] نفسه ص 107 .

رفيعة القدر أخت الشمس عالية يرى لها فوق عرش الشمس مقتعد

ويدرك القمرين الخسف من سقم ونورها دائم الإشراق متقد

سرية ، وكفاها أنها هبطت وحيا ، له تخشع الأرواح والجمد

عريقة المولد الميمون : أوَّلها مع الخليفة والأخرى لها الأبد

وفي يوم 29 / 7 / 1408 هـ الموافق 17 / 3 / 1988 م عقد مؤتمر اللغة العربية العالمي الأول بدعوة من جمعية نشر اللغة العربية في كراتشي تحت شعار :

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) . وشارك فيه ممثلون عن تسع عشرة دولة وعدد من العلماء المهتمين باللغة العربية . واستمر مدة ثلاثة أيام .

وتضمنت أعماله خمسة محاور هي :

1- دور اللغة العربية بوضعها أداة ربط بين الدول الإسلامية .

2- التنسيق والتعاون في تعليم اللغة العربية بالدول الإسلامية .

3- إسهام غير العرب في نشر اللغة العربية .

4- وسائل وتقنيات مختلفة في تعليم اللغة العربية .

5- دور القرآن الكريم في نشر اللغة العربية بين المسلمين .

وقد صدر عن المؤتمر التوصيات التالية :

1- تأسيس اتحاد عام للجمعيات التي تعمل على نشر اللغة العربية في الأقطار العربية والإسلامية .

2- دعوة الدول العربية والإسلامية إلى تشريع قانون للحفاظ على سلامة اللغة العربية .

3- دعوة الدول العربية للحفاظ على الحرف العربي في الكتابة ليظل التواصل قائما بين اللغة والدين .

4- دعوة الدول العربية إلى تخصيص منح دراسية للطلبة المسلمين الناطقين بغير العربية .

5- دعوة الدول العربية إلى تزويد الجمعيات والمدارس والجامعات المعنية بتدريس اللغة العربية بالكتب والأشرطة وما يلزم ذلك .

6- الاهتمام بالبحث التربوي في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها .

7- تبادل الوفود والزيارات العلمية بين الجمعيات والمدارس المهتمة بهذا الموضوع .

8- دعوة الدول الإسلامية إلى إيجاد برامج تعليمية باللغة العربية في وسائل إعلامها المرئية والمسموعة والمقروءة .

9- قيام جمعية نشر اللغة العربية في كراتشي بجميع المناهج المؤلفة في هذا المجال من المؤسسات العلمية كافة .

10- قيام الجمعية باعداد دليل بأسماء الجمعيات والمراكز والهيئات التي تعني بنشر اللغة العربية .

11- الدعوة إلى جعل اللغة العربية من المقررات الرئيسية في المدارس الثانوية في الدول الإسلامية .

12- مناشدة الصحف في الدول الإسلامية تخصيص صفحة عربية في كل واحدة منها .

13- قيام الجمعية بطبع بحوث هذا المؤتمر في كتاب وتوزيعه .

14- مناشدة الدول والمؤسسات والمحسنين بتقديم الدعم المالي لهذه الجمعية لتتمكن من أدا رسالتها .

15- اعتماد الأعضاء المشاركة في هذا المؤتمر أعضاء عاملين في جمعية نشر اللغة العربية .

16- عقد مثل هذا المؤتمر في كل عامين في إحدى الدول العربية أو الإسلامية ونظرا لدور المملكة العربية السعودية الريادي في نشر اللغة العربية يأمل المشاركون أن تتبنى احدى الجامعات السعودية عقد المؤتمر القادم .

17- دعوة الحكومة الباكستانية الموقرة إلى تبني هذه التوصيات عن طريق الاتصال بالدول العربية والإسلامية .

18- تشكيل لجنة متابعة لهذه التوصيات من قبل الجمعية وعرض نتائج المتابعة في المؤتمر القادم بإذن الله .

5- اقتباس الأنظمة والمناهج اللادينية من الغرب :

وجدت المدارس الأجنبية في بلدان العالم الإسلامي ، وأطلق غلاة المبشرين والقساوسة وأضرابهم في وضع برامج التعليم لمدارسهم ، حتى أن الموضوعات العلمانية التي تعلم من كتب غربية وعلى يد مدرسين غربيين تحمل معها الآراء النصرانية [411] .

والواقع أن الاستعمار كان حريصا على توجيه التعليم لتخريج طائفة من المتعلمين يخدمون صالح الحكومة والشركات ، ويهدف أساسا إلى القضاء على الثقافة الإسلامية بالطعن فيها وإثارة الشكوك من حولها والشبهات في أعماقها .

فسيطر على المدارس الوطنية – التي تضم عامة أبناء الأمة ممن يقدرون على التعليم – عن طريق رجاله وعملائه الذين تولوا وضع المناهج الجديدة والسهر على تنفيذها وخدمة أغراضها القريبة والبعيدة كالخطة التي رسمها كرومر في مصر ونفذها القس الإنجليزي دنلوب وتلاميذه من بعده ، ولا تزال لها آثار وذيول سيئة تطبع بعض جوانب التعليم المصري ومقلديه في العالم العربي المسلم . فقد استطاع أن ينزع من برامج التعليم الدين وروح الأدب العربي وتاريخ الإسلام وصلة مصر بالعرب والعربية ثم أدخل في برامج المدارس أن مصر فرعونية . وفي كل وحدات العالم الإسلامي نجد الهدف نفسه قد أعد بصورة أخرى ففي الهند الإسلامية يحاول التعليم التركيز على الحضارات الوثنية ، وفي تركيا يجري الاهتمام بالتاريخ الطوراني وأمجاد جنكيز خان . وفي أندونيسيا يركز على تاريخ ما قبل الإسلام وكلها محاولات للقضاء على العوامل الجامعة للعالم الإسلامي [412] .

وحرص النفوذ الاستعماري أن يجعل من جامعاته ومعاهده مصدرا لتخريج القادة والحكام في العالم الإسلامي . فقد أوصى المؤتمر التبشيري المنعقد عام 1906 م / 1324 هـ في القاهرة [413] – بوجوب إنشاء جامعة علمانية على نمط الجامعة الفرنسية لمناهضة الأزهر والذي قالوا عنه : إنه يهدد كنيسة المسيح بالخطر . (كما سبق) . واتبع الانجليز سياسة تتفق مع مثلهم المشهور : " Slow but Sure " أي " بطيء ولكنه أكيد المفعول " .

فعين اللورد كرومر أول معتمد بريطاني على مصر (المستر دنلوب) القسيس المبشر مستشارا لوزارة المعارف المصرية . فكان في يده السلطة الفعلية الكاملة ، ففتح مدارس جديدة تعلم العلوم الدنيوية مهملة الدين ، ويعين خريجوها في دواوين الحكومة . وأما خريج الأزهر فكان لا يجد عملا ، وإذا وحده ففي إقامة الشعائر في المسجد ، وفرق في الراتبين كبير . فأصبح لا يذهب للأزهر إلا الفقراء الذين يعجزون عن دفع

---

[411] التبشير والاستعمار . فروخ – ص 66 .

[412] أنور الجندي – العالم الإسلامي – ص 335 .

[413] الغارة على العالم الإسلامي ص 22 .

مصـاريف المـدارس الحديثـة [414] , وطبعـا هـذه السياسـة نفسـها التـي اتبعهـا الانجليـز فـي الهند المسلمة . وفي الأقطار الإسلامية الأخرى التي ابتليت باستعمار الانجليز .

ولـذلك حرصـت الجامعـات منـذ إنشـائها علـى اقتبـاس الأنظمـة والمنـاهج اللادينيـة ، فحـين قـام سـعد زغلـول ولطفـي السـيد وزملاؤهمـا فـي مصـر بإنشـاء الجامعـة المصـرية كـان الـنص الأول مـن شـروط إنشـائها : هـو ألا تخـتص بجـنس أو ديـن بـل تكـون لجميـع سـكان مصـر علـى اخـتلاف جنسـياتهم وأديـانهم فتكـون واسـطة الألفـة بيـنهم . فخلـت الجامعـة مـن علوم الإسلام [415] .

ويقـول اللـورد لويـد ممثـل بريطانيـا فـي مصـر فـي حفـل كليـة فكتوريـا بالاسـكندرية عـام 1926 م : " إن أبنـاء هـذه الكليـة مـن ثمانيـة أجنـاس أو تسـعة أجنـاس مختلفـة . . . كـل هـؤلاء لا يمضـي علـيهم وقـت طويـل حتـى يتشـبعوا بوجهـة النظـر البريطانيـة " فهـو يكشـف عـن الغايـة مـن التعلـيم البريطـاني – خلـق جيـل يـؤمن بـانجلترا ويتعـاطف معهـا مغضيا عن استعمارها ونفوذها في بلاده [416] .

والجامعة الأمريكية في بيروت معروفة الأهداف والمرامي [417] .

كـان التعلـيم الحـديث علمانيـا منـذ البدايـة ، وتعـدى الأمـر المنـاهج إلـى أسـلوب التربيـة وفلسـفة السـلوك فقـد طبـق الاخـتلاط بـين الـذكور والإنـاث فـي معظـم جامعـات العـالم الإسـلامي ، وأدخلـت التقاليـد الغربيـة المنافيـة للإسـلام فـي صـلب النظـام الجـامعي ، أو شـيدت فـي إطـاره معاهـد عليـا للـرقص والتمثيـل والنحـت والموسـيقى باسـم بـراق – الفنـون الجميلـة – فقـد قـال قاسـم أمـين : " لعـل أكبـر الأسـباب فـي انحطـاط الأمـة المصـرية تأخرهـا فـي الفنـون الجميلـة – التمثيـل والتصـوير والموسـيقى " [418] . وقـد أصـبح فـي مصر وفي غيرها من أقطار العالم الإسلامي جيوشا من هؤلاء فماذا كانت النتيجة ؟ !

وأدخلـت أنظمـة التعلـيم الإسـلامي – العلـوم – بصـورتها الغربيـة المعاديـة للـدين دون تفريـق بـين ديـن وديـن ، صـحيح أن الاسـتعمار فـرض تلـك الأنظمـة فرضـا ولكنهـا لا تـزال بعـد رحيلـه كمـا كانـت أو أشـد بـل أنهـا لتطبـق فـي بـلاد لـم تطأهـا لمسـتعمر قـدم كتركيا . ودخلت الأفكار الغربية في هذه المناهج :

فالفرويديـة تجـدها مقـررة فـي أقسـام علـم الـنفس فـي الجامعـات قاطبـة علـى أسـاس أنها نظرية علمية . وإن لم يذكر فرويد .

---

[414] واقعنا المعاصر ص 218 .

[415] أحمد لطفي السيد – مؤلف حسين فوزي النجار ص 262 / العلمانية / سفر الحوالي ص 607 .

[416] أنور الجندي – العالم الإسلامي ص 338 .

[417] التبشير والاستعمار ص 95 – 109 .

[418] كتاب (قاسم أمين) – ماهر حسن فهمي – ص 39 .

والداروينية ، تدرسها مناهج العالم الإسلامي على أنها حقيقة علمية في مواد كثيرة كالأحياء والتاريخ الطبيعي وعلم الأرض سواء ذكر داروين أو لم يذكر .

وفي أقسام الاجتماعيات تدرس نظرية دور كهايم بل يدرس علم الاجتماع بأكمله على المنهج الغربي المبني على أساس لا ديني .

وفي أقسام الكيمياء والفيزياء والفلك والطب . . . إلخ تدرس مناهج محشوة بايحاءات فلسفية أو وثنية ، في العبارات المسمومة مثل : المادة لا تفنى ولا تستحدث . خلقت الطبيعة هكذا . . هيأت الطبيعة .

وكذلك تعمد المناهج إلى تفسير الزلازل والبراكين وسقوط النجوم والكسوف تفسيرا ماديا صرفا – فكل المناهج تتصف بالطابع المادي .

وأما المقررات الأدبية البحتة فنجد أنها فاقت المقررات العلمية ، فصيغ التاريخ [419] في قالب غربي مقسم إلى ثلاثة عصور كبرى :

العصور القديمة ، والعصور الوسطى ، والعصور الحديثة .

وكلها تبين أهمية الحضارة الأوربية وتغفل الحضارة الإسلامية المميزة . كما تخفي هذه المناهج الاستعمار الأوربي وخاصة في العالم الإسلامي . والعالم الجديد . وتظهر الأوربيين بمظهر رسل الحضارة ، وأهل الفكر والعلم . وأن الحضارة الأوربية هي خلاصة الحضارات وأهمها ، ولا تتقدم الأمم إلا باحتذائها ، وأخذها .

كما حشيت مقررات التاريخ بدسائس المستشرقين وسموم المبشرين وكتبت بأسلوب شديد التأثير بالأساليب الغربية التي تفسر التاريخ تفسيرا ماديا أو فلسفيا خاصا أو اقتصاديا ، وكتب التاريخ الإسلامي على شكل سلسلة عنيفة من الصراعات والدسائس والفتن وأغفلت الدعوة الإسلامية تماما ، ودور المسلمين في الرقي البشري ، وما قدمته الحضارة الإسلامية في انتشال الأمم من وهدة الجهل والانحطاط والجاهلية .

ونجد في كتب التاريخ إحياء الثغرات الإقليمية الجاهلية وعرضها من زواياها البراقة التي تغري باعتناقها والإعتزاز بها والإهتمام بمعرفته كما حدث بالنسبة لتاريخ

---

[419] لقد دعا الإسلام إلى الوعي بالتاريخ الماضي والقائم جميعا وصولا إلى الحتمية الوحيدة وهي الحياة الآخرة ، التي تكون هذه الحياة الدنيا منطلقها ومجالها العملي وتكون هي المقر الأخير بالحساب والجزاء ، ومن هنا فإن للإنسان دوره في صناعة التاريخ وبناء المجتمعات وإنشاء الحضارة وله أيضا مسئوليته عن الوجهة التي يتجه إليها في هذا العمل . (الجندي التحديات – ص 96) .
وللتاريخ الإسلامي عصوره : ما قبل الإسلام – الجاهلية – وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، وعصر الدولة الأموية ، وعصر الدولة العباسية ، وعصر الدولة العثمانية . . ويتصل تاريخ الإسلام برسالة الأنبياء السابقين وتاريخهم !

الفراعنة والأشوريين والسومريين والبابليين والفنيقيين والكنعانيين وغيرهم . . وأخطر من هذا أن المناهج تقوم بنصب مثل عليا جديدة أمام أجيال المتعلمين المسلمين فتعرض لهم تاريخ أوربا وحياة أبطالها وعلمائها ومذاهبها الفلسفية والاجتماعية ونظرياتها العلمية بطريقة لامعة جذابة ليتم استقطاب المسلمين عن دينهم بإحدى الطريقتين [420] :

أ- الاعتزاز بما قبل الإسلام وفي هذا فرقتهم وتباعدهم .

ب- طريق الفناء في الحضارة الغازية وفي هذا محوهم وردتهم ، وحتى مادة المطالعة فكأنما هي ملخص موجز للغزو الثقافي الغربي إذ تحوي موضوعات منوعة يجمعها الإعجاب بالغرب وتمجيد حضارته ورجالها والإقليمية والطبقية ، وتخلو من التصورات الإسلامية والقيم الإيمانية إلا قليلا .

6- استيراد المذاهب اللادينية في الفكر والأدب :

كان من أخطر الأدوات العصرية التي اعتمد أعداء الإسلام عليها **الصحافة** باعتبارها أكثر شيوعا وأبعد تأثيرا سواء كانت محلية أو مستوردة مجلوبة من وراء البحار والحدود ، تحمل للمسلمين قيما جديدة وتحفل بضروب من الأفكار المخربة وأحاديث الجنس الفاضحة والصور العارية والقصص البذيئة والمقالات والبحوث التي تتناول كثيرا من المقدسات بالنقد والتجريح في غير ما حرج [421] .

وليس من قبيل الصدف أن تنشأ الصحافة في بلاد الإسلام على يد **النصارى** ففي مصر قلب العالم الإسلامي نشأت الصحافة على يد الموارنة النصارى ،

فدار الأهرام لآل تقلا ، ودار الهلال لآل زيدان ، ودار المقطم لآل صروف . وازدهرت هذه بحماية الحراب الانجليزية ، وعاثت فسادا وتشويها لكل القيم في ظل الاحتلال [422] .

يقوب جب : " وللوصول إلى هذا التطور البعيد . . يجب ألا ينحصر الاعتماد على التعليم في المدارس – بل يجب أن يكون الاهتمام الأكبر منصرفا إلى خلق رأي عام والسبيل إلى ذلك هو الاعتماد على الصحافة " . ثم يقول : " الصحافة هي أقوى الأدوات الأوربية وأعظمها نفوذا في العالم الإسلامي " [423] .

وبالصحافة سارت النهضة الفكرية والأدبية الحديثة مسارا غريبا حتى آل الأمر إلى الواقع الفكري والأدبي المعاصر ، فنقلت الدارونية والفرويدية إلى مجال الأدب

---

[420] فتح الله ص 71 .

[421] فتح الله ص 84 .

[422] انظر : محمد قطب – واقعنا المعاصر ص 238 – 242 .

[423] انظر الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 203- 205 عن وجهة الإسلام .

بطريق الترجمة أولا ثم الدراسة المستفيضة ، كما استورد المسلمون المذاهب الفكرية الحديثة مثل الإلحاد والشك واللاأدرية واللامعقول . . فعملوا بذلك على تفريغ الكلمة العربية والحرف العربي من مدلوله ومعناه باسم الرمزية وباسم العقل الباطن وباسم القاموس الخاص بالمفكر أو الأديب [424] وتعرض الأدب إلى ظاهرة التقسيم والتجزيء .

وكان من ضمن القائمين بهذه الحركة إسماعيل حمد أدهم (ت عام 1353 هـ / 1940 م) وهو مستعرب من أصل مزيج تركي روسي ، كان على صلة بالاستشراق الروسي . وجاء إلى مصر من تركيا بعد إعلان العلمانية وحاول نشر الإلحاد فيها : فألف رسالة صغيرة عنونها : لماذا أنا ملحد ؟ وطبعها في مطبعة التعاون بالاسكندرية بين فيها أنه من جماعة : المجمع الشرقي لنشر الإلحاد [425] .

وأما اسماعيل مظهر (ت 1382 هـ / 1962 م) فقد ركز على فكرة الدراونية والأصل الحيواني للإنسان [426] في مقالاته فيقول بخبث وتلاعب بالألفاظ :

" اكتفت الأديان بالقول بأن الغاية من خلق الإنسان والجن هي أن يعبدوا الله ، فكرة حسنة ولكنها غير صحيحة [427] ، إذ لو صح هذا ، إذن لاعتقد بجانبه بأن الله في حاجة لأن يعبده الإنس والجن ! ولظهر النظام الكوني في مجموعه بمظهر شيء ما خلق ليعضد الحياة الإنسانية التي يجب أن تسخر لعبادة الله ، وهذا في معتقدي أبعد الأشياء عن أن يكون الغاية من وجود الإنسان " [428] .

وتحرر منصور فهمي (ت عام 1378 هـ / 1958 م) في أطروحته : (حالة المرأة في التقاليد الإسلامية وتطوراتها بإشراف المستشرق اليهودي ليفي برول) من الإلتزام بحقيقة الوحي في تفسير سلوك النبي صلى الله عليه وسلم وعلاقاته وتشريعاته [429] . وطرح الشيخ علي عبد الرازق قضية العلمانية لأول مرة في صميم الفكر الإسلامي في كتابه الإسلام وأصول الحكم ، ولا ترجع خطورة الكتاب لدقته في البحث ، فالكتاب يمتاز بجمال أسلوبه أكثر من امتيازه بالتزام المنهج العلمي ، فهو يعتمد على المستشرقين فيما لا يوثق بهم فيه ، ويفرط تفريطا ظاهرا في الرجوع إلى المصادر العربية الأصيلة على كثرتها وأهميتها وتوافرها [430] . ويكثر من وضع الفرضيات التي

---

[424] د. عدنان زرزور – قضية ورأي – الشرق الأوسط ص 15 السبت 26 / 10 / 1985 م .

[425] العلمانية – سفر – ص 613 .

[426] انظر نفسه ص 614 .

[427] مخالفة صريحة لقوله سبحانه وتعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

[428] العلمانية – سفر – ص 614 .

[429] الجندي – العالم الإسلامي ص 343 / د. محمد جابر الأنصاري تحولات الفكر ص 21 والأطروحة بالفرنسية سنة 1913 م ولم تترجم للعربية .

[430] الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 85 .

تنقلب بعد قليل عنده إلى نظريات مسلمة ، وهو جريء وعنيف في مصادمة عواطف الناس وفي تحدي مشاعرهم وفي التشكيك الساخر أحيانا – فيما تطمئن إليه نفوسهم دون أن يقدم الأدلة القوية الواضحة على ما يذهب إليه . وقد صدر الكتاب في ظروف إسلامية حرجة بعد سقوط الخلافة العثمانية . وخطورة الكتاب في الواقع تكمن أنه استند لأول مرة في التاريخ الفكري الإسلامي لتبرير العلمانية ضمن إطار الإيمان الديني ذاته وليس من منطلق العلمانية الخالصة المنافية للدين . وفي هذا تكمن خطورة أفكاره .

كما أصدر الدكتور طه حسين كتابه في الشعر الجاهلي عام 1345 هـ / 1926 م مستخدما منهج الشك الديكارتي والنقد التاريخي الأوربي في غربلة الروايات والنصوص الدينية بما في ذلك آيات القرآن الكريم . وهنا تكمن خطورة هذا الكتاب وليس في مجرد تشكيكه بمصادر الشعر الجاهلي . ومن هذا المنطلق كان طه حسين يؤكد وقتها أن العلم في ناحية والدين في ناحية أخرى وأن التوفيق بينهما محال [431] .

واستمرت أفكار الغرب المنحرفة تظهر في الأدب العربي من إسماعيل مظهر إلى لطفي السيد ومنصور فهمي وأمينا لخولي وطه حسين إلى صادق جلال العظم [432] ، تخفى بعضهم تحت أقنعة البحث العلمي أو التمذهب الأدبي حتى لا يصدم مشاعر المسلمين فتنصرف عن إنتاجه وبعضهم هاجم مشاعر المسلمين وعقيدتهم بكل جرأة وصراحة ، كما سبق ، بل أن بعض الأدباء في محاضراتهم وكتاباتهم زيفوا التاريخ ووضعوه في إطار عجيب من الأفكار المتناقضة المنحرفة كجورجي زيدان في رواياته عن تاريخ الإسلام . والدكتور لويس عوض المستشار الثقافي للأهرام إذ جعل – في محاضراته بمعهد الدراسات العربية – المعلم يعقوب العميل الذي استغله المحتل الفرنسي في غزو نابليون مصر بداية القومية المصرية والكفاح القومي ، وهو نفسه الذي كون فيلقا لضرب الشعب المصري وتحطيم ثورته ونهب أمواله . كما يعتبر الحملة الفرنسية هي بداية تاريخ مصر القومي وتحريرها [433] ، ويشيد الدكتور عوض بمحاكمة الفرنسيين لسليمان الحلبي قاتل كليبر ، ويفسر الصراع أثناء الحملة الفرنسية بأنه بين قوتين أجنبيتين : الفرنسيون والأتراك . الأول يحمل مباديء الثورة الفرنسية ويسعى لإيقاظ القومية المصرية ، والثاني يختص بكل الموبقات والصفات الكريهة .

كما وضع السيد عمر مكرم ومحمد الكريم والمحروقي وحسن طوبار وسليمان الحلبي في كفة والجنرال يعقوب وفرط الرمان في كفة أخرى على قدم المساواة بل يفضل من كان في جانب فرنسا لأنهم يمثلون حسب رأيه الجانب الأفضل لأنهم كانوا

والشيخ علي خريج أزهري وقاضي شرعي . أصدر كتابه 1925 م بعد أن أصدرت الحركة العلمانية الكمالية كتيبا بررت فيه لجوءها إلى العلمنة ببعض المبررات المستمدة من مباديء الإسلام ذاته . د. الأنصاري ص 21 .

[431] انظر / محمد الخضر حسين شيخ الأزهر – نقض الشعر الجاهلي لطه حسين .

[432] في كتابه نقد الفكر الديني – انظر : الميداني – صراع مع الملاحدة حتى العظم .

[433] كشك – الغزو الفكري ص 132 ، انظر الجبرتي ج 3 ص 15 .

مـع التطـور . . مـع التـاريخ . . مـع بعـث القوميـة . . فيعقـوب هـو حامـل بـذور القوميـة المصـرية . . ويسـتحق أن يوضـع كمـا يقـول الـدكتور : مـع محمـد علـي وعلـي بـك الكبيـر وعبد الناصر لأنهم كانوا جميعا أدوات في يد هذا الشعب العظيم [434] ! ! .

وفـي المسـرحيات تمسـخ القـيم والمبـاديء ففيـي مسـرحية لعبـد الـرحمن الشـرقاوي مثلا :

لـم يـذكر مـن أهـداف المقـاتلين الجزائـريين شـيئا مـن الإسـلام والعروبـة – بـل يعـري الثـورة الجزائريـة مـن حقيقتهـا حـين يصـر علـى أن أهـدافها : الحريـة – الإخـاء – الأمـن والحـب – وحيـاة أفضـل – بـل ويجعـل البطلـة الفرنسـية العـاهرة سـيمون هـي بطلـة القصـة – مـات زوجهـا فـي الهنـد الصـينية فجـاءت إلـى الجزائـر لتقـوم بـأهم عمـل ثـوري فـي المسرحية – وتنشد هذه : من أجل فرنسا ما أصنع ! وتتعانق مع هند الجزائرية .

ويشـتد فـي المسـرحية الحـرص المبـالغ فيـه علـى كرامـة فرنسـا وشـرفها ، وإظهـار الحنـان المسـيحي مـن الفرنسـيين – أمـا الإسـلام فـلا شـيء فـي حيـاة الثـورة الجزائريـة . إلا للجواسيس والمجانين .

والمسـرحية تحجـب طبيعـة الحـرب الصـليبية التـي تشـنها فرنسـا ممثلـة الغـرب الصليبي ضد الثورة الإسلامية الجزائرية وجهادها [435] .

وظهـرت أيضـا الأفكـار الغربيـة المنحرفـة عنـد الشـعراء وخاصـة شـعراء العـراق كالرصافي والزهاوي .

فـامتلأ ديـوان جميـل صـدقي الزهـاوي (ت عـام 1355 هـ / 1936) بالأفكـار الإلحادية التي لا تخرج في جملتها عن نظرية دارون فمن رباعياته :

ما نحن إلا أقرد من نسل قرد هالك

فخر لنا ارتقاؤها في سلم المدارك

ويتأثر بنظرية هيجل الأثيرية في قوله :

ولعل الأثير في كل أرض وسماء كالله في التأثير

ولعل الذاتين واحدة في الأصل والخلف جاء في التعبير

---

[434] نفسه .

[435] انظر نفسه ص 87 – 123 .

وكان من نتيجة شيوع هذه الأفكار في الفكر والشعر والصحافة التمهيد لانتشار الأفكار المادية ولا سيما الشيوعية وتغذيتها بروح الشك العام في كل شيء تقريبا حتى أصبح الشباب المتعلم في العالم الإسلامي فريسة الشكوك القاتل والوساوس الشيطانية فانتظم كثير منهم في صفوف المنظمات اليسارية أو القومية وغيرهما من الأحزاب اللادينية لا سيما بعد الحرب العالمية الثانية حتى أصبحت الاشتراكية موضة العصر كما يقولون .

فبعد نجاح الثورة البلشفية في روسيا عام 1917 م / 1336 هـ تحولت للاهتمام بالشرق وأسست الأممية الثالثة عام 1919 م / 1338 هـ وهو التاريخ الذي اتخذ منه اليساري اللبناني يوسف يزبك تقويما جديدا محل التاريخين الميلادي والهجري . وقد انحصرت الأفكار الشيوعية قبل ذلك في نطاق العلمانيين النصارى ، ثم بدأت تتسلل في أوساط المتعلمين المسلمين على نطاق ضيق أولا فقام الكاتب المصري مصطفى حسنين المنصوري (ت عام 1946 م / 1348 هـ) بتأليف كتابه : تاريخ المذاهب الاشتراكية ليصبح بهذا العمل أول اشتراكي مسلم في العالم العربي . وتأسس الحزب الاشتراكي المصري عام 1920 م / 1339 هـ . **وترجم خالد بكداش زعيم الحزب الشيوعي السوري البيان الشيوعي** عام 1933 م / 1352 هـ .

وبدأت أفكار القومية تغزو المسلمين بمفهوم علماني على أيدي النصارى أولا إلى أن تبناها ساطع الحصري (1880 – 1968 م / 1298 – 1388 هـ) الذي أنكر أن يكون الدين عنصرا في القومية [436] ، وتكونت الأحزاب ذات الأفكار المستوردة كالحزب القومي السوري عام 1932 م / 1351 هـ **وتبلور حزب البعث عام** 1940 م / 1359 هـ .

وساهمت المذاهب الأدبية مع المذاهب الفكرية في انزلاق المسلمين إلى التردي الفكري فالرومانسية وجدت لها صدى في روايات جرجي زيدان التي شوه فيها التاريخ الإسلامي ليحاكي الرومانسيين الانجليز ، وترجمت أعمال معظم أدباء أوربا المشهورين من شكسبير إلى تولستوي ومع أن بعضها روائع إنسانية فقد كان الاتجاه الإباحي هو الطاغي على الترجمات كما في أعمال الكسندر دوماس وأميل زولا وأناتول فرانس . وظل الاتجاه الإباحي يسيطر على حركة الترجمة تقريبا تحت ستار الواقعية حتى الحرب العالمية الثانية . ثم ظهرت أصدار اللامعقول على أثر نضوجها في الغرب حينذاك . كما ظهرت الكتابة الأسطورية التي اتخذها سارتروكامو أسلوب التعبير عن فلسفة الضياع والعبث ، إلا أنهما استخدما أساطير اليونان ، أما العرب أمثال طه حسين (في على هامش السيرة وعلي وبنوه) وتوفيق الحكيم (في أهل الكهف وزينب . . .) فقد استخدموا التاريخ الإسلامي والقصص القرآني .

---

[436] خدوري د. مجيد – الاتجاهات السياسية في العالم العربي – الترجمة العربية ص 208 .

وقد أسهمت وسائل الإعلام – من صحافة وتلفزيون وإذاعة ومسرح التي يدير معظمها أناس علمانيون – اسهاما قويا في تنمية الاتجاه الإباحي في الفكر وتعميمه وبالتالي في هبوط الأدب أسلوبا ومضمونا كما في كتابات إحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ وشيعتهما نثرا ، وأعمال نزار قباني وزمرته شعرا .

وظهرت شعارات علمانية تطالب بفصل الأدب عن الدين بل عن الأخلاق ، فنجد شعارات : الفن للفن ، الأدب غير المتزم ، والأدب للشعب ، والأدب للواقع . . ومن الذين نادوا بفصل الأدب عن القيم الدينية سلامة موسى .

وكما برزت الوجودية [437] في انتاج أنيس منصور والماركسية في كتابات نجيب محفوظ ، برز الاتجاه الضائع الناهج نهج اللامعقول في شعر : بدر شاكر السياب العراقي والشاعر اللبناني الملقب أدونيس واسمه الأصلي أحم سعيد علي والذي تنصر .

والاتجاه إلى اللامعقول لم يفض إلى الثورة على الأدب الأصيل في مضمونه ومحتواه بل تعداه إلى الشكل والأسلوب فظهر ما يسمى بالشعر الحر الذي بدأه باكثير وبدر شاكر السياب بترجمة الشعر الأوربي إلى عربية منثورة ، بعد الحرب العالمية الثانية في الوقت الذي كان يتسلل فيه إلى العالم العربي صراخ وعويل من ركام أوربا شعرا ونثرا وقصصا ملأى بالثورة والنقمة والشبق وبكل ما يدهش ويثير .

ومن الذين اشتهروا بهذا الشعر نزار سليم وحسين مروان وبلندر الحيدري وعبد الوهاب البياتي ورفعت الجادرجي وحسين مروان في العراق ونزار قباني في الشام ومحمود درويش في فلسطين المحتلة .

وفيما يلي قطعة من هذا الشعر تبين انسلاخ الشاعر من عقيدته وموطنه ، والقطعة للشاعر محمد الفيتوري يقول فيها :

نار خطايانا

تسيل في حنايانا

فلنتكيء على عظام موتانا

ولنصمت الآنا

برج كنيسة قديمة وراهب قلق

وغيمة تشد قدميها وتعبر الأفق

---

[437] انظر زيارة سارتر وعشيقته سيمون إلى مصر / الغزالي – الإسلام في وجه الزحف الأحمر ص 36 – 37 .

ورجل بلا عنق . . .

وامرأة على الرصيف تنزلق

وقطعة في أسفل السلم تختنق

وصوت ناقوس يدق

يرسم دورة على الفضاء ، ويدق

يقول الشيخ محمد الغزالي : بعد أن أورد هذا الشعر . . . ودعك من أضغاث الأحلام التي ينقلك إلى جوها هذا الكلام المفكك ، ودعك من تقطع الروابط العقلية بين هذه الألفاظ المتصيدة فهي كما قيل : سمك ، لبن ، تمر هندي . .

ولكن الشيء الذي لا تدعه والذي يثير انتباهك حتما هو جراثيم الاستعمار الثقافي أو الغزو الصليبي [438] الذي سيطر على هذا الشاعر الهائم ، فهو في القاهرة المدينة المعروفة بشمسها الزاهية ، ومآذنها السامقة وصبغتها الإسلامية الأولى ، ولكن التبعية الفكرية والنفسية الغالبة على هذا الشخص التائه جعلته لا يرى إلا الغيوم وأبراج الكنائس والرهبان القلقين ورنين النواقيس وكأنه في لندن أو روما لا في مصر [439] .

وقد لجأ بعض الأدباء إلى الغوص ، بهدف تسميم أفكار الشباب باسم الحداثة التي أحيطت بهالة إعلامية كبيرة . وهي مذهب فكري غربي ، تلت الرمزية في الظهور ، ووجد هذا المذهب من يدعو إليه في عالم الإسلام ،

ويدعو إلى تغيير وظيفة اللغة الوضعية بإيجاد علاقات لغوية جديدة تشير إلى مواضع لم تعهدها من قبل . . . وتغيير وظيفة الحواس من طريق اللغة الشعرية بحيث لا يستطيع القارىء أو السامع أن يجد المعنى الواضح المعهود في الشعر الرمزي ، بما يحويه من تمرد الشعر على التراث ، وعلى الماضي ، وقطع أية صلة له مع المباديء الأخلاقية والدينية . . .

ومن هؤلاء الكتاب : أدونيس المنظر الفكري الأول للمحدثين العرب ، وصاحب كتاب (الثبات والمتحول) الذي وصفه بعضهم بأنه انجيل الحداثيين . وقد ركز فيه

---

[438] كانت فرنسا قد عملت لمدينة الجزائر شعارا انتشر في العالم كله بواسطة الطابع البريدي الذي رسم عليه صليب ضخم في السماء منتصرا على هلال صغير منكس فوق البحر . يشير بذلك إلى انتصار الصليبية على الإسلام (عمار أوزيجان – الجهاد الأفضل ص 29 – 30) .

[439] الغزالي – حصاد الغرور ص 194 – 195 / وانظر مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ص 97 – 106 .

على رموز الإلحاد والزندقة وأهل البدع في التراث ، واعتبرهم أهل المعاناة في سبيل حرية الفكر وتجاوز السائد .

ومنهم محمد جبر الحربي ، ومحمد التبيتي ، وعبد العزيز المقالح ، والبياتي ، وصلاح عبد الصبور ، وحسين مروة الأب الروحي للحزب الشيوعي اللبناني والذي قتل يوم 10 / 8 / 1407 هـ في لبنان ، وعبد الله العروي ، ومحمد عابد الجابري ، وأمل دنقل ، وبدر شكر السياب ، ومحمود درويش ، وأحمد الربيعي ، وقاسم حداد . وغيرهم .

واستبعد الحداثون العرب الدين من معاييرهم وموازينهم ، إلا أن يكون ضمن ما يسمونه بالخرافة والأسطورة . فهم يسعون من خلال الغموض إلى إنشاء وإيجاد واقع فكري جديد منفصل ومقطوع عن واقع الأمة الفكري ، وعن ماضيها العلمي والعقلي والأدبي ، في الشكل والمضمون . فهم يحطمون الإطار العام للغة العربية لتحويلها مع الزمن – من خلال استبدال مفرداتها وتراكيبها ومعارفها – إلى لغة جديدة لا صلة لها باللغة العربية الفصحى المعروفة ، تماما كما حصل للاتينية التي تحولت بهذه الطريقة إلى لغات متعددة .

وقصائد أهل الحداثة وكتاباتهم لا تخلو من الحط من الدين ، والنيل من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، والحط من القرآن الكريم ، والتاريخ . ومن نشر الرذيلة ، وسوء الخلق ، والترويج للأفكار الهدامة . كما في قصائد من ذكرنا من أسماء [440] .

إن ما وصل إليه حرب الفكر هذا أكبر وأشد من القتل لأنها فتنت أجيالا متتابعة من المسلمين ولا تزال – فتنة عارمة وتركتهم على الردة الصامتة البالغة غاية الفكر حين دثروها لهم بثوب زور ودلسوها عليهم باسم التقدم والحضارة ثم بلغت الغفلة غاية مداها حين قابل المسلمون ذلك بالإقبال وكان خليقا أن يستثير فيهم عزائم النزال [441] والجهاد .

ورغم هذه الأعراض الفكرية التي غلبت على واقع المسلمين اليوم ، إلا أن الفكر الإسلامي الأصيل بقي حيا وشق طريقه في أوساط الأمة بأصالته حتى اضطر أصحاب الأباطيل أن يغيروا وأن يبدلوا في أساليبهم بل أن ينحنوا في كثير من الأوقات أو أن يتراجعوا عن أفكارهم [442] .

---

[440] انظر كتاب الحداثة في ميزان الإسلام – لعوض بن محمد القرني .
تقديم الشيخ عبد العزيز بن باز . وانظر : جريدة المدينة – الملحق الأدبي 17 / 8 / 1407 هـ .

[441] فتح الله ص 30 .

[442] مثل **طه حسين** الذي انحنى وغير أساليبه مرار أمام الفكر الإسلامي . **ومحمد حسين هيكل** (ت 1956 م / 1376 هـ) الذي طرح مفهوماته في الأدب الفرعوني وترجم أبحاثا عن النظرية الوضعية لأوغست كونت

وألف كتابا عن حياة روسو وشرح فكرته عن الدين الطبيعي – عاد وكتب حياة محمد وفي منزل الوحي وقال في زيارته للمدينة المنورة : " لقد كنا نطلب العلم في باريس فرانت علينا شوائب الغرب ولما عدنا إلى أرضنا وقرأنا تراثنا جاءت العودة وقراءة التراث ورائحة التراب تردنا ، كانت ثقافة الغرب كالرمال غطت الحجر الصلب . . وعودتنا كالريح أزالت الرمال عن قلوبنا ، فإذا الحجر الصلب قلوبنا في مانها – (من مقال بقلم محمد حسن زيدان بعنوان : الدكتور محمد حسين هيكل في ذاكرة الأزهر / الشرق الأوسط ص 13 الأحد 2 ذي الحجة سنة 1405 هـ 18 / 8 / 1985 م) .

والدكتور **مصطفى محمود** الذي كتب بعنوان شمعة تحترق مقالا تحدث فيه عن دور الصدفة في حياة الإنسان وعلاقتها بالتخطيط وتكلم عن الكوليرا التي أصابت مصر ، وتابع فيها الرواية الاجليزية للسخرية من الحج والحجاج المسلمين وزمزم . . (انظر كشك أساليب الغزو الفكري ص 47) .

عاد إلى الإسلام وفي رحلة العودة غرق في التصوف ومتاهات الباطنية (انظر كتابه – القرآن – محاولة لفهم عصري – دار الشروق – بيروت مايو (أيار) 1970 م) .

الدارونية في تفسيره (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) ص 73 .

والشجرة – ص 80 .

وفكرته عن الجنة والنعيم ص 86 . وانظر عن المتصوف والراهب واليوجي ص 132 – 133 .

وخالد محمد خالد : صاحب كتاب (هذا أو الطوفان) وكتاب (الديمقراطية أبدا) . انتقل إلى الكتابات الإسلامية – (رجال حول الرسول) . . ومقالاته القيمة في جريدة المسلمون .

الفصل الثاني
واقع العالم الإسلامي
من الناحية الاجتماعية

يستحيل على الإنسان أن ينفرد بنفسه انفرادا تاما وفي هذا آية من آيات الخالق المبدع جل جلاله ، فحاجته إلى غيره حاجة العضو إلى العضو والخلية إلى الخلية فالاجتماع تعبير عن غريزة مستكنة في أعماق نفس الإنسان .

والجماعة صفة لازمة من صفاته ، وإذا وجدت الجماعة وجدت الصلات بين أفراد هذه الجماعة ، وقد نظم الإسلام سلوك الناس والنظام هو العنصر الثالث في سنة بناء المجتمع ، فلا بد إذن أن يتوفر في المجتمع : أفراد وصلات اجتماعية يحددها العرف المتبع وأنظمة تضبط سلوك الأفراد وتبيح لهم الانطلاق في ميدان وتكبح جماح انطلاقهم في ميدان آخر . وينبثق عن كل ذلك سلطة يفترض احترامها [443] ولا بد من الإدراك المتبادل والشعور بالإنتماء إلى هيئة واحدة وهذا الشعور لا يتم إلا بوجود مبدأ يصدر عنه أفراد الجماعة وعقيدة يشترك جميع الأفراد في احترامها والحفاظ عليها والدفاع عنها وهذه العقيدة المشتركة هي العنصر الرابع في بناء المجتمع وهي أعظم العناصر السابقة أهمية وأكبرها خطرا ذلك أنها تتحكم فيها كلها وتوجهها جميعها الوجهة التي ترضاها ، فهي التي تحدد الصلات الاجتماعية وهي التي ترسم نهج السلوك ، وهي التي تضع قواعد المجتمع وتقيم نظمه وتهدي إلى مثله [444] .

والمجتمع الإسلامي هو ذاك المجتمع الذي تميز عن المجتمعات الأخرى بنظمه الخاصة وقوانينه السماوية وأفراده الذين يشتركون في عقيدة واحدة ويتوجهون إلى قبلة واحدة ولهذا المجتمع وإن تكون من أقوام متعددة وألسنة متباينة خصائص مشتركة وأعراف عامة وعادات موحدة [445] ففيه مقومات المجتمع القوي المتماسك ، بطابع واضح متميز فلو أن إنسانا سار في العالم الإسلامي وتنقل في تطوافه من مدينة جاكرتا متجها إلى أقصى الغرب حتى بلغ مدينة طنجة ومر في مسيرته هذه على ختلف البلاد الواقعة على محور جاكرتا – طنجة لوجد ظاهرات اجتماعية تكاد تسيطر على هذه البلاد جميعها [446] .

---

[443] د. محمد أمين المصري – المجتمع الإسلامي – ص 12 – 14 .

[444] نفسه ص 16 .

[445] نفسه ص 17 .

[446] نفسه ص 33 .

فقد جاء الإسلام بتربية الإنسان تربية فطرية سليمة فأقام بناءه على تقوى الله ونظر إلى الكون والإنسان والحياة نظرة كلية شاملة لجميع نواحيها ، وأعطى تفسيرا مقنعا لما قبل الحياة وما بعد الحياة ، وتظهر هذه النظرة الكلية بوضوح في :

1- أن الإسلام جاء لجميع البشر : (**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**) [447] .

2- اهتم الإسلامية بالناحية المادية والروحية في حياة الإنسان ، واهتم بالحياة الدنيا والآخرة . (**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**) [448] .

3- اهتم بالإنسان كفرد وعضو في مجتمع ، كما اهتم بالمجتمع [449] .

ورسم الإسلام مثلا أعلى غير ذلك المثل الأعلى للجاهلية فالشجاعة والمروءة التي لا حد لها ، والكرم إلى حد الإسراف ، والولاء التام للقبيلة ، والثأر ، قام الإسلام بوضع قيم أسمى منها : فالخضوع لله والانقياد لأوامره واجتناب نواهيه والتحلي بالصبر بما يحمله من معنى الشجاعة وضبط النفس وتحمل المشاق في سبيل بلوغ الهدف وإخضاع المنافع الشخصية لأوامر الله ، والقناعة وعدم التفاخر بالتكاثر بالأموال والأولاد ، وتجنب الكبر والعظمة [450] . كل ذلك من مقومات الشخصية المسلمة المتميزة المتوازنة فأقام بذلك نظاما إسلاميا يتصل بجميع نواحي حياة الإنسان وتتبع قيمه من التقوى والإيمان بهذه القيم باعتبارها جزءا من العقيدة التي تنظم حياة الفرد والمجتمع ، وفي ظل هذا النظام يكون سلوك الإنسان صادقا ونابعا من الإيمان بصحة ما يقول أو يفعل على أساس أن السلوك السوي يؤدي إلى مرضاة الله ويؤدي في الوقت نفسه إلى سعادة المجتمع ، وقوله وسلوكه مع الناس ومعرفة قدر نفسه ، فيوجد التوازن في النفس والمجتمع ويبتعد عن الازدواجية المقيتة .

ومن القيم الاجتماعية التي بثها الإسلام قيم المساواة والحق والعدل والرحمة والأمانة والإحسان والبر والوفاء وحسن الصلة في المجتمع ، وأقر قيما سلوكية تفصيلية تؤدي إلى التوازن الاجتماعي والاستقرار النفسي كالاستئذان في دخول الأبواب ، وتأدية التحية ، والقول الحسن ، وعدم السخرية من الآخرين ، وحث على تحمل المسئولية .

---

[447] سورة الحجرات الآية 13 .

[448] سورة القصص الآية 77 .

[449] وبذلك يتميز الإسلام عن الاشتراكية التي تهتم بالمجتمع دون الفرد وتنظر إلى الفرد كسن في دولاب ، فغاية المجتمع تبرر الوسيلة . وعن الرأسمالية التي تهتم بالفرد دون المجتمع . ولا مانع لهذا الفرد أن يستعمل كافة الأساليب للوصول إلى أهدافه – فالغاية تبرر الوسيلة –

[450] انظر ما قاله جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لنجاشي الحبشة / ابن هشام ج 1 ص 336 .

ولـن يعوزنـا بالتـدليل علـى كـل ذلـك مـن كتـاب وسـنة فأينمـا توجهـت تجـد الـدليل ، وتـاريخ المجتمـع الإسـلامي العملـي يثبـت ذلـك . ويكفـي فـي هـذه العجالـة الأدلـة السـريعة الآتية :

قال تعالى : **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)** [451] .

وقـال تعـالى : **(إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُـونَ إِخْـوَةٌ فَأَصْـلِحُوا بَـيْنَ أَخَـوَيْكُمْ وَاتَّقُـوا اللَّهَ لَعَلَّكُـمْ تُرْحَمُونَ)** [452] .

وقال تعالى : **(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)** [453] .

وقال تعالى : **(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ)** [454] .

وقـال تعـالى : **(إِنَّـا خَلَقْنَـاكُم مِّـن ذَكَـرٍ وَأُنثَـى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِـلَ لِتَعَـارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)** [455] .

وقال صلى الله عليه وسلم :

" مثـل المـؤمنين فـي تـوادهم وتـراحمهم وتعـاطفهم كمثـل الجسـد إذا اشـتكى منـه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " [456] .

وقال عليه الصلاة والسلام : " من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم " [457] .

وقال " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " [458] .

وجعـل صـلى الله عليـه وسـلم : المجتمـع فـي تكافلـه وتضـامنه وعمـق مسـئوليته : " مثل قوم استهموا في سفينة " [459] .

---

[451] سورة الأنبياء الآية 107 .

[452] سورة الحجرات الآية 10 .

[453] سورة الحشر الآية 9 .

[454] سورة التوبة الآية 71 .

[455] سورة الحجرات الآية 13 .

[456] متفق عليه / البخاري – أدب 27 ، مسلم بر 66 ، 67 .

[457] أخرجه الطبراني في الأوسط ، والحديث ضعيف / انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني مجلد 1 ص 321 رقم 310 .

[458] رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد .

[459] رواه البخاري والترمذي وأحمد .

ومن هنا جاء وصف الأمة اللإسلامية (خير أمة أخرجت للناس) وأنها (أمة الوسط) قال تعالى : (**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**) [460] .

وقد بقي المجتمع الإسلامي سليما قويا ، (وللمسلم حرمة كبيرة) يقول عمر بن الخطاب وهو يوصي أحد قادته بالجيش : وأن رجلا أحب إلي من مائة ألف دينار [461] . ويقول : " وتالله لمسلم أحب إلى مما حوت الروم " [462] عندما استأذنه معاوية في غزو الروم بحرا .

وفي زمن عمر بن عبد العزيز تجمع الزكاة فلا يجد المسلمون من يأخذها [463] ، وفي زمن المهدي العباسي لا تجد سائلا [464] في أرجاء الدولة . .

وفي ظل المسلمين في الهند تفتح المطاعم المجانية لجميع سكان الهند الهنادكة والمسلمين عند حدوث المجاعات فتمر المجاعات دون حدوث هزات اجتماعية ! .

نعم بقي المجتمع الإسلامي قويا إلى أن تضافرت العوامل الكثيرة كما سبق عليه ، فلجأ إلى العزلة وأصابه الجمود ، والجمود كما سبق وقلنا ، نوع من أنواع المحافظة على الذات ، وأصيب كنتيجة حتمية للفقر والمرض والجهل في أخلاقه وتقاليده وعاداته ، فغلبت عليه الأعراف الجاهلية والعادات المستحدثة على الأخلاق الإسلامية الأصيلة ، غير أن الناس بحكم العاطفة الإسلامية الموروثة ، وبما جبلوا عليه من الغيرة على فضائل الخلق ، كانوا ينسبون كل قيم وموازين وأعراف مجتمعهم للدين ، أو على الأقل يلتمسون لها فيه أصولا ، ورسخ ذلك الإنحراف المتمسح بالدين حتى أصبح هو الواقع المألوف الذي كان لدى الناس استعداد للوقوف في وجه من يحاول تغييره سواء أكان مجددا إسلاميا مخلصا أو متجددا مفسدا أجنبيا ، وظهرت محاولات إسلامية جادة مخلصة للنهوض بهذا المجتمع على أسس إسلامية صحيحة مثل : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والدعوة السنوسية وجمعية العلماء في الجزائر والسلفية في المغرب المرتبطة بابن حنبل وابن تيمية وحركة الإمام محمد بن عبد الوهاب على حد تعبير العلامة عادل الفاسي [465] ودعوة السرهندي والدهلوي في الهند ، وحركة شركة إسلام ومجلس العلماء و الجمعية المحمدية في أندونيسيا ، وحركة عثمان دنفديو ، وحركة أحمدو بللو في إفريقيا الوسطى والغربية وحركة الإخوان المسلمين في مصر . وغيرها من الحركات على اتساع ساحة العالم الإسلامي ، وقد أحدثت هذه الحركات بالفعل تغيرات اجتماعية وتحولات نحو الإسلام ، ولكنها جاءت في عهد أعاصير هبت على

---

[460] سورة آل عمران الآية 110 .

[461] الطبراني ج 4 ص 254 / البداية ج 7 ص 119 .

[462] الطبري ج 4 ص 290 .

[463] فقد أغنى عمر الناس – تاريخ الخلفاء ص 235 .

[464] الكامل ج 5 ص 73 .

[465] أنور الجندي – العالم الإسلامي ص 288 .

هـذا المجتمـع وأصـابته بشـدة حـين تـم خضـوع بـلاد الإسـلام للإسـتعمار الغربـي ، فلـم تسـتطع أن تـرد المجتمـع الإسـلامي إلـى أسسـه ، فأصـابته أعاصـير التحلـل وسـادته الأفكار المتناقضة والازدواجيات في كل أمور الحياة .

فقـد شـرع المسـتعمرون فـي بـلاد المسـلمين فـي تنفيـذ خطـتهم التـي كانـت ترمـي إلـى أمرين أساسيين [466] :

أولهمـا : إنشـاء جيـل متجـانس لهـم فـي ثقـافتهم ليسـهل علـيهم الاتصـال بـه والتفـاهم معه [467] .

والثـاني : وهـو أخطـر الأمـرين جميعـا أن تخلـو الأجيـال المقبلـة مـن الـدين ومـن الثقافة الإسلامية ومن الحمية الإسلامية .

وكـان لا بـد لبلـوغ هـذه الأهـداف مـن إحـداث انقـلاب جـذري فـي حيـاة المسـلمين يصـادم المنهـاج الإسـلامي فـي جملتـه الأساسـية بحراسـة الجيـوش المسـتعمرة وعلـى يـد مـن ربتهم على منهاجها من أهل البلاد .

بـدأ احتكـاك المجتمـع الإسـلامي المنحـرف عـن الإسـلام بـالمجتمع الغربـي الشـارد عـن الـدين فـي القـرن التاسـع عشـر المـيلادي ، ومنـذ اللحظـة الأولـى أحـس الغـرب – المغـرور بتقدمـه المـادي – بتفوقـه الاجتمـاعي علـى العـالم الإسـلامي الـذي لا شـك أنـه كـان لديـه مـن الفضـائل مـا يفتقـده الغـرب ، لكـن نظـرة الغالـب إلـى المغلـوب لا تسـمح بالرؤيـة الصـحيحة عـادة لا سـيما والـروح الصـليبية الحاقـدة كانـت مـن ورائهـا . وبالمقابـل أحـس المجتمـع الإسـلامي بالانبهـار القاتـل واستشـعر الـنقص المريـر ولـم يتـردد الغربيـون [468] فـي القـول بـأن سـبب تخلـف المسـلمين هـو الإسـلام ، فقـد اسـتمدوا ذلـك مـن الـوهم الـذي كـان يسـيطر علـى أولئـك بـأنهم مسـلمون حقـا . وهكـذا كـان الطريـق مفتوحـا لمهاجمـة القـيم الإسـلامية وتـدمير مقومـات المجتمـع مـن خـلال مهاجمـة ذلـك الواقـع المتخلـف الـذي لا يمثـل الإسـلام ، وكـان النمـوذج الغربـي المشـاهد الـذي فصـل الأخـلاق عـن الـدين يزيـد الأمـر قـوة ووضـوحا . وقـد جهـد الاحـتلال الأجنبـي بشـتى الطـرق حتـى تمكـن مـن تحطـيم مظلـة الأعـراف الأخلاقيـة فـي المجتمعـات الإسـلامية ، فانطلقـت تسـري فـي أوصـالها كـل موبقـات الحضـارة الأوربيـة حتـى وصـلت فـي ظـل الاحـتلال إلـى مرحلـة الشـيوع والإسـتعلان

---

[466] فتح الله ص 61 .

[467] انظر قول اللورد لويد في حفل فكتوريا بالاسكندرية – أنور الجندي – العالم الإسلامي – ص 338 . ورأي جب – الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 203 – 205 . ورأي برنارد لويس في كتابه الغرب والشرق .

[468] انظر رأي كرومر في الإسلام – الاتجاهات الوطنية ص 259 – 262 .

ومن آرائه : " أن الإسلام ناجح كعقيدة ودين ولكنه فاشل كنظام اجتماعي فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي – ولكنه مع ذلك أبدي لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنساني " .

، ثم إلى مرتبة الإستقرار والاستحسان ، ثم إلى درجة الشرعية التي تحميها القوانين الوافدة . ودخل في روع المغلوبين الإنحلال والفساد من ضرورات التحضر والمدنية في جوانبها الصحيحة [469] . وقد ظهر هذا الإنحلال في البداية في السلوك الفردي ، فانحرف الناس عن نهج الدين واستهوتهم مظاهر الحياة الغربية ، فأقبل كثير منهم على الخمور والفجور والقمار والربا ونحو ذلك ، ثم دب دبيب التهاون في الدين فتناول العبادات والعقائد وغيرها من أنواع الإنحلال ، فتكاسل الناس عن أداء العبادات وانتشرت في الجو ضروب من الفلسفة والمذاهب الضالة ، واستمالت الشباب وغير الشباب وصارت العلاقة الجنسية والنزعة الإباحية الشغل الشاغل للسينما وكثير من المجلات والصحف ابتغاء وفرة الربح والدخل ، فانحرف الشباب وفسدت روابط الأسرة ثم عم السيل وطم وانهارت الفضائل الاقتصادية والاجتماعية [470] فشهد العالم الإسلامي موجة في التغيير الاجتماعي دعيت : **التغريب** : وهو تغيير قيم الأمة ومثلها أي تغيير عقيدتها وثقافتها وأخلاقها ، وبعبارة أوضح إبعاد المسلمين عن دينهم باسم المدنية أو التطور أو التقدم . وقد بدأ التغريب في العالم الإسلامي على يد المستعمرين ومؤسساتهم التبشيرية والاستشراقية أي بالإرساليات . ولكنه وفق الأسلوب الجديد أصبح على أيدي المسلمين أنفسهم من تلاميذ المستشرقين والمبتعثين ، يساندهم في تنفيذ هذا المخطط بعض الحكام من المسلمين وقد اتخذ هذا خطة استراتيجية بعيدة المدى حتى لا تحس الأمة الإسلامية بالهدف البعيد ، بل قد تحس بالأسلوب الذي يجري فيه التغيير وكأن هذا التغيير يحدث تلقائيا ، في مجال الأخلاق والعادات والتقاليد تحت قناع التطور والمدنية والتقدم ومسايرة روح العصر مستخدما وسائل الإعلام المختلفة المسندة إلى غير المتمسكين بالدين . وانعكس هذا التأثير رمزيا في تغيير اللباس ، وارتداء الزي الغربي ، الذي بدأ في القرن التاسع عشر في صفوف الجيش بأمر عسكري ، ثم كان بعد ذلك في قطاع الموظفين المدنيين بأمر حكومي أيضا ، وأخيرا عم اللباس بين المتعلمين من أبناء المدن من غير الرسميين عن طريق العدوى والمحاكاة والتقليد [471] . وقد استوردت الأفكار الأوربية مع السلاح والزي [472] .

ومن أجل عدم اصطدام الأفكار الجديدة بمشاعر المسلمين يقوم بالاعداد لها والتخطيط جيش من المبشرين الذين درسوا العالم الإسلامي من جميع جوانبه ونواحيه ، وخبراء في علم النفس وعلم الاجتماع وعلم التاريخ ، فضلا عن أجهزة المخابرات والإحصاء المختلفة ، فاستغلوا في سبيل مآربهم كل وسيلة من العلم والطب والسياسة والحياة الاجتماعية ومن الثقافة والأدب واللغة ليسلبوا الإسلام كل مناحي الشخصية

---

[469] فتح الله ص 63 .

[470] نفسه ص 64 عن الدكتور إبراهيم اللبان – رسالة التربية الدينية التي يحتاج إليها العالم الإسلامي – نشرتها مجلة الأزهر .

[471] برنارد لويس – الغرب والشرق ص 49 .

[472] نفسه ص 50 .

وكـل أسـباب الحيـاة [473] ، لتخـرج أفكـارهم تحمـل شـعارات العلمانيـة والقوميـة وتحريـر المرأة .

وقـد أدرك هـؤلاء أن لا بـد لإحـداث التغييـر الاجتمـاعي المطلـوب مـن اقتحـام حصـون المسـلمين – اقتحـام بيـوتهم – باسـم تحريـر المـرأة الـذي سـنوليه اهتمامـا خاصـا ، لأنـه أهـم مظـاهر التغييـر الاجتمـاعي وعنـه تنشـأ كافـة الأمـراض الاجتماعيـة . وقبـل ذلـك نلخـص الآثـار التـي تركهـا الاسـتعمار فـي العـالم الإسـلامي مـن الناحيـة الاجتماعيـة لتتضـح الصـورة . فقـد عمـل الاسـتعمار علـى إضـعاف معنويـات المسـلمين وأفكـارهم وتجهيلهم وتحطيم كيانهم الاجتماعي بأن :

1– شـجع الاسـتعمار قيـام نظـام طبقـي ، أساسـه وجـود فئـة مـن الإقطـاعيين والإحتكـاريين يسـتأثرون بـالثروة ، علـى غـرار النظـام الإقطـاعي فـي أوربـا فـي العصـور الوسـطى ، وبـاقي النـاس فـي ذل وفقـر وجهـل – بمعنـى آخـر أوجـد – التفـاوت الطبقـي الكبيـر – الـذي لـم يعرفـه المسـلمون فـي تـاريخهم . ووجـد أدوات مـن الطبقتـين – الغنيـة والفقيـرة . الغنيـة المتسـلقة والفقيـرة المحتاجـة فأصـبحت علاقـات المجتمـع عدائيـة بـدل الحب والتعاون والتكافل في المجتمع الإسلامي .

2– جعـل بعـض الـبلاد مرتعـا خصـبا للأجانـب ، بـأن شـجع الأوربيـين علـى النـزوح إلـى الـبلاد بمـا فـيهم اليهـود ، والاسـتيطان فيهـا ، واعتبـرهم طبقـة أرسـتقراطية أجنبيـة لا مـانع إطلاقـا مـن أن تسـتعبد غيرهـا وتسـخرهم لخـدمتها ، وبجانبهـا طفيليـات تعـيش علـى فتاتهـا مـن أفـراد المجتمـع الإسـلامي تسـخرهم لأغراضـها ، كمـا حصـل فـي جزائـر وأندونيسيا والهند الإسلامية ومورو وتركستان والشاشان وأقطار أفريقيا .

3– عمـل علـى نشـر الأمـراض والعـادات الاجتماعيـة السـيئة فـي البلـدان الإسـلامية فعلـم النـاس : النفـاق ، وفقـدان الثقـة بـالنفس ، وعـدم تحمـل المسـئولية ، وأشـاع فـيهم بأسـاليبه : روح الخـوف والجـبن مـن الحـاكم ، والتشـكيك فـي أعمـال الغيـر ، ونشـر فـيهم عـادات مرذولـة زاعمـا أنهـا مـن مميـزات المدنيـة والتقـدم مثـل : تعـاطي الخمـر ولعـب القمـار والإباحيـة والسـفور والخلاعـة ، والاسـتخفاف بكـل مـا هـو إسـلامي علـى اعتبـار أنـه قـديم وبالي ورجعي ، والتباهي بكل ما هو أوروبي على اعتبار أنه حديث وتقدمي .

وأمـام أهـم ميـدان اقتحمـه المسـتعمر وكـان لـه الأثـر البعيـد فـي التغيـر الاجتمـاعي الإسلامي فهو **فكرة تحرير المرأة :**

كـرم الإسـلام المـرأة ونظـر إليهـا علـى أنهـا عـرض يجـب أن يصـان ، وكرمهـا أمـا وزوجـة وأختـا وابنـة ورحمـا . وخصـها بأشـياء تلائـم طبيعتهـا الأنثويـة تكريمـا لهـا لا انتقاصـا ، وزادت حقوقهـا أحيانـا كثيـرة عـن حقـوق الرجـل . فالرجـل مكلـف بالنفقـة عليهـا غنيـا كـان أو فقيـرا ، والمـرأة غيـر مكلفـة بالنفقـة علـى الرجـل ولـو كانـت غنيـة وهـو فقيـر . . ثـم جـاء

---

[473] التبشير والاستعمار ص 217 .

عصر الجمود فتأخر فيه الجتمع الإسلامي كله لا المرأة وحدها . وفي ظل هذا التخلف نفذت سهام القوى المضادة للإسلام إلى المسلمين بحجة تحرير المرأة ، وقد بدأت هذه السهام تنفذ منذ حملة نابليون على مصر (1213 – 1216 هـ / 1798 – 1801 م) [474] وبالإرساليات الأجنبية ، ولكن حركة الابتعاث إلى أوربا (كانت أهم من كل من ذلك) زمن محمد علي باشا والي مصر ، وكان من أشهر المبتعثين الأوائل من المسلمين الشيخ **محمد رفاعة الطهطاوي** الذي يعد كذلك من رواد الإصلاح ، هذا الشيخ كتب كتابا عن مدينة باريس – الذهب الإبريز في أخبار باريس – وصف فيه لأبناء أمته الحياة الإجتماعية في فرنسا آنذاك تعرض فيه لوصف النوادي والمراقص ظهر فيه :

1– أن الأخلاق ليست مرتبطة بالدين ، وهي فكرة انقدحت في ذهن الشيخ لكنه لم يستطع أن يعبر عنها بجلاء فها هو المجتمع الفرنسي يمارس ألوان الدياثة التي لا يرضاها الإسلام طبعا ، ولكنها مع ذلك ليست خارجة عن قوانين الحياء ، ولا يشم منها الشيخ رائحة العفن بل هي معدودة في باب الأدب ، وقد نمت هذه الفكرة بعد ذلك وترعرعت حتى قال **قاسم أمين** بصراحة : إن الحجاب وسيلة لستر الفواحش وإن التبرج دليل على الشرف والبراءة – ومن ثم فلا علاقة بين الدين والأخلاق – .

2– إن المجتمع الغربي الديوث يكرم المرأة ويحترمها ، وفي المقابل نرى المجتمع الإسلامي يحافظ على العرض لكنه يحتقر المرأة – حسب الواقع المنحرف آنذاك – وبذلك نصل إلى المفهوم الذي وجد في أوربا نفسه وهو أن حقوق المرأة مرتبطة بتحررها من الدين ، فما لم ينبذ الدين فلن تحصل على الحقوق .

وقريب من قصد رفاعة ما قصده **أحمد فارس الشدياق** إذ وصف بأسلوبه المقامي الخاص الحياة الغربية ووضع المرأة فيها في كتابه (الساق على الساق) . وهكذا وجدت البذرة الأولى لما سمي (قضية المرأة) [475] .

وكان أهم ما ظهر في هذا الموضوع كتابين لقاسم أمين [476] الذي اقترن اسمه من بعد بلقب (محرر المرأة) وهما (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) . طبع الأول سنة 1317 هـ / 1899 م . والثاني سنة 1318 هـ / 1900 م .

---

[474] وكان نابليون قد استصحب في حملته على مصر عددا من البغايا (المومسات) تحدث عنهن الجبرتي في تاريخه . وقد أخذن يسرن في شوارع القاهرة حاسرات متخلعات ، يثرن الفتنة ، وينشرن الفاحشة ، ويغرين بعض النساء الساقطات بتقليدهن . . . (انظر عجائب الآثار للجبرتي ج 2 ص 231 ، ص 244 – 245 ، 251 ، 272 – 273 ، 302 ، 436 – 437) .

[475] العلمانية – سفر – ص 626 .

ففي كتابه تحرير المرأة تناول أربع مسائل وهي الحجاب واشتغال المرأة بالشئون العامة وتعدد الزوجات والطلاق ، وذهب في كل مسألة من هذه المسائل ما يطابق مذهب الغربيين زاعما أن ذلك هو مذهب الإسلام [477] . والكتاب موجه لخدمة فكرة معينة يحاول المؤلف أن يسخر النصوص لخدمتها لذلك جاء مملوءا بالمغالطات ، سواء كان ذلك في تفسير الآيات القرآنية أم في النصوص التاريخية والفقهية ، أو الأدلة العقلية . وقد أثار كتابه موجة من المعارضة أكثرها مقالات صحفية [478] . جعلته ينزوي في بيته خوفا ، ولكن سعد زغلول شجعه ، ووعده بالحماية ، فكشف عن أهدافه الحقيقية في الكتاب الثاني (المرأة الجديدة) الذي بدأ فيه أثر الحضارة الغربية واضحا . فالتزم فيه مناهج البحث الأوربية الحديثة التي ترفض كل المسلّمات والعقائد السابقة سواء منها ما جاء من طريق الدين وما جاء من غير طريقه ولا تقبل إلا ما يقوم عليه دليل من التجربة أو الواقع ، وهو ما يسمونه (الأسلوب العلمي) [479] . وقارن فيه بين الحضارة اليونانية والرومانية والإسلامية ، ورجح الحضارة اليونانية والرومانية على الحضارة الإسلامية [480] . ثم يدعو في آخر كتابه دعوة صريحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية فيقول :

" هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له دواء إلا أن نربي أولادنا على أن يتعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها – إذا أتى ذلك الحين – ونرجو أن لا يكون بعيدا – انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربي وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح ما في أحوالنا إذا لم يكن مؤسسا على العلوم العصرية الحديثة ، . . . " [481] .

وقد طبق ذلك في بيته فأحضر لابنتيه مربيتين – إحداهما فرنسية والأخرى إنجليزية [482] .

والواقع أن قاسم أمين لم يدع قط إلى اختلاط المرأة بالرجال ومراقصتهم ، ولم يدع قط إلى أن تتجاوز كشف النقاب إلى الكشف عن الأذرع والسوق والصدور

---

[476] وقاسم أمين نشأ في أسرة تركية مصرية ، اتصف بالذكاء ، وحصل على ليسانس الحقوق الفرنسية من القاهرة ، وهو في العشرين من عمره . فتلقفه الفرنسيون ، وابتعثوه إلى فرنسا ، فعاد إلى مصر بفكر جديد وبعقل جديد ، ووجهة جديدة ! !

[477] الاتجاهات الوطنية ص 294 .

[478] نفسه ج1 ص 302 .

[479] الاتجاهات الوطنية ج 1 ص 302 . وانظر كتابه – أي قاسم أمين – ص 75 ، 83 .

[480] نفسه ج 1 ص 309 .

[481] نفسه ج 1 ص 310 وانظر كتابه – المرأة الجديدة ص 192 – 193 . وانظر ص 180 من هذا الكتاب [كما في النسخة المطبوعة].

[482] قاسم أمين ص 77 / ماهر حسن فهمي .

والظهور . ولم يدع قط إلى اتخاذ الملابس الضيقة التي لا تخفي عورات الجسم إلا لتبرز مواضع الفتنة والإغراء منها . ولكن قاسم أمين وإن لم يدع قط إلى شيء من ذلك ، هو الذي فتح الباب لمثل هذه الدعوات ، وهو الذي خطا الخطوة الأولى في طريق كان لا بد أن يسير الناس فيه من بعده خطوات في سرعة غير منتظرة ، فقد خلعت المرأة النقاب ثم استبدلت المعطف الأسود بالحبرة (إزار كانت المرأة تلتحف به إذا برزت للطريق) ثم لم تلبث أن نبذت المعطف وخرجت بالثياب الملونة ، ثم أخذ المقص يتحيف هذه الثياب في الذيول وفي الأكمام وفي الجيوب ولم يزل يجور عليها فيضيقها على صاحبتها حتى أصبحت كبعض جلدها ، ثم أنها تجاوزت ذلك كله إلى الظهور على شواطيء البحر في المصايف بما لا يكاد يستر شيئا ، ولم تعد عصمة كثير من النساء في أيدي أزواجهن ولكنها أصبحت في أيدي صانعي الأزياء في باريس من اليهود ومُشيعي الفجور .

وقطعت المرأة مرحلة التعليم الإبتدائي والثانوي ، واقتحمت الجامعة مزاحمة فيما يلائمها وفيما لا يلائمها من ثقافات وصناعات ، وشاركت في الوظائف العامة . ثم لم تقف مطالبها عند حد في الجري وراء ما سماه أنصارها (حقوق المرأة) أو (مساواتها بالرجل) وكأنما كان عبثا أن خلق الله – سبحانه – الذكر والأنثى وأقام كلا منهما فيما أراد . فامتلأت المصانع والمتاجر بالعاملات والبائعات ، وحطم النساء الحواجز التي كانت تقوم بينهن وبين الرجال في المسارح وفي الترام وفي كل مكان ، فاختفت المقاعد التي جرت العادة على تخصيصها بعد أن أصبحن يفضلن مشاركة الرجال [483] وكانت قضية المرأة من أكبر الموضوعات التي خاضتها الصحافة وكتابها ، ومن أبعدها أثرا في تحويل المجتمع إلى الوجهة التي أرادها دعاة التغريب [484] في أكثر بلاد الإسلام .

وكان من رائدات ما يسمى بالحركة النسائية : هدى شعراوي حرم علي شعراوي ، وصفية زغلول حرم سعد زغلول باشا ، وتسمية كل منهما باسم زوجها هو اتباع للتقليد الغربي الذي ينسب المرأة لزوجها بعد زواجها ، وهو مخالف للعرف الإسلامي الذي يجعل للمرأة شخصيتها المستقلة . والأولى هي ابنة مصطفى فهمي باشا أشهر أصدقاء الانجليز من رؤساء الوزارات المصريين في عهد الاحتلال ، والثانية هي بنت سلطان باشا وهو من كبار الضباط المصريين الذين تعاونوا مع الاحتلال الانجليزي [485] .

وقد خرجتا ومعهما الفتاة اليهودية (فورتينيه ليفي) مع 300 متظاهرة أثناء وقوف الشعب المصري للمطالبة بحقوقه بشجاعة عام 1338 هـ / 1919 م فمزقن الحجاب وأحرقنه في ميدان عام وبدين سافرات أمام كتائب الجيش الانجليزي فكان هذا

---

[483] الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 249 .

[484] انظر : الغارة على العالم الإسلامي ص 147 ، وقرارات مؤتمر لكنو التبشيري عام 1913 م .

[485] الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 250 / الحاشية .

أعظم إسهام منهن في الثورة ! ! [486] بل وتجرأت هدى شعراوي على ما لم تتجرأ عليه امرأة مسلمة من قبل ، فسافرت إلى باريس وإلى أمريكا لدراسة شئون المرأة ، وأخذت تلقي بالتصريحات والأحاديث لمندوبي الصحف [487] . كما اتخذت من بيتها صالونا تقابل فيه الرجال سافرة وفي غير وجود محرم .

وتكتب صحيفة السياسة الأسبوعية مقالا عن فتاة تركيا سنة 1345 هـ / 1926 م ، تصف فيه سفر باخرة اتخذتها وزارة التجارة التركية معرضا عاما في رحلة على نفقة الحكومة ، تنتقل بين موانيء أوربا الشهيرة ، تقل خمسا وعشرين فتاة تركية جميلة ، مقصورات الشعور لا يكاد يميزهن الرائي من فتيات لندن وباريس . . ونشر مراسل الصحيفة ما صرحت به إحداهن :

" إن المرأة التركية اليوم حرة ، وإننا نعيش اليوم مثل نسائكم الإنجليزيات . نلبس أحدث الأزياء الأوروبية والأمريكية ونرقص وندخن ونسافر وننتقل بغير أزواجنا " [488] .

وصحيفة المقتطفت تكتب مقالا تثني على مصطفى كمال وتقرنه بواشنطن زاعمة أنه أكبر زعيم معاصر . . وتشيد بالتطور الاجتماعي الذي طرأ على تركيا بسفور النساء واشتراكهن في المجتمعات مع الرجال ومشاركتهن الشبان في الدراسات الجامعية [489] .

وفي المجال التعليمي حرص لطفي السيد والدكتور طه حسين وأتباعهما على أن يكون التعليم مختلطا في الجامعة فيه الذكور والإناث ، واشتد الصراع في الجامعة من أجل ذلك وقد رفع بعض طلبة الكليات إلتماسا إلى مديرها وعمدائها سنة 1356 هـ / 1937 م يطلبون فيه إدخال التعليم الديني في الجامعة ، كما يطلبون الفصل بين الطلبة والطالبات . وكتب الرافعي – شيطان وشيطانة – ردا على طه حسين وسهير القلماوي ، كما كتب مقالا حيا فيه طلبة الجامعة الذين رفضوا الاختلاط [490] . ولكن الانتصار كان لدعاة الاختلاط بالطبع لوقوف السلطات إلى جانبهم .

---

[486] انظر قصيدة حافظ إبراهيم في وصف المظاهرة متهكما – الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 87 . / وانظر المجلة العدد 286 ص 25 .

[487] الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 251 . وانظر محمد قطب – واقعنا المعاصر ص 257 – 261 .

[488] الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 255 – 256 عن السياسة الأسبوعية عدد 17 يوليو 1926 م .

[489] نفسه عن المقتطف عدد إبريل – نيسان 1926 م ص 410 – 413 .

[490] نفسه ج 2 ص 261 / وانظر وحي القلم ج 3 ص 184 – 188 تحت عنوان قنبلة بالبارود لا بالماء المقطر ، وص 189 – 197 تحت عنوان شيطان وشيطانة .

واستمرت المعركة مسعورة ، فسلامة موسى يغرق في الوهم والخيال حتى جعل وضع المرأة هو المسئول عن مشكلات مصر من أولها إلى آخرها [491] .

وإسماعيل مظهر جمع شبهاته القديمة وآراء غيره ونسقها في كتاب أسماه (المرأة في عصر الديمقراطية) وفيه [492] :

" لقد اتخذ الرجعيون الذين يرهبون التطور فرقا من أوهام سلطت عليهم أو رغبة في بسط سلطانهم على النساء . . . من بضعة نصوص أشير بها إلى حالات قامت في عصور غابرة سبيلا إلى استعباد النساء استعبادا أبديا ، لقد حضت المرأة في ذلك العصر على أن تقر في بيتها وأن لا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى " ويقول :

" فلما جاء الإسلام – عطف إلى ناحية المرأة فاعتبرها نصف إنسان وأضفى عليها من الكرامة والاحترام ذلك القدر الذي لا يزال حتى الآن موضع انبهار كل المشترعين . . . غير أن خمسة عشر قرنا من الزمان كافية في الواقع لأن تهيء العقلية الإنسانية إلى خطوات أخرى في التشريع للمرأة " .

وتلاه خالد محمد خالد في كتابه : (الديمقراطية أبدا) : وكان حظ المرأة من ديمقراطيته شيئين [493] :

1- حق المرأة في وقف تعدد الزوجات .

2- تأميم الطلاق على حد تعبيره .

وعد حسين مؤنس الحجاب الإسلامي العائق الأكبر في سبيل انتماء مصر للغرب ذلك أنه ربطها بالمجتمعات الشرقية المتخلفة في حين أن المرأة المصرية كالمرأة الأوروبية الحديثة سواء بسواء وحضارتهما واحدة [494] .

بل بعد أن تحقق السفور والاختلاط وسار شوطا نرى كاتبا هو إبراهيم المصري يقول : " الاعتقاد الشرقي الشائع بأن الرجل والمرأة متى التقيا فلا بد أن ينهض الشيطان بينهما وينفث في نفسيهما سموم الرذيلة والشر ، هذا هو سر تأخرنا . وهو من بقايا عصور الجهل والخوف والظلام " [495] . وفي عهد السادات أصدر قانون الأحوال

---

[491] العلمانية – سفر – ص 637 / عن الأدب للشعب ص 66 – 67 .

[492] ص 118 .

[493] انظر كتابه ص164 – 165 .

[494] انظر مصر ورسالتها ص 51 – 52 .

[495] الهلال عدد أول يناير 1938 م ، 29 شوال 1356 هـ ص 268 – 272 (مقال : بعد السفور . وانظر طعنه في الحديث الشريف : " ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما " ، ولا عليه فهو نصراني ولكن اللوم كل اللوم على المسلمين / انظر الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 261 .

الشخصية بتأثير من زوجه جيهان . في الوقت الذي بدأ المؤشر ينحرف في اتجاه الإسلام . فاعتبرت جيهان نفسها مكملة لدور هدى شعراوي وزميلاتها [496] .

وصدر سنة 1343 هـ / 1929 م في تركيا قانون مدني على غرار قانون نوشاتيل المدني السويسري ، فحرم تعدد الزوجات ، وقضى على الحجاب والحريم ونظرة الطلاق ، وفي برهة وجيزة جعل من المرأة التركية شقيقة المرأة السويسرية وصنوها [497] .

فأصبحت المرأة التركية ترتدي أثواب السهرة العارية الكتفين والظهر كما لا تحجم عن ارتداء المايوه . . . وما من أحد يشكو من التفكك الخلقي .

ومن مصر وتركيا إمتد تأثير المعركة بالصحافة إلى البلاد العربية والإسلامية ، فيقول الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي داعيا إلى خلع الحجاب [498] :

هزأوا بالبنات والأمهات وأهانوا الزوجات والأخوات

هكذا المسلمون في كل صقع حجبوا للجهالة المسلمات

إن هذا الحجاب في كل أرض ضرر للفتيان والفتيات

وتأخرت الدعوة في **الشام** عن مصر فأول كتاب يتحدث عنها صدر سنة 1347 هـ / 1928 م ، بعد وفاة قاسم بعشرين سنة ، وهو الكتاب الذي ألفته – أو ألف باسم – (نظيرة زين الدين) بعنوان (السفور والحجاب) . وقد قرظه علي عبد الرازق صاحب (الإسلام وأصول الحكم) [499] .

وكتب الشيخ علي الطنطاوي في مذكراته بعنوان :

(إمتهان الفضيلة يوم الاحتفال بالجلاء في سوريا) [500] : شهدت يوم الجلاء بنات السادسة عشرة وما فوقها يمشين في العرض بادية أفخاذهن تهتز نهودهن في صدورهن تكاد تأكلهن النظرات الفاسقة . . . وشهدت بنتا جميلة زينب بأبهى الحلل وألبست لباس عروس وركبت السيارة المكشوفة وسط الشباب . قالوا : إنها رمز الوحدة العربية .

---

[496] انظر مجلة المجتمع العدد 888 ص 28 – 29 .

[497] العلمانية ص 142 عن الإسلام والغرب ص 181 .

[498] العلمانية ص 630 / عن ديوان الزهاوي ص 319 .

[499] العلمانية ص 630 .

[500] من ذكريات الشيخ الطنطاوي / نشرت في مجلة الرسالة سنة 1946 م ، والشرق الأوسط العدد 2340 ص 10 الخميس 5 شعبان سنة 1405 هـ الموافق 25 / 4 / 1985 م .

وأخذت صور هذا كله ونشرت في الجرائد وعرضت في السينمات ، فازدادت جرأة الناس على نقض عرى الأخلاق ، حتى رأينا صور ناس من كبارنا مع نسائهم عراة على البحر منشورة في المجلات . قالوا : إنه يوم النصر يجوز فيه ما لا يجوز في غيره . . . " .

وكانت **تونس** أسبق بلاد المغرب إلى دعوة السفور فقد كتب الطاهر الحداد كتابه عام 1349 هـ / 1930 م : (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) وفي الإمكان أخذ نموذج لتأييد فكرته من المحاولة الفنية التي اشترك فيها محمود بيرم شاعرا وعلى الدعاجي راسما . فقد قام الشاعر يؤرخ للمراحل التي قطعتها المرأة التونسية قبل أن تلقي الحجاب وذلك من ستة عشر بيتا جسمت كل رباعية منها مرحلة من مراحل تطور الحجاب أبرز معانيها ووضحها علي الدعاجي بأربعة رسوم ظهرت فيها المرأة في وضعيات متباينة [501] .

هذا وقد نشرت مجلة العربي في استطلاع لها عن تونس صورة للوحات الدعاية المنصوبة في الشوارع ، فلوحة تمثل أسرة ترتدي الزي المحتشم وعليها إشارة (×) وأخرى تمثل أسرة متفرنجة متبرجة .

والغريب أن القوانين التونسية تعاقب من يتزوج ثانية بالحلال وتبريء من يخادن بالحرام [502] .

وفي **المغرب الأقصى** تمكن العهد الاستقلالي من أن يحقق في بضع سنوات ما لم يستطعه الاستعمار في عشرات السنين في هذا الميدان .

وفي **الجزائر** أوحت الثورة للنساء بالكفاح فخرجت العذارى المحاربات من بيوتهن ونزعن الحجاب لأول مرة منذ أن اعتنقت بلادهن الإسلام ، وكذلك في فلسطين ، وأريتريا .

وبنجاح فكرة (تحرير المرأة) عمت الفوضى الأخلاقية معظم أقطار العالم الإسلامي على تفاوت في ذلك ، وتولى الجيل الذي رباه المستعمرون تربية جيل جديد تقبل الإنحلال وتآلفه ، وحوربت أحكام الله على يد أبطال الاستقلال أكثر مما حوربت بأيدي المستعمرين – جيل (على حد تعبير الشيخ الغزالي [503] يستحي من الانتساب

---

[501] العلمانية ص 631 – 632 ، انظر مجلة الفكر – تونس ، ديسمبر 1975 م عدد خاص عن المرأة في عام المرأة .

[502] العلمانية ص 643 .

وقد تحدث قصي صالح الدرويش في كتابه (بحدث في تونس) بما يدمي القلب ألما وحسرة على وضع المرأة السلمة في تونس .

[503] كفاح دين ص 147 .

للإسلام ، ويكره أن يرى وهو يقوم بشيء من شعائره ، يحب أن يراه الناس خارجا من حانة ولا يحب أن يروه خارجا من مسجد ، ومن السهل عليه أن يوصف بأنه زنى بعشرة نسوة لكن وجهه يسود لو قيل : تزوج من اثنتين ، أما أن يفكر في تلاوة آيات من القرآن أو يرجع إلى شيء من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فذلك لا يخطر له ببال .

وهكذا ظل الناعقون يصيحون في كل مكان ويسلكون كل اتجاه – فكريا أم علميا – حتى آل الأمر إلى الواقع المؤلم الذي عبر عنه أوفى تعبير (جان بول رو) بقوله :

" إن التأثير الغربي الذي يظهر في كل المجالات ويقلب رأسا على عقب المجتمع الإسلامي لا يبدو في جلاء أفضل مما يبدو في تحرير المرأة " [504] .

ولعل من أبرز الأمثلة عل ذلك : تيسر استخدام وسائل منع الحمل وانتاجها على نطاق واسع أكثر بكثير من حاجة البشرية ، وتخفيض أسعارها ، حتى تصبح في متناول أي فتاة تريد الحصول عليه ، وإخراجها من دائرة المراقبة وبيعها دون حاجة إلى تذكرة الطبيب ، وحينما تأمن الفتاة نتائج اتصالاتها غير الشرعية فما الذي يمنعها من أن تسير فيها إلى آخر المدى ، وهكذا يتمكن الشياطين من إشاعة الفاحشة على أوسع نطاق [505] .

والسلاح الفتاك الذي استخدم لتقويض المجتمعات الإسلامية ونقل الأوبئة الاجتماعية الغربية هو **وسائل الإعلام** من صحافة وإذاعة وسينما وتلفزيون وفيديو ، إلى جانب ذلك يأتي التعليم المختلط ، والنوادي المختلطة ، والشواطيء (البلاجات) المختلطة . وتأتي الأزياء الخليعة المستوردة من بيوت اليهود في الغرب وخاصة باريس . وتأتي موانع الحمل ووسائل الإجهاض ، إلى جانب ذلك يكون الاختلاط الفاضح في دوائر الحكومة والمؤسسات وفي وسائل المواصلات وفي الشقق والمساكن وفي كل مكان في معظم أقطار العالم الإسلامي .

فقد افتتحت السينما الأولى بالقاهرة سنة 1896 م ، ثم انتشرت في أرجاء العالم الإسلامي [506] ، وافتتحت الخمارات في كل مكان حتى تغلغلت إلى الريف ، وفتحت

---

[504] الإسلام في الغرب ص 178 .

[505] محمد قطب – واقعنا المعاصر ص 97 .

[506] من الجدير بالذكر أن اليهود هيمنوا على الأوساط الفنية في مصر منذ زمن بعيد ، فعائلة موصيري هي التي أسست شركة السينما عام 1915 باسم جوزي فيلم ومنذ عام 1929 م احتكرت هذه الشركة استيراد الأفلام الخام وبيعها وكذلك طبع الترجمة على الأفلام الأجنبية التي كانت تستوردها ، ثم توسعت الشركة بعد ذلك وأقامت استوديو للانتاج السينمائي . (الإسلام والحركات الهدامة – معالي عبد الحميد حمودة ص 39) .

دور البغاء المرخصة من الحكومة في كثير من العواصم الإسلامية ، وتجرأ الناس على ارتكاب الموبقات ، والجهر بها ، باسم الحرية الشخصية [507] .

وتحت مختلف دواعي المدنية والترفيه وأمثالها أدخل المستعمرون جيوشا أخبث من جيوش الاحتلال العسكري ، وهي أنواع من الممثلين والممثلات وأمثالهما من البغايا والراقصات ، وشجعوا إنشاء المسارح وفرق الغناء والتمثيل والمراقص والملاهي المتنوعة ، وكانت الأجنبيات أولا ثم الوطنيات من غير المسلمات هن العنصر الأساسي في هذا الغزو ، فشجع ذلك المرأة المسلمة على السفور والتعري والاختلاط الماجن ثم التقليد في كل شيء . ولم يكن هذا تغييرا في القشرة السطحية للمجتمع الإسلامي وإنما كان زلزالا رهيبا ومدمرا ، ينسف بنيان الأخلاق من قواعده ، وكانت نتائجه غاية في السوء من شيوع الزنا والربا والمسكرات والمخدرات والتي أدت إلى تخريب إقتصادي بانتقال الثروة الوطنية تباعا إلى أيدي الأعداء الأجانب من كل لون . وكان جزء كبير ينتقل إليهم عبر المراقص والخمارات وغانيات أوربا أو ساقطاتها [508] .

ثم جاءت البلاد الإسلامية التي ادعت الاشتراكية فأنشأت معسكرات الفتوة ، وزودت هذه المعسكرات بمجموعات ضخمة من الفتيات الجميلات ، قاموا بتجنيدهن خصيصا إلى جانب الفتيان العزاب في هذه المعسكرات لإشاعة الانحلال والفساد بين الشباب .

وقد أفسح المجال عمدا للأقلام المسعورة ، والإيعاز لها وتشجيعها ، بنشر التشكيك في الإسلام وكتابة البحوث والتحقيقات المختلفة التي تشيع البلبلة بين الطلبة والطالبات ، وتشجعهم على الإنحلال والإنفلات من قيود الفضيلة والتحفظ والإحتشام ، وكذلك حطمت الأقلام الإسلامية وروقب أصحابها ، أو خدر أصحابها ، بإرهابهم وتسليط حرب حامية عليهم من حروب الأعصاب . ثم الإيعاز إلى الصحف السيارة المؤممة بأن لا تنشر لهم أي بحث إسلامي تستفيد منه الدعوة الإسلامية الصحيحة . ولا تجد فيها إلا من يروج الإلحاد ويدعو للتحلل [509] .

فلا عجب إذا سمعنا عن جرائم إجتماعية في العالم الإسلامي تضاهي تلك التي في أوربا وأمريكا من قتل واختطاف واغتصاب وتشرد . ولا عجب أن تنتشر الأمراض الاجتماعية الفتاكة الناشئة عن فقد كل من الجنسين خصائصه المميزة . وليس ما نشاهده من تخنث الرجال وترجل النساء إلا صورة من ذلك . ولا عجب أيضا أن تتقوض البيوت وتنهار الأسر ويصبح جنوح الأحداث مشكلة إجتماعية تعاني منها بلاد تسمى بلادا إسلامية . ولا عجب أن نجد الروح الإنهزامية الفارغة المحبة للتقليد والتي من أكبر مكونيها اعلامنا المرئي والمسموع والمكتوب .

---

[507] الاتجاهات الوطنية ج 1 ص 244 .

[508] باشميل – أكذوبة الاشتراكية العربية ص 20 .

[509] نفسه ص 23 .

إن التربية غير السليمة لا يمكن أن تنتج إلا جيلا غير سليم ، وها هو الجيل المعاصر المنكود تتجاذبه الازدواجيات ، والهوات والشبهات وتمزقه التناقضات والغوايات وتغتاله النزوات المبهورة والاغراءات القاتلة ، فلا يستطيع لضعف عقيدته إلا أن يسلم نفسه ذليلا لشياطين الجن والإنس ينهشون فكره وجسده ويلهبون ظهره بسياطهم حتى يسقط مشلولا ممزقا على مذبح الإباحية .

فانتشرت ظاهرة تعاطي المخدرات بين الشباب – هربا من مشاكل الحياة – الذين تتراوح أعمارهم بين 18 – 29 سنة ، وازداد تعاطي الهيروين بعد الأفيون والحشيش في مصر بشكل خاص [510] بعد عملية التطبيع مع الكيان الصهيوني بين أثرياء الطبقة الجديدة بعد سياسة الانفتاح ، وفي أوساط الفنانين والفنانات ثم في أوساط طلاب الجامعة وأولاد الأثرياء وأعضاء النوادي المشهورة – فكثرت جرائم القتل والسرقة والتهريب [511] واتخذت بيوت الفنانين والفنانات أوكارا لتعاطيها وتوزيعها [512] .

وفي الخليج نشرت المسلمون تقريرا خطيرا عن انتشار المخدرات واستعمال الغراء بديلا عن المخدرات في محاولات لهدم الكيان الجسدي للأمة بعد محاولات هدم الكيان الفكري لها [513] . وكذلك العقاقير المنشطة والمهلوسة التي تأتي من أوربا [514] .

وفي الوقت الذي تحرم فيه إسرائيل بشدة المخدرات داخل المستوطنات تقوم بزراعتها وبيعها للعرب ، فهي لها دور في مزارع المخدرات في جنوب وشمال لبنان ودور في بيعه وترويجه وتهريبه ، قال النائب العالم المصري : " إن هناك مخططا إرهابيا لإفساد شباب مصر ، ولذا يجب على الدولة أن تحسم هذا الأمر لأن السياح

---

[510] انظر : الشرق الأوسط العدد 2340 ص 10 الخميس 25 / 4 / 1985 م 5 شعبان سنة 1405 هـ .
بل إن الأدوية التي تصدرها الدوائر الأجنبية للبلاد الإسلامية تحوي مواد كيماوية تؤدي بمن يستعملها إلى الإدمان . فقد أذاع التلفزيون البريطاني ندوة عن كتاب أصدرته الدكتورة ديانا أستاذة الفارماكولوجي بكلية الطب في انجلترا بعنوان Bitter Pills أي الأقراص المرة . بينت فيه الدكتورة أن هذه الأدوية مصنوعة أساسا لتصديرها لشعوب العالم الثالث لتخديرهم وتأخيرهم . .
ويشبه موقف شركات الأدوية شركات الانتاج الاستهلاكية كشركات الملابس والأطعمة والسجاير . . ولننظر إلى الأدوية التي يزعمون أنها تعيد الشباب أو تقوي الرجال . 2 % يستهلك في أوربا و 98 % تستهلك في بلاد المسلمين ! ! . (الشرق الأوسط العدد 1601 الأحد 4 رجب 1403 هـ / 17 / 4 / 1983 م ص 10) .

[511] الشرق الأوسط ص 20 الاثنين 7 جمادى الأولى 1405 هـ / 28 / 1 / 1985 م .

[512] فعلى سبيل المثال قبض على ماجدة الخطيب وشقيقها لتعاطي المخدرات وتوزيعها . (الشرق الأوسط ص 20 الثلاثاء 4 محرم 1406 هـ / 8 / 10 / 1985 م ، والشرق الأوسط ص 20 محاكمة ماجدة الخطيب الأربعاء 1 ربيع الأول 1406 هـ / 13 / 11 / 1985 م) .

[513] الشرق الأوسط ص 7 الجمعة 26 / 4 / 1985 م .

[514] الشرق الأوسط ص 20 الاثنين 28 / 1 / 1985 م .

الإسرائيليين يستغلون تطبيع العلاقات ويقومون بترويج هذه المواد السامة داخل البلاد " [515] .

ورغم الانحراف الذي حصل للمجتمع الإسلامي في جميع أقطاره فقد بقي الإسلام ، وبقي علماؤه ينيرون الطريق لهذا المجتمع المنحرف ، وبالفعل بدأ العد العكسي في طريق العودة ، فأصبحنا نلمس هذه العودة في الشباب والشابات بشكل خاص وبدأنا نرى الحجاب يعود إلى بعض المسلمات . ودعوات العودة لا تفتر ولا تهدأ رغم دواعي الانحراف لأن الإسلام هو فطرة الإنسان السليمة [516] . وبقيت أمة الإسلام تحمل بذور الخير ، وهذه البذور بحاجة إلى الإستنبات ، وهذا هو دور الدعاة إلى الله .

---

[515] الشرق الأوسط ص 2 ، 26 / 10 / 1985 م (شجون عربية) .

[516] بين الله سبحانه وتعالى معالم السلوك الآدمي أو الوضع الذي يجب على الإنسان فعله بحكم هذه الآدمية ، وعدم الاستجابة تخل بآدميته ويهبط به دركات بعضها دون بعض على قدر تخليه عن تلك الأوامر والنواهي حتى يلتحق بسائر الخلائق الأخرى التي تدب على وجه الأرض . قال تعالى (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) . [الأعراف : 26] .
فاللباس الذي يواري السوأة وفوقه الريش الذي يتجمل به الإنسان في لباس ابدن أو في مقام الزينة والأثاث ، كل ذلك من أوضاع بني آدم ، كما أن من شأن أحدهم أن يتجمل بلباس التقوى يستر به عورة النفس والروح بعد ستره لسوأة الجسد والبدن ، ذلك من آيات الله في الخلق والتدبير . أما النزع والتجريد وكشف السوآت فأوضاع شيطانية لا يصل إليها بنو آدم أو لا ينحدرون إليها إلا وقد أصاب الشيطان سوءة في نفوسهم وعقولهم . قال تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ) [سورة الأعراف الآية 27] .
هذه الولاية توحي بعصر سيادة الشيطان وطاعته ونفاذ أمره . ونحن لا نشك أن الصرعات العقائدية التي تنطلق في ظل الجنس والمخدرات والإباحية أو التي تطلق لها العنان من عصر الفرويدية التحررية حتى الآن ، أنها تعبد الشيطان بل أن بعض هذه الصرعات التي تعبده حقيقة تعيش في الوقت نفسه أحلام المخدرات وأوهام الجنس وفي مستنقعات العري والتكشف .
وجاء في الدعاء المأثور : " اللهم استر عوارتنا ، وآمن روعاتنا ، واختم بالصالحات آجالنا " .
(من الشرق الأوسط ص 14 – حقيقة ورأي – د. عدنان زرزور 2 / 11 / 1985 م) .

الفصل الثالث
واقع العالم الإسلامي من الناحية السياسية

تخلى العرب والمسلمون عامة عن الدور المنوط بهم في قيادة البشرية وتوجيهها وهدايتها ، فتداعت عليهم الأمم والشعوب لكي يظفر كل بما يريد وهم في جمود وضعف ، ليس من بعده ضعف ، ولقد بدأ الإنحراف في تصرفات بعض الحكام المسلمين قديما ، غير أن نقض عروة الحكم لم يظهر إلا في العصر الحديث حين بلغ المسلمون قرارة الضعف وغاية التدهور ، فقد كان الإسلام طيلة القرون السابقة أعمق في النفوس من أن يستبدل به أي منهج آخر ، وكانت الجاهلية أحقر من أن تطاوله أو تطمع في أبنائه .

روى الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لينقضن الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة يتشبث الناس بالتي تليها وأولهن نقضا الحكم وآخرهن نقضا الصلاة " [517] .

وقد أدرك الغربيون – التي تولت حضارتهم قيادة الفكر البشري وتوجيه الحضارة الإنسانية – أهمية الحكم في الإسلام فعملوا على إبعاد أحكامه وإلغاء الخلافة – العقد الذي يجمع المسلمين ليتبعثروا بعد ذلك – . كما أن خبراءهم لم يجمعوا في الشئون الإسلامية على شيء مثل إجماعهم على توقع الخطر من جانب الشعوب الإسلامية التي يرون مظاهر اتحادها وطلائع تكتلها حقيقة واقعة يصعب تجنبها ، يجد القارىء هذا الاحساس واضحا في كتاب (حاضر العالم الإسلامي) للوثروب ستودارد [518] . وكتاب المستشرق الهولندي هورجرونيه ، كما يجده في مقال الوزير الفرنسي المشهور (هانوتو) الذي رد عليه محمد عبده في مطلع القرن العشرين [519] . ويجده بشكل أكثر صراحة في كتاب (إلي أين يتجه الإسلام) الذي أشرف على نشره وجمع مواده المستشرق الإنجليزي (هـ . أ . جب) سنة 1932 م والذي اشترك في تحريره أساتذة متخصصون في الدراسات الإسلامية والشرقية من جامعات فرنسا وألمانيا وهولندا وإنجلترا ، وفيه يبرز عطف حكومات الاحتلال الغربية على كل مشاريع الحكومات الوطنية في الشرق الإسلامي والعربي منه خاصة التي من شأنها تقوية الشعوبية فيعا وتعميق الخطوط التي تفرق بين هذه الأوطان الجديدة ، مثل الإهتمام بتدريس التاريخ القديم على الإسلام لتلاميذ المدارس وأخذهم بتقديسه ، والاستعانة على ذلك بالأناشيد ، ومثل خلق أعياد محلية غير الأعياد الدينية التي تلتقي قلوب المسلمين ومشاعرهم على الاحتفال به ، ومثل العناية بتمييز كل من هذه البلاد بزي خاص ولا سيما غطاء الرأس

---

[517] المسند ج 5 ص 251 ، والجامع الصغير – صحيح – .

[518] انظر ص 21 – 23 من حاضر العالم الإسلامي . وانظر ص 12 – 14 الجزء الأول [كما في النسخة المطبوعة].

[519] الاتجاهاتا لوطنية ج 1 ص 347 وما بعدها .

– مما يترتب عليه تمييز كل منها بطابع خاص ، بعد أن كانت تشترك في كثير من مظاهره [520] . كما قال مستر (بلنت) في كتابه (مستقبل الإسلام) بعد أن أبان أغراض حكومته الانجليزية وأمانيها في مستقبل الإسلام في فاتحة كتابه [521] .

لا تقنطوا فالدر ينثر عقده ليعود أحسن في النظام وأجملا

(أي أن هدم السلطنة العثمانية لا يضر بالمسلمين بل أن هذا العقد العثماني ينثر ليعود عقدا أحسن وأجمل . . .)

بقي العالم الإسلامي يمثل كتلة سياسية واحدة رغم ما أصابه من انحراف وجمود ، ورغم ما أصابه من فرقة وتشتت ، يتمسك بمفهوم الولاء والبراء الإسلامي ، ويجمعه رمزالخلافة ، والبيت الحرام . ويطلق على غير المسلمين الكفار ، ولا يقبل الخضوع لهم ، بل ويتحداهم رغم ضعفه وهوانه . وكانت قد إبتدأت فيه عوامل اليقظة الفعلية وكان من الممكن أن يستعيد ذاتيته ودوره في التوجيه العالمي وفي قيادة العالم عندما انبثقت من قلب الجزيرة العربية – منذ منتصف القرن الثامن عشر تقريبا (القرن الثاني عشر الهجري) – دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بعيدة عن التحديات الخطيرة التي واجهها العالم الإسلامي كله من خلال النفوذ الأجنبي الزاحف ، وهذا ما أعطاها قوتها ومكن لها وأتاح لها فرصة البقاء والتأثير ، كما زاد من قوتها وأثرها أنها انبعثت في مكان الدعوة الإسلامية ، وأنها استهدفت كل المسلمين القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي قاصدين بيت الله الحرام ، ودعوتها إلى التوحيد أقوى علامات المقاومة للاستعمار والنفوذ الغربي والانحرافات في عالم الإسلام بحسبان أن الإسلام دعوة خاصة لا تقر بالعبودية إلا لله وحده ، متخطية جبرية التصوف والتواكل – وقد تحولت هذه الحركة إلى دولة عندما التقى اشيخ محمد بن عبد الوهاب بالإمام محمد بن سعود في الدرعية وتعاهدا على نشر عقيدة التوحيد الخالصة ، وتطبيق شرع الله ، ومن ثم بدأ الجهاد في سبيل الله ، حتى عم التوحيد ربوع الجزيرة العربية ، وقد حرص الاستعمار على وأدها والقضاء عليها وحمل عليها الحملات وأوغر عليها صدر الدولة العثمانية التي رأت فيها خطرا عليها وعلى نفوذها ، فتمكن محمد علي باشا والي مصر من اسقاطها . ولكن الحركة لم تمت بل وسعت مداها وتأثر بها دعاة السلفية في الهند والعراق والشام ومصر والمغرب جميعا ، فكان من تلاميذها الألوسي الكبير في بغداد ، وجمال الدين القاسمي في الشام ، وخير الدين في تونس ، وصديق حسن خان في يهوبال بالهند ، وأحمد بن عرفان الشهيد بالهند [522] . وهكذا سجلت الحركة يقظة إسلامية قبل قدوم نابليون بأكثر من ستين عاما . وانبعثت منها السنوسية على يد محمد بن علي السنوسي ، الذي تلقاها في مكة وكونت جيلا قادرا على أن ينشر الإسلام في أنحاء أفريقيا ويشكل في الوقت نفسه كتائب للجهاد في سبيل الله في

---

[520] انظر الاتجاهات الوطنية ص 140 – 142 .

[521] نفسه ج 1 ص 25 / المسألة الشرقية لمصطفى كامل ص 19 – 22 .

[522] الجندي – العالم الإسلامي والاستعمار ص 255 / وانظر حاضر العالم الإسلامي – لوثروب .

الجزائر وليبيا . وكان قد بدأ عمله الجاد عام 1258 هـ / 1842 م بالبيضاء في الجبل الأخضر حتى توفي سنة 1273 هـ / 1856 م . وبالدعوة السنوسية واصل الإسلام مده في أفريقيا فأصبحت بحيرة تشاد مركزا للإسلام في أواسط أفريقيا ثم امتد عمل السنوسيين حتى بلغ النيجر الأدنى . وتأسست ممالك إسلامية مثل سلطنات رابح وأحمد وساموري . حتى أن مسيو (رودفريرجن) قال : " إن السنوسية هي المسئولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر وأن السنوسية هي المدبرة لجميع نكبات فرنسا في الشمال الأفريقي وفي السنغال . . . وهي العقبة في سبيل توسعنا الاقتصادي والسياسي داخل أفريقيا وهي عائق في طريق أهدافنا في القارة الواقعة شمال خط الاستواء " [523] .

وقد تحولت الحركة كليا إلى مقاومة عسكرية مسلحة عندما دخلت إيطاليا طرابلس الغرب عام 1329 هـ / 1911 م .

كذلك برزت في السودان حركة ثالثة وهي حركة محمد أحمد – الحركة المهدية – وقامت حركته على الجهاد وتحرير مفهوم الإسلام من البدع والخرافات معا ، واستطاعت الحركة أن تواجه الحملات التي شنتها بريطانيا في ظل احتلال مصر (1300 – 1316 هـ / 1882 – 1898 م) وأن تسحق كل عمليات الغزو التي وجهت إليها [524] . إلى أن تمكن (كتشنر) القائد الإنجليزي من القضاء على ذلك الكيان عام 1316 هـ بعد أن تمكنت بريطانيا من عزل الدعوة عن جيرانها المسلمين وتشويهها .

وقد حاول المستعمر الغربي تشويه الحركات الإسلامية الثلاث وعمل على القضاء عليها جميعا وعلى الحركات التي مثلها تقوم على أساس الإسلام في الحكم وتعلن الجهاد في وجه الغاصب . وعمد إلى إشاعة فكرة **فصل الدين عن الحياة** في العالم الإسلامي [525] .

وقد ابتدأ الإنحراف غير المقصود عن الحكم بالإسلام في جناحي العالم الإسلامي القويين – **تركيا ومصر** ، من منطلق التخلص من جمود الفقه الإسلامي أمام التغيرات الحيوية الجديدة ومن توهم المسلمين بأن سبب تخلفهم هو عجزهم التنظيمي والإداري وأن محاكاة أساليب الحياة الغربية جديرة بالقضاء على ذلك التخلف . وعلى هذا الأساس قامت الحركة المسماة حركة الإصلاح في جناحي العالم الإسلامي . ولمرونة المفهوم واتساعه صاحب حركة الإصلاح من سوء الفهم وغبش التصور مما أدى آخر الأمر إلى سحق الشريعة الإسلامية باسم الإصلاح . فنشأت في تركيا حركة

---

[523] نفسه ص 263 .

[524] الجندي – نفسه ص 269 .

[525] انظر – شكيب أرسلان في حاضر العالم الإسلامي – فصل عن قضية فصل الدين عن السياسة ج 3 ص 351 – 364 .

ثوريـة تطالـب بالإصـلاح الـداخلي الـذي تمثـل فـي وضـع حـد لسـلطة السـلطان عبـد الحميـد المطلقـة ، وقـد لمـع اسـم مـدحت باشـا [526] فـي حركـة الإصـلاح المرنـة هـذه فصـمم علـى إيجـاد دسـتور وفـق الأحكـام الغربيـة الصـرفة بغيـة إرضـاء الـدول الأوروبيـة ليلقـى الـدعم والتأييـد وذلـك فـي زمـن السـلطان عبـد العزيـز والسـلطان مـراد الخـامس والسـلطان عبـد الحميـد حيـث تـولى الصـدارة فـي عهـده تحـت ضـغط الـدول الأوروبيـة ليفسـح لهـم المجـال فـي نشـر الأفكـار الغربيـة فوضـع دسـتورا دعـاه : قـانون أساسـي عـام 1294 هـ اسـتوحاه مـن الدسـتور البلجيكـي ، فأصـبح الدسـتور البلجيكـي المعـدل دسـتورا للدولـة الإسـلامية العثمانيـة بعـد أن كـان الإسـلام هـو دسـتور الدولـة . فلـم ينفـذه السـلطان عبـد الحميـد ونفـى مـدحت باشـا وقـد ثبتـت اتصـالاته بـالانجليز فـي وقـت كـان فيـه (دزرائيلـي) . اليهـودي رئيسـا لـوزراء بريطانيـا . وأخـذ عبـد الحميـد يـدعم مركـز الخلافـة وتقويـة الجامعـة الإسـلامية [527] . فقامـت خليـة جماعـة الاتحـاد والترقـي فـي سـلانيك (كمـا سـبق وأن بينـا) . التـي عملـت علـى اسـقاط عبـد الحميـد واقصـاء الشـريعة الإسـلامية مـن حكـم تركيـا – ، – ثـم مصـطفى كمـال الـذي قضـى نهائيـا علـى الشـريعة الإسـلامية فـي تركيـا . وسـار بتركيـا مسـيرة مـن يجعـل الإسـلام أجنبيـا عـن الحكومـة التركيـة . وكـان قـادة حركـة الإصـلاح التركيـة مـن مختلـف الميـول والاتجاهـات فضـياء الـدين وقـع فـي يـده كتـاب أدمـون ديمـولان عن سر تقدم الانجليز السكسونيين ومن ثم اعتنق فكرة اللامركزية .

وأحمـد رضـا كـان قـد تعـرف علـى أوغسـت كونـت فـاعتنق الوضـعية إلـى حـد أنـه أصـر علـى تـأريخ منشـوراته بالتـاريخ الخـاص بالوضـعيين وحـذف التـاريخ الهجـري . وأمـه نمساوية وأبوه كان يعرف باسم انجليزي علي بك نظرا لميوله للإنجليز وحبه لهم .

ونـامق كمـال كـان وطنيـا متـأثرا بالنزعـة القوميـة التـي عاصـرها أثنـاء إقامتـه فـي العواصم الأوروبية المختلفة [528] .

وأمـا مصـطفى كمـال فقـد تمـت صـناعة بطولتـه بكـل دقـة وألقـى اليونـان فـي البحـر قكـان علـى يديـه انتهـاء الخلافـة وإعـلان العلمانيـة ، بـل وصـف الأميـر شـكيب أرسـلان حكومته أنها : دولة مضادة للدين والحكومة البلشفية في روسيا سواء بسواء [529] .

والواقـع أن مصـطفى كمـال قـد صـنع نموذجـا صـارخا للحكـام فـي العـالم الإسـلامي بـالتخلي عـن أحكـام الإسـلام وكـان لأسـلوبه الاسـتبدادي الفـذ [530] . أثـره فـي سياسـات مـن جـاء بعـده مـنهم . كمـا أنـه أعطـى الاسـتعمار الغربـي والشـيوعي مبـررا كافيـا للقضـاء علـى شريعة الإسلام .

---

[526] انظر علي حسون (ولد مدحت عام 1237 هـ وتوفي عام 1301 هـ في الطائف) . ص 163 .

[527] نفسه ص 199 .

[528] كشك – القومية والغزو الفكري ص 262 – 263 . وانظر أسرار الانقلاب العثماني ص 58 .

[529] حاضر العالم الإسلامي للوثروب ج 3 ص 358 .

[530] انظر أرمسترونغ – الرجل الصنم .

أما في مصر :

فقد حاول نابليون بونابرت . عندما قام بحملته على مصر عام 1798 م (كما سبق) – تنحية الشريعة الإسلامية ، وإحلال قانونه بدلا منها ، فقاومه علماء الأزهر ، ومعهم الأمة ، ففشل ، وفشل خلفه (كليبر) الذي سقط قتيلا بيد (سليمان الحلبي) المسلم رحمه الله ، وكذلك فشل **جاك مينو الذي تظاهر بالإسلام** ، واسمى نفسه عبد الله ، وتزوج مسلمة من رشيد واسمى ابنه سليمان .

ثم بدأ الانحراف عن الشريعة منذ زمن محمد علي باشا . وفي عهد إسماعيل الذي كان هدفه الأكبر هو أن يجعل مصر قطعة من أوربا [531] . وأما في عهد الاحتلال البريطاني فقد لقي دعاة الإصلاح تشجيعا من كرومر لأن هذا الإصلاح يحقق له هدفين :

فهو يشغل الرأي العام بما يطرح على بساط البحث من مسائل وما يثار من مشاكل فينصرف عن الانسياق في تيار الكراهية للإحتلال الإنجليزي .

ثم إن الإصلاح يدعم في الوقت نفسه حجة الاستعمار في أنه دائب على العمل لترقية مصر وإصلاحها . ولذلك أطلق كرومر في دعوته عدد من النصارى بعضهم من الشام وبعضهم من مصر [532] فأخذوا بمساعدة بعض العلماء والزعماء يعملون على حركة إلغاء الإسلام أو عزله عن شئون الحياة كلها .

فأحمد لطفي السيد (أستاذ الجيل) كتب في جريدته : (الجريدة) : " إن الإنجليز هم أولياء أمورنا في الوقت الحاضر ، ولا ينبغي أن نحاربهم ، ونقاومهم ، إنما واجبنا أن نتعلم منهم ، ثم نتفاهم معهم ، بعد ذلك ، لتصفية ما بيننا وبينهم من خلافات " .

فكان رأيه هذا المرة الأولى في التاريخ الإسلامي ، توجه فيها الأمة إلى قبول أولياء الأمر لهم من غير المسلمين [533] .

وأنشيء الحزب الوطني الحر الذي نطقت باسمه جريدة المقطم الصريحة في ولائها للانجليز لا تستخفي ولا تداري [534] . وكذلك حزب الأمة الذي دعا إلى التحرر الفكري والتعاون مع الأوربيين في كل مجالات الحياة ثقافيا وإقتصاديا وسياسيا وكان

---

[531] الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 190 .

[532] الاتجاهات الوطنية ج 1 ص 255 – 256 .

[533] واقعنا المعاصر ص 307 .

[534] الاتجاهات الوطنية ج 1 ص 93 .

اللورد كرومر يسميهم حزب الشيخ محمد عبده ويعقد عليهم الآمال في مستقبل مصر السياسي ويوصي ممثلي الاحتلال بأن يمنحوهم كل عون وتشجيع [535] .

وكان الانجليز أيضا يحتضنون في مصر كل مناهض للسلطان العثماني ، وكل معارض للخديوي الذي يستمد وجوده الشرعي من ذلك السلطان وكل داع إلى الإصلاح الداخلي ، لأنهم يريدون أن يشغلوا الناس عن التفكير في الجلاء [536] . فكانت سياستهم تدور حول خطتهم السياسية المشهورة : فرق تسد Devide in order to conquer . [537]

وكانت بريطانيا عازمة على إلغاء الشريعة الإسلامية فور تمكنها من البلاد غير أن كرومر رأى أن أفضل وسيلة لذلك هو تفريغ المحاكم الشرعية من محتواها بأن يتولاها علماء : (ذوي طابع تحرري) تتم تربيتهم بإشرافه في معهد خاص لقضاة الشرع [538] . وأنشأ مجلس شورى القوانين [539] . وأصبحت تشتد الدعوة في فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية أو فصل الدين عن الحياة وشئونها أسوة بأوربا [540] . واستغل كرومر صداقة الشيخ محمد عبده استغلالا بشعا مما دعا باحثا أوربيا مثل (جب) لأن يقول : " . . . وهذا الرأي يعتبر لبنة في بناء الحركة المتمدنة أو خشبة الخلاص في حركة التحرر العلمانية " [541] . والواقع أن فتاوى محمد عبده وآراءه الجريئة جعلت أولئك يعتبرونه من ركائز العلمانية في العالم الإسلامي ، فقد تجرأ على اضعاف مفهوم الولاء والبراء ، ودار الحرب ودار الإسلام ، فقد أعلن جواز الاستعانة بالكفار وأهل البدع والأهواء فيما ينفع المسلمين ، حين استفتاه بعض مسلمي الهند الذين يدعون إلى إنشاء الجمعيات لتربية أيتام المسلمين مستعينين ببعض الأجانب غير المسلمين [542] . فأوجد الشيخ بقصد أو بدون قصد القاعدة التي ارتكز عليها دعاة الإصلاح للتعلق بأذيال الغرب وإقصاء الإسلام عن توجيه الحياة . وتطويعه لقبول الأمر الواقع . إذ ظلوا ينقضون الإسلام عروة عروة حتى أن المعركة

---

[535] نفسه ج 1 ص 95 .

[536] نفسه ج 1 ص 108 .

[537] نفسه ج 1 ص 113 .

[538] على غرار الكلية التي أنشأتها النمسا في سيراجيفو لتخريج القضاة الشرعيين كما ذكر الشيخ محمد عبده نفسه ج 1 ص 347 .

[539] انظر نفسه ج 1 ص 265 .

[540] نفسه ج 1 ص 274 .

[541] الاتجاهات الحديثة في الإسلام ص 72 .

[542] الاتجاهات الوطنية – ص 343 ويضيف الدكتور محمد محمد حسين بعد أن أصدر الفتوى مثل هذه الآراء قد تبدو في ظاهرها ولا بأس بها ولا غبار عليها بينما هي في حقيقة الأمر تدعو إلى مذهب التحرر . . . " وقد أعيد نشر الفتوى في مجلة المنار يوم 17 ديسمبر عام 1913 م . مع تعليق للشيخ رشيد رضا . (واقعنا المعاصر ص 332 – 339) .

بعد ذلك أصبحت تدور ضد قانون الأحوال الشخصية وهو البقية الضئيلة من آثار الشريعة الإسلامية .

هذا وقد عاصر الشيخ محمد عبده رجل آخر من دعاة الإصلاح في الشام هو عبد الرحمن الكواكبي (ت سنة 1320 هـ / 1902 م) وهو أول من نادى بفكرة فصل الدين عن الحياة بمفهومها الأوربي الصريح فهو يقول في كتابه طبائع الاستبداد طبع سنة 1319 هـ / 1901 م :

" يا قوم وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد ، وما جناه الآباء والأجداد ، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين ، وأجلّكم من أن تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون . فبهذه أمم أوستريا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق الاتحاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي والارتباط السياسي دون الإداري . دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم الأخرى فقط ، دعونا نجتمع على كلمات سواء : ألا وهي فلتحيا الأمة ، فليحيا الوطن ، فلنحيا طلقاء أعزاء " [543] .

وكان قد أصدر كتابه أم القرى سنة 1317 هـ / 1899 م ، وورد فيه آراء لم تخل من إشارات مريبة إلى موالاة الدول المستعمرة فقد قال : " وكفتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة والإستفادة من إرشاداتها وإن كانت غير مسلمة ، وسد أبواب الإنقياد ولو لمثل عمر بن الخطاب " [544] .

واقتفى الأثر عدد من الكتاب والصحفيين وغيرهم يطالبون بضرورة فصل الدين عن السياسة وإبعاده عن واقع الحياة باعتباره الحل الوحيد لمشاكل الشرق ، وكان لجهود المستشرقين ودسائس المبشرين أعظم الأثر في تحقيق ذلك .

فتمكن المستعمرون عمليا من اقصاء الشريعة بل إسدال الستار على هذا الموضوع ، وزرعوا الأحزاب القومية والوطنية والاشتراكية المتباينة التي تتفق جميعها على شيء واحد هو عدم رفع شعار الإسلام أو الدعوة إلى تحكيمه .

وفي الوقت الذي أصبحت فيه **مصر مؤهلة لقيادة العالم الإسلامي** بعد سلخ تركيا عن الإسلام ، وكان الاستعمار يلم شعثه لمغادرتها ، ظهر كتاب علي عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) بوحي من المبشرين دعا فيه إلى فصل الدين عن الدولة بصراحة بأسلوب المستشرقين في تحوير الفكرة واقتطاع النصوص وتلفيق الواهيات وطريقة الباطنية في التأويل البعيد [545] ، كل ذلك ليدلل على أن الإسلام كالنصرانية علاقة روحية بين العبد والرب لا صلة لها بواقع الحياة . وكان قد سبقه سعد زغلول إذ

---

[543] طبائع الاستبداد ص 112 – 113 .

[544] انظر كتاب أزمة العصر للدكتور محمد محمد حسين ص 18 – 20 حول هذا الموضوع .

[545] العلمانية – سفر – ص 582 . وانظر واقعنا المعاصر ص 321 .

أعلن بعد عودته من منفاه : " إن الدين لله ، والوطن للجميع " فجاء الشيخ يؤيد هذه الفكرة .

وكان لكتابه آثار بعيدة فقد ترجم إلى اللغات الأجنبية وأصبح مرجعا معتمدا للدراسات الإسلامية في الغرب . وظهرت كتاباتهم متأثرة به ، وهلل له سماسرة الاستعمار من الكتاب والصحفيين باعتبار مؤلفه متحررا متنورا ، ووضعه البعض على رأس مرحلة فكرية عصرية . في حين ووجه بمعارضة شديدة من المسلمين المخلصين [546] .

وقد وجدت الأحزاب السياسية في كتابه ضالتها المنشودة فلم تعد تتحرج في إعلان إنتمائها للإتجاهات السياسية اللادينية شرقيها وغربيها وبراءتها من الدين والمتدينين . وقد حاصرت الدوائر الاستعمارية الكتب التي ردت عليه وأهملتها وسائل الإعلام حتى لم يكد يظهر لها صدى عند غير القلة المخلصة .

ومن بين الكتاب الذين ساروا على هذا الطريق خالد محمد خالد في كتابه : (من هنا نبدأ) هدف فيه إلى ما قصده الشيخ علي من قبل ولكن بأسلوب أذكى وأحدث [547] .

ثم ظهرت أفكار كثيرة تبرر انتهاج الطرائق الغربية في الحكم وأسهمت وسائل الاعلام – لا سيما الصحافة – في نشر وتعميم تلك الأفكار حتى استحكمت غربة الشريعة وخفت صوت المكافحين عنها ، بل أصبح – في نظر الغالبية العظمى – رمزا للرجعية والتأخر وسط ضجيج الدعوة إلى الإصلاح والتجديد وصخب الشعارات التي رفعتها الأحزاب القومية والوطنية والإقليمية والاشتراكية المتصارعة ، فانسحب الإسلام من الحياة السياسية ليتخبط العالم الإسلامي وهيئاته السياسية في تجارب حكم جديدة ، وترتب على ذلك انسحابه من ميادين الحياة الإقتصادية تماما وسيادة المباديء الرأسمالية والاشتراكية المتصارعة ، كما انسحب تدريجيا من الحياة الاجتماعية (كما سبق) ، وانزوى في ركن واحد من العالم الإسلامي هو منبعه الأصلي في جزء من شبه الجزيرة العربية ، وغدت الأمة ضائعة تبحث عن ذاتها شاردة لا تدري إلى أين تسير كما أصبحت حقلا للتجارب الفكرية الوضعية . وضاعت أصوات دعاة الإسلام وسط هذا الضجيج وحوربوا وطوردوا وضيّق عليهم بمختلف الأساليب ، ولكن العد العمسي بدأ فأخذ كثير من أقطارالعالم الإسلامي يتلمس طريقه نحو الإسلام بعد أن قطع أشواطا في الضلال . ورحلة العودة هذه مملوءة بالصعاب تحتاج لعزائم الرجال

---

[546] انظر الاتجاهات الوطنية ج 2 ص 85 – 95 / وقد حوكم علي عبد الرازق أمام هيئة كبار العلماء فأصدرت حكمها في 22 المحرم سنة 1344 هـ / 12 أغسطس سنة 1925 م بإخراج الشيخ أحد علماء الأزهر من زمرة العلماء) .

[547] انظر رد الشيخ الغزالي عليه في كتابه : (من هنا نعلم) .

والـدعاة لشـدة التغيـرات التـي أصـابت المسـلمين فـي مختلـف ميـادين حيـاتهم وغـربتهم عـن الإسلام وعن شريعة الإسلام . مما جعل (جب) يقول :

" . . . وكـان طبيعيـا أن يبقـى الإسـلام . . . وقـد يكـون الـدين الرسـمي للدولـة ولكنـه سـليب الحقـوق التشـريعية ، ونـزل إلـى مكانـة الديانـة المسـيحية فـي الـدول الأوروبيـة ، وقد اختلف تطبيق هذا المبدأ بطبيعة الحال وفق ظروف كل إقليم " [548] .

ونـرى لزامـا علينـا أن نلخـص **آثـار الاسـتعمار السياسـية** فـي العـالم الإسـلامي لتتضح صورة الواقع السياسي لبلاد الإسلام :

فقد خطـا المسـلمون خطـوات واسـعة فـي سـبيل التحـرر مـن الاسـتعمار وأفسـدوا حلمـه فـي البقـاء الطويـل ، فانـدلعت ثـورات فـي الهنـد وأندونيسـيا ومصـر والجزائـر والمغـرب وليبيـا والسـودان والتركسـتان والقوقـاز وأقطـار أفريقيـا الإسـلامية فعمـد الاسـتعمار إلـى أسـاليبه المختلفـة فـي إبقـاء آثـاره والحيلولـة دون لقـاء المسـلمين ووحـدتهم ، فيثبـت أوضـاع المسـلمين بعـد رحيـل الاسـتعمار كمـا هـي بـل وأشـد انحرافـا عـن مـنهج الإسـلام وشـريعته . ومن هذه الآثار التي تركها :

1- اقتسـم المسـتعمرون العـالم الإسـلامي . فمزقـوا وصـلاته بـين بريطانيـا وفرنسـا وايطاليـا وروسـيا وهولنـدة وأسـبانيا والبرتغـال ، وقـد تـرك كـل مـنهم بصـماته فـي الأقـاليم التـي تركها .

2- انتـزع المسـتعمرون أقسـاما مـن العـالم الإسـلامي وسـلموها لغيـر المسـلمين مثـل فلسـطين ، وأريتريـا ، وصـومال أنفـدي ، والصـومال الغربـي ، وقبـرص ، ولبنـان ، وكثيـر من الأقطار الإسلامية الواسعة داخل الاتحاد السوفييتي ، وأوربا الشرقية .

3- جـزأ الاسـتعمار العـالم الإسـلامي ، وأقـام الحـدود المصـطنعة وأبقـى لكـل قطـر مشـكلة مـع جيرانـه بعـد رحيلـه ليحـول بـين المسـلمين والتعـاون فيمـا بيـنهم ولـن تعوزنـا الأمثلـة لـذلك : الصـومال مـع جيرانـه ، العـراق وإيـران ، سـوريا وتركيـا ، مصـر وليبيـا ، السـودان وجيرانهـا التسـع ، المغـرب والجزائـر وتـونس وموريتانيـا ، تنزانيـا ، نيجيريـا ، أندونيسـيا وماليزيـا ، الهنـد وباكسـتان ، ثـم بـنغلاديش والهنـد ، كشـمير ، الـيمن الشـمالي والجنـوبي وعمـان ، ومشـكلة كـل قطـر مـع الآخـر مستعصـية ، لا يحلهـا إلا الإسـلام الـذي أقصي عن الساحة .

4- عمـل الاسـتعمارعلى نشـر لغتـه وتاريخـه وعاداتـه فـي بـلاد الإسـلام وحـارب اللغـة العربيـة والثقافـة الإسـلامية ، وشـوه تـاريخ الإسـلام ليؤكـد الطـابع الإقليمـي والـوطني لكل قطر وليحول دون لقاء المسلمين .

---

[548] وجهة الإسلام ص 51 / وانظر باشميل – أكذوبة الاشتراكية العربية ص 19 – 23 في العمل لإقصاء الشريعة الإسلامية .

5- عمل على نشر الحكم الفاسد في بلاد المسلمين ، فحصر الوظائف في أيدي أعوانه وممثليه ، وأشاع روح الفرقة بين أبناء البلد الواحد فعملوا على الفصل بين العرب والمسلمين ، وبين الترك والعرب ، وبين المسلمين والنصارى في بلاد الشام ومصر ، وبين المسلمين والهندوس في الهند ، وأثاروا الخلافات واستغلوها بين أهل السنة والشيعة . والعرب والبربر ، وجمد الاستعمار المجتمعات البدوية ، وجمد القبليات ، وحرص على عدم انصهارها في المجتمعات الكبرى ، بل فرق بين الريف والمدن والبادية ، وعمق المشكلة الطائفية وغذاها وفرضها ووجهها الوجهة التي تخدمه في بلاد الإسلام ، في الهند ، ولبنان ، وجميع بلاد الإسلام ، لتكون أداة سياسية له ، ينفذ أغراضه ، ويتدخل في شئون البلاد وقتما شاء [549] . وفتح أبواب التبشير للإرساليات الأجنبية ، وساندها وضمن لها حرية الحركة والتمويل – ففي أفريقيا وحدها يوجد مئة ألف مبشر ومبشرة بالإضافة إلى ما لهؤلاء من مدارس ومؤسسات ومستوصفات وصحف وغير ذلك [550] . وسهل الاستعمار استيراد أقليات دينية غربية من الأرمن والأشوريين والنساطرة في المشرق العربي ، واستقدم أجناسا غربية من ملطيين ويونانيين ويهود في أقطار أخرى .

6- شجع الأحزاب القومية والوطنية والطائفية والإلحادية التي عملت على تمزيق البلاد بتناحرها وولائها للأجنبي ، لتخدمه وتخدم مصالحه . واصطنع الزعماء في كل قطر إسلامي ، وسرق الثورات وزرع الخوف في نفوس كثير من المسلمين وأبعد مفهوم الجهاد وحاربه بمختلف الوسائل . وجاءت أمريكا (الولايات المتحدة الأمريكية) مع روسيا لترث الاستعمار – فوضعت خطة سميت لعبة الأمم وتعني النشاط الذي بدأته وزارة الخارجية الأمريكية في واشنطن بغية وضع المخططات المناسبة لبسط النفوذ الأمريكي على بلاد العالم عن طريق السياسة والخداع بدل اللجوء إلى الحرب المسلحة ، وبذلك يقترب المعنى من : التخطيط السياسي للصراع على مناطق النفوذ في العالم عن طريق الحرب الباردة [551] .

يقول وزير المستعمرات البريطني عام 1938 م :

" إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي أن نحذره ونحاربه ، وليست إنجلترا وحدها هي التي تلتزم بذلك ، بل فرنسا أيضا . . .

إن سياستنا تهدف دائما إلى منع الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامي ، ويجب أن تبقى هذه السياسة كذلك .

---

[549] فالإنجليز أثناء استعمارهم للعراق كانوا يقدمون الأكفان باسم صاحبة الجلالة الملكة ، لكل من يقتل نفسه في ذكرى عاشوراء ، وذلك بهدف تشجيع إحياء المناسبة ، وتعميق الشقاق بين أهل السنة والشيعة . (نجيب صالح ص 147) .

[550] إحسان حقي – المسلمون أمام التحدي العالمي ص 13 .

[551] انظر – مايلز كوبلاند – لعبة الأمم – تعريف المترجم للعبة الأمم (ص 6) .

إننا في السودان ونيجيريا ومصر ودول إسلامية أخرى – شجعنا وكنا على صواب – نمو القوميات المحلية ، فهي أقل خطرا من الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامي " [552] .

وأسفرت هذه الآثار عن إقصاء الشريعة الإسلامية عن ميدان الحكم في العالم الإسلامي ، وأصبح عدد دوله التي ظهرت بعد سقوط الخلافة العثمانية كبيرا [553] ، وجميعها تعد من دول العالم الثالث الموصوف بالضعف والتخلف ، وتقع هذه الدول في قارتي آسيا وأفريقيا ودولة واحدة في أوربا هي ألبانيا ، هذا عدا عن الأقاليم الواسعة التي لا تزال ترزح تحت الاحتلال الأجنبي في الاتحاد السوفييتي والصين وفلسطين وغيرها ، والدول التي لا يشكل المسلمون فيها أغلبية تزيد على 50 % وقد أثبتنا ذلك فيما سبق وبينا أسماء هذه الدول والبلدان عندما بحثنا العالم الإسلامي فارجع إليه .

هذا وتتصل معظم الدول الإسلامية الحالية بالتبعية السياسية في مجال الحكم والإقتصاد والفكر ، وهذا ما يجعل أوضاعها غير مستقرة وعرضة لأطماع المعسكر الشرقي والغربي على حد سواء ، كما اتصف بالعجز في مواجهة التحديات العنيفة التي يواجهها من الصليبية والصهيونية في البلاد العربية وأفريقيا ، والهندوسية في شبه القارة الهندية ، والشيوعية في تركستان والصين وأفغانستان ، وسنعطي تفاصيل ذلك عند تعرضنا للقضايا الإسلامية إن شاء الله .

---

[552] من كتاب هموم داعية للشيخ محمد الغزالي .

[553] وقد انشرحت صدور أعداء الإسلام لهذه التقسيمات واعتبروا التقسيم السياسي الذي طرأ على الإسلام بأنه سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوروبية (أي عملية التغريب) فقالوا : " إذ من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية وسوف لا يمضي غير زمن قصير حتى يكون الإسلام في حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوروبية " . (انظر الغارة على العالم الإسلامي ص 9 – 10) .

الفصل الرابع
واقع العالم الإسلامي في الناحية الاقتصادية

قام الإسلام في حل جميع مسائل الحياة على الفطرة ، فلم يهمل جانبا من جوانبها ولا تجاهل حقيقة من حقائقها ، فأقر في المسائل الاقتصادية للحياة الإنسانية جميع الأصول الفطرية التي قام عليها صرح إقتصادي إنساني ثابت لا تحتاج إلى تعديل فضمن حماية حياة الإنسان كل إنسان بنظام من التآخي يمقت الطفيلية والنهب في إطار من الأفكار والثقافة المستوحاة من صميم العقيدة الإسلامية التي تعد العمل الإقتصادي حفظا للحياة [554] ، وللنوع الإنساني . فقام الإقتصاد الإسلامي على أصول منها :

– إن المال كله لله والبشر مستخلفون فيه .

– وجوب تأمين الضروريات لكل فرد من مأكل وملبس ومسكن .

– تحريم أكل أموال الناس بالباطل في أي صورة من الصور كالرشوة والسرقة والغبن .

– تحريم الربا وأحل الإسلام محله القرض الحسن . واعتبر المرابي عدوا محاربا لله ورسوله لأنه يستغل حاجة الآخرين فيتحكم فيهم ويزرع بذور الحقد بين الناس [555] .

– تحريم الاحتكار والجشع والاستغلال والمكوس .

– النهي عن أن يكون المال دولة بين الأغنياء ، فحارب الطبقية من أي نوع ، ورمى إلى إقامة عدالة اجتماعية تخلو من الحقد والظلم . فهو لا يسعى لإفقار الغني بل يأخذ بيد الفقير ويرتفع به إلى مستوى لائق من العيش ومن هنا يسود المجتمع الحب والتآلف بين الغني والفقير لا الصراع والحقد [556] .

– الحث على الإنفاق ووجوبه إذا اقتضت الضرورة .

كما قرر الإسلام الحجر على السفهاء الذين يبذرون أموالهم في الوجوه غير المشروعة . فعلى الإنسان أن يحسن الخلافة في المال .

---

[554] انظر مالك بن نبي – مفكرا إصلاحيا ص 235 .

[555] انظر – أبو الأعلى المودودي – الربا ص 40 – 45 .

[556] كما في الأفكار الاشتراكية – فكرة صراع الطبقات – التي تولد الحقد الدائم بين الناس .

– كما قرر الإرث والوصية لتفتيت الثروة وعدم تجميعها في أيدي أناس معدودين [557] .

– ولم يفصل الإسلام الحياة الاقتصادية عن الحياة الدينية والخلقية التي شرعها للناس ، فإن الإنسان حلق لعبادة الله ، وإن ما في الأرض من ثمرات خلق ليكون معونة له على تلك العبادة ، فالمسلم ينظر إلى كل شيء حوله من خلال شغله برسالته ، فالله مورد حياته ، ومصدر خيره وعونه ، والناس إخوته يعنيهم من أمر رسالتهم مثل ما يعنيه ، ويتنافسون فيها فلا يزيدهم التنافس إلا فرحا وتعاونا وألفة ومحبة . والمال إلى جانب ذلك ذلك فضله ليس هدفا ولا غاية . ولا مجال له في نفوسهم المشغولة بغرضها إلا مجال الضرورة . . . وفي هذا يقول الإمام ابن تيمية : " إن الأصل أن الله تعالى إنما خلق المال إعانة على عبادته لأنه إنما خلق الخلق لعبادته " [558] ، ولذلك فحياة المسلم وحدة كاملة متوازنة ، فحسم الإسلام الشر بحذافيره واجتث نوابت الفساد من أصولها في نفسية المسلم .

– وحث الإسلام على السعي في طلب الرزق وأباح الملكية الفردية وبين الحلال والحرام – والفردية أحد عناصر التقويم الروحي الذي أريد لنفس الإنسان ليكون لكل فرد إحساسه الذاتي بالتكليف الذي ألقي على عموم الناس بعمارة الأرض ولتكون مسئوليته الخاصة عن ذلك التكليف . وحظر على المسلم الخبائث فحرم الخمر وأنواع المسكرات والمخدرات وسائر المنكرات والفواحش ولم يقتصر على تحريمها فقط بل حرم كذلك صناعتها وإعدادها والإتجار بها بيعا وشراء . . . ولم يعد الإسلام البغاء مهنة ولا الرقص حرفة ولا الغناء من وسائل الكسب ، والمال الذي يأتي من هذه السبل لا يعد مالا حلالا بل جميع المكاسب التي تدر الربح على بعض الناس وتضر بالآخرين أو بالمجتمع البشري كالرشوة والسرقة والميسر وصنوف المقامرة وجميع المعاملات التي يخالطها الغبن والغش – يراها الإسلام جرائم يعاقب عليها . وهو يحرم احتكار الحبوب والأغذية والأمتعة التي تعد من حاجيات الناس ويمنع حبسها طمعا في ارتفاع الأشعار فيفضي ذلك إلى الأزمات والضنك في المعايش ، كما حرم طرق الكسب التي تفضي إلى النزاع والتخاصم ، أو التي يتعلق الربح والخسارة فيها بالحظوظ المجهولة ، وليس للسعي فيها نصيب ، أو لا تكون بين المتبايعين بها أو المتعاقدين عليها حدود معلومة أو حقوق واضحة مرسومة . وبذلك لم يدع الإسلام الملكية الفردية حرة طليقة [559] ، بل قيدها بضوابط غاية في الإحكام ، وجعلها توجه لخير البشرية .

ولم يبين الإسلام بعد ذلك أسلوب الخطط الاقتصادية ، وضمان تحقيق هذه الأصول ، وكيفية التعامل المباح بين المؤسسات العامة والخاصة ، واشراف الدولة أو سيطرتها على الانتاج وما أشبه ذلك . فهي موكولة إلى اجتهاد ذوي الإختصاص من

---

[557] وهذا يخالف الإرث الرأسمالي (والوصية) الذي يركز الثروة في أيدي عدد محدود من الناس .

[558] السياسة الشرعية ص 40 / وانظر الثروة في ظل الإسلام – البهي الخولي ص 72 فما بعد .

[559] انظر الثروة في ظل الإسلام – البهي الخولي – ص 77 – 79 .

الأمة في حدود تلك الأصول التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، فقد ترك الإسلام كما هو شأنه في كل ما يعرض له من الأمور البشرية – للفكر الإنساني وللجهود البشرية أن تبتكر في كل عصر ما يلزمها لتحقيق مصالحها .

والمال الذي يمتلكه المسلم يتصرف فيه صاحبه بطرق ثلاث :

– فإما أن يستهلكه في مرافق الحلال لا في الشهوات والسرف في الترف ، فقد اشترط الإسلام الإعتدال والتوسط في المعيشة ولم يحل بين الإنسان وبين أن يعيش عيشة طيبة معتدلة . قال تعالى :

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) [560] .

وقال جل وعلا في صفات المؤمنين : **(وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)** [561] .

– وإما أن يستعمله في تجارة أو صناعة تعود عليه بالربح الحلال .

– وإما أن يدخره – والإسلام يكره كنز الأموال وإدخار الغني ما لا يحتاج إليه في نفقاته ، ومن أراد أن يدخر فعليه الزكاة 2،5 % سنويا ليوزع على الأصناف الثمانية الذين ذكرهم الله سبحانه وتعالى في الآية :

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ) [562] . وهذا حق وليس منة . قال تعالى :

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ، لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) [563] .

بمعنى آخر نرى الإسلام يبعد كل البعد عن النظام الرأسمالي الفردي الذي يعطي حرية العمل والكسب بأي وسيلة كانت . والحرية المطلقة في التصرف بالمال . وبعيد جدا عن النظام الشيوعي والإشتراكي الذي يجعل الفرد سنا في دولاب لا أهمية له ولا اعتبار ، ويلغي ملكيته الفردية . إذا يضع الإسلام تصورا اقتصاديا يقوم على أساس الكسب المشروع والإنفاق المشروع ، ويوجه طرق الكسب وطرق الإنفاق لما فيه صالح

---

[560] سورة الإسراء الآية 29 .

[561] سورة الفرقان الآية 67 .

[562] سورة التوبة الآية 60 .

[563] سورة المعارج الآية 24 ، 25 .

الجميع ، ويكون دور القائمين على شئون الاقتصاد دور الجامع الموزع لا المحتكرين الذين يقتصرون في الإنفاق على شهواتهم الخاصة .

وفي عهد جمود المسلمين تختلف نظامهم الإقتصادي كتخلفهم في جميع المجالات فكان الفقر والمرض والأمية والجهل متفشيا ، والتواكل باسم القناعة منتشرا ولكن بقيت فكرة التكافل الاجتماعي في المجتمع الإسلامي فكان الفقر والقناعة والايثار كل ذلك يجتمع في المجتمع الإسلامي المتخلف . ولم تنل المصالح العامة شيئا من الإنفاق ، ومن ذلك اهمال العناية بالري والزراعة ، فكثرت الفيضانات ، وأهملت الطرق وشئون الأمن ، فاستغل العيارون واللصوص الفرصة وشاركوا في نهب المحلات التجارية والبيوت وقام الأعراب بغارات على الريف ونهبوا المحاصيل ، وتربصوا بقوافل الحجاج والتجارة ، فعانى المسلمون فقدان الأمن والجوع وانتشرت الأوبئة ، وخاصة بعد أن تغيرت طرق التجارة عن بلاد الإسلام بعد حركة الكشوف الجغرافية الأوربية .

وفي ظل هذا الأوضاع المتخلفة تمكن الاستعمار الغربي أن يبسط سلطانه على بلاد الإسلام ، ففرض نظامه الإقتصادي مع فلسفته ونظرياته الإقتصادية ، حتى لم تعد أبواب الرزق لتفتح إلا لمن يختار مباديء هذا النظام الإقتصادي ، فأكل المسلمون السحت أولا ، ثم محا من أذهانهم ما كان من تمييز بين الحلال والحرام ، وبلغ الأمر أنه لم يعد كثير من المسلمين يسلمون بتعاليم الإسلام حتى حرم فيها كثيرا من الطرق المشروعة أحلها نظام الغرب الصليبي الاقتصادي أو النظام الاشتراكي الشيوعي ، واختلط مفهوم النظام الاقتصادي بعملية التنمية . وأصبح الاتجاه العام يتجه إلى التنمية ، دون الأخذ بالنظام الاقتصادي في الإسلام .

ومن أهم **الآثار الاقتصادية التي خلفها الاستعمار** في العالم الإسلامي في النواحي الاقتصادية وتركت بصماتها على الواقع الاقتصادي المعاصر :

1- وجه الاستعمار موارد البلاد الإسلامية إلى مصالحه الخاصة ، فشجع رؤوس الأموال الأجنبية على غزو البلاد واستثمار خيراتها ، وأصبحت معظم الشركات أجنبية تدار لمصالح استعمارية ، فقد أقام المؤسسات الاقتصادية والبنوك لتوظيف ذهب أوربا الذي طفحت به خزائن بنوكها في أواخر القرن التاسع عشر ، وفتح الأسواق لمصنوعاتها ومنتجاتها وخاصة الإستهلاكية والترفيهية والكمالية ، فأصبح لأفراد العالم الإسلامي ولع خاص بالاستهلاك التفاخري ، ولهم جرأة عجيبة على الانفاق الاستهلاكي والتطرف فيه ، وهذه نقطة قاتلة لإقتصاد المسلمين . ثم عمد الاستعمار إلى إقراض الحكومات للسيطرة عليها وتكبيلها بالنفوذ الغربي وإيقاع ذوي اليسار في الديون للاستيلاء على أملاكهم وتحويل مختلف الأراضي والتجارات والأموال إلى البنوك الأجنبية . فأنتج أجيالا تفكر في الحصول على منتجات الغرب ولا تفكر كيف تنتج هذه الأشياء ، ولا تقف مع نفسها في التفكير في نتائج هذا الشيء واستعماله .

2- احتكر الاستعمار التجارة الخارجية للبلاد الإسلامية ومعظم التجارة الداخلية ، وعمد إلى توطين الأوروبيين في البلاد الإسلامية عن طريق التجارة كما فعل في الجزائر والهند وأندونيسيا وأفريقيا وتركستان ، وأوفد إلى البلاد العربية خاصة مئات الألوف من الأوروبيين ومعظمهم من اليهود فاستوطنوا فيها وتحكموا في اقتصادها وخاصة في أقطار المغرب العربي .

3- اتجه الاستعمار إلى محاربة الصناعة الوطنية في العالم الإسلامي ليضمن استمرار تبعية البلاد الإسلامية له إقتصاديا كما تتبعه عسكريا أو سياسيا ، وليضمن تصريف منتجات مصانعه فيها ، واكتفى بتوجيه المسلمين إلى الاشتغال بالزراعة ، زاعما أن الصناعة تتطلب قدرة فنية لم يصلوا إلى درجتها بعد . وفي الزراعة شجع حاصلات معينة واحتكر تجارتها مثل القطن في مصر والسودان ، والتمر في العراق ، وزيت الزيتون في تونس والمغرب ، والمطاط في أندونيسيا وماليزيا وزيت النخيل في نيجيريا ، والعنب في الجزائر ، وعمل على إقراض الفلاح بالربا الفاحش ، وجند المرابين والصيارفة وأصحاب الخمارات في مختلف القرى لسلب الأهالي . وهذا أيضا أدى إلى اعتماد البلاد الإسلامية على نمط وسلع وخدمات السوق الأوروبي والأمريكي ، وعدم القدرة إلى التحول عنها إلى غيرها . وهذا يجعلها تشتري السلعة بأي سعر . الأمر الذي استنزف الفوائض المالية الإسلامية نتيجة إقدام الغرب متعمدا على زيادة أسعار صادراته بأكثر من زيادة أسعار النفط ، والمواد الأولية الأخرى .

4- احتكر ثروات العالم الإسلامي المعدنية وبخاصة البترول من البلاد العربية ونيجيريا وأندونيسيا وأذربيجان وإيران ، والقصدير من ماليزيا وأندونيسيا ونيجيريا ، والحديد في الجزائر وموريتانيا ، والنحاس في بلاد القازاق . وقد ذهب المستعمر ولكن بقي استخراج معظم المعادن بيد الشركات الاستعمارية [564] وفائدة ذلك تعود للمستعمر ، إذ تنقل الفلزات إلى بلاده وتقوم صناعتها على أرضه ، أما البلاد التي انتجته وهي بحاجة إليه والأيدي التي عملت على استخراجه تتلقف صناعته وتأخذها بأسعار مرتفعة ، أو تتوق إليه ولا تستطيع شراءه .

---

[564] وتمتد هذه الشركات كالأخطبوط في جسد العالم الإسلامي . فقد أعلنت شركة ستاندارد اويل رابع الشركات البترولية الأمريكية أنها حققت أرباحا صافية قياسية تقدر بـ 2,18 مليار دولار عام 1984 م مقابل 1,86 مليار عام 1983 م . (الشرق الأوسط ص 5 الأربعاء 23 / 1 / 1985 م) . وسيطرت الشركات التي سميت (الأخوات السبع) على انتاج وصناعة البترول ، فهي تملك امتيازات 82 % من احتياطي البترول في العالم المعروف ، وتملك 70 % من طاقة التكرير العالمية ، وتسيطر على حوالي 85 % من الطاقة العالمية لاستخراج مشتقات البترول ، وتملك 50 % من طاقة الناقلات ، بالإضافة إلى ملكية أنابيب نقل البترول . وهذه الشركات هي : حلف أويل ، وبرتش أويل ، وكونتينتال ، ومارثون ، ورويال ديتش شل ، وموبيل أويل ، والبترول المكسيكي ، وأتلانتيك لتكرير البترول ، والشركة الفرنسية للبترول .
وأخذت هذه الشركات تفقد كثيرا من سيطرتها بإنشاء منظمة أوبك .

5- شجع الاستعمار نظام الإقطاع الزراعي والطبقية ، وحرم السواد الأعظم من المسلمين أن يعيش في مستوى لائق ، لذا شاع الفقر والبؤس والتخلف والمرض في عالم الخيرات الوفيرة والموارد الكثيرة ، فأفقر دول العالم مسلمة حاليا – وإليك بعض الأرقام المذهلة (من كتاب الحرمان والتخلف في ديار المسلمين للدكتور نبيل صبحي الطويل) [565] .

البلد	نسبة الفقر من السكان	البلد	نسبة الفقر من السكان
نيجيريا	% 51	أندونيسيا	% 80
الصومال	% 70	ماليزيا	% 55
غانا	أكثر من 50 %	بنغلاديش	74 % [566]
سيراليون	% 55	الهند	% 56
تنزانيا	% 65	الفيلبين	% 59
كينيا	% 40	إيران	% 38
مصر	% 28		

هذا عدا البلاد المعدومة في منطقة حزام الجفاف الشديد ، من الرأس الأخضر غربا إلى الصومال شرقا ، وهي جزر الرأس الأخضر ، وغمبية ، ومالي ، والنيجر ، وبوركينافاسو ، وتشاد ، وموريتانيا ، وغينيا ، وغينيه بيساو ، ونيجيريا ، والصومال ، والسودان ، والحبشة ، وكلها دول مسلمة معدمة [567] .

وبالطبع فإن المرض يلازم الفقر ، ويزيد الفقر فقرا وجهلا وانحدارا في الأخلاق ، وتحللا من القيم ، ولقد أدرك المنصّرون هذه الحقائق منذ زمن بعيد وأتقنوا اللعبة وتفننوا في استغلال الضعف البشري الظاهر في كثير من ديار الإسلام وحولوا عن طريقه أعدادا كبيرة عن دينهم .

---

[565] ص 30 [كما في النسخة المطبوعة].

[566] يقول : أن أكثر من نصف سكان بنغلاديش البالغ عددهم 92 مليونا من البشر يعيشون دون مستوى الكفاف ، وتنقل وكالة رويتر للأنباء أن عشرة بالمائة من سكان العاصمة داكا والبالغ عددهم 2,5 مليون نسمة هم من الشحاذين الذين يسهمون بنصيب في الجريمة والدعارة وتمثل النساء 34 % منهم وتتراوح أعمار 12 % منهن بين 12 – 17 سنة (ص 27) .

[567] تتلقى هذه الدول مساعدات من هيئة الأمم المتحدة وفي حين أنه في عام 1979 م صرف على القطط والكلاب الأمريكية 3,2 مليار دولار ، كانت ميزانية الأمم المتحدة التي تساعد هذه الأقطار 683 مليار دولار فقط .

ومن الجدير بالذكر أن أمريكا تقدم 0,022 % من ناتجها القومي كمساعدات وتكون مهينة وبها الكثير من الإذلال ، بينما تقدم السعودية حوالي 5 % من ناتجها القومي (جعفر آدم حسين – عرض كتاب العالم الثالث – نظرة من الداخل – للكاتب البريطاني بول هاريسون) . (الشرق الأوسط الأربعاء 28 / 8 / 1985 م) .

(يذكر تقرير حديث من أندونيسيا أنه خلال العقدين الأخيرين أي خلال عشرين عاما فقط – أنشأت الأقلية النصرانية هناك من المستشفيات ما فاق في عدده مؤسسات الأغلبية الساحقة من المسلمين ، حتى أن جمعية الإنجيل الثانية أعلنت عام 1976 م عن تنصير 400,000 شخص ، وتلا ذلك نبأ وكالة اليونايتد برس أن 3,5 مليونا من المسلمين قد تنصروا خلال ثلاث سنوات) .

وعمدت الجمعيات الأجنبية إلى استغلال هذا البؤس فتبنى الخواجا أندريه سابيه البلجيكي 30903 من أطفال المسلمين الصوماليين . ونشط جلب الصغار من أفريقيا إلى الغرب وتعليمهم وتدريبهم ثم عودتهم بعد سنوات إلى مواطنهم الأصلية وهم يحملون في داخلهم علاقات ذات صبغة رسمية وتعاقدية مع الغرب ليكونوا دعاة مخلصين ينشرون معلوماتهم المغلوطة وغير الصحيحة عن الإسلام .

لقد خلف الاستعمار التفاوت العجيب بين فئات المسلمين وحافظ عليه المسلمون وشكلت ديارهم الجزء الأكبر من العالم الثالث في أفريقيا وآسيا – الذي يسميه الغرب خداعا الدول النامية [568] . كتب الدكتور الطويل قائلا :

" لقد زرت وعشت أياما وأشهرا في كثير من الحواضر الكبرى في ديار المسلمين لاغوس في نيجيريا ودكا في بنغلاديش ، ورأيت فيها جميعا التناقض المخيف بين من يملكون الملايين ومن لا يملكون شروى نقير ، بين البيوت الفخمة والشوارع العريضة وبين الأكواخ الخشبية والطرق الضيقة ، بين الحدائق الغناء في الأحياء السكنية الراقية وبين أكوام القمامة والأوساخ وتجمعات المياه الراكدة والحفر والحشرات والفئران على حواشي الحواضر الكبرى هذه وفي أحيائها القديمة ، بين نظافة الثياب الأنيقة للفتية في الأماكن الموسرة والأجسام الممتلئة بل وربما المترهلة شحما ودهنا من التخمة . . . وبين الأسمال والخرق البالية على الأجساد الضعيفة الهزيلة المريضة الجائعة – بين الفنادق الفخمة ذات النجوم الخمسة ، وكثير منها للأجانب ، وبين المقعدين المعوقين من الشحاذين الفقراء صغارا وكبارا . . . على أبواب هذه الأبنية الرائعة . يحدث كل هذا في ديار المسلمين " [569] .

وكل ذلك طبعا نتيجة لغياب النظام الإسلامي الاقتصادي وغير الاقتصادي .

---

[568] توجد ثلاثة معايير تحدد الدول الأكثر فقرا في العالم : الأول : الدخل السنوي للفرد يقل عن 100 دولار سنويا ، الثاني : انخفاض نسبة المتعلمين أقل من 20 % من السكان ، الثالث : انخفاض دخل الانتاج الصناعي عن 10 % من إجمالي الناتج القومي .

وقد بلغ عدد هذه الدول في العالم عام 1405 هـ / 1985 م ستة وثلاثين دولة مجموع سكانها حوالي 300 مليون نسمة . 26 دولة أفريقية و9 دول في آسيا ودولة واحدة في أمريكا اللاتينية .

ومعظم هذه الدول بلاد إسلامية للأسف . (الشرق الأوسط العد 2481 ص 4 الجمعة 28 ذو الحجة 1405 هـ / 13 / 9 / 1985 م) .

[569] الحرمان والتخلف في ديار المسلمين ص 43 .

6- ربط الاستعمار عملات العالم الإسلامي بعملته – فالبلدان التي خضعت للنفوذ الانجليزي ، ربطت عملتها بالجنيه الاسترليني ، والبلاد التي خضعت للنفوذ الفرنسي أخضعت عملتها للفرنك الفرنسي ، وارتبطت كثير من العملات الإسلامية بالدولار الأمريكي حاليا .

ولكي يحافظ الاستعمار على بقاء تخلف البلاد الإسلامية وارتباطها به أطلق على العالم الثالث في أفريقيا وآسيا – والذي يشكل في أكثره ديار المسلمين – نفاقا وخداعا : (الدول النامية) والخبث في هذا التعبير أنه يوحي بالحركة القائمة مع أن واقع هذه الدول هو العكس تماما ، ففيه استنقاع إقتصادي إن لم نقل تراجعا وتأخرا [570] إذ كلما اشتد الارتباط وزاد الإستيراد زادت التبعية ، وأثرت على العلاقات الاقتصادية بين بلاد المسلمين وعلى التكامل الاقتصادي وهذا يمنع من نمو الاقتصاد الإسلامي نموا سويا مستقلا .

وترى الغرب يذيع دائما ويملأ الأسماع عن المعونات الخارجية للدول النامية ومع ذلك فإنها لا تنمو بل تزداد فقرا على فقر ، فهو يستهدف الإبتزاز والكسب غير المشروع تحت ستار المساعدات ، ولقد عبر رئيس إحدى الشركات الأمريكية في خطبة له عن سياسة الاحتكارات اليهودية الأمريكية والاستعمار الجديد بقوله :

" لقد حصلنا مقابل كل دولار أنفقناه في السنوات الخمس الماضية على مختلف الأغراض خارج الولايات المتحدة على 4,67 دولارا أي أن كل دولار ربح 3,67 دولارا ، أي أن نسبة الربح بلغت 367 % " . وهي سرقة وإبتزاز وليست عمليات إقتصادية سليمة [571] .

ويقول (جورج وودز) المدير السابق للبنك الدولي عن المعونات الاقتصادية : " إذا استمر الحال على هذا المنوال تكون كمية رؤوس الأموال الخارجة من الدول النامية أكثر من المبالغ التي دخلتها في فترة خمسة عشر عاما ، وذلك بسبب الفوائد المرتفعة " [572] .

ولعل أطرف الأمثلة عما تفعله المعونات الخارجية هو قصة صندوق النقد الدولي في مصر في اتفاق برامج التثبيت الإقتصادي الذي عقد مع البنك في جمهورية مصر العربية للفترة ما بين 1978 م – 1981 م وكان الهدف المعلن لهذا البرنامج هو

---

[570] انظر المال القيم : العالم الثالث وقوانين التغير في التخلف المنهجي وتنمية التخلف بقلم عادل . م. ع. حسون أستاذ القانون الدولي والنظم السياسية – البلاغ العدد 781 ص 56 – 63 .

[571] السعدني – مصطفى – الفكر الصهيوني والسياسة اليهودية – مطابع الأهرام التجارية . القاهرة 1391 هـ / 1971 م .

[572] كتاب المعونات الأمريكية والسوفيتية لروبرت ولتزر تعريب . د. صبحي الطويل – دار القلم 1972 م ص 8 .

إخراج مصر من أزمتها الاقتصادية وتقليل نسبة عجز ميزانها التجاري . وفي الدراسة التي أجراها الدكتور رمزي زكي الخبير الأول في معهد التخطيط القومي المصري ظهر أن الصندوق دخل مصر عام 1978 م وهي مدينة ب 8000 مليون دولار . . . وخرج الصندوق إياه منها عام 1981 وهي مدينة بأكثر من 18,000 مليون دولار أي أن كل مواطن مصري كان مديونا ب 422 دولارا للعالم [573] والغريب أن دخل الفرد الواحد كان لا يتعدى 460 دولارا في السنة .

وتذكر دراسة أخرى ملخصا لواقع الحياة الاقتصادية في مصر تحت عنوان : تضاعف أعباء الديون 7 مرات في أقل من 6 سنوات وزيادة العجز التجاري 40 مرة) [574] . وهو ما يصلح مثلا لمعظم أقطار العالم الإسلامي .

وبمناسبة الديون الخارجية وتراكمها في كثير من الدول المسلمة عرض الدكتور صبحي الطويل بعض الأرقام المذهلة التي تزايدت بصورة هائلة في العقد (1390 – 1400 هـ / 1970 – 1980 م) بحيث شكلت في عام 1400 هـ / 1980 م أكثر من 50 % من إجمالي الناتج القومي . والديون في الغالب للدول الكبيرة أو للمؤسسات الدولية الخاضعة لها . فيؤثر ذلك في سياسات الدول الفقيرة المدينة الداخلية والخارجية .

تراكم الديون الخارجية لبعض دول العالم الإسلامي

الدولة	المبلغ بالدولار عام 1970	النسبة المئوية من إجمالي الناتج القومي	المبلغ عام 1980	النسبة المئوية
افغانستان	454 مليون دولار	-	1094 مليون دولار	-
باكستان	3059 مليون دولار	% 30,5	8875 مليون دولار	% 34,7
السودان	308 مليون دولار	% 15,3	3097 مليون دولار [575]	% 37,2

[573] الشرق الأوسط عدد 21 نوفمبر تشرين الثاني 1982 م ص 7 .

[574] جريدة الشرق الأوسط – السابقة – رسالة مكتب القاهرة بقلم عصام رفعت عام 1982 م .

[575] بلغت ديون السودان عام 1982 م 7800 مليون دولار (النيوزويك الأمريكية عدد 16 أيار (مايو) 1983 م ص 37 . في حين بلغت 9 مليارات دولار عام 1985 م . (الشرق الأوسط السبت 16 / 11 / 1985 م ص 5) . وهناك 740 مليون دولار أقساط ديون مستحقة حتى عام 1984 م فقط لدول أسبانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا والدانيمارك والسويد وكندا وبريطانيا والنمسا وايطاليا وسويسرا والمانيا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية .

اليمن الجنوبي	001 مليون دولار	-	499 مليون دولار	-
اندونيسيا	2443 مليون دولار	% 27,1	14940 مليون دولار [576]	% 22,5
موريتانيا	27 مليون دولار	% 16,8	714 مليون دولار	% 39,7
تركيا	2,7 مليار دولار (عام 1973) 1854 مليون دولار	- % 14,4	17,5 مليار دولار [577] 13216 مليون دولار	- % 22,4
مصر	1644 مليون دولار	% 23,8	13054 مليون دولار [578]	% 51,7
المغرب	711 مليون دولار	% 18	7098 مليون دولار	% 38,6
نيجيريا	478 مليون دولار	% 6,4	4997 مليون دولار [579]	% 5,5
تونس	541 مليون دولار	% 38,2	2955 مليون دولار	% 33,9
سوريا	232 مليون دولار	% 12,8	2493 مليون	% 20,1

والديون كلها كانت نتاجا لقروض من الخارج لم تستغل استغلالا جيدا في أشياء منتجة فمثلا : مصنع بورتسودان للغزل الرفيع وهو مصنع حكومي اكتمل انشاؤه عام 1980 م ، ولكنه ظل معطلا حتى عام 1985 حتى حلت مشكلة إمداده بالمياه والكهرباء ، رغم أن هذا المصنع قرر إنشاؤه منذ السبعينات لتصدير غزل القطن السوداني ، والآن السوق محتاج لهذه الغزول في السودان على حد قول السيد محمد عبد الله وزير المالية والتخطيط الإقتصادي السوداني في خطاب الميزانية لعام 1406 هـ . (الشرق الأوسط – السبت 16 / 11 / 1985 م / ربيع الأول 406 هـ ص 5) .

[576] في حين كانت ديون أندونيسيا عام 1966 م 1719,4 مليون دولار (أندونيسيا العدد 19 / 741 / ص 4) ولكنها بلغت عام 1982 م 25,000 مليون دولار (الأخبار القاهرية عدد كانون الثاني (يناير) 1983 م) .

[577] مصطفى محمد ص 240 / وبلغت 32 مليار عام 1987 م / من محاضرة للمهندس نجم الدين أربكان في المدينة المنورة بتاريخ 25 / 2 / 1987 م .

[578] وأصبحت ديون مصر عام 1982 م 19200 مليون دولار حسب معلومات البنك الدولي للإنشاء والتعمير . في حين بلغت عام 1988 م حوالي 45 مليار دولار .

[579] وبلغت ديون نيجيريا في نهاية عام 1984 م 17,5 مليار دولار وعام 1985 م 20 مليار دولار . وهذه الديون الخارجية . أما الداخلية فبلغت 8 مليارات ويمتص الدين الخارجي حوالي 45 % من مصادر الدولة النيجيرية . (الشرق الأوسط الأربعاء 12 ذو الحجة 1405 هـ / 28 / 1985 م ص 5) .

			دولار [580]	
الجزائر	937 مليون دولار	% 19,3	15073 مليون دولار	% 38,7
السنغال	98 مليون دولار	% 11,6	906 مليون دولار	% 34,9

وقد بدأت أزمة الديون العالمية تطفو على الساحة الدولية منذ عام 1403 هـ / 1982 م حيث بدأت تترك آثارها الواضحة على الدول النامية المدينة نتيجة للتمويل المستمر لجزء كبير من خيراتها إلى العالم الصناعي لتسديد الديون المتراكمة عليها والفوائد المستحقة ، وهي طريقة لاستنزاف خيرات هذه الدول بشكل يجعلها مصدرا للمواد الأولية الرخيصة ، وسوقا لمنتجاتها الصناعية . ووصل حجم هذه الديون إلى 900 بليون دولار [581] .

وبلغ إجمالي الديون الخارجية المتراكمة على دول جنوب الصحراء في أفريقيا عام 1985 م حوالي مئة بليون دولار منها 60.2 بليون للبنك الدولي . وتواجه معظم هذه الدول صعوبة شديدة في تسديد هذه الديون أو دفع الفوائد المستحقة عليها ، كما تواجه صعوبات مماثلة في إعادة جدولة هذه الديون أو في الحصول على قروض جديدة [582] .

كما قدر إجمالي ديون الدول النامية مع نهاية عام 1985 م 970 بليون دولار كما ذكرته مصادر إقتصادية في العاصمة الأمريكية [583] .

وقد طرحت أمريكا في كلمة وزيرها بيكر – وزير الخزانة – (كما قالت جريدة التايم) برنامجا لحل مشاكل ديون العالم الثالث وذلك في المؤتمر المشترك الذي عقده البنك الدولي وصندوق النقد الدولي في مدينة سيئول عاصمة كوريا الجنوبية – وذلك بزيادة الأموال المتاحة للدول المدينة بمبلغ 29 ألف مليون دولار على مدى الثلاثة أعوام المقبلة من البنوك التجارية والبنك الدولي . وأن يتولى البنك الدولي دورا أكثر فعالية في معالجة مشكلة الديون ، وأن يؤمن قروضا طويلة الأجل ، أي تريد أمريكا زيادة قروض البنك وتوسيعها ، وتريد منه التعاون مع البنوك التجارية الأخرى العالمية لتأمين الأموال اللازمة . ويعتقد بيكر أن البنك الدولي وبنك التنمية الأمريكية يستطيعان

---

[580] وبلغت ديون سورية عام 1981 م 3900 مليون دولار . (جريدة الرأي 19 فبراير (شباط) نقلا عن وكالة السحافة الفرنسية) .

[581] الشرق الأوسط – أزمة الديون العالمية – بقلم – د. محمد سالم الصيان / 30 محرم 1406 هـ / 14 / 10 / 1985 م . ص 4 .

[582] الشرق الأوسط العدد 2545 / السبت 4 ربيع الأول 1406 هـ / 16 / 11 / 1985 م . ص 5 .

[583] أخبار العالم الإسلامي العدد 921 / 25 رجب 1405 هـ / 15 / 4 / 1985 م .

فيما بينهما أن يؤمنا 50 % من الإحتياجات للدول النامية [584] . ولا يخفى ما في هذا المشروع من خطة أمريكية لزيادة تبعية دول العالم الثالث لأمريكا ، وسيطرتها عليها .

ولو تتبعنا حلقة الديون المفرغة للدول النامية نجد أنها تتلخص في زيادة أعباء المديونية – يؤدي إلى – الاهتمام بزيادة صادراتها من المواد الخام الأولية – يؤدي إلى – زيادة العرض العالمي من هذه المواد (إضافة لحالة الركود الإقتصادي العالمي) – يؤدي إلى – انخفاض أسعارها العالمية – يؤدي إلى – نقص في حصيلة الصادرات من العملات الصعبة – يؤدي إلى – عدم القدرة على سداد المديونية السنوية – يؤدي إلى – إعادة جدولة هذه الديون مع تزايد الأعباء نتيجة لعقوبات الفوائد الإضافية الناتجة من التأخر في السداد – يؤدي إلى – الاتجاه إلى مزيد من الاقتراض – يؤدي إلى – زيادة أعباء المديونية . ويمكن تمثيلها بالشكل التالي :

الشكل

وتشترك حكومات بعض الدول النامية في توسيع هذه الحلقة من جراء الاندفاع غير المخطط إلى سلاح المديونية وتقربه بقصد أو بدون قصد إلى حبل وريدها لتجهز على آمال التنمية الاقتصادية التي تنشدها ولتزداد فقرا على فقر وتتسع تبعا لذلك الفجوة بينها وبين الدول المتقدمة .

وقد لخص الدكتور محمد سالم سرور الصبان أستاذ الاقتصاد المساعد بجامعة الملك عبد العزيز بجدة أسباب ذلك [585] في العوامل التالية :

1- ارتفاع أسعار الفائدة العالمية .

2- أمد الكساد الاقتصادي العالمي .

3- تزايد الحماية الجمركية في الدول الصناعية .

4- تراخي أسواق المواد الأولية .

5- شغل دول العالم الثالث في نزاعات جانبية .

6- هروب رؤوس الأموال الوطنية .

7- إهمال تنمية مختلف القطاعات .

---

[584] الشرق الأوسط – الأحد 20 / 10 / 1985 م ص 10 .

[585] الشرق الأوسط 30 محرم 1406 هـ / 14 / 10 / 1985 م .

وغاب عن بال الدكتور السبب الرئيسي وهو غياب النظام الاقتصادي الإسلامي واهتزاز الشخصية المسلمة .

وقد قدر المصرف الألماني الغربي (دوينستر بنك) حاجة البلدان النامية (وهي إسلامية في معظمها) إلى القروض في السنوات الخمس (1985 – 1990 م) بما يتراوح بين 180 إلى 240 بليون دولار . وارتفعت فوائد القروض بين 1978 و 1984 م من 19 بليون إلى 70 بليون دولار [586] .

7- حرم الاستعمار العالم الإسلامي من إقامة شبكة مواصلات تربطها ربطا وثيقا رغم تجاورها وسهولة ربطها ليكرس تمزيقها وتفريقها وحاجتها إليه .

وكما ما اهتم به من مواصلات كانت لخدمة أغراضه الاستعمارية من مواطن الإنتاج إلى المواني أو أماكن التصدير كما هو الحال في أقطار المغرب العربي – تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا ، ونيجيريا ، والسودان ، ومصر ، والعراق ، وإيران ، والهند .

فعجزت دول البلدان الإسلامية في عهد استقلالها عن استيعاب معنى التخطيط والإحاطة بمفهومه الواسع وما يمكن أن يؤدي إليه من نتائج وتشابه إنتاجها ، فأدى ذلك إلى تنافسها رغم ما تتمتع به هذه البلدان من تكامل اقتصادي .

هذا الواقع الاقتصادي المخزن للعالم الإسلامي وبقاء أثر الاستعمار في بلاد الإسلام أمر طبيعي في ظل غيبة النظام الاقتصادي الإسلامي ، وهذا التخلف الذي يعاني منه عالم الإسلام لا يتحمل الإسلام وزره بل هو في الحقيقة عقوبة مستحقة من الله على المسلمين لتخليهم عن نظام الإسلام لا لتمسكهم به كما يزعم الزاعمون .

قال تعالى : **(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى)** [587] .

وقال سبحانه وتعالى : **(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا)** [588] .

وهكذا فقد العالم الإسلامي مكانته وتلاشت قوته وانهارت دعائمه ، وسقطت مكانته الأولى ومشت سكة الأجنبي في حقله [589] . باستمرار الاستعمار الفكري

---

[586] الشرق الأوسط – السبت 29 / 12 / 1984 م . ص 5 .

[587] سورة طه الآيات 124 – 126 .

[588] سورة الجن الآية 16 .

والثقافي الأجنبي بعد الاستقلال السياسي إلى اليوم بمختلف التيارات والعقائد والنظريات الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية ، فكانت تأثيرا متصلا بالتأثير السابق أيام الاستعمار في القادة والساسة وأصحاب الرأي والمشرعين وفي الفرد المسلم بأسلوب التربية في هذه البلاد الإسلامية ، فظلوا على ولائهم للعلمانية ، وتلمسوا في تشريعاتهم القضائية والإدارية مراجع القانون الفرنسي والإنجليزي والشيوعي والإشتراكي . . . إلخ ، فأصيبت الأمة بالهوان ولعل ذلك تصديق للنذير النبوي الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" يا معشر المهاجرين خمس خصال إن ابتليتم بهن ونزلن عليكم – أعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشت فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله ورسوله إلا سلط الله عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم ، وما لم يحكموا بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم " [590] .

وهذا الحديث يلخص بالفعل واقع العالم الإسلامي من جميع النواحي .

فالأمراض الاجتماعية التي انتشرت في المجتمع الإسلامي والتي استقدمها من الغرب وانحرافاته ، والجفاف الذي يغزو أراضي المسلمين وامتداد التصحر في أقطاره ، والخوف من الحكام وفقدان الثقة بين الحاكم والمحكوم والتحديات الخارجية العاتية – الصليبية والشيوعية والصهيونية والهندوسية والخلافات المستفحلة المستحكمة بين الأقطار الإسلامية ، والحروب التي تنشب بينها والتي لا تجد من القوى الكبرى عملا يوقفها أو يحد منها ، بل تجد تشجيعا وتأييدا لتستمر تستنزف طاقة الأمة البشرية والمادية وتعمق الاقليمية والقومية والعداء بين أطراف النزاع . هذا هو واقع الأمة الإسلامية باختصار بينه هذا الحديث الشريف . فهي يعي المسملون ذاتهم ؟ [591] .

---

[589] من أقوال المبشر زويمر سنة 1911 م في مؤتمر لكنو . وكان رئيسا للمؤتمر . – المبشر زويمر ومفترياته – حاضر العالم الإسلامي – للأمير شكيب ص 181 – 182 .

[590] أخرجه ابن ماجه والطبراني في الكبير .

[591] انظر الباب الرابع من هذا الكتاب .

الباب الرابع

توقعات حول مستقبل العالم الإسلامي

الفصل الأول : الاتجاه إلى التزام الإسلام نتيجة معاناة المسلمين المعاصرة

الفصل الثاني : الاتجاه إلى وحدة الجهود وتضامن المسلمين

الفصل الثالث : الأخطار التي تهدد العالم الإسلامي ما لم يعتصم بالإسلام

الفصل الأول

الاتجاه إلى التزام الإسلام
نتيجة معاناة المسلمين المعاصرة

تحاول الأمة الإسلامية أن تتجاوز المحن الكثيرة والتحديات التي تعترضها رغم وسائل التدمير والهمجية ، كما تحاول أن تلم جراحها وأن تتعرف على مواطن الضعف في حياتها التي كانت منافذ للعدو ، وثغرات تسلل منها ، وأن تتلمس مواطن القوة لتنطلق مرة بعد مرة ، وخاصة فقد بقي لها الإسلام علما وحضارة وثقافة وانتماء وبقي كتابها وسنة رسولها الأمر الذي يمكنها من الصمود ويعينها على النهوض والمواجهة من جديد .

ولقد شهد القرن الرابع عشر الهجري محاولات ومؤامرات ومكائد لا تحصى عددا ولا تقدر ضخامة وشراسة استهدفت القضاء على الإسلام وتركيع المسلمين ومصادرة ونهب خيرات العالم الإسلامي ومقدراته ، وما القضايا التي سنستعرضها والقضايا الأخرى الكثيرة التي لم نتمكن من استعراضها لضيق الوقت والمجال (كتطور الأزمة اللبنانية وتفاعلاتها ، والحرب العراقية الإيرانية [592] ، والغزو التنصيري لأقطار أفريقيا

---

592 ويكفي هنا أن نلخص الآثار المأساوية لهذه الحرب العجيبة التي هي بدون هدف :

أ- **الخسائر البشرية** ، التي فاقت المليون بين قتيل وجريح ، وهذه الخسائر تفوق أي خسائر للحروب التي جرت في منطقة الشرق الأوسط .

ب- **الخسائر الإنسانية** التي تنتج عن الخسائر البشرية . . وهذا أبعد أثرا لأن آثارها في المجتمع تستمر إلى أجيال . . فالترمل ، واليتم ، والتشرد ، والحاجة ، تبقى آثاره ونتائجه من أكثر المعوقات لدى المجتمع الإنساني .

ج- **الخسائر الاقتصادية** / فقد أكلت سنوات الحرب الأخضر واليابس ، فاستهلك البلدان واردات النفط كلها . وتوقفت المشاريع كما أنها نزفت موارد الدول المجاورة العربية نتيجة : الانفاق العسكري ، ونزوح الأموال بعيدا عن الخطر ، وارتفاع أسعار السلع المختلفة بسبب ارتفاع تكاليف الشحن والتأمين وانخفاض مستويات المساعدات المالية التي كانت تقدمها الدول المنتجة للنفط .

د- **انقسام العالم الإسلامي** : وذلك لانقسامه إلى قسمين أحدهما يقف إلى جانب العراق ، والآخر يقف إلى جانب إيران . . وترتب على ذلك الانقسام الطائفي وهذا من شأنه أن ينعكس على الأفراد والدول ، ومن ثم يؤدي إلى الإنهيار في العالم الإسلامي .

كما يؤدي إلى حدة الإنقسام القوي بين الايرانيين والعرب ، كما حدث من قبل بين الأتراك والعرب . وتمتد آثار ذلك إلى أجيال عديدة .

هـ- **التدخل الأجنبي** : وخاصة الروسي والأمريكي ، حيث اعتبرت أمريكا نفسها شرطي الخليج بحجة وجود تهديد للأمن الدولي ، أو من خلال تأمين خطوط الملاحة الدولية ، وضمان تدفق النفط أو حتى تأمين الحماية .

و- **ضياع القضايا الإسلامية** : فالإنقسام واهدار طاقات الأمة من شأنه أن ينعكس سلبيا على وجود أية إمكانيات لنصرة القضايا الإسلامية ودعمها . . وخاصة فلسطين وأفغانستان وارتيريا . . فقد تضررت جميع

، وقضية جنوب السودان وتشاد وغيرها) إلا حلقات في مسلسل التآمر على الإسلام والعالم الإسلامي قادتها القوى العالمية الثلاث : الصليبية (الامبريالية الغربية) والصهيونية العالمية ، والشيوعية (الإمبريالية الشرقية) . قال تعالى : (**وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ**) [593] . وقال تعالى (**وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ**) [594] .

ورغم كل ذلك فقد شهد الثلث الأخير من القرن الرابع عشر الهجري صحوة إسلامية مباركة ورجوعا إلى الله بعد أن خاض العالم الإسلامي تجارب كثيرة من الرأسمالية إلى الشيوعية ، ورفع أكثر أقطاره كثيرا من الشعارات : الحرية ، والديقراطية ، والتقدمية ، والإشتراكية ، والقومية ، والوطنية . . . إلخ ، وكلها تجارب باءت بالفشل وشعارات تساقطت الواحدة تلو الأخرى ، ذلك لتصادم هذه الأنظمة والشعارات مع فطرة الإنسان ، فكفر الناس بالفسفة وفلاسفتها وبالآراء ومفكريها ، وأخذ بعضهم يعود إلى الله – وعاد المسلم يلمس بل يؤكد أن هذا الدين مقبل ليأخذ بيد الإنسان الشرقي والغربي على السواء إلى طريق الخير . قال تعالى : (**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**) [595] . وقد تمثلت هذه الصحوة في ادلعوة لأن يعيش المسلمون إسلامهم في جواهره الثابتة ، وقيمه الخالدة ، وآدابه السامية ، وأن ينطلقوا منه لمعالجة شئون عصرهم . ومن أسباب ذلك :

1- أن الإسلام هو دين الفطرة للإنسان ، القادر دائما على إعادة صياغة من يوهمون بالإنحلال والتمرد على العقيدة والقيم ، إذا توفر المنهاج التربوي الصائب ، ووجدوا علماء الآخرة الذين يفقهون تزكية النفوس ويحكمون صياغة العقول وتوحيد الجهود ، ويعطي التفسير الصحيح للوجود ولمركز الإنسان فيه ولغاية وجوده الإنساني في إعمار الأرض واستخلافه فيها ، ويمسبه الراحة النفسية بادراكه غاية وجوده . قال تعالى (**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**) [596] .

قضايا المسلمين نتيجة استمرار الحرب . وهذه تحقق أهداف القوى المعادية للإسلام ، إذ أسهمت أمريكا واسرائيل عمليا في إطالة أمد الحرب . وفضيحة إيران جيت شاهدة على ذلك ، بحجة تخليص الرهائن المحتجزين في بيروت . وهي قضية شحن الأسلحة الأمريكية إلى إيران بواسطة إسرائيل . وقد شغلت هذه القضية الصحافة إلى حين (انظر الشرق الأوسط العدد 2906 ، 10 / ربيع الأول 1407 هـ / المجلة بعنوان ثمن الرهائن الأربعاء 12 / 11 / 1986 م ربيع الأول 1407 هـ) . وجاءت حرب الخليج عام 1411 هـ لتزيد الأمر خطورة .

[593] سورة البقرة الآية 217 .

[594] سورة الجاثية الآية 19 .

[595] سورة الرعد الآية 17 .

[596] سورة الروم الآية 30 .

فالآية تجعل الإسلام ليس فقط دين الفطرة ، ولكن الفطرة نفسها التي فطر الناس عليها ، فالإسلام دين الله هو والفطرة الإنسانية السليمة شيء واحد وان مبادئه وأحكامه مطابقة تماما لسنن الفطرة ، وأما ما يعتور [597] الناس من عوج فهو أمر طارىء راجع إلى الخروج عن التربية الإسلامية الصحيحة أي إلى عدم تنشئة النشء على أصول الإسلام وأخلاقه وأعماله [598] . يقول ابن تيمية (رحمه الله) : " ماذا يصنع بي أعدائي ، إن جنتي وبستاني في صدري لا تفارقني – إن قتلي شهادة ، ونفيي سياحة ، وسجني خلوة " [599] .

2– انهيار الحضارة الغربية بفرعيها الرأسمالي والشيوعي : فقد انكشف زيف هذه الحضارة لماديتها المفرطة وخوائها الروحي ، فأوقعت حياة الرجل الغربي في الفراغ [600] ، وعجزت عن تقديم الحلول المقنعة لهدف الإنسان من الحياة ، عندما جحدت الإله الذي يفزع إليه وقت الشدة ، فأوصلت الإنسان إلى الشقاء والتمزق الداخلي والتوتر العصبي والفزع ، والهروب من الحياة إلى الكحول والمخدرات والشذوذ الجنسي ، والبحث عن الصرخات والموضة ، وأخيرا إلى الإنتحار لوضع حد لهذه الحياة البائسة التعيسة كما فعل جاكوب مارينو ، وارنست همنجواي ونيتشه وغيرهم .

وامتلأت المسرحيات بهذه الآلام والتعاسة ، وأخذ الذين ساروا على نمط الحياة الغربية من المسلمين يواجهون المصير ذاته ، ويعانون التمزق نفسه .

وقد مرت الحضارة الغربية بأطوار ثلاثة هي :

1– طور الهروب من الله بالثورة على الكنيسة والتحرر من سلطان الدين .

2– طور فتح أبواب كل شيء عليها : الإنتاج والإبداع في نواحي الحياة المادية .

3– طور الضمور والإفلال والإستبدال [601] : والحضارة الغربية اليوم في هذا الطور الأخير .

يقول جود الإنجليزي : " إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ، ولكننا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش " [602] .

---

[597] يصيب .

[598] الإسلام في عصر العلم ص 7 .

[599] أبو الحسن الندوي – ابن تيمية – ص 165 .

[600] انظر : الكسيس كارليل – الإنسان ذلك المجهول ، اشبنجلر – انهيار الحضارة الغربية ، دالاس – حرب أم سلام .

[601] انظر : الكسيس كارليل ، واشبنجلر ، ودالاس .

وهـذا مـا جعـل الصـيحات الدينيـة المتخلفـة الشـاذة المنحرفـة تنطلـي علـى النـاس الـذي اتصـفوا بـالخواء الروحـي والفـراغ العقـدي ، كالبهائيـة فـي ثوبهـا الجديـد علـى يـد (صـون مـون) البليـونير الأمريكـي الكـوري الأصـل ، الـذي ادعـى أن الـوحي ينـزل عليـه ، وزعـم الاتصـال بالمسـيح منـذ حـوالي نصـف قـرن ، ومـن ورائـه الأصـابع الصـهيونية الماسـونية ، فـي محاولاتهـا لتهـديم بقايـا الأديـان وبقـاء سـيادة الماديـة . وكمحاولـة (هـوبكتز) المبشـر النصـراني فـي التقريـب بـين الإسـلام والنصـرانية فـي لبنـان بإقامـة : جمعيـة الصـداقة الإسـلامية المسـيحية [603] . ومـن العجيـب أن صـون مـون اختـار تركيـا لإعـلان بيانـه العجيـب وادعائـه بـالنبوة التـي زعـم أنـه يتلقاهـا عـن المسـيح منـذ عـام 1936 م [604] . كمـا أن الاشـتراكية أخـذت تتهـاوى فـي الأقطـار التـي تزعمتهـا ، فقـد تخلـت الصـين عـن كثيـر مـن أفكارهـا ، كمـا تنـازل الاتحـاد السـوفييتي زعـيم الاشـتراكية العلميـة عـن كثيـر مـن أفكارهـا . فـي عهـد غورباتشـوف وبـين عجـز النظريـة الماركسـية وقصـورها [605] . ومـن الجـدير بالـذكر أن الحضـارة الغربيـة لـن تنهـار بالسـرعة التـي يتخيلهـا بعـض النـاس ، ففيهـا مـن المرونـة وخاصـة مـا يسـمى بالحـل الوسـط ، والقـدرة علـى المنـاورة والصـبر فـي المفاوضـات حتـى بـين الشـقين المتضـادين الرأسـمالية والاشـتراكية مـا يمـد فـي عمرها ، إذا بقي المسلمون في سباتهم .

والواقـع أن الإسـلام هـو المرشـح الوحيـد لوراثـة الإنسـان الغربـي فـي قيـادة البشـرية ، فهـو ديـن الله الـذي ارتضـاه للنـاس منهاجـا وإمامـا – قـال تعـالى **(الْيَـوْمَ أَكْمَلْـتُ لَكُـمْ دِيـنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا)** [606] .

وكـان الغـرب ولا يـزال يـدرك أهميـة الكتـاب (القـرآن الكـريم) فـي تحقيـق وحـدة المسـلمين ، فكـان كرومـر عميـد الاسـتعمار الإنجليـزي فـي مصـر يقـول " لا يمكـن للاسـتعمار أن يعـيش ويسـتقر وسـط أمـة طالمـا ظـل هـذا الكتـاب فيهـا " . والكتـاب تكفـل الله سـبحانه وتعـالى بحفظـه ، ولـم يكلـه لأحـد ، قـال تعـالى : **(إِنَّـا نَحْـنُ نَزَّلْنَـا الـذِّكْرَ وَإِنَّـا لَهُ لَحَافِظُونَ)** .

أمـا المسـلم فيـؤمن ويعتقـد بـأن المسـتقبل لهـذا الـدين – الإسـلام – للنصـوص الثابتـة المحكمة التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية والتي تبشر بذلك .

---

[602] الندوي – ماذ خسر العالم بانحطاط المسلمين ص 238 .

[603] المسلمون العدد 37 السبت 5 صفر 1406 هـ / 19 اكتوبر 1985 م .

[604] انظر التفاصيل : المسلمون العدد 35 ص 1 وص 8 0 9 . ، والعدد 37 ص 6 – 7 .

[605] مجلـة المجتمـع الكويتيـة العـدد 887 ص 28 – 29 بعنـوان : مـاذا يحـدث فـي البلـدان الاشـتراكية بعـد (البروسترويكا) وهو الكتاب الذي بين غورباتشوف فيه سياسته الجديدة بعد إفلاس الشيوعية . حيث تم سقوط ما يسمى بالاتحاد السوفيتي بالفعل .

[606] سورة المائدة ، الآية 3 .

قال تعالى (**يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**) [607] .

وقال صلى الله عليه وسلم : " ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزا يعز الله دين الإسلام وذلا يذل من كفر " [608] .

وهناك أحاديث صحيحة كثيرة تشير إلى أن نهاية اليهود ستكون في فلسطين ، وأن الجيش الذي سيقاتلهم جيش مسلم . قال صلى الله عليه وسلم : " تقاتلون اليهود ، فتسلطون عليهم ، حتى يختبىء أحدهم وراء الحجر ، فيقول الحجر : يا عبد الله : هذا يهودي ورائي فاقتله " [609] .

وقال صلى الله عليه وسلم " لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود ، حتى يقول الحجر وراءه اليهودي ، يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله " [610] . وفي رواية البزار ورجالها ثقات رجال الصحيح كما جاء في مجمع الزوائد للهيثمي في المجلد السابع : " أنتم شرقي الأردن وهم غربيه " . ويعلق راوي الحديث فيقول : ولم نكن نعرف أين الأردن في الأرض يومذاك [611] .

وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله زوى لي الأرض (أي ضم وجمع) فرأيت مشارقها ومغاربها وان أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها " [612] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : " بينما نحن عند رسول الله نكتب إذ سئل رسول الله أي المدينتين تفتح أولا ؟ فقال : مدينة هرقل " [613] (يعني القسطنطينية) . والثاني هي مدينة روما مركز الفاتيكان .

---

[607] سورة التوبة الآيتان 32 ، 33 .

[608] رواه أحمد ج 4 ص 103 ، والطبراني الكبير ج 1 ص 126 ، الألباني ج 1 ص 121 .

[609] الألباني مجلد 3 رقم 2974 .

[610] الألباني ج 6 ص 173 رقم 729 .

[611] والحديث يخبرنا عن حرب ضروس ستقوم بين المسلمين واليهود في حين أن أمرا مثل هذا لم يكن يخطر بالبال ، حيث أن اليهود لم تكن لهم قوة يستطيعون بها مقاتلة المسلمين ، وهذا علم من أعلام النبوة لأنه اعلام بالغيب ، فيه بشارة عظمى وهي انتصار المسلمين على اليهود في هذه الحروب مهما كانت الظروف والأحوال انتصارا حاسما لا يبقي منهم ولا يذر ، وهو أمر آت لا ريب فيه . انظر محاضرات رابطة العالم الإسلامي للموسم الثقافي لحج عام 1398 هـ / محاضرة الشيخ عبد الله كنون ص 65 . كما أن فواتح سورة الإسراء الكريمة تؤكد هذه الحقائق – وهي بحاجة إلى نظرة جديدة في التفسير – حول افساد اليهود مرتين ! .

[612] رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد .

وقد تحقق الفتح الأول وسيتحقق الثاني بإذن الله .

ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وهو يستعرض التاريخ المقبل للأمة المسلمة من لدن نبوته : " تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إن شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكا عاضا فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة " ، ثم سكت [614] .

هذا كله يؤكد حتمية رجوع الإسلام إلى مركز السيادة وموضع القيادة ويحقق الإنتصارات فيسود ويعم أرجاء الوجود بإذن الله .

ومن كتاب الغرب أنفسهم من رشح الإسلام كمنقذ للبشرية . قال (ديباسكييه) الفرنسي :

" إن الغرب لم يعرف الإسلام ، فمنذ ظهور الإسلام اتخذ الغرب موقفا عدائيا منه ، ولم يكف عن الافتراء عليه والتنديد به ، وقد ترتب على هذا التشويه أن رسخت في العقلية الغربية مقولات فظة عن الإسلام ، ولا شك أن الإسلام هو **الوحدانية التي يحتاج إليها العالم المعاصر** ليتخلص من متاهات الحضارة المادية المعاصرة التي لا بد ان استمرت أن تنتهي بتدمير الإنسان [615] . ورأى **جارودي** أن الحضارة الغربية تقود العالم إلى الإنتحار [616] . فأسلم عدد كبير من فلاسفة الغرب وكتابه كرجاء جارودي (روجيه جارودي الذي أسلم عام 1982 م) [617] ، **وعبد الله أليسون** الانجليزي رئيسم قسم الهندسة الألكترونية بجامعة لندن ، وأسلم أثناء انعقاد المؤتمر الدولي للإعجاز العلمي والطبي في القرآن الكريم في القاهرة من 11 محرم إلى 13

---

[613] رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة والحالكم والمقدسي .

[614] رواه أحمد عن حذيفة .

[615] مجلة الأمان اللبنانية عدد 57 السنة 2 آذار 1980 م . وانظر كتاب قوة الغد العالمية لباول شمتز ، ترجمة محمد شامة – القاهرة 1394 هـ .

[616] في حواره مع (المسلمون) العدد 30 السبت 15 ذي الحجة 1405 هـ / 1985 م .

[617] وجارودي صاحب كتاب : اسرائيل – الصهيونية السياسية – وقد حوكم في فرنسا متهما باللاسامية ! ! وفي كتابه هذا بعض الأفكار السياسية الخطيرة ، والرجل ممن انتمى إلى الإسلام عقيدة بعد أن قضى حياته السابقة في ظلال الشيوعية والإلحاد ، ولكنه رأى أن الشريعة قابلة للتطور وعلى ذلك فيجب الحذر من تلقي أفكار من أسلم حديثا بالقبول دون نظر فإن مثله ينقصه المعرفة الدقيقة في الأصول والفقه ، كما أن مواقفه السياسية وانتماءاته السابقة تؤثر كثيرا في أسلوبه وتفكيره رغم الثقة بسلامة عقيدته . انظر جريدة الدستور الأردنية حول فكرته : من أجل إسلام القرن العشرين / ص 19 الجمعة 16 / 1 / 1987 م . وقد ثار جدل كبير حول فكرته هذه ، على صفحات المسلمون وغيرها من الصحف .

محرم سنة 1406 هـ [618] . ويقول : " إن العالم المادي اليوم في مأزق خطير وما يقولونه أو يرونه لا يفسر الحقيقة تماما ، وأنهم يبحثون عن العودة إلى الدين والبيان الصحيح الشامل ، وهنا العبء على المسلمين ، وهذا هو واجبهم ، وواجب مفكريهم في التقدم إلى البشرية الحائرة التائهة بالحلول الإسلامية السليمة " [619] .

ونتيجة لذلك يرزت مع نهاية القرن الرابع الهجري ظواهر صحية تدل على الاتجاه لالتزام الإسلام ومن هذه الظواهر – **مظاهر الصحوة** – :

– المدارس التي خطط دعاة التغريب ، أخذت تدفع الأفواج إلى الله ، كما بدأت المناهج في بعض الأقطار الإسلامية تأخذ مسارا لا بأس به باتجاه الإسلام [620]

– الجامعات التي سهر دعاة التغريب على مناهجها وظنوها مراكز التدمير أصبحت تقدم نماذج الشباب الصادق المسلتزم بإيمانه وعقيدته فأصبحت كبلاط فرعون يربى فيه موسى عليه السلام ليهدم بيده عرش فرعون . فانتشرت الدعوة انتشارا واسعا في صفوف المثقفين من الأطباء والمعلمين والمهندسين ، ومن طلاب الجامعات في شتى التخصصات .

– وبقي الأزهر رغم ما خطط له ينير السبيل أمام المسلمين في جميع أنحاء بلاد الإسلام ويغذيهم بشبابه وشيوخه . وتصل عن طريقه الدعوة إلى مختلف أجزاء الأرض .

– وشمخت الجامعات الإسلامية وطاولت غيرها وتفوقت على الجامعات العلمانية وأقبل عليها الشباب المسلم من مختلف بقاع الإسلام ، كما هو في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وجامعة أم القرى وفي باكستان وماليزيا وغيرها في أرض الإسلام ، ليتخرجوا دعاة إلى الله .

– وخفت صوت دعاة التغريب وتواروا بأفكارهم بعيدا وكسدت بضاعتهم وكلت أقلامهم . وأصبح نقد هؤلاء ، والدفاع عن الإسلام ليس هدفا بحد ذاته ، وكثر نقد الحضارة الغربية بشقيها (الاشتراكي والرأسمالي) بنظرات إسلامية عميقة مستنيرة ، واختفى الشعار الذي كانوا يرفعونه : إن الإسلام هو سبب تخلف الأمة وجمودها وضعفها . وحل محل هذا الشعار : إن البعد عن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين . كما ارتفعت الأصوات بأخذ الصورة الحقيقية للإسلام من مصادره الأولى : كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وحياة السلف الصالح الذين طبقوا الإسلام ، وعاشوه .

---

[618] أخبار العالم الإسلامي الاثنين 16 محرم 1406 هـ .

[619] المسلمون العدد 36 / 28 محرم 1406 هـ / 12 أكتوبر 1985 م .

[620] كما في المناهج التعليمية في الأردن عدا المناهج في المملكة العربية السعودية . واتجاه المناهج في باكستان وبنغلاديش وماليزيا ومصر .

– وخفت صوت الهجوم على اللغة العربية (لغة القرآن الكريم) وتوارى أصحاب الهجوم وأصبحت اللغة العربية منذ الدورة التاسعة والعشرين (1974 م) اللغة السادسة الرسمية للمنظمة الدولية في هيئة الأمم المتحدة .

– وأصبحت وسائل الإعلام منابر للدعوة الإسلامية وعرض عقيدة الإسلام وأفكاره وحلوله للمشاكل ، كما أصبح الكتاب الإسلامي هو أكثر الكتب رواجا في الأسواق وأقبل أصحاب المطابع عليه حتى أصحاب المطابع النصرانية (طبعا بقصد الربح) وكسدت كتب الأدب الرخيص والشعر الماجن والمجلات الخليعة . وازدادت العناية بالتراث الإسلامي ونشره في مصر والمملكة العربية السعودية والعراق والهند (دلهي وحيدر آباد] والإتحاد السوفييتي ودول الغرب .

– وأصبحت مكة والمدينة قبلة الشباب والشيوخ فعلا ، فالرحلات والنزهات وقضاء أوقات الإجازات والعطل الرسمية تكون عمرة مباركة وزيارة إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وظهرت العناية الكبيرة بأماكن الحج والمدينة المنورة ، فأصبحت مكان الجاذبية للمسلمين .

– وأصبح الفكر الإسلامي والصوت الإسلامي والشخصية الإسلامية حديث المنتديات الفكرية في الشرق والغرب . فتأسس المركز الدولي للسنة النبوية على سبيل المثال لمواجهة من أساء إلى السنة من المستشرقين والمستغربين بتخريج الأحاديث ، كما أعلن ذلك رئيس المركز الدكتور محمد الطيب النجار الرئيس السابق لجامعة الأزهر وأستاذ الدراسات العليا [621] . وكما هو في الجامعة الإسلامية وغيرها من المراكز .

وحتى التلفزيون ووسائل الإعلام الأخرى شاعت فيها المسلسلات الدينية الإسلامية لكسب شعور الناس الذين يتوجهون نحو الإسلام (وهو في الحقيقة نوع من الإرتزاق باسم الدين) . ووصل الأمر حدا إلى عودة من يسمون (طوابير أهل الفن) إلى الله . وندمهم على ما فرط منهم [622] .

– وأصبح أصحاب المناصب والهيئات في العالم الإسلامي يتلبسون بثياب الإسلام أو يحاولون أن يتلبسوا على الأقل ، ويلتمسوا نقاط التشابه بين واقعهم وبين الحياة الإسلامية .

– وبرزت المظاهر الإسلامية في الأفراح والأحزان والمظهر الشخصي – (مثل العقيقة ، واللحية ، وعزل النساء عن الرجال في قاعة الدرس ، وفي حفلات الأعراس ، والامتناع عن تقديم الدخان في المآتم والأفراح ، والإعراض عن لبس خواتيم الخطبة وخاصة الذهبية منها ، واللباس الإسلامي . . . وغيرها) .

---

[621] الشرق الأوسط ص 10 الأحد 1 / 9 / 1985 م .

[622] انظر : المسلمون (العدد 174 والعدد 175) حول هذا الموضوع المثير .

– وظهر تحري الحلال والحرام في المأكولات المستوردة والمعلبات والذبائح والحلويات والمعجنات والصابون واللحوم المثلجة والمرطبات ، والتدقيق على خلو الأطعمة والأشربة من شحم الخنزير والكحول .

– إنتشار اللباس الشرعي للنساء ، والإتجاه إلى الزي الإسلامي للرجال ، وقد أخذ يظهر هذا بوضوح في المدارس والجامعات والمعاهد .

– تحري الحلال في استغلال الأموال واستثمارها ، فبرزت البنوك الإسلامية .

– انتشار وشيوع أشرطة القرآن الكريم والندوات والخطب الإسلامية والإقبال الشديد عليها .

– عودة المسجد لتأدية دوره ، فامتلأت المساجد بالشباب ، ومنها تقوم الرحلات لنشر الدعوة الإسلامية ، ودعوة الناس إلى الكتاب والسنة .

– الإعتزاز بالفكر الإسلامي وانتقال المفكرين من دور الدفاع ورد الشبهات إلى دور التحدي ، ومن مرحلة الإستحياء إلى مرحلة البروز والإعتزاز . ولم يعد الإسلام متهما تتبري الأقلام للدفاع عنه ، بل أصبح الكتاب يظهرون حقائق الإسلام للناس ، ويعرضونه نظاما شاملا متكاملا ، كاملا في حد ذاته غير محتاج إلى الترقيع من أي نظام كان ! .

– إنحسار الشركيات كالطواف حول القبور والذبح لها ودعاء الأموات والتوسل بمشايخ الطرق وأمثالهم من الدجاجلة ، وبدأت عقيدة التوحيد الصافية النقية بشق طريقها إلى القلوب على يد المخلصين من هذه الأمة .

وبعد أن كانت الدولة التي تقيم حدود الإسلام – المملكة العربية السعودية – توصف بالرجعية والتخلف ، تطاردها سهام وسائل الإعلام من مختلف الجهات ، أخذت اليوم تبرز في المحافل الدولية العربية والإسلامية بوزن كبير وإعتزاز .

وأصبحت المناداة بتطبيق أحكام الإسلام تجد صدى كبيرا ، وتقترب بعض الدول منه . مثل باكستان والسودان [623] ، وأخرى ترتفع فيها الأصوات تنادي بتطبيق شرع الله كما في مصر وبنغلاديش وماليزيا وأندونيسيا والجزائر والمغرب ، وحتى في تركيا المجتمع العلماني المتغرب (مجتمع الجمهورية الكمالية التي أدارت ظهرها للمسلمين وحاولت خنق التيار الإسلامي بأشد أنواع العنف) – عاد التيار الإسلامي إلى هذه البلاد وأصبح اليوم أقوى التيارات الشعبية المؤثرة ، الأمر الذي أجبر الحكام على

---

[623] أعلنت السودان تطبيق أحكام الإسلام عام 1983 م في عهد جعفر نميري ، وثار الجدل في حينه ، وبعد القضاء على نظام نميري وضعت تطبيقاته على محك النقد في السودان ، والأكثر يقولون الآن بتعديل ومراجعة القوانين . انظر الشرق الأوسط حول هذا الموضوع ص 8 الأربعاء 21 / 8 / 1985 م العدد 2458 .

الإنحناء والعودة إلى المسلمين ، وزيارة رئيس جمهورية تركيا للملكة العربية السعودية عام 1405 هـ وتأدية رئيس وزرائها لفريضة الحج (أوزال) ، والعلاقات القوية والتقارب مع الأفكار الإسلامية دليل على ذلك . رغم استمرارها في السياسة المعادية للإسلام . وفي تركيا اليوم سبعون ألف مسجد ، والدين الإسلامي مادة إجبارية في جميع مراحل التعليم [624] .

وحتى في تايلاند يرتفع صوت الإسلام يطالب بتحقيق أحكام الإسلام في المقاطعات الإسلامية فينحني لها حكام تايلاند البوذية . وكذلك انحنت الشيوعية ليحدث الإنفراج على المسلمين في الإتحاد السوفييتي والصين الشعبية ويوغوسلافيا وغيرها .

– وأخذ الإسلام يغزو الغرب فأسلم كثير من المتخصصين [625] في شتى العلوم ومنهم الفلاسفة ورجال السياسة والدين ، وشهدوا أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يحفظ للبشرية كرامتها أفرادا وجماعات . واندفع ألوف من البشر (ممن يبحثون عن الخلاص في أوربا وأمريكا وآسيا وأفريقيا) إلى الدخول في الإسلام .

– إحياء فكرة التضامن الإسلامي على المستويين الرسمي والشعبي ونشاطات الندوات والمؤتمرات التي تبحث في قضايا الإسلام – السياسية والتربوية والأدبية – .

كما ارتفعت المساجد والمآذن في كل ركن من أركان أوربا وأمريكا [626] انطلق منها نداء الله أكبر ، عامرة بالمصلين والمؤمنين . .

---

[624] من حديث لعميد كلية الإلهليات بجامعة مرمرة التركية ل (المسلمون) . المسلمون العدد 41 ص 3 وانظر صحيفة الرائد الهندية 10 صفر 1407 هـ / ص 4 بعنوان الإسلام قادم / مدير منظمة التنصير يعترف بالصحوة الإسلامية .

[625] ألف الطبيب الفرنسي موريس بوكاي كتابا : " دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارلاف الحديثة " وترجم كتابه إلى اللغة العربية ونشر عام 1978 م ، وتحدث فيه عن دراسته ونتائجها فقال :

" لقد قمت أولا بدراسة القرآن الكريم ، وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة ، باحثا عن درجة اتفاق نصوص القرآن الكريم ومعطيات العلم الحديث " وبنفس الموضوعية قمت بدراسة على العهد القديم والأناجيل ، وكانت نتيدة الدراسة المقارنة ما يلي :

" بعد تعلمي العربية وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدرت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أي مقولة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث .

وبالموضوعية نفسها أدركت أنه ليس بي حاجة للذهاب أبعد من الكتاب الأول بالنسبة للعهد القديم أي سفر التكوين ، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخا في عصرنا هذا " .

[626] ويتزعم المسلمين السود في أمريكا لويس فرقان الذي يحمل عليه زعماء اليهود في أمريكا ، بل وصل الأمر بالسود المسلمين في أمريكا إلى المطالبة بتكوين أمة إسلامية في أمريكا . انظر : المسلمون العدد 36 12 / 10 / 1985 م . وانظر الحاشية رقم 1 ص 24 من هذا الكتاب – الجزء الأول – [كما في النسخة

– اتفاق معظم المسلمين اليوم على تحديد خصومهم : الاستعمار ، والصهيونية ، والرأسمالية والشيوعية ، كمخاطر خارجية ، إلى جانب المشكلات الداخلية المتمثلة في قضايا التخلف والتنمية والفقر والجهل والمرض . وبذلك فهم يسيرون نحو الوعي بالذات .

والمعنى من ذلك كله أن الأمة بإذن الله مجتمعة لالتزام الإسلام رغم قصار النظر من الناس ضعاف الصلة بالله الذين يتيهون في منازع الشر التي استشرت في المجتمعات التي وصفها أهلها باطلا بالتقدم والرقي .

والواقع أن مظاهر الصحوة هذه لا تكفي فالأمة بحاجة إلى حل إسلامي شامل ، بمعنى أن يكون الإسلام هو الموجه والقائد للمجتمع في كل الميادين والمجالات المادية والمعنوية ، وأن تتجه الحياة كلها وجهة إسلامية ، وأن تصبح عقيدة المجتمع وشعاراته وتعاليمه وأفكاره ومشاعره ونزعاته وأخلاقه وأنظمة تربيته وتقاليده وآدابه وتشريعاته كلها إسلامية [627] . أي أن الصحوة الإسلامية هذه لن تكون حقيقية عملية إلا إذا اتخذت امتدادا يشمل كل الاتجاهات ، واتسمت بالوعي الحضاري الشمولي الذي لا يغفل ميدانا من ميادين الحياة ولا أسلوبا من أساليب المواجهة ، وهو بحاجة بدون شك إلى تخطيط وتنسيق ووعي يترفع عن صغائر الأطر التنظيمية أو الحساسية الحزبية ويستشرف الأفق الإسلامي الذي يطل منه على الإنسانية جمعاء . بحيث يظهر إلى الوجود مجتمع الهداية والعدل – مجتمع الإسلام – . وتتضح أمام الأجيال المسلمة طريق النجاة في الدنيا والآخرة . بحيث يكون مرجعها في تصورها للعمل للإسلام من حيث الأهداف والوسائل ، ومواجهة الظروف والأحداث ، ووزن الأشخاص والأشياء ، مستمدا من الكتاب والسنة ، والسيرة النبوية المطهرة ، باعتبارها الترجمة العملية النموذجية للكتاب والسنة . ويندرج تحت هذا التصور البدهيات التالية : توحيد الله سبحانه بأنواع التوحيد الثلاثة :

1– توحيد الألوهية : أي إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة والطاعة . فهذا توحيد قصد وطلب .

2– توحيد الربوبية : أي الاعتقاد بأنه وحده سبحانه هو الخالق ، الرازق ، المحيي ، المميت ، بيده ملكوت كل شيء . وهو على كل شيء قدير . أي توحيد معرفة وإثبات .

المطبوعة]. وطبعا لم يسلم الإسلام في أمريكا بين السود من التحريف ، فظهرت منظمة الإيجا محمد الأمريكية انظر – منظمة الإيجا – دراسة وتحليل – د. عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان ط 1 / 1399 هـ / 1979 م دار الشروق / جدة .

[627] يوسف القرضاوي – الحل الإسلامي ص 47 – 48 .

3- توحيد الصفات والأسماء : وهو الإعتقاد بأسمائه الحسنى ، سبحانه ، وصفاته العليا ، المنزهة عن كل نقص . أو إثبات الصفات دون تعطيل ، ولا تمثيل ، ولا تأويل . فيتضح عندهم بذلك مفهوم : (لا إله إلا الله) . بحيث تكون الربوبية والحاكمية والسلطان والتشريع لله وحده . فيكون الإسلام عندهم المعنى الكلي الشامل الذي يجب أن يهيمن على جميع شئون الحياة .

الفصل الثاني

الاتجاه إلى وحدة الجهود وتضامن المسلمين

تنبه المسلمون إلى خطورة تفرقهم وإلى عوامل ضعفهم وإلى أهمية وحدتهم وتآلفهم والتقائهم ، فارتفعت الأصوات تنادي بأهمية التقاء المسلمين للتشاور والتفاهم بعد أن جربوا كل المذاهب والنظم العربية بشقيها الإشتراكي والرأسمالي اعتقادا منهم أو مجرد ظن بأن هذه النظم لم تغن عنهم شيئا وكانت سرابا خادعا ركضوا خلفه فتعرقلت نهضتهم وتفرقت كلمتهم ، وواقع الأمر أن في العالم الإسلامي مدا كبيرا وقوة شعبية هائلة تقول بالعودة إلى الإسلام من جديد ولا أدل على ذلك من مقاومة التجارب الشيوعية والاشتراكية في بعض بلدان العالم الإسلامي وردود الفعل العنيفة التي ظهرت في بعضها الآخر ضد العلمانية وفصل الدين عن الدولة ، وفصل الدين عن الحياة .

جربت القوى المسلمة التكتلات الإقليمية والوطنية والقومية وأشهرها : **الحلف المركزي** الذي ضم تركيا وإيران وباكستان [628] ، **والجامعة العربية** التي ضمت الدول العربية جمعاء [629] ، **ودول عدم الانحياز** [630] ومؤتمراتها التي ضمت كثيرا من دول آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، **ومنظمة الوحدة الإفريقية** [631] ، وغير ذلك من محاولات للوحدة الوطنية أو الاقليمية أو الاقتصادية على غير أسس الإسلام .

وفي عام 1345 هـ / 1926 م شهدت مكة المكرمة أول مؤتمر إسلامي قام بالدعوة إليه الملك عبد العزيز آل سعود كان بمثابة بدء المحاولات الإسلامية نحو الإتحاد بعد إلغاء الخلافة العثمانية ، تبعه وسبقه جماعات إسلامية كثيرة شملت الساحة الإسلامية بأجمعها مثل جماعة الإخوان المسلمين في مصر سنة 1347 هـ / 1928 م ، والجماعة الإسلامية التي أسسها الأستاذ المودودي سنة 1938 م وغيرهما من الجماعات والحركات الإسلامية التي أدت دورها في الصحوة الإسلامية بغض النظر عما قيل عن بعضها أو عنها كلها وتركت ميراثا فكريا ضخما في مستوى المواجهة مع التيارات المعادية للإسلام ، ولكنى طغى على كثير من أعضاء هذه الحركات والجماعات التعصب وسارعوا إلى مواجهة بعضهم بعضا ، ووصل ببعضهم

---

(628) Central Treaty Organization أو حلف بغداد . وبعد انسحاب العراق عام 1958 م منه ، وأصبحت أمريكا عضوا عاملا كامل العضوية في هذا الحلف . وفي الحلف أيضا المملكة المتحدة (انجلترا) ! ! والواقع أن الحلف واحد من المحاولات الغربية لتكريس نفوذها في العالم الإسلامي – (انظر : محمد عزيز شكري الأحلاف والتكتلات ص 70) .

(629) انظر فصل الأحلاف والتكتلات الدولية في هذا الكتاب .

(630) نفسه .

(631) نفسه .

إلى تكفير بعض بشكل أعاد إلى الأذهان صورة التعصب المذهبي الذي ساد بلاد الإسلام في عصور الجمود والتخلف .

هذه الروح الحزبية جعلت أولئك الأفراد لا يرون احتمال خطئهم ، وان عندهم الحق المطلق ، والخطأ المطلق عند غيرهم ، فجعلت اللقاءات بين أفرادهم سباقا في الحديث وليس حوارا (والحوار فن يعتمد على سماع آراء الآخرين وفهمها وتفنيدها للتوصل إلى الصواب والرجوع عن الخطأ) ، والحزبي لا يرى إلا من زاوية واحدة فقط ويقوم حديثه على توزيع الآراء وسد النظر فيما يتعلق بنظريته فلا يتسع صدره لآراء غيره ، وهذا أدى بدوره إلى إنغلاق بعض الجماعات على نفسها وانعزالها عن الأمة ، ونهج بعضها التطرف والغلو فسهل على أعداء الإسلام والعلمانيين ضرب دعاة الإسلام بشعارات تبررها بعض أعمال ومفاهيم بعض الجماعات كالاتهام بالتعصب أو التطرف . . فضاعت جهود كثير من العاملين في حقول الدعوة أو شوهت .

وما على هذه الجماعات إذا أرادت أن يستمر دورها الإيجابي في العمل لاستئناف الحياة الإسلامية إلا أن تعيد النظر في تقويم نفسها والابتعاد عن السرية والعمل تحت الأرض لأن ذلك هو الوسط المناسب لاستنبات البذور الغربية مجهولة الطبيعة والمناسبة للعمل المظلم فتسيء إلى العمل كله وإلى الجماعة كلها وإلى الإسلام ، أما العمل في ضوء النهار فإنه يقتل العفونة ويكشف العناصر الغريبة المستنبتة في الظلام تحت ضوء النهار وتختبر الصبر والصلابة والإخلاص . وعلى هذه الجماعات ما دامت أهدافها واحدة أن تتقارب وتتواد وتتحاب وترد أمورها كلها إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإلى العلماء المخلصين الذين يستطيعون استنباط تلك الأحكام لا إلى أصحاب الساندويتشات الفكرية ، والعلماء هم أئمة العامة يتصدون لإرشاد الناس ويرون فيهم القدوة الصحيحة ، وعليهم التخلي عن الهوى واتباع الحق ، والهوى هو المذموم الذي لا يجوز لمسلم أن يحتكم إليه أو يطمئن إليه قلبه . وروي عن ابن عباس أنه قال : " ما ذكر الله الهوى في كتابه إلا ذمه " [632] .

وأما الحق فهو الوحي من كتاب أو سنة . ومرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله . قال تعالى : **(فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِ اللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)** [633] .

وقال تعالى : **(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ)** [634] .

وقال تعالى : **(فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا)** [635] .

---

[632] الإمام الشاطبي – الموافقات – ج 2 ص 121 .

[633] سورة النساء الآية 59 .

[634] سورة الشورى الآية 10 .

وقال سبحانه وتعالى : **(وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ)** [636] .

فهم بحاجة وغيرهم من الدعاة إلى أن يكون عملهم خالصا لله فقط فلا يستكثر أحدهم عمله ويستقل عمل غيره ، كما أنهم بحاجة إلى الحلم والتأني والصبر في دعوتهم .

قال صلى الله عليه وسلم للأشج رئيس قبيلة عبد القيس : " إن فيك خصلتين يحبهما الله – الحلم والأناة " [637] .

والصبر في حقيقته ألزم لوازم الداعية وأمضى أسلحته وأكمل عدته وقد فهم ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى : **(وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ)** فقال : كونوا حلماء فقهاء . ويقال الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره [638] .

بالإضافة إلى وجوب توفر حسن التفقه والفهم السليم لبعض القضايا الفقهية ، حتى ينتفي النزاع والتخاصم والفرقة ، ويجب إدراك أن الخلاف في الفروع لا يوجب الفرقة والنزاع ، ولا يقطع الألفة والمودة والأخوة . ومن الملاحظ أن الغرور والجرأة على الفتيا بدون أهلية لذلك من أهم أسباب الفرقة بين أفراد الجماعات الإسلامية . وعلى مختلف الدعاة والمؤسسات الإسلامية أن تعمل على تضييق شقة الخلاف وإزالة العقبات ، وأن يبينوا للناس حقيقة الإسلام ، حقيقة التوحيد ، حتى توجد القاعدة الإسلامية الواعية من داخل الأمة الإسلامية ، وإن من الخطأ الاصطدام بالسلطة قبل وجود القاعدة الواعية ، إذ يكون ذلك أمرا انتحاريا لا طائل وراءه إلا اعطاء السلطة حجة تقتيل المسلمين ، والتخلص منهم .

إن عملية التربية المستمرة ، وتخريج الأجيال المؤمنة ستؤدي حتما إلى التعاون مع السلطة ، أو إلى انحناء السلطة ، فهي من الأمة ، وليست من خارجها . ومن الممكن أن تدعم العمل الإسلامي بدلا من أن تسهم في القضاء عليه . كما يجب الانتباه إلى تربية المرأة المسلمة تربية إسلامية صحيحة لتقضي على فكرة تحرير المرأة الغربية النزعة واليسارية المنحى . ولتسهم المرأة في حركة إحياء الدين بوعي واخلاص .

هذا وقد ظهرت أنشطة طيبة على المستويين الرسمي والشعبي في العالم الإسلامي . كان لجهود المخلصين من الأمة ، وللمملكة العربية السعودية دور بارز في إنجاحها . وأهم هذه الأنشطة .

---

(635) سورة النساء الآية 65 .

(636) سورة النساء الآية 83 .

(637) صحيح مسلم ج 1 ص 37 .

(638) فتح الباري ج 1 ص 160 .

منظمة المؤتمر الإسلامي :

وتعود فكرته إلى أول اجتماع عقد في مكة المكرمة عام 1345 هـ / 1926 م بعد إلغاء الخلافة العثمانية برعاية الملك عبد العزيز ومصر ومسلمين من شبه القارة الهندية .

ثم عقد مؤتمر إسلامي في بيت المقدس عام 1931 م / 1350 هـ ورفع صوته احتجاجا على اضطهاد المسلمين في الإتحاد السوفييتي ، وأصدر نداء للرأي العام ناشده المساعدة .

كما عقد مؤتمر كراتشي عام 1949 م و1951 م . واجتماع بغداد عام 1962 م ، واجتماع مقاديشو لعام 1964 م . وللمؤتمر لجنة مهمتها معالجة الشئون الثقافية والإدارية والسياسية والإجتماعية والاقتصادية [639] .

وفي الستينات بدأت الدعوة لإقامة تجمع إسلامي دولي ، كانت المملكة العربية السعودية من أول الداعين لها . وقد اصطدمت الفكرة أول الأمر بمعارضة عنيفة من بعض الدول العربية بحجة أن وراءها محاولات غربية لإحياء فكرة الأحلاف المناوئة لسياسات هذه الدول ، كما وقفت روسيا في وجه هذه الفكرة وركزت على تشويهها في وسائل الإعلام المختلفة ، وقد لعبت الإنقسامات التي شهدتها الساحة العربية والإسلامية في تلك الفترة ، دورها في تباين المواقف إزاء فكرة التجمع الإسلامي ، كما لعبت الشعارات التي رفعت في تلك الفترة من تقدمية وثورية واشتراكية دورها في الضجيج على هذه الفكرة . إلى أن كانت مأساة 1967 م . فغير معظم القادة المعارضين مواقفهم تدريجيا ، وشاركوا في ترجمة فكرة التجمع الإسلامي إلى ما يعرف حاليا بميثاق **منظمة المؤتمر الإسلامي** .

ففي القمة الإسلامية بالرباط عام 1389 هـ / 1969 م تقرر إنشاء هذه المنظمة ، وكان مؤتمر القمة رد فعل على الجريمة اليهودية في إحراق المسجد الأقصى .

وتم إقرار ميثاق المنظمة في المؤتمر الثالث لوزراء خارجية الدول الإسلامية بجدة عام 1392 هـ / 1972 م . واشترك في إقرار هذا الميثاق ثلاثون دولة إسلامية هي :

أفغانستان ، والجزائر ، والإمارات العربية ، والبحرين ، وتشاد ، ومصر العربية ، وغينيا ، وأندونيسيا ، وإيران ، والأردن ، والكويت ، ولبنان ، وليبيا ، وماليزيا ، ومالي ، وموريتانيا ، والمغرب ، والنيجر ، وعمان ، وباكستان ، وقطر ، والمملكة العربية السعودية ، والسنغال ، وسيراليون ، والصومال ، والسودان ، وسوريا ، وتونس ، وتركيا ، واليمن .

---

[639] محمد عزيز شكري – التكتلات والأحلاف ص 146 .

وقد صدقت السلطات المختصة في ثلاث وعشرين دولة من هذه الدول على هذا الميثاق حتى 1973 م كما طلبت دول أخرى الانضمام إليه منها : غامبيا ، والكمرون ، واوغندة ، وفولتا العليا ، وغابون ، وغينية بيساو . وطلب العراق الإنضمام إلى المؤتمر الإسلامي كمراقب . وتمثلت في مؤتمر لاهور عام 1974 م أعظم تظاهرة إسلامية .

ويمثل النشاط الرئيسي لهذه المنظمة على مستوى وزراء خارجية الدول الإسلامية أو ملوكها ورؤسائها . وقد ازداد عدد الدول الإسلامية المشاركة في هذه المنظمة فبلغ عام 1405 هـ في مؤتمر صنعاء 44 دولة . وهو المؤتمر الخامس عشر لوزراء خارجية الدول الإسلامية .

وتهتم منظمة المؤتمر الإسلامي بالمسلمين في جميع أجزاء العالم ، بحيث أصبحت ملجأ كل الجماعات والأقليات المسلمة في العالم .

أهداف المنظمة :

ورد في مقدمة ميثاق المؤتمر الإسلامي ما يوضح أسس التكتل الذي أنشأه فتقول :

" إن ممثلي الدول الأعضاء وهم مقتنعون بأن عقيدتهم المشتركة تشكل عاملا قويا لتقارب الشعوب الإسلامية ، وتفاهمها ، وتضامنها . . . وإذ يقرون الحفاظ على القيم الروحية والأخلاقية ، والإجتماعية والإقتصادية الموجودة في الإسلام والتي تظل عاملا من العوامل الهامة لتحقيق التقدم بين أبناء البشر . . . يصممون على توثيق أواصر الصداقة الأخوية والروحية القائمة بين شعوبهم . . . . " .

أما أهداف هذه المنظمة فقد حددتها المادة الثانية من الميثاق على النحو التالي :

1- تعزيز التضامن الإسلامي بين الدول الأعضاء .

2- دعم التعاون بين الدول الأعضاء في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية . وفي المجالات الحيوية الأخرى . . .

3- العمل على محو التفرقة العنصرية والقضاء على الاستعمار في جميع أشكاله .

4- اتخاذ التدابير اللازمة لدعم السلام والأمن الدوليين القائمين على العدل .

5- تنسيق العمل من أجل الحفاظ على سلامة الأماكن المقدسة ، وتحريرها ، ودعم كفاح الشعب الفلسطيني ، ومساعدته على استرجاع حقوقه ، وتحرير أراضيه .

6- دعم كفاح جميع الشعوب الإسلامية في سبيل المحافظة على كرامتها واستقلالها وحقوقها الوطنية .

7- إيجاد المناخ لتعزيز التعاون والتفاهم بين الدول الأعضاء والدول الأخرى .[640]

وقد تبنى الملك فيصل بن عبد العزيز الدعوة إلى التضامن الإسلامي للوقوف في وجه المخططات الاستعمارية ، ولم شعث المسلمين ومجابهة الغزو الفكري بجميع أشكاله ، وقام من أجل ذلك بعدة جولات في البلاد الإسلامية كالمغرب ، وغينيا ، ومالي ، وتونس ، والجزائر ، والسنغال ، واوغندا ، وتشاد ، وموريتانيا ، والنيجر ، كما أرسلت المملكة عدة بعثات لأفريقيا ، واستقبلت مئات الطلاب في الجامعة الإسلامية والجامعات الأخرى ، وكان من نتائج هذه الدعوة :

1- تنبهت الدول الأفريقية للخطر الصهيوني الذي تسلل إليها منذ سنة 1376 هـ وبعد احتلال إسرائيل لمضائق تيران وخليج العقبة ، وصارت السفن اليهودية تسير في البحر الأحمر والمحيط الهندي وتتصل مباشرة بشرق أفريقيا .

وبعد اتصالات فيصل قطعت الدول الأفريقية علاقاتها السياسية مع الصهيونية وانقلب كثير منها إلى موالاة البلاد الإسلامية .

2- أنشيء البنك الإسلامي للتنمية ليسد الفراغ في مساعدة الدول الأفريقية النامية ، وليقوم بمشاريع التنمية الاقتصادية على أسس خالية من المعاملات الربوية .

3- أنشئت الأمانة العامة للدول الإسلامية بجدة ، بعد انعقاد عدة دورات لملوك ورؤساء الدول الإسلامية (منظمة الدول الإسلامية) فعقدت عدة مؤتمرات قمة إسلامية أسفر الثالث منها عن تأسيس مجمع الفقه الإسلامي في مكة المكرمة .

4- أنشيء المجلس الأعلى للمساجد وبدأ العمل في التنسيق بين مؤسسات الدعوة في العالم الإسلامي ورعاية المساجد وعمارتها وتكوين الدعاة .

5- تبني القضايا الإسلامية ومد يد العون إلى الشعوب والأقليات المسلمة التي تعاني الظلم والاضطهاد : فعقد في السنوات الأخيرة العديد من المؤتمرات والندوات الإسلامية وتكررت اللقاءات الرسمية والشعبية بين قادة الفكر الإسلامي للتداول في شئون المسلمين ومد يد العون إلى الشعوب والأقليات التي تعاني الظلم والإضطهاد . ففي أعمال مؤتمر القمة الإسلامي الثالث الذي عقد في ربيع الأول سنة 1401 هـ أضيف موضوع الأقليات المسلمة إلى جدول أعمال مؤتمر القمة بناء على موافقة

---

(640) نفسه .

مـؤتمر وزراء خارجيـة العـالم الإسـلامي الثـاني عشـر الـذي عقـد بمدينـة الطـائف [641] . كمـا أنشـيء معهـد شـئون الأقليـات المسـلمة التـابع لجامعـة الملـك عبـد العزيـز بجـدة لخدمـة الأقليـات المسـلمة ودراسـة مشـكلاتها [642] . وأنشـئت إذاعـة نـداء الإسـلام فـي مكـة المكرمـة لخدمـة قضـايا الأقليـات المسـلمة أيضـا . وأصـبحت الجامعـة الإسـلامية بالمدينـة المنـورة تجمعـا كبيـرا لأبنـاء المسـلمين ومنبـرا إسـلاميا كبيـرا عقـد فيهـا المـؤتمر الإسـلامي لتوجيـه الدعوة وإعداد الدعاة الأول والثاني .

فعقد الأول سنة 1397 هـ / 1977 م وتناولت موضوعاته [643] :

أ- مناهج الدعوة الإسلامية ووسائلها وأساليبها وسب تعزيزها وتطوراتها .

ب- اعـداد الـدعاة ومشـاكل الـدعوة والـدعاة فـي العصـر الحـديث ووسـائل التغلـب عليها .

ج- وسـائل الإعـلام ودورهـا فـي توجيـه الأفـراد والجماعـات والمجتمعـات وآثارهـا المضادة للدعوة الإسلامية وما يجب اتخاذه بإزائها .

وقـد صـدر عـن هـذا المـؤتمر 98 توصـية تمثـل منهجـا متكـاملا للـدعوة وإعـداد الـدعاة ، وطالـب الحكومـات كلهـا بنبـذ القـوانين الوضـعية والعـودة إلـى الشـريعة الإسلامية .

وأمـا المـؤتمر الثـاني فعقـد عـام 1404 هـ / 1984 م واشـترك فيـه علمـاء ودعـاة مـن العالم الإسلامي ، ومن توصياته التي تعبر عن أماني الأمة وآمالها :

أ- دعـوة ولاة الأمـور فـي الأقطـار الإسـلامية إلـى التقـارب والوحـدة ونبـذ القـوانين الوضـعية باعتبـار هـذه الأقطـار أمـة واحـدة تتـرابط وتتفاعـل أجزاؤهـا وتتكامـل ثرواتهـا وطاقاتها ويتحد مصيرها .

ب- أن تتبنـى منظمـة المـؤتمر الإسـلامي إنشـاء هيئـة للتعـاون الإسـلامي تعنـي بدراسـة سـبل التعـاون والتكامـل بـين الأقطـار الإسـلامية فـي جميـع مجـالات الحيـاة الصـناعية والتجاريـة والإسـتثمارية والدفاعيـة والأمنيـة والزراعيـة والإجتماعيـة والصـحية وغيرها والعمل على تحقيق ذلك .

ج- دعـوة الحكومـات الإسـلامية إلـى اتفـاق علـى ميثـاق إسـلامي مسـتمد مـن الكتـاب والسـنة يجمـع كلمتهـا ويوحـد سياسـتها ويعـزز قوتهـا ويجعـل ولاءهـا لـدينها وانتصـارها بربهـا

---

[641] جريدة الندوة 22 ربيع الأول 1401 هـ .

[642] نشرة معهد شئون الأقليات المسلمة ربيع الآخر 1398 هـ .

[643] صوت الجامعة – عدد خاص – العدد 13 السنة 2 الأحد 28 ربيع الأول 1404 هـ .

لا بالتحالف مع أعدائها ، وأن تكون العلاقات الدولية خاضعة للسياسة الشرعية الإسلامية

د- أوصى منظمة المؤتمر الإسلامي أن تتبنى القيام بإنشاء المصارف غير الربوية لتشمل سائر الأقطار الإسلامية وإلى تعزيزها بالأموال لبناء اقتصاد سياسي يقضي على الإقتصاد الربوي القائم ويحل محله .

هـ- ضرورة التعاون الاقتصادي بين الأقطار الإسلامية على أساس إسلامي .

و- كما أكد على أن أفغانستان وفلسطين قضيتان إسلاميتان وضرورة رعاية الأقليات الإسلامية ومساعدتهم .

وعقد المؤتمر الأول لوزراء الإعلام للدول الأعضاء بمنظمة المؤتمر الإسلامي عام 1409 هـ / 1988 م بهدف توعية الأمة الإسلامية بأهمية الإعلام ومدى تأثيره على مسار القضايا الإسلامية . ونرجو أن يبشر بالخير .

رابطة العالم الإسلامي

أنشئت بناء على قرار صدر عن المؤتمر الإسلامي العام الأول الذي عقد بمكة المكرمة في 14 ذي الحجة عام 1382 هـ / 1962 م ، وهي منظمة إسلامية عالمية تمثل فيها جميع الشعوب الإسلامية في أنحاء المعمورة ، ومقرها مكة المكرمة ، ولها مجلس تأسيسي مؤلف من كبار العلماء ورجال الفكر في العالم الإسلامي [644] . ولقيت كل التشجيع والمؤازرة والدعم من حكومة المملكة العربية السعودية . وتهتم بمقاومة جميع الحركات والتيارات المعادية للإسلام ، وبمساندة كل عمل الخير للعالم الإسلامي .

ومن أهداف الرابطة [645] :

- تبليغ دعوة الإسلام ، وشرح مبادئه وتعاليمه ، ودحض الشبهات عنه .

- التصدي للتيارات والأفكار الهدامة التي يريد منها أعداء الإسلام فتنة المسلمين عن دينهم وتشتيت شملهم وتمزيق وحدتهم .

- الدفاع عن القضايا الإسلامية بما يحقق مصالح المسلمين وآمالهم ويحل مشاكلهم .

---

[644] رابطة العالم الإسلامي ص 3 – عشرون عاما على طريق الدعوة والجهاد – مكة المكرمة 1401 هـ / 1981 م .

[645] نفسه ص 4 .

ومن الوسائل التي تستخدمها الرابطة لتحقيق الأهداف [646] :

– العمل على تحكيم الشريعة في البلاد الإسلامية .

– الأخذ بمبدأ الشورى عن طريق مؤتمرات لكبار العلماء في العالم الإسلامي لتبادل وجهات النظر ، وتنسيق الجهود من أجل نشر الدعوة الإسلامية .

– الاستفادة من موسم الحج عن طريق إقامة الندوات والمحاضرات .

– دعم وتشجيع العلماء والدعاة في كافة أنحاء الأرض وتوزيع الكتب والمجلات الإسلامية مجانا .

– بعث عدد من الوفود إلى جميع أقطار العالم الإسلامي وللأقطار التي تتواجد فيها الأقليات الإسلامية لدراسة مشاكلهم والتعرف عليهم ومساعدتهم ودعمهم .

– دعم جميع المنظمات والمؤسسات الإسلامية التي لها صلة بالرابطة وتنسيق الجهود والعمل الإسلامي معها لخدمة الدعوة الإسلامية .

– العمل على نشر لغة القرآن الكريم بين الشعوب الإسلامية .

وتقوم الرابطة بمهامها عن طريق عدد من الأجهزة ومن أهمها [647] :

1– المجلس التأسيسي ويتكون من 56 عضوا من العلماء وقادة الرأي والفكر في العالم الإسلامي ، ويجوز زيادة عددهم لاستكمال التمثيل الإسلامي . وهو الذي يرسم سياسة الرابطة ويحدد أهدافها واتجاهاتها .

2– الأمانة العامة للرابطة : وهي السلطة التنفيذية للرابطة ومقرها الدائم مكة المكرمة ، ويعتبر الأمين العام هو المسئول عن تنفيذ القرارات والتوصيات التي يصدرها المجلس التأسيسي في الداخل والخارج . ومن مهمة الأمانة النظر في أحوال المسلمين في كل مكان . وخاصة الأقليات الإسلامية في أماكن كثيرة من العالم وحماية الأقليات أولا ثم إعانتها ثم إرشادها إلى طريق الإسلام الصحيح .

3– الجهاد الإداري والمالي : وهو المسئول عن متابعة أعمال الرابطة ورفع التقارير عن سير تلك الأعمال إلى المجلس التأسيسي .

---

[646] نفسه ص 4 – 5 .

[647] نفسه ص 8 – 9 .

هـذا وهنـاك مكاتـب فرعبـة لرابطـة العـالم الإسـلامي فـي مختلـف دول العـالم ، وهـي معتـرف بهـا رسـميا مـن قبـل السـلطات المحليـة لتلـك الـدول ويتمتـع العديـد منهـا بالإمتيـازات والحصانات الدبلوماسية [648] .

ومن أنشطة الرابطة :

بلـغ عـدد مكاتـب الرابطـة فـي جميـع أنحـاء العـالم 25 مكتبـا (عـام 1405 هـ) تقـوم بتنفيـذ قـرارات الرابطـة فـي الوقـوف علـى أحـوال المسـلمين وتعلـيمهم ودعـم الجمعيـات الإسـلامية ، وتقـديم المسـاعدات لهـا . كمـا بلـغ عـدد الـدعاة التـابعين للرابطـة فـي العـالم (عام 1405 هـ) 936 داعية . موزعين كالتالي :

في أفريقيا 336 داعية .

في أوربا وأمريكا 99 داعية .

في آسيا والمحيط الهادي 206 داعية .

في أندونيسيا 295 داعية من مشروع الألف داعية .

وأنشـأت **هيئـة الإغاثـة الإسـلامية** ومقرهـا جـدة لتقـديم المسـاعدات الماليـة والعينيـة للاجئـين والمتضـررين . وأقامـت هـذه الهيئـة مجموعـة كبيـرة مـن المراكـز الطبيـة فـي الصومال والنيجر والسودان وبنجلاديش والباكستان وغيرها .

وأقامـت الرابطـة **مطبعـة** خاصـة لنشـر الفكـر والـوعي الـديني وتـم تزويـدها بأحـدث الآلات والمعـدات ، ووزعـت الملايـين مـن المصـاحف ومئـات الآلاف مـن تـراجم معـاني القـرآن الكـريم بمختلـف اللغـات السـائدة فـي العـالم . وأنشـأت لـذلك إدارة شـئون وأبحـاث القـرآن الكـريم وترجمـة معانيـه . وتقـوم الأمانـة العامـة بتنفيـذ مشـروع لاختيـار أحسـن الترجمـات لفظـا وإظهـارا لمعـاني آيـات القـرآن الكـريم وطبعهـا وتوزيعهـا . وقـد تـم طبـع وترجمـة معـاني القـرآن باللغـة الفارسـية ، وهنـاك تحـت الطبـع ترجمـة معـاني القـرآن الكـريم باللغـة الصـينية واللغـة الأوغنديـة . وهنـاك مشـروع لطبـع ترجمـة معـاني القـرآن الكـريم بالبرتغالية والفرنسية .

وتصـدر الرابطـة **مجلتـين** شـهريتين إحـداهما بالعربيـة والأخـرى بالانجليزيـة ، بالإضـافة إلـى جريـدة أخبـار العـالم الإسـلامي الأسـبوعية ، ومجلـة رسـالة المسـجد الفصـلية ، وكتـاب دعـوة الحـق الشـهري . وتقـوم الرابطـة بتشـجيع عـدد مـن الصـحف الإسـلامية فـي مختلف أنحاء العالم .

---

[648] نفسه ص 10 .

وشكلت الرابطة **المجلس الأعلى العالمي للمساجد** بناء على قرار مؤتمر رسالة المسجد الذي عقد بمكة عام 1395 هـ / 1975 م بدعوة من رابطة العالم الإسلامي [649] . وبلغ عدد أعضاء هذا المجلس 55 عضوا يمثلون مختلف الشعوب والأقليات الإسلامية في العالم . ومن أهدافه :

– تكوين رأي عام إسلامي في مختلف القضايا والموضوعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة .

– محاربة الغزو الفكري والسلوك المنحرف في حياة المسلمين .

– بناء الشخصية الإسلامية فكرا وعقيدة وسلوكا .

– العمل على حرية الدعاة إلى الله وأئمة المساجد والخطباء وحمايتهم من الإضطهاد .

– حماية المساجد من كل اعتداء يقع عليها أو على ممتلكاتها .

– الحفاظ على الأوقاف الإسلامية واسترجاع ما عطل أو صودر منها وتنميتها .

– الدفاع عن حقوق الأقليات الإسلامية في مختلف أجزاء العالم .

وانبثقت عن المجلس الأعلى العالمي للمساجد : **المجالس القارية** : في آسيا والمحيط الهادي ومقره جاكارتا ، وفي أوربا ومقره في بروكسل ، وفي أمريكا وكندا ومقره في أوتاوا ، وفي أفريقيا وسيكون مقره في الخرطوم ، وذلك للربط بين المجلس الأعلى وكل مسجد في كل بقعة من بقاع الأرض . وانبثق أيضا عن المجلس الأعلى للمساجد (صندوق لإعانة المساجد) في جميع أنحاء العالم ميزانيته عشرون مليون ريالا تبرعت بها حكومة المملكة العربية السعودية .

وأسست الرابطة **المجمع الفقهي الإسلامي** بتوجيه من المجلس التأسيسي للرابطة يضم جماعة من العلماء والفقهاء يتولون دراسة واقع الأمة الإسلامية والمشكلات التي تواجهها وإيجاد الحلول الصحيحة على أساس المصادر المعتمدة في الفقه الإسلامي [650] وإحياء التراث ونشره [651] .

---

[649] رابطة العالم الإسلامي – مصدر سابق – ص 13 .

[650] نفسه ص 22 .

[651] رابطة العالم الإسلامي – الدليل الإعلامي – عام 1405 هـ / 1984 م .

وقد انبثقت من مجلس المجمع الفقهي **عدة لجان** هي : [652] لجنة المصطلحات الفقهية ، ولجنة التراث الفقهي ، ولجنة البحث العلمي ، ولجنة الصياغة ، ولجنة الدراسات المعاصرة ولجنة المكافآت .

وفي مجال التربية والعلوم والثقافة :

قررت منظمة المؤتمر الإسلامي عام 1982 م تنفيذاً لتوجيهات قادة الدول الإسلامية إنشاء المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو) ومقرها الرباط في المغرب ، وقرروا أن يكون للمنظمة وكالة متخصصة تعمل في ميادين العلوم والثقافة ذات استقلال ذاتي في شئونها التنظيمية والمالية ، ولها أجهزتها الخاصة بها وهي :

– المؤتمر العام وهو الهيئة العليا بالمنظمة ويضم وزراء الثقافة والعلوم .

– المكتب التنفيذي ويتكون من 9 دول وثلاث شخصيات إسلامية .

– الإدارة العامة وعلى رأسها مدير عام منتخب من المؤتمر العام .

وكانت قد برزت هذه الفكرة – فكرة إنشاء المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم بعد حرق المسجد الأقصى إلى أن ظهرت بالفعل بعد ثلاثة عشر عاما . ومن أهدافها :

– توثيق روابط الأخوة بين الأعضاء .

– حماية الهوية الإسلامية وتركيز هذه الهوية وبخاصة في الدول غير الأعضاء أو التي يقل فيها عدد المسلمين .

– الدفاع عن الإسلام وتقديمه بصورته الصحيحة .

– العمل على جعل الثقافة الإسلامية محور تعليم الدول الإسلامية .

– بالإضافة إلى محاربة الأمية لدى الكبار في القرى الإسلامية . وبدأت بالفعل بماليزيا وسيراليون .

– العمل على تطوير الطرق التربوية في المدارس القرآنية . وبدأت بالفعل في السنغال .

– تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها لتعلم الدين وتصحيحه [653] .

---

[652] رابطة العالم الإسلامي – عشرون عاما على طريق الدعوة – ص 23 .

[653] المسلمون ص 3 العدد 38 / 12 صفر 1406 هـ / 26 أكتوبر 1985 م .

مواجهة المسلمين للتحديات الاقتصادية :

تقوم قوى الأمم في هذا العصر على الاقتصاد ، فأمريكا تقوم قوتها الهائلة على الإقتصاد الأمريكي الذي هو أداة من أدوات الحرب بل هو أقوى عدة . وقد تكالبت القوى وتحركت المطامع نحو ثروة البلاد الإسلامية ، للوصول إليها ، أو الإحتفاظ بها . وبسبب تفرق المسلمين وتخلفهم وغيبة النظام الاقتصادي الإسلامي أصبحت ثروة بلادهم بيد أعدائهم يتنافسون عليها . ووجدوا أنفسهم بعد استقلال بلادهم شعفاء أمام التكتلات الاقتصادية العالمية الهائلة [654] ، وفي تبعية اقتصادية كاملة لهذه التكتلات . فحاولت البلاد العربية إنشاء **سوق عربية مشتركة** لمقابلة الاحتكارات الأجنبية والوقوف ضد التكتلات الاقتصادية الغربية ، ووضح حد للمنافسة في إنتاج البلاد العربية بين الأقطار العربية ، وبدأت الفكرة سنة 1956 م بتشكيل لجنة من الخبراء العرب لوضع مشروع الوحدة الاقتصادية ، وظهرت الفكرة إلى حيز الوجود عام 1964 م واعتمد يوم 1 / 1 / 1965 م موعدا لقيام هذه السوق . ومر هذا التاريخ دون تحقيق شيء . كما واجه مشروع **السوق الإسلامية المشتركة** المصير نفسه وكذلك مشروع الدينار الإسلامي ، وذلك نظرا لاختلاف الأنظمة في الأقطار الإسلامية والعربية فلا يمكن تنفيذ مثل هذا السوق ، فدول تتبع النظام الاقتصادي الحر ، ودول أخرى تتبع النظام الاقتصادي الاشتراكي وهذا يؤدي :

1- إن التنافس في السوق الواحدة بين انتاج المزارع والمعامل المؤممة وبين انتاج المزارع والمعامل الحرة لن يكون تنافسا عادلا ، لأن الانتاج المؤمم لا يخضع في أسعاره للعوامل الاقتصادية بل تتحمل الدولة أكلافه في كثير من الأحيان من موازنتها العامة ، وتستطيع أن تغرق الأسواق بخلاف الاقتصاد الحر الذي لا يستطيع منافسة ذلك .

2- إن حرية تنقل الأموال وحرية العمل وممارسة النشاطات الاقتصادية في الدول الاشتراكية تبقى وهما لا يستفيد منه رعايا الدول الأخرى الموقعة على الميثاق لأن هذه الحريات محظورة على رعايا الدولة الاشتراكية نفسها ، ما دامت أكثر النشاطات الاقتصادية محصورة بالقطاع العام . لكن رعايا الدول الاشتراكية سيستطيعون الإستفادة في هذه المجالات من أسواق الدول ذات الإقتصاد الحر ، مما يشكل عدم تكافؤ المنافع بين الفريقين [655] .

3- إن التبعية الاقتصادية وارتباط عملة كل قطر إسلامي بعملة دولة أخرى من الدول الكبرى يجعل قيام مثل هذه السوق وتوحيد الدينار صعب المنال والتحقيق .

---

[654] انظر واقع العالم الإسلامي من الناحية الاقتصادية في هذا الكتاب .

[655] الاشتراكية في التجارب العربية ص 78 .

وعلى ذلك فمن أجل التعاون الإقتصادي التام بين أقطار المسلمين يجب توحيد الأنظمة أولا ، والعامل المشترك بين جميع هذه الأفكار هو الإسلام فبالإتجاه إلى النظام الاقتصادي الإسلامي يسهل عمليات التكامل وقيام مثل هذه السوق المشتركة . فالاتحاد الجمركي – الزلفرين – الألماني الذي كان مقدمة الإتحاد الألماني تم بين ولايات تتشابه أنظمتها الإقتصادية ، وكذلك السوق الأوروبية المشتركة والسوق اللاتينية المشتركة . وأمام التحديات الحاضرة للعالم الإسلامي من : أطماع الكتلتين الكبيرتين على السيطرة على البلاد الإسلامية خاصة الدول البترولية منها . وخطر الصهيونية ووجودها داخل العالم الإسلامي ، وغزو الاتحاد السوفييتي لبعض البلدان الإسلامية ، وإشعال نار الحرب والفتنة بين بعض البلاد الإسلامية مثل الحرب العراقية الإيرانية ، وحرب الصحراء ، والحرب الأهلية اللبنانية ، هذه الأخطار كلها يصعب صدها إذا ما بقي اقتصاد البلاد الإسلامية مفككا كما هو عليه الحال الآن بالإضافة إلى تفككها السياسي ، وهذا يؤكد لنا ضرورة قيام السوق المشتركة والتعاون الاقتصادي – الذي لا يتم كما ذكرنا إلا بتوحيد النظم الإقتصادية في البلاد الإسلامية .

وقد تعاظمت التحديات الاقتصادية على منطقة الخليج العربي بشكل خاص لحاجة العالم الصناعي للنفط ، فظهر مجلس التعاون لدول الخليج سنة 1401 هـ / 1981 م وقد نجح هذا المجلس بسبب الروح الإسلامية التي تجمع بين هذه الدول ، ويعتبر مثلا الواجب على بلاد المسلمين أن تحتذيه وتطوره للتغلب على الأخطار التي تواجه هذا العالم الإسلامي الغني في خيراته وإمكانياته ، الجائع على أرضه ، المسلوب الإرادة والتحكم في ثرواته . وهذه فكرة عن مجلس التعاون لدول الخليج [656] :

مجلس التعاون لدول الخليج العربية :

وجدت هذه الدول التحديات التي تواجه هذه المنطقة تتعاظم بتعاظم حاجة العالم الصناعي للنفط ، ولذا فاندماجها هو العامل الحاسم نحو توجه جديد لصياغة سياسية اقتصادية واجتماعية تبعد المنطقة عن التنافس الدولي ويكسبها قوة تفاوضية كبيرة ومقدرة على اتخاذ القرار لصالحها وتمكينها من حمايته .

فقد قررت دولة الإمارات العربية ودولة البحرين والمملكة العربية السعودية وسلطنة عمان ودولة قطر ودولة الكويت إقامة تنظيم يهدف إلى تعميق وتوثيق الروابط والصلات والتعاون بين أعضائها في مختلف المجالات يطلق عليها اسم مجلس التعاون لدول الخليج العربية – ليكون هذا المجلس الوسيلة لتحقيق أكبر قدر من التنسيق

---

[656] عن مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، دواعي قيام المجلس وطموحاته – الأمانة العامة – المملكة العربية السعودية – الرياض .

والتكامل في جميع الميادين [657] – ويعتبر دعما لأهداف جامعة الدول العربية وخدمة للقضايا العربية والإسلامية .

ومن أهداف المجلس [658] :

1– تعميق التنسيق والتكامل والترابط بين الدول الأعضاء في جميع الميادين وصولا إلى وحدتها .

2– تعميق وتوثيق الروابط والصلات وأوجه التعاون القائمة بين شعوبها في مختلف المجالات .

3– وضع أنظمة متماثلة في مختلف الميادين بما في ذلك الشئون الآتية :

أ– الشئون الاقتصادية والمالية .

ب– الشئون التجارية والجمارك والمواصلات .

ج– الشئون التعليمية والثقافية .

د– الشئون الاجتماعية والصحية .

هـ– الشئون الإعلامية والسياحية .

و– الشئون التشريعية والإدارية .

4– دفع عجلة التقدم العلمي والتقني في مجالات الصناعة والتعدين والزراعة والثروات المائية والحيوانية وانشاء مراكز بحوث علمية وإقامة مشاريع مشتركة وتشجيع تعاون القطاع الخاص بما يعود بالخير على شعوبها .

وأما **أجهزة مجلس التعاون فهي** [659] :

أولا : المجلس الأعلى : وهو السلطة العليا للمجلس يتكون من رؤساء الدول الأعضاء وتكون رئاسته دورية حسب الترتيب الهجائي لأسماء الدول .

واختصاصاته :

1– النظر في القضايا التي تهم الدول الأعضاء .

---

(657) نفسه ص 14 .

(658) نفسه 15 – 16 .

(659) نفسه ص 16

2- وضع السياسة العليا لمجلس التعاون والخطوط الأساسية التي يسير عليها .

3- النظر في التوصيات والتقارير والدراسات والمشاريع التي تعرض عليه من قبل المجلس الوزاري لاعتمادها – أو التي يكلف الأمين العام بإعدادها .

4- إقرار نظام هيئة تسوية المنازعات وتسمية أعضائها – وتعيين الأمين العام .

5- التصديق على ميزانية الأمانة العامة .

ثانيا : المجلس الوزاري : ويتكون من وزراء الخارجية للدول الأعضاء أو من ينوب عنهم من الوزراء وتكون رئاسته دورية لمدة ستة أشهر ويعقد اجتماعاته مرة كل ثلاثة أشهر ويجوز له عقد دورات إستثنائية بناء على دعوة أي عضو من الأعضاء وتأييد عضو آخر .

ثالثا : اللجان والاجتماعات الوزارية والمتخصصة : للعمل على تنفيذ سياسات المجلس ووضع الإجراءات التفصيلية لذلك . وتتنوع هذه اللجان بحسب طبيعة المهام الموكلة إليها وتأخذ تبعا لذلك صفة الدورية أو الوقتية حسب ما يقرر كل اجتماع أو لجنة وزارية . وقد بلغت هذه اللجان عام 1405 هـ / 1985 م 24 لجنة كما يجري التحضير للجان أخرى في مجالات أخرى .

رابعا : الأمانة العامة : تتكون من أمين عام يعاونه أمناء مساعدون وما تستدعيه الحاجة من موظفين ويعين الأمين العام لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد مرة أخرى ويكون مسئولا مباشرة عن أعمال الأمانة العامة ويمثل مجلس التعاون لدى الغير في حدود الصلاحيات المخولة له . وتعتبر الأمانة العامة الأداة الأساسية لتقديم مقترحات الجهات المسئولة للسياسات والخطط والبرامج المؤدية إلى تحقيق أهداف المجلس – فتتولى :

1- إعداد مشروع إستراتيجية العمل الخليجي المشترك في المجالات المختلفة .

2- إعداد الدراسات والبحوث التي تتطلبها أعمال الأجهزة الرئيسية للمجلس .

3- وضع الخطط والبرامج والمشروعات الكفيلة بتحقيق إستراتيجية العمل الخليجي المشترك .

4- التنسيق مع المنظمات الدولية والإقليمية والعربية العاملة في مجال تخصصها .

5- القيام بأعباء السكرتارية الفنية للجان الوزارية واللجان المختلفة في مجال عملها .

6- تنظيم اللقاءات والندوات المتصلة بشئون تخصصها والإشتراك في المؤتمرات والإجتماعات المتعلقة بشئون عملها .

7- إعداد تقارير دورية من النشاطات والإنجازات .

وتضم الأمانة العامة القطاعات التالية :

مكتب الأمين العام – وقطاع الشئون السياسية – وقطاع الشئون الاقتصادية – وقطاع شئون الإنسان والبيئة – وقطاع الشئون القانونية – وقكاع الشئون المالية والإدارية ومركز المعلومات .

ومن أهم منجزات المجلس الإتفاقية الإقتصادية الموحدة بين دول مجلس التعاون لتنمية وتوسيع وتدعيم الروابط الإقتصادية فيما بينها على أسس متينة لما فيه خير شعوبها ومن أجل العمل على تنسيق وتوحيد سياستها الإقتصادية والمالية النقدية وكذلك التشريعات التجارية والصناعية والنظم الجمركية المطبقة فيها وقد عرضت هذه الإتفاقية في 28 مادة وقع عليها في مدينة الرياض بتاريخ 15 محرم 1402 هـ الموافق 11 / 11 / 1981 م وخرجت إلى حيز العمل والتطبيق .

وقد شجعت هذه التجربة الناجحة لمجلس التعاون الخليجي أقطار المغرب العربي ، على التفكير الجدي في إنشاء مجلس تعاون مغربي عربي مشابه ، فعقد رؤساء المغرب ، والجزائر ، وتونس ، وليبيا ، وموريتانيا ، اجتماع قمة يوم 10 / 6 / 1988 م لهذا الغرض . وكونوا لجانا فنية تجتمع دوريا لصياغة الترتيبات المؤسسة لهذا المجلس المرتقب .

الفصل الثالث

الأخطار التي تهدد العالم الإسلامي ما لم يعتصم بالإسلام

يقف المسلم مذهولا اليوم وهو يرى المحاولات المسعورة المستمرة من قبل أعداء الإسلام في سبيل السيطرة وفرض الوصاية على كل مقدرات المسلمين صغيرها وكبيرها ، فيرى قضايا المسلمين المعاصرة أفغانستان المسلمة بين براثن الشيوعيين ، وفلسطين المسلمة يقصى الجهاد الإسلامي كأسلوب وحيد لتحريرها من أذهان المسلمين ، والخطط التي ينفذها الصليبيون في أندونيسيا ، وحملات التصفية التي يلاقيها المسلمون في جنوب الفلبين وفطاني والبوسنة والهرسك ، والمؤامرات الدنيئة التي يحاول المنصرون تنفيذها في جنوب السودان لاقتطاعه وإقامة دولة صليبية في جنوبه ، وتسلط المستعمر وهيمنته على الدول الإفريقية المسلمة كتانزانيا وأرتيريا وأوغندا وغيرها ، وحملات التصفية والإضطهاد والإعتقال والتعذيب التي يتعرض لها الشباب المسلم في بلدان المسلمين لإبعاده عن دعوة الإسلام .

كل هذه المؤامرات والأوضاع المحزنة المؤلمة تعود في مجملها إلى سببين :

1- غياب الإسلام منهجا وتشريعا وسياسة وتطبيقا عن حياة الأمة – وحلول التشريعات المستوردة والمباديء الهدامة والنظم العلمانية في مختلف مجالات حياة المسلمين . فقد حاولت الصهيونية والشيوعية والصليبية الغربية جهدها لابعاد الإسلام عن توجيه حياة المسلمين وجعله فكرة تاريخية أو سلوكا تعبديا لا علاقة له بالحل والعقد في مجال الحياة فأصبحت الثورة في مفهوم بعض الأنظمة ثورة على الإسلام وعلى المتمسكين بأهدابه .

2- فقدان الوحدة بين أقطار الإسلام بإسقاط وحدة العقيدة والمبدأ من حساباتها وانعدام هذا التعاون في معظم الحالات . فأصبحت هذه الأقطار تعاني ما تعاني من المحن والمصائب بمفردها – بينما تتكالب القوى المضادة متعاونة متعاضدة تشدها إلى بعضها وحدة المصلحة في ضرب الإسلام وتفريق كلمته وابتزاز موارده وطاقاته .

وقد أدرك المسلمون ذلك وشهد العالم الإسلامي صحوة تأخرت (برغم المسيرة الطويلة لحركات التجديد والإصلاح ابتدأت بمحمد بن عبد الوهاب والدعوات المماثلة [660] في شمال أفريقيا وما تلاها من حركات في مصر وديار الشرق الإسلامي في أندونيسيا والهند وباكستان وايران) إلى الثلث الأخير من القرن العشرين أو نهاية القرن الرابع عشر للهجرة كما بينا .

---

[660] وقد كانت هذه الدعوات محلية وكان تأثيرها محدودا باستثناء دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي بقيت تلعب دورا بارزا في المسيرة الإسلامية الحالية .

والتاريخ يحدثنا أن الشريعة الإسلامية كانت مطبقة في بلدان المسلمين كلها حتى أخريات القرن الثالث عشر الهجري ومنذ إلغاء تطبيق الشريعة في معظم بلاد المسلمين قام المسلم تحت مظلة القوانين الوضعية بتعذيب أخيه المسلم بطريقة لم تحدث خلال أربعة عشر قرنا وكان هذا المسلم يستورد أدوات تعذيبه لأخيه المسلم من بلاد النصارى ومن اليهود ومن دول الإلحاد الشيوعي .

وخرجت مجموعة شاذة من نساء المسلمين يحاربن الإسلام ولا زال بعضهن في بعض المناصب يبارزن الإسلام مبارزة شرسة . ومنيت بلاد الإسلام بهزائم مروعة – وحاول المنهزمون أن يحولوا هذه الهزائم إلى انتصارات واحتفلوا بها واخترعوا بطولات .

وأقام المستعمرون أوضاعا معينة في كل بلد إسلامي فسمح لهم بالتدخل وإملاء إرادتهم ، وضمنوا لهذه الأوضاع أنصارا وأعوانا ، فاستشرت التبعية والتقليد واستشرى الإلحاد الشيوعي والغزو التبشيري الصليبي ، والامتداد الصهيوني اليهودي ، وانفصلت الشعوب الإسلامية عن حكامها إلا قلة نتيجة إصرار بعض الحكومات على تحدي شعوبها بعدم تطبيق شريعة الله ، فوقع التخبط وعاش المسلمون واقعا مريضا في حضيض من الذلة والهوان والتخلف نراه ونحس به في كل أقطار الإسلام التي أقصت الشريعة جانبا ، فتعطلت ملكات الإبداع في الأمة وتحول المجتمع إلى مستوى انحلالي رديء وتفككت الأواصر الاجتماعية وتعطل دولاب الحياة الإقتصادية السليمة ، وواجهت الأمة هزائم متوالية لا مثيل لها في التاريخ .

ومن المهم أن يدرك المسلم أن ما هم فيه المسلمون من الهوان لا يعفيهم عن مسئوليتهم نحو أنفسهم ونحو البشرية جمعاء . قال تعالى : (**فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**) [661] . وأنه سيبقى التخلف والحرمان والهوان والضعف وستبقى التبعية والركض واللهاث وراء كل ما هو سراب وخداع حتى يلجأ المسلمون إلى الله ، يتمسكون بدينهم ويدركون ذاتهم ومسئوليتهم ، وإلا فلن يعجزه سبحانه وتعالى أن يستبدل بهم قوما غيرهم يقومون بأمر هذا الدين .

قال تعالى : (**وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**) [662] .

وقال سبحانه وتعالى : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**) [663] .

---

[661] سورة الزخرف الآيتان 43 ، 44 .

[662] سورة محمد الآية 38 .

[663] سورة المائدة الآية 54 .

وقد منح الله الأمة الإسلامية كل مقومات التقدم والنمو والعزة ، فلديها من المناهج أقومها ، ومن النظم أسلمها ، ومن الأدوات أكثرها فعالية ، والأمل معقود على الصحوة الإسلامية المعاصرة علها تعود بالأمة إلى الإسلام – وإذا لم يحدث ذلك (لا قدر الله) فإن مستقبل الشعوب الإسلامية بل وأمم الأرض قاطبة لا يبشر بأي خير وسيزداد سوءا في ظل السيطرة الشرسة للمعسكرين الغربيين الرأسمالي والشيوعي ، وهما يلعبان بمقدرات العالم ، وفي ظل الصهيونية التي تحاول الهيمنة على المعسكرين وأن ترث الحضارة الغربية . فلا برء ولا علاج لأوضاع هذه الأمة ، ولأوضاع العالم بأجمعه إلا بشريعة الإسلام الخيرة التي ما تزال وضاءة حية نابضة على الرغم مما حاوله المشركون والدهريون ، وحاوله أهل الكتاب والصابئة والمجوس ، وحاوله الشيوعيون .

ودعوة الإسلام فوق كل ذلك تزداد دائرتها إتساعا وإنتشارا كلما وجدت العقل المفكر والقلب الواعي والنظر الصحيح ، وهي في متناول جميع الناس ، ورسالة الإسلام ليست بحاجة إلى نبي يجددها ، فهي دائما جديدة حية ولكناه في حاجة إلى رجال وأتباع يعملون ويجاهدون ويصدقون ما عاهدوا الله عليه ، وبمعنى أدق هي في حاجة إلى نماذج من الرجال عملها كقولها ، وقولها كفعلها .

قال صلى الله عليه وسلم : " لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي ، كتاب الله وسنة رسوله " .

يتبع الجزء الثاني ...